

تفسير ابن عطية ،

المحرر الوجيز

في تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الثاني عشر

تحقيق وتعليق

السيد محمد صالح بن حمد آل ثاني

عبد بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أميرة دولة قطر

«تفسير ابن عطية»

المحرر الوجيز

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : ٥٦٢
رقم التصنيف : ٢١٢٤٣٦

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

٢١٢
٢٢٤

الجزء الثاني عشر

تحقيق وتعليق

٦٠١

السيد العلامة السيد إبراهيم

عليه بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

الطبعة الأولى :

غرة جمادى الأولى ١٤٠٧
الدوحة في أول يناير - كانون ثاني ١٩٨٧

« تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ،
وأبعد عن البدع بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح
هذه التفاسير » .

(ابن تيمية)

« لما رجع الناسُ إلى التُّحقيق والتَّمحيص ، وجاء أبو محمد عبد الحق
ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى
ما هو أقرب إلى الصحة منها » .

(ابن خلدون)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الجزء الثاني عشر

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ^ع

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت ، وكذلك قال المهدي

وغيره (١) .

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف ، والطيالسي ، وسعيد بن منصور ، والنسائي ، وابن المنذر ، وغيرهم عن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأين تعدها ؟ قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، فقال : آقط ، لقد رأيتها وإنما لتعادل سورة البقرة ، أو أكثر من سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، فرفع فيما رفع ، قال ابن كثير : وإسناده حسن . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، إن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » ، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى : [اتَّقِ] معناه : دُم على التقوى ، ومتى أمر أحد بشيء هو به متلبس فإنما معناه الدوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية ، وحذره تعالى من طاعة الكافرين ، وهم المُجَلِّحُونَ بالكفر (٢) ، والمنافقون وهم المُظْهِرُونَ للإيمان وهم لا يبطنونه .

وسبب الآية أنهم كانوا يُلِحُّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطلبات والإرادات ، وربما كان في إرادتهم سعي على الشرع ،

(١) نداء النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ و ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ تشریف له ، وتنبیه على فضله ، وتنويه بمكانته ومحله ، أما غيره فنودي باسمه : يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى . وحينما يذكر الله تعالى نبيه على سبيل الإخبار عنه فإنه يُصرح باسمه فيقول : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ ، فقد أعلم أنه رسوله ، ولقن الناس أن يسموه بذلك ، أما إذا لم يقصد الإعلام بذلك فإن ذكره يأتي كما جاء في النداء ، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ ﴾ . ﴿ النَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وغير ذلك من الآيات .

(٢) جَلَّحَ في الأمر : ركب رأسه فيه وأقدم ومَضَى .

وهم يدخلونها مدخل المصالح ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
بخلقه العظيم وحرصه على استئلافهم ربما لا يَنْهَمُ^(١) في بعض الأمور .
فنزلت الآية بسبب ذلك ، تحذيراً له منهم ، وتنبيهاً على عداوتهم .
والنوازل في طلباتهم كثيرة محفوظة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ تسليةً لمحمد صلى الله
عليه وسلم ، أي : لا عليك منهم ولا من إيمانهم ، فالله عليمٌ بما ينبغي
لك ، حكيمٌ في هدى من شاء وإضلال من شاء .

ثم أمره تعالى باتباع ما يُوحى إليه - وهو القرآن الحكيم -
والاقتصار على ذلك ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾
تَوَعُّدٌ مَّا . وقرأ أبو عمرو وحده : [يَعْمَلُونَ] بالياء ، والتوَعُّدُ على هذه
القراءة للكافرين والمنافقين أْبَيْنُ . وقوله [كَانَ] في هاتين الآيتين يقتضي
الدوام ، أي : كان ويكون ، وليست الدالة على زمان مخصوص للمضي .

ثم أمره تعالى بالتوكل على الله في جميع أمره ، وأعلمه أن ذلك
كافٍ مُقْنَعٌ ، والباء في قوله : [بِاللَّهِ] زائدة على مذهب سيبويه .
وكأنه قال : وَكَفَى اللَّهُ ، وهي عنده كقولهم : بحسبك أن تفعل .
وغيره يراها غير زائدة متعلّقة بـ [كَفَى] ، على معنى : أكيف بالله .
و « أَلْوَكِيلٌ » القائم بالأمر المغني فيه عن كل شيء .

(١) في بعض النسخ : ربما لا يَنْهَمُهُمْ .

قوله عز وجل :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي
تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ
وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (١)

اختلف الناس في السبب في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما : سببها أن بعض المنافقين قال : إنَّ محمداً له قلبان ؛ لأنه ربما كان في شيء فنزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ، فقالوا ذلك عنه ، فنفاه الله تعالى . وقال ابن عباس أيضاً : بل السبب أنه كان في قريش في بني فهر رجلٌ منهم يدعى أن له قلبين ؛ ويقال له : ذو القلبين ، قال الثعلبي : هو أبو معمر (١) ، وكان يقول : أنا أذكى من محمد وأفهم ،

(١) قيل : اسمه جميل بن معمر الجمحي ، وقال السهيلي : هو ابن معمر بن حبيب ابن وهب بن حذافة بن جمح ، واسم جمح : تيمم ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائي بالمدينة بعد مـا قضي وطراً منها جميلُ بنُ معمرٍ ؟

وقال الزمخشري : هو جميل بن أسد الفهري .

فلما وقعت هزيمة بدر طاش لُبُّهُ ، وحدثت أبا سفيان بن حرب كالمختلِّ
 فنزلت الآية بسببه ونفياً لدعواه . وقيل : إنه كان ابن خَطَلٍ (١) .
 وقال الزهراوي : جاء هذا اللَّفْظُ على جهة المثل في زيد بن حارثة
 والتوطئة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، أي : كما
 أنه ليس لأحد قلبان ، كذلك ليس دَعِيَّةُ ابنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر من الآية أنها بجملتها نفي لأشياء كانت العرب تعتقدها
 في ذلك الوقت ، وإعلامٌ بحقيقة الأمر ، فمنها أن بعض العرب كانت
 تقول : إن الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه ، وكان تضادُّ الخواطر
 بجملتها على ذلك ، ومن هذا قول الكميث :

تَذَكَّرُ مِنْ أُنْيٍ وَمِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الْأَيْلُ (٢)

(١) قيل : اسْمُهُ عبد الله بن خَطَلٍ .

(٢) البيت في اللسان والتاج ، وقد استشهدا به في (أَيْلٍ) — قال في اللسان : « ورجلٌ
 أَيْلٌ وَأَيْلٌ وَإَيْلِيٌّ وَإَيْلِيٌّ : ذو إَيْلٍ ، ومن قال : أَيْلٌ — بفتح الباء — فاسم الفاعل منه
 (أَيْلٌ) بالمد ، ومن قال : أَيْلٌ — بكسر الباء — قال في الفاعل : (أَيْلٌ) بالقصر ، وذكر
 شاهداً للمدِّ ، وشاهدين للقصر ، الثاني منهما هو بيت الكميث هذا ، ثم حكى عن سيبويه
 أن بيت الكميث من قولهم : أَيْلُ النَّاسِ (بالمد) ، ومعناها : أشدهم تأثُّفاً في رعِيَةِ الإَيْلِ
 وأَعلمهم بها ، وأنه لافعل له . والشاهد في البيت أنه جعل له نفسين في قوله : (يؤامر نفسيه) .
 وأن هذا من تضاد الخواطر بجملتها كما كانت عادة العرب .

والناس حتى الآن يقولون إذا وصفوا أفكارهم في شيء ما : يقول لي أحد قلمي كذا ، ويقول الآخر كذا ، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظهر منها بمنزلة الأثم وتراه طلاقاً ، وكانت تعتقد الدعي المتبني ابناً ، فأعلم الله تبارك وتعالى أنه لا أحد بقلبين ، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم ، أي : إنما هو قلب واحد ، فإما حله إيمان وإما كفر ؛ لأن درجة الكفار كأنها متوسطة ، يؤمن قلب ويكفر الآخر ، فنفاها الله تعالى ، وبين أنه قلب واحد ، وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسي شيئاً أو وهم ، يقول على جهة الاعتذار : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ، أي : إذا نسي قلبه الواحد يذكره الآخر ، وكذلك أعلم أن الزوجة لا تكون أمًا . وأن الدعي لا يجعله ابناً .

وقرأ نافع ، وابن كثير : [اللاء] دون ياء ، ورؤي عن أبي عمرو ، وابن جبير : [اللاي] بياء ساكنة من غير همز ، وقرأ ورش بياء مكسورة من غير همز ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وطلحة ، والأعمش بهمزة مكسورة بعدها ياء .

وقرأ ابن عامر : [تظَاهِرُونَ] بشد الظاء والألف ، وقرأ عاصم ، والحسن . وأبو جعفر ، وقتادة : [تُظَاهِرُونَ] بضم التاء وتخفيف الظاء . وأنكرها أبو عمرو ، وقال : إنما هذا في المعاونة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس بمنكر ، ولفظة ظهار تقتضيه . وقرأ عاصم ، وحمزة ،
وأبو بكر عن عاصم : [تَظَاهِرُونَ] بفتح التاء والطاء المخففة . وقرأ ابن كثير ،
ونافع ، وأبو عمرو : [تَظْهَرُونَ] بشد الطاء والهاء دون ألف .
وقرأ يحيى بن وثاب : [تُظْهَرُونَ] بضم التاء وسكون الطاء وكسر الهاء .
وفي مصحف أبي بن كعب «تَتَظْهَرُونَ» بتاءين ، وكانت العرب
تُطَلِّق وتقول : «أَنْتِ مِنِّي كَظْهَرِ أُمِّي» فنزلت الآية ، وأنزل الله
تبارك وتعالى كفارة الظهار ، وتفسيرُ الظَّهار وبيانه أثبتناه في سورة
المجادلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ الآية ، سببها
أن زيد بن حارثة كانوا يدعونه زيدَ بنَ محمد ، وذلك أنه كان
عبداً لخديجة فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام عنده
مُدَّة ، ثم جاء عمُّه وأبوه يرغبان في فدائه ، فقال لهما النبي صلى الله
عليه وسلم - وذلك قبل البعث - : خَيْرَاهُ ، فإن اختاركما فهو لكما
دون فداء ، فخيراه فاختر الرُّقَّ مع محمد صلى الله عليه وسلم على
حُرِّيته وقومه ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم : (يا معشر قريش .

اشهدوا أنه ابني ، يرثني وأرثه) ، فرضي بذلك أبوه وعمه وانصرفا (١) .
 وقوله : [بِأَفْوَاهِكُمْ] تأكيد لبطلان القول ، أي أنه لا حقيقة
 له في الوجود ، إنما هو قول فقط ، وهذا كما تقول : «أنا أمشي إليك

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان من أمر زيد بن حارثة رضي الله عنه أنه كان في أخواله بني معن من بني ثعلب من طي ، فأصيب في غلطة من طي ، فقدم به سوق عكاظ ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها ، فأوصته عمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً عربياً إن قدر عليه ، فلما جاء وجد زيداً يباع فيها ، فأعجبه ظرفه فابتاعه فقدم به عليها ، وقال لها : إني قد ابتعت لك غلاماً ظريفاً عربياً ، فإن أعجبك فخذيه ، وإلا فدعيه فإنه قد أعجبني ، فلما رآته خديجة أعجبتها فأخذته ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عندها ، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ظرفه فاستوهبه منها ، فقالت : هو لك ، فإن أردت عتقه فالولاء لي ، فأبى عليها ، فوهبته له إن شاء أعتق وإن شاء أمسك ، قال : فشَبَّ عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه خرج في إيل لأبي طالب إلى الشام ، فمرَّ بأرض قومه فعرفه عمه ، فقام إليه فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : غلامٌ من أهل مكة ، قال : من أنفسهم ؟ قال : لا ، قال : فحُرِّ أنت أم مملوك ؟ قال : بل مملوك ، قال : لِمَنْ ؟ قال : لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال له : أعربي أنت أم أعجمي ؟ قال : بل عربي ، قال : ممن أهلك ؟ قال : من كلب ، قال : من أي كلب ؟ قال : من بني عبد ود ، قال : ويحك ، ابن من أنت ؟ قال : ابن حارثة بن شراحيل ، قال : وأين أصيبت ؟ قال : في أخوالي ، قال : ومن أخوالك ؟ قال : طي ، قال : ما اسم أمك ؟ قال : سعدى ، فالتزمته وقال : ابن حارثة ، ودعا أباه وقال : يا حارثة هذا ابنك ، فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه ، قال : كيف صنع مولاك إليك ؟ قال : يؤثرني على أهله وولده ، ورزقت منه حياً فلا أصنع إلا ماشئت ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له حارثة : يا محمد ، أنتم أهل حرَم الله وجيرانه وعند بيته ، تفككون العاني ، وتطعمون الأسير ، ابني عبدك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإنك ابن سيد قومه ، فإذا سرفع لك في الفداء ما أحببت ، فقال له رسول الله =

على قدم ، فإنما تؤكد بذلك المسيرة ، وهذا كثير . و [يَهْدِي] معناه : يُبَيِّن ، وهو يتعدى بغير حرف جر ، وقرأ قتادة : [يُهْدِي] بضم الياء وفتح الهاء وشد الدال ، و [السَّبِيل] هي سبيل الشرع والإيمان . وابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم - في رواية جعفر - يقفون [السَّبِيلًا] ، ويطرحونها في الوصل ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم بالألف وضلاً ووقفاً ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة بغير ألفٍ وضلاً ووقفاً ، وهذا كله في غير هذا الموضع (١) ، واتفقوا هنا خاصةً على طرح الألف وضلاً ووقفاً لمكان ألف الوصل التي تلقى اللام .

= صلى الله عليه وسلم : أعطيكم خيراً من ذلك ، قالوا : وما هو ؟ قال : أخيرُهُ ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختارني فكفُّوا عنه ، قالوا : جزاك الله خيراً ، لقد أحسنت ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا زيد ، أتعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبي وعمي وأخي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا من قد عرفته ، فإن اخترتهم فاذهب معهم ، وإن اخترتني فأنا من تعلم ، فقال زيد : ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً ، أنت مني بمكان الوالد والعم ، قال له أبوه وعمه : يا زيد ، تختار العبودية على الربوبية ؟ قال : ما أنا بمفارق هذا الرجل ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه قال : اشهدوا أنه حرٌّ ، وأنه ابني يرثني وأرثه ، فطابت نفس أبيه وعمه لِمَا رَأَوْا من كرامته عليه ، فلم يزل زيد في الجاهلية يدعى : زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ أَدْعُوهُمْ لَأَبَائِهِمْ ﴾ فدُعي : زيد بن حارثة . (الدر المنثور) .

(١) يعني في آيات أخرى ، منها قوله تعالى في الآية (١٠) من هذه السورة : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ
أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ
إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾

أمر الله تعالى بدعاء الأدياء إلى آباؤهم للصلب ، فمن جهل ذلك
منه كان مولى وأخاً في الدين ، فقال الناس : زيد بن حارثة ، وسالم
مولى أبي حذيفة ، إلى غير ذلك ، وذكر الطبري أن أبا بكر قرأ
هذه الآية ثم قال : أنا ممن لا يعرف أبوه ، وأنا أخوكم في الدين
ومولاكم ، قال الراوي عنه : ولو علم والله أن أباه حمارٌ لانتفى إليه (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورجال الحديث يقولون في أبي بكر : نفع بن الحارث .

(١) الخبر في تفسير الطبري . وفي تقريب التهذيب : « أبو بكر ، بزيادة هاء ، الثقفى ،

الصحاني ، نفع بن الحارث » .

و [أَقْسَطُ] معناه : أَعْدَلُ ، وقال قتادة : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ادَّعى إلى غير أبيه متعمداً حَرَّمَ اللهُ عليه الجنة) (١) .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية رفعٌ للحرج عمَّنْ وَهَمَّ وَنَسِيَ وَأَخْطَأَ فجري لسانه على العادة من نسبة زيد إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وغير ذلك مما يُشبهه ، وأبقى الجُنَاح في المتعمد مع الشرط أو الجزاء المنصوص .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يريد : لما مَضَى من فعلهم في ذلك ، ثم هما صِفَتَانِ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ تَطَّرَدَانِ في كل شيء ، وقالت فرقة : خَطُّوهُم فيما كان سلف من قولهم ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، ولا يوصف ذلك بالخطأ إلا بعد النهي ، وإنما الخطأ هنا بمعنى النسيان ، وما يكون مُقَابِلَ العمد . وحكى الطبري

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد ، ولفظه كما في مسند أحمد (٥-٣٨) - عن أبي عثمان النهدي ، قال : سمعت سعداً يقول : سَمِعْتُ أَذْنَايَ وَوَعَى قَلْبِي أَنْ مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ - فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ ، قَالَ : فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرَةَ فَحَدَّثَنِي فَقَالَ : وَأَنَا سَمِعْتُ أَذْنَايَ وَوَعَى قَلْبِي مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

عن قتادة أنه قال : الخطأ الذي رفع الله فيه الجناح أن يعتقد في أحد أنه ابن فلان فينسبه إليه ، وهو في الحقيقة ليس بابنه ، والعمد هو أن تنسبه إلى فلان وأنت تدري أنه ابن غيره ، والخطأ مرفوع عن هذه الأمة عقابه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وَضِعْ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسِيَانَ وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ) (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ الْخَطَأَ ، وَإِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ الْعَمَدُ) (٢) .

قوله تعالى : ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية . أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يُصلي على ميت عليه دين ، فذكر الله تعالى أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فجمع هذا أن المؤمن يلزم أن يحب النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من نفسه ، حسب حديث عمر رضي الله عنه (٣) ، ويلزم أن يمتثل

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما ، واللفظ فيه : ﴿وَمَا أَسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ﴾ كما رواه السيوطي في الجامع الصغير ، وقد رمز له السيوطي بالصحة .
 (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣-٣٠٨) ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها ، واللفظ كما ذكره السيوطي في الدر المنثور : (أخاف) بدلا من (أخشى) . قال السيوطي : «وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (والله ما أخشى عليك الخطأ ، ولكن أخشى عليك العمدة)» .
 (٣) رُوي في الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، والله أنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : (لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك =

أوامره ، أَحَبَّتْ نَفْسَهُ ذَلِكَ أَمْ كَرِهَتْهُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : (أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرِثَتِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَعَلَيَّ ، أَنَا وَلِيُّهُ ، اقْرءُوا إِن شِئْتُمْ) : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (١) . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ : هُوَ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؛ لِأَنَّ أَنْفُسَهُمْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهَلَاكِ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى النِّجَاةِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : (أَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا تَقَحُّمَ الْفَرَاشِ) (٢) .

- (من نفسك) ، فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيءٍ حتى من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : (الآن يا عمر) .

(١) أخرجه البخاري ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ، فَأَيْمًا مَوْمِنًا تَرَكَ مَالًا فَلِوَرِثَتِهِ عَصَبَتُهُ مِنْ كَانُوا ، فَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلِيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، ومسلم في الفضائل ، والترمذي في الأدب ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما مثلي ومثلي أممي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراسح يقعن فيه - أي في المستوقد المفهوم من الكلام - وأنا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ) ، وفي رواية : (وأنتم تفلتتون من يدي) .

وشرف تعالى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات
 للمؤمنين : في حرمة النكاح والمبرة ، وحجبهن رضي الله عنهن بخلاف
 الأمهات ، قال مسروق : قالت امرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها :
 يا أمه ، فقالت : لست لك بأُم ، إنما أنا أم رجالكم ، وفي مصحف
 أبي بن كعب : « وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » ، وقرأ ابن عباس
 رضي الله عنهما : « مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » ،
 وسمع عمر رضي الله عنه هذه القراءة فأنكرها ، فقيل له : إنها في
 مصحف أبي ، فسأله فقررها أبي وأغلظ لعمر ، وقد قيل في قول لوط
 عليه السلام : (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي) (١) : إنما أراد المؤمنات ، أي :
 تزوجهن .

ثم حكم تعالى بأن أولي الأرحام أحق مما كانت الشريعة قررتها
 من التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة ، فإنه كان بالمدينة توارث
 في صدر الإسلام بهذين الوجهين (٢) ، اختلف الرواة في صفة ، وليس

(١) من الآية (٧٨) من سورة (هود) .

(٢) من ذلك ما رواه هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير ، قال : ﴿ وَأَوْلُو الْأَرْحَامِ
 بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال
 لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فأخيناهم فأورثونا وأورثناهم ، فأخى أبو بكر خارجه بن
 زيد ، وأخيت أنا كعب بن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ، فوالله لقد مات عن الدنيا
 ما ورثه غيري ، حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا .

لمعرفته الآن حكم فاختصرته ، وردَّ الله الموارِيث على الأنساب الصحيحة .
 وقوله : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ يحتمل أن يريد القرآن ، ويحتمل
 أن يريد اللوح المحفوظ ، وقوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بـ [أولى]
 الثانية (١) ، وهذه الأئخوة والهجرة التي ذكرنا .
 وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ يريد الإحسان
 في الحياة ، والصلة والوصية عند الموت ، قاله قتادة ، والحسن ،
 وعطاء ، وابن الحنفية ، وهذا كله جائز أن يُفعل مع الولي على أقسامه ،
 والقريب الكافر يوصى له توصية (٢) . واختلف العلماء ، هل يجعل
 وصياً ؟ فجوز بعض ، ومنع بعض ، ورد النظر إلى السلطان بعض ،
 منهم مالك بن أنس رضي الله عنه . وذهب مجاهد ، وابن زيد ،
 والرماني ، وغيرهم إلى أن المعنى : « إلى أوليائكم من المؤمنين » ،
 ولفظ الآية يعضد هذا المذهب ، وتعميم لفظ (الولي) أيضاً حسنٌ
 كما قدّمنا ؛ إذ ولاية النسب لا تدفع الكافر ، وإنما تدفع أن يلقي

(١) ولا يصح أن يتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ ﴾ ، قال القرطبي : « بالإجماع ؛
 لأن ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين ، ولا خلاف في عمومها ، وهذا حل إشكالها » .
 (٢) في أكبر النسخ : « والقريب والكافر » ، وآثرنا حذفها لأن ذلك يوافق عبارة القرطبي
 التي نقلها عن ابن عطية ، ويوافق عود الضمير على مفرد في قول المؤلف بعده : « هل يُجْعَلُ
 وصياً » .

إليه بالمودة كَوَلِّيَ الإسلام ، والكتابي الذي ينتظر ذلك فيه يحتمل
الوجهين اللذين ذكرنا .

و [مَسْطُوراً] من قولك : «سَطَرْتُ الْكِتَابَ» إذا أثبتته أسطَراً ،

ومنه قول العجاج :

فِي الصُّحُفِ الْأُولَى الَّتِي كَانَ سَطَرَهُ (١)

قال قتادة : وفي بعض القراءة : « كان ذلك عند الله مكتوباً » .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ
وَأَعِدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا ﴿٩﴾

(١) البيت من مشطور الرجز ، قاله العجاج من أرجوزته الطويلة التي مدح بها عمر بن عبد الله بن معمر ، وكان عبد الملك بن مروان قد وجهه لحرب أبي فديك الخارجي فحاربه وانتصر عليه ، والشاهد في البيت أن (سَطَرَ) بمعنى : كتب ، وأن السَطْر هو الخط والكتابة .

[إِذْ] يحتمل أن يكون ظرفاً لسطر الأحكام المتقدمة في الكتاب .
 كأنه قال : كانت الأحكام مسطرة مُلقاةً إلى الأنبياء إذ أخذنا عليهم
 الميثاق في التبليغ والشرائع ، فيكون [إِذْ] متعلقاً بقوله : ﴿ كَانَ ذَلِكَ
 فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ . ويحتمل أن يكون في موضع نصب بإضمار
 فعل تقديره : واذكر إذ ، وهذا التأويل أبين من الأول .

وهذا الميثاق المشار إليه قال الزجاج وغيره : إنه الذي أخذ عليهم
 وقت استخراج البشر من صلب آدم كالذِّرِّ ، قالوا : وأخذ الله تبارك
 وتعالى حينئذ ميثاق النبيين بالتبليغ وتصديق بعضهم بعضاً ، وبجميع
 ما تتضمنه النبوة ، ورُوي نحوه عن أبي بن كعب . وقالت فرقة :
 بل أشار إلى أخذ الميثاق على كل واحد منهم عند بعثه ، وعند إلقاء
 الرسالة إليه وأوامرها ومعتقداتها .

وذكر الله تعالى النبيين جملةً ، ثم خصص بالذكر أفراداً منهم
 تشريفاً وتعظيماً ، إذ هؤلاء الخمسة صلى الله عليهم وسلم هم أصحاب
 الكتب والشرائع والحروب الفاصلة على التوحيد وألو العزم ، ذكره
 الثعلبي . وقدم ذكر محمد صلى الله عليه وسلم على مزِيته في
 الزمن تشريفاً خاصاً له أيضاً ، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام

أنه قال : (كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث) (١) .
 وكرر أخذ الميثاق لمكان الصفة التي وُصف بها ، و [غليظاً]
 إشعاراً بحرمة هذا الميثاق وقوتها ، واللام في قوله تعالى : [لِيسْأَلْ]
 متعلقة بـ [أخذنا] ، ويحتمل أن تكون لام كي ، أي : بعثت الرسل
 وأخذت عليهم الميثاق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقتين ، فرقة
 يسألها عن صدقها ، على معنى إقامة الحجة والتقريب ، كما قال
 لعيسى عليه السلام : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ (٢) ؟ فتجيب كأنها
 قد صدقت الله في إيمانها في جميع أفعالها ، فيثيبها على ذلك ، وفرقة
 كفرت فينالها ما أعد لها من العذاب الأليم ، ويحتمل أن تكون اللام
 في قوله : [لِيسْأَلْ] لام الصيرورة ، أي : أخذ الميثاق على الأنبياء
 ليصير الأمر إلى كذا ، والأول أصوب .

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ، قال : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ ، قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : (كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث) ، وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال : (بُدِيْ فِي الْخَيْرِ وَكُنْتَ آخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ) ، (الدر المنثور) ، ولاشك أن بعث الرسل هو الخير للبشر جميعاً .

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

والصدق في هذه الآية يحتمل أن يكون المضاد للكذب في القول ،
ويحتمل أن يكون من صدق الأفعال واستقامتها ، ومنه : عود صدق ،
وصدقني السيف والمال ، وقال مجاهد : [الْصَّادِقِينَ] في هذه الآية
أراد بها الرُّسل ، أي : يسأل عن تبليغهم ، وقال أيضاً : أراد المؤدِّين
المبليغين من الرسل . وهذا كله محتمل .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرَا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ ، إلى قوله
تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ ﴾ نزلت في شأن غزوة الخندق
وما اتصل بها من أمر بني قريظة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم أجلى بني النضير من موضعهم عن المدينة إلى خيبر ، واجتمعت
جماعة منهم ومن غيرهم من اليهود وخرجوا إلى مكة مستنهضين قريشاً
إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجسروهم (١) على ذلك ،
وأزمت قريش السير إلى المدينة ، ونهض اليهود إلى غطفان وبني أسد
ومن أمّ لهم من أهل نجد وتهامة ، واستنفروهم إلى ذلك ، فتحزب الناس
وساروا إلى المدينة ، واتصل الخبر برسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أي : شجّعوهم ، يقال : جسّرَ جسوراً وجسّارة : شجع شجاعة . وجسّره :
شجّعته .

فحفر الخندق حول ديار المدينة وحصّنه ، وكان أمراً لم يعهده العرب ، وإنما كان من أعمال فارس والروم ، وأشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فورد الأحزاب قريش وكنانة والأحباش في نحو عشرة آلاف عليهم أبو سفيان بن حرب ، ووردت غطفان وأهل نجد عليهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، ووردت بنو عامر وغيرهم عليهم عامر بن الطفيل إلى غير هؤلاء ، فحصروا المدينة ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة ، على ما قال ابن إسحق ، وقال مالك : كانت سنة أربع (١) ، وكانت بنو قريظة قد عاهدوا رسول الله صلى عليه وسلم على الهدنة ، وعاقدوه على ألا يلحقه منهم ضرر ، فلما تمكن هذا الحصار واثقهم بنو النضير ، فغدروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونقضوا العهد ، وصاروا حزباً من الأحزاب ، فضاقت الحال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وكثرت الظنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبشّر ويعد بالنصر .

(١) قال الزرقاني : « واختلف في تاريخها . فقال موسى بن عقبة في مغازيه النبي شهد مالك والشافعي بأنها أصح المغازي : كانت سنة أربع ، قال الحافظ : وتابعه على ذلك الإمام مالك » .

ثم ألقى الله الرعب في قلوب المشركين ، ويشسوا من الظفر بمنعة الخندق ، وبما رأوا من جلد المؤمنين ، وجاء رجل من قريش اسمه نوفل بن الحرث - وقيل غير هذا - فاقتحم الخندق بفرسه فقتل فيه ، فكان ذلك حاجزاً بينهم ، ثم إن الله تعالى بعث الصبا (١) لنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم على الكفار ، فطردهم ، وهددت بيوتهم ، وأطفأت نيرانهم ، وقطعت جبالهم ، وأكفأت قدورهم ، ولم يمكنهم معها قرار ، وبعث الله مع الصبا ملائكة تشدد الرياح ، وتفعل نحو فعلها ، وتلقي الرعب في قلوب الكفرة حتى أزمعوا الرحلة بعد بضع وعشرين ليلة للحصر ، فانصرفوا خائبين ، فهما الجنود التي لم تُر .

وقرأ الحسن : [وَجُنُوداً] بفتح الجيم ، وقرأ الجمهور : [تَعْمَلُونَ] بالتاء ، فكان في الآية مقابلة لهم . أي : أنتم لم تروا جنوده وهو بصير بأعمالكم ، فيتبين في هذا القدرة والسلطان ، وقرأ أبو عمرو وحده : [يَعْمَلُونَ] بالياء على معنى الوعيد للكفرة ، وقرأ أبو عمرو أيضاً بالتاء . وهما حسنتان . ورُوي عن أبي عمرو : (لَمْ يَرَوْهَا) من تحت . قال أبو حاتم : قراءة العامة : (لَمْ تَرَوْهَا) بالتاء من فوق ، ورُوي عن الحسن : ونافع ، والأعرج : [يَعْمَلُونَ] بالياء .

(١) الصبا : ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث) .

قوله عز وجل :

﴿إِذْ جَاءَ وَكُرٌّ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

[إِذْ] هذه بدلٌ من الأولى في قوله سبحانه : ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يريد أهل نجد مع عيينة بن حصن ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يريد مكة وسائر تهامة ، قاله مجاهد ، وقيل : ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي : من أعلى الوادي من قبل مشرق غطفان ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي منه قبل المغرب ، وقيل : إنما أراد ما يختص ببقعة المدينة ، أي : نزلت طائفة في أعلى المدينة ، وطائفة من أسفلها ، وهذه عبارة عن الحصر .

و ﴿زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ معناه : مالت عن مواضعها ، وذلك فعل الواله الفرع ، وأدغم الأعمش ﴿إِذْ زَاغَتْ﴾ ، وبين الذال الجمهور ، وكلُّ حسن .

﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ عبارة عما يجده الهلع من ثوران نفسه وتفرقها شعاعاً ، ويجد كأن قلبه يصعد علواً لينفصل ، فليس بلوغ القلوب الحناجر حقيقة بالنقلة ، بل يشير إلى ذلك ، فيستعار لها بلوغ الحناجر ، وروى أبو سعيد أن المؤمنين قالوا يوم الخندق : يا رسول الله ، بلغت القلوب الحناجر ، فهل من شيء نقوله ؟ قال نعم ، قولوا : (اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا) ، فقالوها فضرب الله وجوه الكفار بالريح فهزمهم (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ، أي : تكادون تضطربون وتقولون : ما هذا الخلف للوعد ؟ وهذه عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها ، وأما المنافقون فجلبوا (٢) ونطقوا . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعمش ، وطلحة : [الظُّنُونَا] بألف في الوصل والوقف ، وذلك اتباع لخط المصحف ،

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ، هل من شيء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم الله بالريح . الدر المنثور .

(٢) جَلَّحَ في الأمر : ركب رأسه فيه وأقدم ومضى . وفي بعض النسخ : « فعبجوا ونطقوا » ، وهي متفقة مع ما في (البحر المحيط) .

وعلته تعديل رؤوس الآي ، وطرد هذه العلة أن تلازم الوقف . وقد روي عن أبي عمرو أنه لا يصل ، وكان يوافق خط المصحف وقياس الفواصل ، وقرأ أبو عمرو أيضاً ، وحمزة في الوصل والوقف : [الظنون] بغير ألف ، وهذا هو الأصل ، وقرأ ابن كثير ، والكسائي ، وعاصم ، وأبو عمرو بالألف في الوقف ، وب حذفها في الوصل ، وعللوا الوقف بتساوي رؤوس الآي ، وبما يفعل العرب في القوافي من الزيادة والنقص .

وقوله تعالى : [هُنَالِكَ] ظرف زمان ، والعامل فيه [أبتلي] ، ومن قال : إن العامل فيه [وتظنون] فليس قوله بالقوي ؛ لأن البداءة ليست بمتمكنة . و [أبتلي] معناه : اختبر وامتحن الصابر منهم من الجازع ، [وزلزلوا] معناه : حركوا بعنف ، وقرأ الجمهور : [زلزالاً] بكسر الزاي . وقرأها [زلزالاً] بالفتح الجحدري ، وكذلك [زلزالها] في ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ (١) ، وهذا الفعل هو مضاعف (زل) .

ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب ، على جهة الذم لهم ، ورؤي عن يزيد بن رومان أن معتب بن قشير قال : يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة ونحن الآن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط ، ما يعدنا إلا غروراً . أي أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به ، وقال غيره من المنافقين نحو هذا فنزلت الآية فيهم ، وقولهم :

(١) الآية (١) من سورة (الزلزلة) .

(مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) إنما هو على جهة الهزاء ، كأنهم يقولون : على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول ، ويدل على هذا أن من المحال أن يكون اعتقادهم أن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور ، بل معناه : على زعم هذا .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٤﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِواُ الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا سِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ ﴿١٦﴾ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٧﴾ ﴾

هذه المقالة رُوي أن بني حارثة قالوها ، وبيوتهم بحدود المدينة ، وقال مقاتل : بنو سلمة (١) ، وقيل : القائل لذلك عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه . وقرأ السُّلمي ، وحفص ، واليماني ، والأعرج :

(١) ذكر في بعض النسخ ، وفي تفسير البحر المحيط أنهم بنو (مسلمة) ، والثابت في سيرة ابن هشام أنهم بنو سلمة .

(لَا مُقَامَ) بضم الميم ، بمعنى : لا موضع إقامة ، وقرأ الباقر :
 (لَا مَقَامَ) بفتح الميم ، بمعنى : لا موضع قيام ، وهي قراءة أبي
 جعفر ، وشيبة ، وأبي رجاء ، والحسن ، وقتادة ، والنخعي ، وعبد الله
 ابن مسلم ، وطلحة ، والمعنى : في موضع القتال وموضع الممانعة .
 [فَارْجِعُوا] معناه : إلى منازلكم وبيوتكم ، وكان ذلك على جهة التخذيل
 عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفريق المستأذن ، رُوي أن أَوْسَ بن قَيْظِي ، استأذن في ذلك
 عن اتفاق من عشيرته ، فقال : إِنَّ بِيوتنا عورة ، أي منكشفة للعدو ،
 وقيل : أراد : خالية للسراق ، يقال : اعورَّ المنزل إذا انكشف ، ومنه
 قول الشاعر :

* لَنَا الشَّدَّةُ الْأُولَى إِذَا الْقِرْنُ أَعْوَرَا * (١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الفريق بنو حارثة ، وهم كانوا عاهدوا
 الله إثر أحد لا يؤلُّون الأدبار ، وقرأ ابن عباس ، وابن يعمر ، وقتادة ،

(١) ذُكر في اللسان والتاج (عَوْرَ) ، قالوا : وهو في وصف الأسد ، واللفظ فيهما :
 (لَهُ الشَّدَّةُ الْأُولَى) ، وقال في اللسان : « والعرب تقول : أعورَ منزلك إذا بدت منه عورة ،
 وأعور الفارس إذا كان فيه موضع خلل للضرب » . والشَّدَّةُ : الحملة القوية في الحرب ،
 والقِرْنُ : المثيل في الشجاعة كما هو المراد هنا ، وقد يكون في العِلْم ، والجمع أقران .

وأبو رجاء : [عَوْرَةٌ] بكسر الواو فيهما ، وهو اسم فاعل ، قال أبو الفتح : «صحة الواو في هذه شاذة ؛ لأنها متحركة قبلها فتحة» ، وقرأ الجمهور : [عَوْرَةٌ] ساكنة الواو على أنه مصدر وُصف به ، والبيت المُعَوَّرُ هو المنفرد المعرض لمن شاءه بسوء ، فأخبر الله تعالى عن بيوتهم أنها ليست كما ذكروه ، وأن قصدهم الفرار ، وأن ما أظهروه من أنهم يريدون حماية بيوتهم وخاصة نفوسهم ليس كذلك ، وأنهم إنما يكرهون نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريدون خزيه وأن يغلب .

ولو دُخِلت المدينة من أقطارها ، واشتد الخوف الحقيقي ، ثم سُئِلوا الفتنه والحرب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم لطاروا إليها وأتوها مجيبين^(١) فيها ، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلا يسيراً ، قيل : قَدْر ما يأخذون سلاحهم . وقرأ الحسن البصري : ﴿ثُمَّ سُوِّلُوا الْفِتْنَةَ﴾ بغير همز ، وهي من سَأَلَ يَسْأَلُ كخاف يخاف لغة في (سَأَلَ) العين فيها واو ، وحكى أبو زيد : هما يتساولان ، ورُوي عن الحسن : «سُئِلُوا الْفِتْنَةَ» ، وقرأ مجاهد :

(١) في إحدى النسخ : (مُجِيبِينَ) .

[سُئِلُوا] بِالْمَدِّ (١) . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [لَاتَوْهَا] بمعنى : لجأؤوها ، وقرأ عاصم ، وأبو عمرو : [لَاتَوْهَا] بمعنى : لأعطوها من أنفسهم ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، فكأنها ردُّ على السؤال ومشبهة له ، قال الشعبي : وقرأها النبي عليه الصلاة والسلام بالمدِّ (٢) . ثم أخبر عنهم تبارك وتعالى أنهم قد كانوا عاهدوا على ألا يفروا ، ورؤي عن يزيد بن رومان أن هذه إشارة إلى بني حارثة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهم مع بني سلمة كانتا الطائفتين اللتين همتا بالفشل في يوم أحد ، ثم تابوا وعاهدوا على ألا يقع منهم فرار ، فوقع يوم الخندق من بني حارثة .

(١) علَّل أبو الفتح ابن جني قراءة الحسن البصري [سُئِلُوا] بتعليلات أكثرها فيه الصنعة . راجع المحتسب (٢-١٧٧) وما بعدها .

(٢) اختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة المدّ ، قالا : وفي الحديث أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يُعذِّبون في الله ويسألون الشرك ، فكلُّ أعطى ما سأله إلا بلالاً ، ففيه دليل على قراءة المدِّ ، من الإعطاء . ويدلُّ على قراءة القصر قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَدَّ كَانُوا عَاهَدُوا ﴾ . والله من قبيل لا يؤلِّتون الأدبار ﴿ ﴿ فهنا يدلُّ على [لَاتَوْهَا] متصوراً . وقد أشار ابن عطية إلى أن قراءة المدِّ فيها معنى الإعطاء . ونسبتهُ قراءة المدِّ لعاصم هي رواية أبي بكر عنه . أما رواية حفص فهي بالقصر كما هو ثابت في المصحف .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ تَوْعُدُ . و « الْأَقْطَارُ » :

النواحي ، واحدها قُطْرٌ وَقُتْرٌ (١) ، والضمير فيها يحتمل المدينة ويحتمل البيوت .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالتَّقَابِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أن يخاطبهم بتوبيخ ، فأعلمهم بأن الفرار لا ينجي من القدر ، وبأنهم لا يُمْتَعُونَ في تلك الأوطان ، بل تنقطع أعمارهم في يسير من المدة . والقليل الذي

(١) الأقطار : الجوانب ، وواحدها : قُطْرٌ ، وهي الأقطار ، وواحدها : قُتْرٌ ، قال

الفرزدق :

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ فَتَحَ إِلَهَهُ لَهُمْ بِهِ وَالْخَيْلُ مُقْعِبَةٌ عَلَى الْأَقْطَارِ

ويروى البيت : على الأقطار . ومعنى (مقعية على الأقطار) : ساقطة على أجنابها تزوم القيام كما تقعي الكلاب على أجنابها وأفخاذها .

استثناه هي مدة الآجال ، قاله الربيع بن خثيم^(١) ، ثم وقفهم على عاصم من الله يستندون إليه ، ثم حكم بأنهم لا يجدون ذلك ، ولا ولي ولا نصير من الله عز وجل . وقرأت فرقة : [يُمْتَعُونَ] بالياء ، وقرأت فرقة : [تُمْتَعُونَ] بالتاء على المخاطبة .

ثم وبَّخهم بإخباره أن الله تعالى يعلم المعوقين ، وهم الذين يعوقون الناس عن نُصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويمنعونهم بالأقوال والأفعال من ذلك ، ويسعون على الذين ينصرونه ، تقول : عاقني أمر كذا ، وعوقني إذا بالغت وضعفت الفعل .

وأما القائلون فاختلف الناس في حالهم - فقال ابن زيد وغيره : أراد المنافقين ، يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرابته : «هَلُمَّ إِلَيْنَا» ، أي : إلى المنازل والأكل والشرب وترك القتال ، ورُوي أن جماعةً منهم فعلت ذلك . ورُوي أن رجلاً من المؤمنين رجع إلى داره فوجد أخاً له منافقاً ، بين يديه رغيف وشواء ونبيذ ، فقال له : أتجلس

(١) في تقريب التهذيب : هو الربيع بن خثيم بضم المعجمة وفتح المُثَلَّثَة ، وفي الخلاصة : ابن خثيم بفتح الحاء وسكون الياء ، وفتح الثاء ، وهو ابن عائذ بن عبد الله الثوري ، أبو يزيد الكوفي . قال عنه في التقريب : « ثقة عابد محضرم ، من الثانية ، قال له ابن مسعود : لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك ، مات سنة إحدى وستين ، وقيل : سنة ثلاث وستين » .

يا فلان هكذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال ؟ فقال له أخوه : هَلُمَّ إِلَى مَا أَنَا فِيهِ يَا فَلَانُ ، ودعني من محمد فقد والله هَلَكَ ، وماله قَبْلُ بِأَعْدَائِهِ . فشمته أخوه وقال : وَاللَّهِ لَا أُعْرِفَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجد الآية نزلت (١) .

وقالت فرقة : بل أراد من كان من المنافقين يداخل كفار قريش والعرب ، فإنه كان منهم من يداخلهم ، وقال لهم : « هَلُمَّ إِلَيْنَا » ، أي إلى المدينة فإنكم تغلبون محمداً ، والإخوان - على هذا - هم في الكفر والمذهب السوء .

و « هَلُمَّ » بمعنى : أَقْبِلْ ، ومن العرب من يستعملها على حد واحد في المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، وهذا على أنها اسم فعل ، وهذه لغة أهل الحجاز ، ومنهم من يُجربها مجرى الأفعال فيلحقها الضمائر المختلفة ، فيقول : هَلُمَّ ، وَهَلْمِي ، وَهَلْمُوا . وَأَصْلُ (هَلُمَّ) : (هَالَمُّمٌ) ، نقلت حركة الميم إلى اللام فاستغني عن الألف ، وأدغمت الميم في الميم لسكونها فجاء (هَلُمَّ) ، وهذا مثلُ تعليل : (رُدُّ) من ارْدُدُّ (٢) .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه ، (الدر المثور) ، وفي روايته أن الرجل كان أخاه من أبيه وأمه . وذكر هذا الحديث ابن جرير الطبري عن ابن زيد أيضاً .
(٢) قال الأزهري : « فُتِحَتْ هَلُمَّ لِأَنَّهَا مَدْعَمَةٌ ، كَمَا فَتِحَتْ رُدُّ فِي الْأَمْرِ ، فَلَا يَجُوزُ فِيهَا هَلُمَّ بِالضَّمِّ ، كَمَا لَا يَجُوزُ رُدُّ لِأَنَّهَا لَا تَتَصَرَّفُ » . وقال ابن سيده : « زعم الخليل أن هَلُمَّ هِيَ لَمْ لِحَقَّتْهَا هَاءُ التَّنْبِيهِ » .

والبأسُ : القتال ، و ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه : إِلَّا إِيَّانَا قَلِيلًا . وقلته
 يحتمل أن تكون لِقِصْرِ مُدَّتِهِ وَقِلَّةِ أَزْمَنَتِهِ ، ويحتمل أن تكون لِقِلَّةِ
 عقابه ، وأنه رياءٌ وتلميح لا تحقيق .

قوله عز وجل :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكَ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي
 يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى
 الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

[أَشِحَّةً] جمع شحيح (١) ، ونصبه على الحال من [الْقَائِلِينَ] .
 أو من فعل مضمر دل عليه قوله : [الْمُعَوِّقِينَ] (٢) . أو من الضمير
 في [يَأْتُونَ] ، أو على الذم ، وقد منع بعض النحاة أن يعمل في هذه
 الحال [الْمُعَوِّقِينَ] أو [الْقَائِلِينَ] لكان التفريق بين الصلة والموصول

(١) والشحيح : البخل ، وجمع شحيح على أشححة لا يتقاس ، وقياسه في الصفة
 المشعثة للعين واللام : فإلاء : نحو خايل وأخلاء ، ورقيق وأرقاء ، وعلى هذا فالقياس أن يجمع
 شحيح على أشحاء ، وقد سمع ذلك .
 (٢) وتقديره : يُعَوِّقُونَ أَشِحَّةً .

بقوله : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ ﴾ وهو غير داخل في الصلة . وهذا الشُّحُّ قيل : هو بأنفسهم على المؤمنين ، وقيل : بإخوانهم ، وقيل : بأموالهم في النفقات في سبيل الله ، وقيل : بالغنيمة عند القسم . والصواب تعميم الشُّحِّ ، وأن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ ، قيل : معناه : فإذا قوي الخوف من العدو ، وتوقع أن يستأصل جميع أهل المدينة ، لاذ هؤلاء المنافقون بك ، ينظرون نظر الهلع المختلط ، كنظر الذي يغشى عليه من الموت ، ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ﴾ ذلك الخوف العظيم [سَلَقُوكُمْ] أي : خاطبوكم مخاطبة بليغة ، يقال : خطيب سَلَّاقٌ ومِسْلَاقٌ ومِسْلَقٌ ، ولساناً أيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدراً ، وقرأ ابن أبي عملة : [صَلَقُوكُمْ] بالصَّاد . ووصف الألسنة بالحدة لِقَطْعِهَا المعاني ، ونفوذها في الأقوال .

وقالت فرقة : معنى قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ أي : إذا كان المؤمنون في قوة وظهور ، وخشي هؤلاء المنافقون سطوتك يا محمد رأيتهم يصانعون وينظرون إليك نظر فارع منك خائف هلع ، فإذا ذهب خوفك عنهم باشتغالك بعدو ونحوه - كما كان مع الأحزاب - سلقوكم حينئذ . واختلف الناس في المعنى الذي فيه تسلقون - فقال يزيد بن رومان وغيره : ذلك في أذى المؤمنين وسبهم وتنقيص الشرع

ونحو هذا ، وقال قتادة : ذلك في طلب العطاء من الغنيمة والإلحاف في المسألة ، وهذان القولان يترتبان مع كل واحد من التأويلين المتقدمين في الخوف . وقالت فرقة : السلق هو في مخادعة المؤمنين بما يرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة .

وقوله : [أَشْحَةٌ] حال من الضمير في [سَلَقُوكُمْ] ، وقوله : (عَلَى الْخَيْرِ) يدلُّ على عموم الشحِّ في قوله أولاً (أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ) ، وقيل في هذا : معناه : أشحة على مال الغنائم ، وهذا على مذهب من قال : إن (الخير) في كتاب الله حيث وقع فهو بمعنى المال . وقرأ ابن أبي عبة : [أَشْحَةٌ] بالرفع ، أخبر تبارك وتعالى عنهم أنهم لم يؤمنوا ، ولا كمل تصديقهم ، وجمهور المفسرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان ، ويكون قوله : (فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) أي أنها لم تكمل قط ، أي أنها كالمُحْبَطَةِ ، وحكى الطبري عن ابن زيد عن أبيه أنه قال : نزلت في رجل بدري نافق بعد ذلك ووقع في هذه المعاني فأحبط الله عمله في بدر وغيرها ، وهذا فيه ضعف .

والإشارة بـ [ذَلِكَ] في قوله تعالى : (وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) يحتمل أن تكون إلى إحباط عمل هؤلاء المنافقين ، ويحتمل أن تكون إلى جملة حالهم وما وصف من شحهم ونظرهم وغير ذلك من

أعمالهم ، أي أن أمرهم يسير لا يبالي به ، ولا له أثر في دفع خير ولا جلب شر .

قوله عز وجل :

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

الضمير في [يَحْسَبُونَ] للمنافقين ، والمعنى أنهم من الفرع والجزع بحيث رحل الأحزاب وهزمهم الله تعالى وهؤلاء يظنون أنهم لم يذهبوا ، بل يريدون الكرّة إلى المدينة ، ثم أخبر تعالى عن معتقد هؤلاء المنافقين أن ودهم إذا أتى الأحزاب وحاصروا المدينة أن يكونوا هم قد خرجوا إلى البادية ومع الأعراب وهم أهل العمود والرحيل من قطر إلى قطر ، ومن كان منهم مقيماً بأرض مستوطناً فلا يُسْمَوْنَ أعراباً ، وغرضهم من البداوة أن يكونوا سالمين من القتال . وقرأ ابن عباس ، وطلحة ابن مصرف : (لَوْ أَنَّهُمْ بُدِّيَ فِي الْأَعْرَابِ) بشدّ الدال منونة ،

وهو جمع بادٍ كغازٍ وُغزَى . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما :
«بدا» فعلاً ماضياً (١) .

وقرأ أهل مكة ، ونافع ، وابن كثير ، والحسن : [يَسْأَلُونَ] ،
أي عن أنبائكم ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم (٢) ، والأعمش ، والحسن :
[يَسْأَلُونَ] بغير همز ، نحو قوله تعالى : ﴿سَلِّبْنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٣) ،
وقرأ الجحدري ، وقتادة ، والحسن - بخلاف عنه - : [يَسَاءَلُونَ] ،
أي : يسأل بعضهم بعضاً ، قال (٤) الجحدري في الإمام :
[يَتَسَاءَلُونَ] .

ثم سأل الله تعالى نبيه عنهم ، وحقّر شأنهم بأن أخبر أنهم لو
حضروا لما أغنوا ولما قاتلوا إلاّ قتالاً قليلاً لا نفع له ، قال التغلبي :
هو قليل من حيث هو رياءً من غير حسبة ولو كان كثيراً .

ثم أخبر تبارك وتعالى على جهة الموعظة بأن كل مسلم ومدع في
الإسلام يجب أن يقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام حين قاتل وصبر

(١) هكذا في الأصول ، وهي أيضاً عبارة البحر المحيط .

(٢) في رواية أبي بكر عنه .

(٣) من قوله تعالى في الآية (٢١١) من سورة (البقرة) : ﴿سَلِّبْنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا

آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةِ بَيِّنَةٍ﴾ .

(٤) هكذا في الأصل . ولعلها : وقرأ .

وجاد بنفسه (١) . وقرأ جمهور الناس : [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة ، وقرأ
عاصم وحده : [أُسْوَةٌ] بضم الهمزة ، وهما لغتان ، ومعناها : قدوة ،
وتأسى الرجل إذا اقتدى ، و «رجاء الله» تابع للمعرفة به ، و «رجاء
اليوم الآخر» ثمرة العمل الصالح ، و «ذَكَرُ اللهُ كثيراً» من خير الأعمال ،
فنيبه عليه .

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «يحسبون الأحزاب
قد ذهبوا ، فإذا وجدوهم لم يذهبوا ودُّوا أنهم بادون في الأعراب» .
قوله عز وجل :

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
لَيَجْزِيَّ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(١) ومن مظاهر ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد شُجَّ وجهه . وكُسرت رباعيته ، وأن
عمه حمزة رضي الله عنه قد قُتل ، وأنه جاع وربط على بطنه من شدة الجوع ، ولم ير إلا
صابراً محتسباً ، وشاكراً راضياً ، والأسوة بالرسول يجب أن تمتد إلى حياته كلها .

وصف تعالى فِعْلَ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ رَأَوْا تَجْمَعُ الْأَحْزَابَ لِحَرْبِهِمْ ،
 وَصَبْرَهُمْ عَلَى الْبَلَاءِ ، وَتَصْدِيقَهُمْ وَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاخْتَلَفَ الْمُتَأَوِّلُونَ مَاذَا أَرَادُوا بِوَعْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟ -
 فقالت فرقة : أَرَادُوا مَا أَعْلَمَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ
 أَمَرَهُمْ بِحُفْرِ الْخَنْدَقِ ، فَإِنَّهُ أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيُحْصَرُونَ ، وَأَمَرَهُمْ
 بِالِاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ ، وَبِأَنَّهُمْ سَيَنْتَصِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَوْا الْأَحْزَابَ
 قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فَسَلَّمُوا الْأَمْرَ وَانْتَظَرُوا أَجْرَهُ (١) .

وقالت فرقة : أَرَادُوا بِوَعْدِ اللَّهِ مَا نَزَلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، مِنْ قَوْلِهِ
 تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا
 مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ
 آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

(١) روى كثير بن عمرو المزني عن أبيه عن جدّه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : (أخبرني جبريل عليه السلام أن أمّتي ظاهرة عليها -
 يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى - فأبشروا بالنصر) ، فاستبشر المسلمون ، وقالوا :
 الحمد لله . موعده صادق ، إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر ، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون :
 هذا ما وعدنا الله ورسوله ، ذكّر ذلك الماوردي ، ونقله القرطبي .

(٢) الآية (٢١٤) من سورة (البقرة) ، وقد أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي
 في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَكَلِمَاتٍ رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ إلى -

ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية ، وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أمرهم بحفر الخندق ، وأشاروا بالوعد إلى جميع ذلك ، وهما مقالتان ، إحداهما من الله تعالى ، والأخرى من رسوله صلى الله عليه وسلم .

وزيادة الإيمان هنا هي في أوصافه لا في ذاته ؛ لأن ثبوته وإبعاد الشكوك والشبه عنه زيادة في أوصافه ، ويحتمل أن يزيد إيمانهم بما وقع ، وبما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يقع ، فتكون الزيادة بهذا الوجه - فيما يؤمن به لا في نفس الإيمان . وقرأ ابن أبي عبيدة : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ ﴾ بواو جمع .

و «التسليم» : الانقياد لأمر الله تعالى كيف جاء ، ومن ذلك ما ذكرناه من أن المؤمنين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند اشتداد ذلك الخوف : «إن هذا أمر عظيم ، فهل من شيء نقوله ؟

- آخر الآية ، قال : إن الله تعالى قال لهم في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق قالوا : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فتأول المؤمنون ذلك ، فلم يزداهم إلا إيماناً وتسليماً . وأخرج مثله الطيالسي ، وعبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل عن قتادة رضي الله عنه .

فقال : (قولوا : اللهم آمن روعاتنا ، واستر عيوبنا) ، فقالها المسلمون في تلك الضيقات .

ثم أثنى الله عزَّ وجلَّ على رجال من المؤمنين عاهدوا الله تعالى على الاستقامة التامة فوفوا وقضوا نحبهم ، أي نذرهم وعهدهم ، والنحب في كلام العرب النذرُ والشيء الذي يلتزمه الإنسان ويعتقد الوفاء به ، ومنه قول الشاعر :

قَضَى نَحْبَهُ فِي مُلْتَقَى الْقَوْمِ هَوْبَرُ (١)

المعنى أنه التزم الصبر إلى فتح أو موت فمات ، ومن ذلك قول جرير :

بِطَخْفَةِ جَالِدَنَا الْمُلُوكَ وَخَيْلِنَا عَشِيَّةَ بَسْطَامٍ جَرَيْنَ عَلَى نَحْبِ (٢)

(١) هذا عجز بيت قاله ذو الرمة ، والبيت بتمامه :

عَشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثِيُّونَ بَعْدَ مَا قَضَى نَحْبَهُ فِي مُلْتَقَى الْقَوْمِ هَوْبَرُ

وهوْبَرُ : اسم رجل هو يزيد بن هوْبَر ، وهو من بني الحارث بن كعب ، والبيت في (اللسان - هَبَر) ، قال : « الهَوْبَرُ : الفهد - عن كُرَاعٍ - ، وهوْبَرُ : اسم رجل ، قال ذو الرمة : عَشِيَّةَ فَرَّ ... البيت » ، وذكره أبو عبيدة في (مجاز القرآن) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ أي : نذره الذي كان ، كما قال ، والشاهد في البيت هنا أن النَّحْبَ هو الشيء الذي يلتزم به الإنسان حتى لو دفع حياته ثمناً له .

(٢) البيت في (اللسان - نَحْبَ) ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة . وفي (التأج -

نَحْبَ) . و طَخْفَمَةَ : جبل أحمر طويل في ديار بني تميم ، كانت به رقعة بين بني يربوع =

أي : على أمر عظيم التزم القيام به ، كأنه خطر عظيم .
وقد يُسَمَّى الموتُ نجباً ، وبه فسّر ابن عباس رضي الله عنهما
هذه الآية ، وقال الحسن : ﴿ قَضَى نَجْبَهُ ﴾ : مات على ما عهد ،
ويقال للذي جاهد في أمر حتى مات : قَضَى نَجْبَهُ ، ويقال لمن مات :
قضى فلانُ نجبه ، وهذا تجوُّز ، كأن الموتَ أمرٌ لا بد للإنسان أن يقع
به فسمي نجباً لذلك .

فممن سمي المفسرون أنه أشير إليه بهذه الآية أنس بن النضر ،
عم أنس بن مالك ، وذلك أنه غاب عن بدر ، فسأه ذلك وقال :
لئن شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً ليرين الله ما أصنع ،

وقابوس بن النعمان ، وكان ذلك حين بعث النعمان جيشاً بقيادة ابنه قابوس وأخيه حسان ،
فهزمت بنو يربوع الجيش ببطخفة ، وأسروا ابن الملك وأخاه ، ثم منّوا عليهما بعد ذلك ،
وهذا ما أراده جرير ، وتضبط الطاء في (طبخفة) بالفتح وبالكسر كما جاء في معجم البكري .
وهناك كثير من الشواهد على أن النحب هو التندر أو الشيء الذي يلتزمه الإنسان ، (والموت
نحبٌ لأنه شيء مفروض على الإنسان ولا بد من الوفاء به) ، ومنها قول الشاعر :

يَا عَمْرُو بْنَ الْأَكْرَمِينَ نَسَبْنَا قَدْ نَحَبَ الْمَجْدُ عَلَيْنَا نَجْبًا
وقول ليبيد في بيته المشهور :

أَلَا لَا تَسْأَلَنِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْحَبُ فَيَقْنُضِي أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ ؟
وقول حسان بن ثابت :

مَسَامِيحُ أَبْطَالٍ يُرَجَّوْنَ لِلنَّسْدَى يَرَوْنَ عَلَيْنِهِمْ فِعْلَ آبَائِهِمْ نَحْبًا

فلما كانت أحد أبلي بلاء حسناً حتى قُتل ، ووجد فيه نيف على ثمانين جرحاً (١) ، فقالت فرقة : إن هذه الإشارة هي إلى أنس بن النضر ونظرائه ممن استشهد في ذات الله تعالى . وقال مقاتل والكلبي : الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم أهل العقبة السبعون أهل البيعة . وقالت فرقة : الموصوفون بقضاء النخب هم جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوا بعهود الإسلام على التمام ، فالشهداء منهم ، والعشرة الذين شهد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالجنة منهم ، إلى من حصل في هذه المرتبة ممن لم يُنصَّ عليه ، ويُصحح هذه المقالة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على المنبر ، فقال له أعرابي : يا رسول الله ، من الذي قضى نحبه ؟ فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد ، وعليه ثوبان أخضران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) أخرجه ابن سعد ، وأحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، والبخاري في معجمه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الدلائل ، عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) ، وروى الحديث أيضاً البخاري في المغازي ولم يذكر سبب النزول ، ورواه في التفسير مقتصراً على سبب النزول . وقال الحافظ بن حجر : « في رواية ثابت ، فقالت عمتي الربيع بنت النضر أخته : فما عرفت أخي إلا بينانه ، قال : وزاد النسائي من هذا الوجه : وكان حسن البنان » .

أين السائل ؟ فقال : هأنذا يا رسول الله ، قال : هذا ممن قضى نَحْبَهُ (١) .
فهذا دليل على أن النَحْبَ ليس من شروطه الموت . وقال معاوية بن
أبي سفيان : إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (طلحة
ممن قضى نَحْبَهُ) (٢) ، وروى هذا المعنى عائشة رضي الله عنها عن النبي
صلى الله عليه وسلم (٣) .

وقوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ) ، يقول : ومنهم من ينتظر
الحصول على أعلى مراتب الإيمان والصلاح ، وهو بسبيل ذلك ،
وما بدلوا ولا غيروا ، ثم أكد بالمصدر . وقرأ ابن عباس رضي الله
عنهما على منبر البصرة : « ومنهم من بَدَّلَ تَبْدِيلًا » ، رواه عنه أبو نصره .

(١) أخرجه ابن أبي عاصم ، والترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، والطبراني ،
وابن مردويه ، عن طلحة رضي الله عنه ، وفيه أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا
لأعرابي جاهل : سألته عمّن قضى نَحْبَهُ من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على سؤاله بوقرّونه
ويهابونه ، وفيه أيضاً : « ثم انطلقت من باب المسجد » . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن معاوية رضي
الله عنه . (الدر المنثور) .

(٣) أخرجه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : دخل طلحة على النبي صلى الله
عليه وسلم فقال : (يا طلحة أنت مِمَّنَّ قضى نَحْبَهُ) . (الدر المنثور) .

وروى عنه عمرو بن دينار : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَآخَرُونَ بَدَلُوا تَبْدِيلًا » (١) .
واللام في قوله سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ ﴾ لام الصيرورة والعاقبة ،
ويحتمل أن تكون لام كي ، وتعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة
على النفاق إلى موتهم ، والتوبة موازية لتلك الإدامة ، وثمره التوبة
تركهم دون عذاب ، فهما درجتان : إدامة على نفاق ، أو توبة منه ،
وعنهما ثمرتان : تعذيب أو رحمة ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى - عَلَى جِهَةِ الْإِيْجَازِ -
وَاحِدَةً مِنْ هَذَيْنِ ، وَوَاحِدَةً مِنْ هَذَيْنِ ، وَدَلَّ مَا ذَكَرَ عَلَى مَا تَرَكَ ذَكَرَهُ .
وَيَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ : [لِيُعَذِّبَ] : لِيَدِيمَ عَلَى النِّفَاقِ قَوْلُهُ :
﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ وَمَعَادَلَتَهُ بِالتَّوْبَةِ وَبِحَرْفِ [أَوْ] ، وَلَا يُجَوِّزُ أَحَدٌ أَنَّ
﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ يَصْحُحُ فِي تَعْذِيبِ مَنْفَاقٍ عَلَى نِفَاقِهِ ، بَلْ حَتَمَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ
بِتَعْذِيبِهِ (٢) .

(١) قال أبو بكر الأنباري : « وهذا الحديث عند أهل العلم مردود ، لخلافه الإجماع .
ولأن فيه طعنًا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله تعالى وشرفهم بالصدق والوفاء ، فما
يُعرف فيهم مُغيَّر ، وما وُجد من جماعتهم مُبَدَّل رضي الله عنهم » .
(٢) هذا جواب عن سؤال تقديره : إن عذاب المنافقين متحتم ولا بُدَّ منه ، فكيف
يصح تعليقه على المشيئة وهو قد شاء فعلا تعذيبهم إذا أداموا الإقامة على النفاق ؟
وقد وضح أبو حيان اجابة ابن عطية عن هذا السؤال بما يأتي :
« كأن ما ذكر يؤول إلى أن التقدير : ليتيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم ،
أو يتوب عليهم فيرحمهم ، فحذف سبب التعذيب وأثبت المُسَبَّب وهو التعذيب ، وأثبت
سبب الرحمة والغفران وحذف المُسَبَّب وهو الرحمة والغفران ، وهذا من الإيجاز الحسن » .

قوله عز وجل :

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبَيْهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

عدّد الله تعالى في هذه الآيات نعمه على المؤمنين في هزم الأحزاب ، وأن الله ردّهم بغیظهم لم يشفوا منه شیئاً ، ولا نالوا مراداً ، وكفى الله كلّ مؤمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن یقاتل الأحزاب . ورؤي أن المراد بالمؤمنين هنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقوم معه عبثوا للقتال وبرزوا ودعوا إليه . وقيل : عنی رجلا من المشركين اسمه عمرو بن عبد ود ، فكفاهم الله مداومة ذلك ودعوته بأن هزم الأحزاب بالريح والملائكة ، وصنع ذلك بقوته وعزته . قال أبو سعيد الخدري : حُسنا يوم الخندق فلم نُصلّ الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ، حتى كان بعد هوي من اللیل كفيّنا ، وأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاّلاً

فَأَقَامَ ، وَصَلَّى الظُّهْرَ فَأَحْسَنَهَا ، ثُمَّ كَذَلِكَ كُلَّ صَلَاةٍ بِإِقَامَةِ إِقَامَةٍ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ يَرِيدُ بَنِي قَرِيظَةَ بِإِجْمَاعٍ
 مِنَ الْمُفْسِّرِينَ ، قَالَ الرَّمَانِيُّ : وَقَالَ الْحَسَنُ : الَّذِينَ أَنْزَلُوا مِنْ صِيَاصِيهِمْ
 بَنُو النَّضِيرِ ، وَقَالَ النَّاسُ هُمْ بَنُو قَرِيظَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا غَدَرُوا
 بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَظَاهَرُوا الْأَحْزَابَ عَلَيْهِ أَرَادَ اللَّهُ النَّقْمَةَ
 مِنْهُمْ ، فَلَمَّا ذَهَبَ الْأَحْزَابُ جَاءَ جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَتَ الظُّهْرِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ
 بِالْخُرُوجِ إِلَى بَنِي قَرِيظَةَ ، فَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّاسِ ،
 وَقَالَ لَهُمْ : (لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ) ، فَخَرَجَ النَّاسُ
 إِلَيْهَا ، وَوَصَلَهَا قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الْعِشَاءِ وَهُمْ لَمْ يُصَلُّوا الْعَصْرَ
 وَقَوْفًا مَعَ لَفْظِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمْ يَخْطِئْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ ، وَصَلَّى قَوْمٌ فِي الطَّرِيقِ ، وَرَأَوْا أَنَّ قَوْلَ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا خَرَجَ مَخْرَجَ التَّأْكِيدِ ، فَلَمْ يَخْطِئْهُمْ أَيْضًا ،
 وَحَصَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي قَرِيظَةَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ،
 ثُمَّ نَزَلُوا عَلَى حَكْمِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذِ الْأَوْسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ
 وَبَيْنَ الْأَوْسِ حِلْفٌ ، فَرَجَّوْا حُنُوَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَحَكَمَ فِيهِمْ سَعْدٌ بِأَنْ تَقْتُلَ
 الْمُقَاتِلَةَ ، وَتُسَبِّي الذَّرِيَّةَ وَالْعِيَالَ وَالْأَمْوَالَ ، وَأَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ وَالشَّمَارُ

للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت له الأنصار في ذلك ، فقال :
أردتُ أن تكون لهم أموال كما لكم أموالٌ ، فقال له رسول الله صلى
الله عليه وسلم : (لقد حكمت فيهم بحكم المليك من فوق سبعة أرقعة) (١) ،
فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجالهم فأخرجوا أرسالاً (٢) ،
وضرب أعناقهم ، وهم من الثمانمئة إلى التسعمئة ، وسيق فيهم حبي
ابن أخطب النضري ، وهو الذي كان أدخلهم في الغدر برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فلما ذهب الأحزاب دخل عندهم ، فأخذه الحضر
حتى نزل فيمن نزل على حكم سعدٍ ، فلما قُرب وعليه حُلَّتَانِ فُقِّحَتَانِ (٣)
ويدها مجموعتان إلى عنقه وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
له : يا محمد ، والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك ، ولقد اجتهدت
ولكن من يخذل الله يُخذل ، ثم قال : أيها الناس ، لا بأس ، إنه
أمر الله وقدره وملحمةٌ كتبت على بني إسرائيل (٤) ، ثم تقدم فضربت عنقه ،

(١) أي : من فوق سبع سموات ، الأرقعة : جمع رقيق ، والرقيق : السماء ، سميت
بذلك لأنها رقت بالنجوم .

(٢) أي : جماعات .

(٣) الحلة الفُقِّحِيَّةُ هي التي لونها بلون الورد حين يبدأ في التفتُّح .

(٤) الملحمة : الحرب الشديدة .

وفيه يقول جبل بن جَوَّال التَّغْلِبِيُّ :

لَعَمْرُكَ مَا لَامَ ابْنُ أَخْطَبَ نَفْسَهُ وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلِ اللَّهَ يُخْذَلِ
لَجَاهِدَ حَتَّى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا وَقَلْقَلْ بِنَبِي الْعِزِّ كُلَّ مُقْلَقِلٍ (١)

وقوله : [ظَاهَرُوهُمْ] معناه : عاونوهم ، وقرأ عبد الله بن مسعود :
«الَّذِينَ آزَرُوهُمْ» ، وهي بمعنى : ظاهروهم . والصِّيَاصِي : الحصون .
واحداها : صِيصَةٌ ، وهي كل ما يَتَمَتَّعُ به ، ومنه يقال لقرون البقر :
الصِّيَاصِي ، و «الصِّيَاصِي أَيْضاً شَوْكُ الْحَاكَةِ» (٢) ، وَتُتَّخَذُ مِنْ حديد .
ومنه قول دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ :

كَوْقَعِ الصِّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمَدَّدِ (٣)

والفريقُ المقتول : الرجالُ المقاتلة ، والفريقُ المأسورُ : العيالُ والذرية .
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : [وَتَأْسِرُونَ] بكسر السين ، وقرأها أبو حيوة : [وَتَأْسِرُونَ]
بضم السين .

(١) كان جبل بن جَوَّال هذا من بني ثعلبة بن سعد ، وكان يهودياً ، ثم أنعم الله عليه
بنعمة الإسلام ، وكانت له صحبة ، ومعنى قَلْقَلْ : تحرك . (راجع سيرة ابن هشام .
والاستيعاب) .

(٢) يريد شوكة يستخدمها النساجون .

(٣) هذا عجز بيت من قصيدة طويلة قالها دُرَيْدُ بْنُ أَبِي نَضْرَةَ أخاه عبد الله ، وفي مطلعها يقول :

أَرَتْ جَدِيدُ الْجَبَلِ مِنْ أُمَّ مَعْبَدٍ بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَقَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

والبيت بتمامه :

نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَالرَّمَاحُ تَنْوَشُ سُدَّ كَوْقَعِ الصِّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمَدَّدِ

وتنوشه : تناوله ، والصِّيَاصِي جمع صِيصِيَّةٍ أو صِيصَةٍ : شوكة الحائك التي يسوي بها السداة
واللحمة ، والبيت في الأغاني . وفي اللسان : والرواية فيه : (فجئت إليه) .

وقوله تعالى : [وَأُورَثَكُمْ] استعارة ، من حيث حصل ذلك لهم بعد موت الآخرين وقتلهم ، وقوله : (وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا) يريد بها البلاد التي فتحت بعدُ كالعراق والشام واليمن ومكة ، فوعد الله بها عند فتح حصون بني قُرَيْظَةَ ، وأخبر أنه قد قضى بذلك ، قاله عكرمة . وذكر الطبري عن فِرَقٍ أنهم خصصوا ذلك ، فقال الحسن : أراد الروم وفارس ، وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة ، وقال يزيد بن رومان ، ومقاتل ، وابن زيد : هي خَيْبَر ، وقالت فرقة : اليمن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا وجه لتخصيص شيء من ذلك دون شيء .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعَنَّ وَأَسْرِحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ

الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

اختلف الناس في سببها - فقال قتادة : سببها غيرة غارتها عائشة

رضي الله تعالى عنها ، وقال ابن زيد : وقع بين أزواجه تغاير ونحوه

مما شقي هو به - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية بسبب ذلك ،
وبشر الله أن يصرف إرادته في أن يؤوي إليه من يشاء ، وقال أبو
الزبير : نزل ذلك بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله أزواجه
النفقة ، وتَشَطَّطْنَ في تكليفه منها فوق وُسْعِه ، وقالت فرقة : بل
السبب أنهن طلبن منه ملابس وثياباً ، وقالت واحدة : لو كُنَّا عند
غير رسول الله لكننا لنا الحلي والمتاع . وقال بعض الناس : أمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهن ، وتَخْيِرهن بين الدنيا
والآخرة وأمر الطلاق مُرْجاً ، فلو اخترن أنفسهن نظر كيف يسرحهن
هو ، وليس فيها تَخْيِرهن في الطلاق ؛ لأن التخيير يتضمن ثلاث
تطبيقات وهو قد قال : (وَأَسْرَحُكُنَّ سَرَاْحًا جَمِيلاً) ، وليس مع بَتِّ
الطلاق سراحٌ جميلٌ . وقالت فرقة : بل هي آية تَخْيِير ، واخترنه
عليه الصلاة والسلام ، ولم يعد ذلك طلاقاً ، وهو قول عائشة
أيضاً .

واختلف الناس في التَّخْيِير إذا اختارت المرأة نفسها - فقال مالك :
هي طالقٌ ثلاثاً ، ولا منكرة للزوج ، بخلاف التملك . وقال غيره :
هي طلقة بائنة . وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : إذا خير
الرجل امرأته فاخترت فهي طلقة ، وهذا مخالف جداً .

قوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ، أي : إن كانت عظيم
 همتكن ومطلبكن ، أي التعمق فيها والنيل من نعمتها . و «زينة الدنيا» :
 المال والبنون ، و «تعالين» دعاء ، و [أمتعنن] معناه أعطىكن المتاع
 الذي ندب الله إليه في قوله : [وَمَتَّعُوهُنَّ] (١) ، وأكثر الناس على أنها
 من المندوبات ، وقالت فرقة : هي واجبة ، و «السراح الجميل»
 يحتمل أن يكون ما دون بئ الطلاق ، ويحتمل أن يكون في بقاء
 جميل المعتقد وحسن العشرة وجميل الثناء وإن كان الطلاق باتاً .
 و [أعدن] معناه : يسر وسنى ، و «المحسنات» : الطائعات لله والرسول .
 وأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم اللواتي نزلت الآية فيهن
 تسع ، خمس قرشيات : عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه ، وحفصة
 بنت عمر رضي الله عنه ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان (٢) ، وسودة
 بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية (٣) . وأربع غير قرشيات :
 ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية ،

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة) : ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُنْوَاعِ
 قَدَرَهُنَّ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُنَّ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ .
 (٢) اسمها رَمْلَة بنت أبي سفيان .
 (٣) اسمها هِنْد بنت سُهَيْل ، لأن اسم أبي أمية هو : سُهَيْل .

وزينب بنت جحش الأسدية (١) ، وجُوَيْرِيَّةُ بنت الحارث المصطلقية (٢) رضي الله عن أزواج رسول الله أجمعين .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من إيلائه الشهر ، ونزلت هذه الآية ، بدأ بعائشة فقال : (إني ذاكركِ أمراً ، ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك) ، ثم تلا الآية ، فقالت له : وفي هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، قالت : «وقد علم أن أبوي لا يأمراني بفراقه» ، ثم تتابع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على مثل قول عائشة رضي الله عنها ، فاخترن الله ورسوله (٣) .

(١) كان اسمها برة فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وكان اسم أبيها برة ، فقالت : يا رسول الله ، بدل اسم أبي فإن البرة حقيرة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (لو كان أبوك مؤمناً سميناه باسم رجل منا أهل البيت ، ولكنني قد سميتك جحشاً ، والجحش من البرة) ، ذكر هذا الحديث الدارقطني .

(٢) كان اسمها برة ، فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرة .

(٣) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عائشة رضي الله عنها ، والرواية على لسانها كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ، قالت : (فبدأ بي ، فقال : إني ذاكركِ أمراً) إلى آخر الحديث - حيث تقول : (وفعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت) . (الدر المنثور ، وفتح القدير) .

قوله عز وجل :

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ^ج
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٤٠﴾ * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ
صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٤١﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ
مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ
قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٤٢﴾﴾

قال أبو رافع : كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف
وسورة الأحزاب في الصباح ، وكان إذا بلغ ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ﴾ رفع بها
صوته ، ف قيل له ، فقال : أذكرهن العهد .

وقرأ الجمهور : ﴿مَنْ يَأْتِ﴾ بياء وتاء ، ﴿وَمَنْ يَقْنُتُ﴾ بياء
حملاً على اللفظ ، وقرأ عمرو بن فايد ، والجحدري ، ويعقوب :
[تَأْتِ] بتاءين و [تَقْنُتُ] بتاء من فوق حملاً على المعنى . وقال قوم :
الفاحشة إذا وردت معرفة فهي الزنى واللواط ، وإذا وردت منكرة
فهي سائر المعاصي وكل مستفحش ، وإذا وردت منعوتة بالبيان فهي
عقوق الزوج وفساد عشرته ، ولذلك نصفها بالبيان إذ لا يمكن سترها ،

والزنى وغيره يُتَسْتَرُّ به فلا يكون مبيناً ، ولا محالة أن الوعيد واقع على ما خفي منه وما ظهر . وقالت فرقة : بل قوله ﴿بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ يعم جميع المعاصي ، وكذلك الفاحشة حيث وردت . ولما كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه قوي الأمر عليهن ولزِمَهُنَّ بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب ، والإشارة بالفاحشة إلى الزنى وغيره .

وقرأ ابن كثير ، وشبل ، وعاصم (١) : [مُبَيَّنَةٍ] بفتح الياء ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وقتادة بكسرهما ، وقرأت فرقة : [يُضَاعَفُ] بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى ، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه : [نُضَاعَفُ] بنون مضمومة [أَلْعَذَابُ] نصباً ، وهي قراءة ابن محيصن ، وهذه مُفَاعَلَةٌ من واحد كطَارَقَتُ النعل وعاقبتُ اللص .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [يُضَاعَفُ] بياء مضمومة وعين مفتوحة [أَلْعَذَابُ] رفعاً ، وقرأ أبو عمرو : [يُضَعَّفُ] بتشديد العين على بناء المبالغة [أَلْعَذَابُ] رفعاً ، وهي قراءة الحسن ، وابن كثير ،

(١) قراءة عاصم بكسر الياء كما هو ثابت في المصحف . والقرطبي لم ينسب قراءة فتح الياء إلا إلى ابن كثير . والذي أثبتته الإمام الحافظ ابن الجزري أنها قراءة ابن كثير وأبي بكر ، ومن هنا نفهم أن رواية أبي بكر عن عاصم هي الفتح ، أما رواية حفص عنه فكسر الياء .

وعيشى . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [نُضَعَّفُ] بالنون وكسر العين المشددة [أَلْعَذَابَ] نصباً ، وهي قراءة الجحدري .

وقوله : [ضِعْفَيْنِ] معناه : يكون العذاب عذابين ، أي : يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر مثله . وقال أبو عبيدة ، وأبو عمرو - فيما حكى الطبري عنهما - : بل يضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة ، وضَعَفَه الطبري ، وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلق احتمال ، وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول ؛ لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأجر في الطاعة ، والإشارة بذلك إلى تضعيف العذاب .

و [يَقْنُتُ] معناه : يطيع ويخضع بالعبودية ، قاله الشعبي وقتادة . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [يَقْنُتُ] بالياء ، و [تَعْمَلُ] بالتاء ، [نُؤْتِيهَا] بالنون ، وهي قراءة الجمهور . قال أبو علي : أسند [يَقْنُتُ] إلى ضمير ، فلما تبين أنه لمؤنث حمل في [تَعْمَلُ] على المعنى ، وقرأ حمزة ، والكسائي كل الثلاثة بالياء حملاً في الأولين على لفظ [مَنْ] ، وبها قرأ الأعمش ، وأبو عبد الرحمن ، وابن وثاب ، وقرأ الأعمش أيضاً : « فَسَوْفَ يُؤْتِيهَا اللَّهُ أَجْرَهَا » .

و «الإِعْتَادُ» : التَّيْسِيرُ وَالِإِعْدَادُ ، و «الرِّزْقُ الْكَرِيمُ» : الْجَنَّةُ ،
ويجوز أن يكون في ذلك وعدٌ دنياوي ، أي أن أرزاقها في الدنيا على
الله ، وهو كريمٌ من حيث هو حلالٌ وقصد وبرضى من الله في نياله ،
وقال بعض المفسرين : العذاب الذي تُوعَدُن به ضعفين هو عذاب الدنيا
ثم عذاب الآخرة ، وكذلك الأجر ، وهذا ضعيف اللهم إلا أن يكون
أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا تدفع عنهن حدود الدنيا عذاب
الآخرة ، على ما هي حال الناس عليه ، بحكم حديث عبادة بن الصامت (١) ،
وهذا أمرٌ لم يُرو في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولا حُفِظَ تَقَرُّرُهُ .

ثم خاطبهن الله تعالى بأنهن لسن كأحد من نساء عصرهن فما بعدُ ،
بل هن أفضل بشرط التقوى ؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول عليه
الصلاة والسلام وعظم المحل منه ونزول القرآن في حقهن ، وإنما خصص
النساء لأن فيمن تقدم آسية ومريم ، فتأمله ، وقد أشار إلى هذا قتادة .

(١) رواه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ، ولفظه : (قال : كنا عند النبي صلى الله
عليه وسلم ، فقال : أتباعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا - وقرأ
آية النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ - فمن وفى منكم فأجره
على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب منها شيئاً من ذلك
فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له) .

ثم نهاهنَّ اللهُ عما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال برخيم الصوت . (فَلَا تَخْضَعْنَ) أي : لا تَلِنَنَّ ، وقد يكون الخضوع بالقول في نفس الألفاظ ورخامتها وهيئتها ، وإن لم يكن المعنى مُريباً ، والعرب تستعمل لفظة الخضوع بمعنى الميل والغزل ، ومنه قول ليلي الأخيلية حين قال لها الحجاج : هل رأيت قط من تَوْبَةٍ شيئاً تنكرينه ؟ فقالت : لا والله أيها الأمير ؛ إلا أنه أنشدني يوماً شعراً ظننت منه أنه خضع لبعض الأمر ، فأنشدته أنا :

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبُحْ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتَ سَبِيلُ^(١)

الحكاية . وقال ابن زيد : الخضوعُ بالقول ما يدخلُ في القلوب الغزل .

وقرأ الجمهور : [فَيَطْمَعُ] بالنصب على أنه نصب بالفاء في جواب التمني . وقرأ الأعرج ، وأبان بن عثمان : [فَيَطْمَعُ] بالجزم ،

(١) ذكر الأصبهاني الحكاية في الأغاني عن رجل يقال له : ورقاء ، قال : سمعت الحجاج يقول ليلي الأخيلية : إن شبابك قد ذهب ، واضمحله أمرك وأمر توبة ، فأقسم عليك إلا صدقتيني ، هل كانت بينكم ريبة قط أو خاطبك في ذلك قط ؟ فقالت : لا والله أيها الأمير ، إلا أنه قال لي ليلة - وقد خلونا - كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر ، فقلت له :

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبُحْ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتَ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لِأَخْرَجِي فَارِغٌ وَحَلِيلُ

فلا والله ما سمعتُ منه ريبةً بعدها حتى فرق بيننا الموت .

وَكُسِرَ لِلالتقاء (١) ، وهذه فاء عطف محضة ، وكان النهي دون جواب ظاهر ، وقراءة الجمهور أبلغ ، لأنها تعطي أن الخضوع بسبب الطمع ، قال أبو عمرو الداني : قرأ الأعرج ، وعيسى بن عمر : [فَيْطَمِعَ] بفتح الياء وكسر الميم .

و «الْمَرَضُ» في هذه الآية ، قال قتادة : هو النفاق ، وقال عكرمة : الفسق والغزل ، وهذا أصوب ، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية ، والقول المعروف هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأُْمِّنَ الصَّلَاةِ وَعَاتِبِنَ
الزَّكَاةِ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٣٣)

(١) قال أبو الفتح : « هو معطوف على قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ ، أي : فلا يطمع الذي في قلبه مرض ، فكلاهما منهي عنه ، إلا أن النصب أقوى معنى ، وأشد إصابة للغدر ، وذلك أنه إذا نصب كان معناه أن طمعه إنما هو مسبب عن خضوعهن بالقول ، فالأصل في ذلك منهي عنه ، والمنهي سبب هن فعلهن ، وإذا عطفه كان نهياً لهن وله ، وليس فيه دليل على أن الطمع راجع الأصل إليهن ، وواقع من أجلهن . »

قرأ الجمهور بكسر القاف ، وفتحة نافع وعاصم ، فأما الأولى فيصح أن تكون من الوقار ، تقول : وقرَّ يَقْرُ وقاراً ، وقرنَ مثل عدنَ ، ويصح أن تكون من القَرَّار ، تقول : «قَرَرْتُ بالمكان» - بفتح الراء - أَقِرُّ ، والأصل : أَقِرِّرُنْ ، حذفنا الراء الواحدة تخفيفاً ، - كما قالوا في ظَلَلْتُ : ظَلَّتْ - ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغني عن الألف^(١) ، وقال أبو علي : بل عَلَّ بآنٍ أبدلت الراء ياءً فنقلت حركتها إلى القاف ثم حذفنا الياء لسكونها وسكون الراء بعدها .

وأما الثانية فعلى لغة العرب : «قَرَرْتُ - بكسر الراء - أَقِرُّ - بفتح القاف - في المكان» ، وهي لغة ذكرها أبو عبيد في «الغريب المصنف» ، وذكرها الزجاج وغيره ، وأنكرها قوم منهم المازني وغيره ، قالوا : وإنما يقال قَرَرْتُ - بكسر الراء - من قُرَّة العين ، وأما من القَرَّار فإنما هو قَرَرْتُ - بفتح الراء - .

(١) نسب القرطبي هذا القول للمبرد ، والذي يظهر أنه رأى الفراء ؛ إذ قال في (معاني القرآن) : «أرادوا : واقرَّرنَ في بيوتكن ، فحذفوا الراء الأولى ، فحوَّلت فتحها في القاف ، كما قالوا : هلَّ أحسَّتْ صاحبك ؟ وكما قال : [فَظَلَلْتُمْ] يريد : فَظَلَلْتُمْ» ، يقصد قوله تعالى في الآية (٦٥) من سورة (الواقعة) : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَتَكَّهُونَ ﴾ .

وقرأ عاصم : ﴿ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ - بكسر الباء - ، وقرأ ابن أبي
عبلة : [وَأَقْرَبُونَ] بِالْفِ وَصَلِ وَرَاءَيْنِ الْأُولَى مَكْسُورَةً . فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
نِسَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَلَاذِمَةِ بُيُوتِهِنَّ ، وَنَهَاهُنَّ
عَنِ التَّبَرُّجِ ، وَأَعْلَمَ أَنَّهُ فَعَلَ الْجَاهِلِيَةَ الْأُولَى .

وذكر الثعلبي وغيره أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت
هذه الآية تبكي حتى تبُلُّ خمارها ، وذكر أن سودة قيل لها : لم
لا تحجّين وتعتمرين كما تفعل أخواتك ؟ فقالت : قد حججتُ
واعتمرتُ وأمرني الله أن أقرّ في بيتي ، قال الراوي : فوالله ما خرجت
من باب حُجرتها حتى أُخرجت جنازتها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبكاء عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل ،
وحينئذ قال لها عمّار رضي الله عنه : إن الله قد أمرك أن تقرّي في بيتك .
و «التبرُّج» : إظهار الزينة والتصنع بها ، ومنه البرُّوج ؛ لظهورها
وانكشافها للعيون .

واختلف الناس في «الجاهلية الأولى» - فقال الحكم بن عيينة :
ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، وهي ثمانمائة سنة ، وحكيت لهم
سير ذميمة ، وقال ابن الكلبي وغيره : ما بين نوح وإبراهيم عليهما

السلام ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بين نوح وإدريس
عليهما السلام ، وذكر قصصاً ، وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى
عليهما السلام ، وقال عامر الشعبي : ما بين عيسى ومحمد عليهما
الصلاة والسلام ، وقال أبو العالية : هي زمن داود وسليمان عليهما السلام ،
كان فيه للمرأة قميص من الدرّ غير مخيط الجانبين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي لَحِقْنَاهَا ، فأمرن
بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ؛
لأنهم كانوا لا غيرة عندهم ، وكلُّ أمر النساء دون حجة ، وجعلها
أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام ، وليس المعنى أن ثمَّ جاهلية أخرى ،
وقد مرَّ اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام فقالوا : جاهلي
في الشعراء ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري : «سمعت
أبي في الجاهلية يقول» ، إلى غير هذا .

و [الرَّجْس] اسم يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسات
والنقائص ، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت ، ونصب ﴿أَهْلَ
الْبَيْتِ﴾ على المدح ، أو على النداء المضاف ، أو بإضمار : أعني .

واختلف الناس في أهل البيت - من هم ؟ فقال عكرمة ، ومقاتل ،
وابن عباس رضي الله عنهما : هم زوجاته خاصة ، لا يدخل معهن رجل .
وذهبوا إلى أن [أَلْبَيْت] أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وسلم .
وقالت فرقة - هي الجمهور - : أهل البيت : عليٌّ وفاطمة والحسن
والحسين رضوان الله عليهم ، وفي هذا أحاديث نبوية . قال أبو سعيد
الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نزلت هذه الآية في
خمسة : فيّ ، وفي عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين) (١) ، ومن حجة
الجمهور قوله تعالى : [عَنْكُمْ] [وَيُطَهَّرُكُمْ] بالميم ، ولو كان للنساء
خاصة لكان : «عَنْكُمْ» و «يُطَهَّرُكُمْ» ، والذي يظهر لي أن زوجاته
لا يخرجن عن ذلك البتة ، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها ،
وهذه الآية تقتضي أن الزوجات من أهل البيت ؛ لأن الآية فيهن ،
والمخاطبة لهن ، أما إن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي .
فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فدخل
معهم تحت كساء خيبريٍّ ، وقال : (هؤلاء أهل بيتي) ، - وقرأ الآية -
وقال : (اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) ، قالت أم سلمة :
فقلت : وأنا يا رسول الله ؟ فقال : (أنت من أزواج النبي ، وأنت

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله

عنه . (الدر المنثور) .

إلى خير) (١). وقال الثعلبي : هم بنو هاشم ، فهذا على أن [الْبَيْتَ] يراد به النسب ، فيكون العباسُ وأعمامُه وبنو أعمامه منهم ، وروى نحوه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

قوله عز وجل :

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤) **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴿٣٥﴾

(١) أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة ، وأخرج مثله الطبراني عنها أيضاً ، وأخرج مثلها ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أم سلمة أيضاً . وأخرج مثل هذه الأحاديث ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . (الدر المنثور) - وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الإمام أحمد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة رضي الله تعالى عنها ستة أشهر إذا خرج للصلاة الفجر ، يقول : (الصلاة بأهل البيت ، إنما يريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ، قال ابن كثير ، ورواه الترمذي ، وقال : حديث حسن هريب .

اتصال هذه الألفاظ يعطي أن ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نساؤه ، وعلى قول الجمهور هي ابتداء مخاطبة ، أمر الله تعالى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم - على جهة الموعظة وتعدد النعمة - بذكر ما يُتلى في بيوتهن ، ولفظ «الذكر» هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتقدير نعمة : أحدهما أن يريد : [أَذْكُرَنَّ] ، أي : تذكّرته وأقدّرته قدره ، وفكّرته في أن من هذه حاله ينبغي أن يُحسّن أفعاله ، والآخر أن يريد : [أَذْكُرَنَّ] بمعنى : احفظن واطرقن وألزمه الألسنة ، وكأنه يقول : واحفظن أوامر الله ونواهيه ، وذلك الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله ، وذلك مُؤدِّكُنَّ إلى الاستقامة . و [الْحِكْمَةَ] هي سنة الله تبارك وتعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام دون أن تكون في قرآن متلو ، ويحتمل أن تكون وصفاً للآيات ، وفي قوله : [لَطِيفاً] تأنيسٌ وتعدد نعمة ، أي : لطيف بكن في هذه النعمة ، وفي قوله : [خَبيراً] تحذيرٌ ما . قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية . روي عن أم سلمة أن سببها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : «يا رسول الله ، يذكر الله تعالى الرجال في كتابه في كل شيء ، ولا يذكرنا» ، فنزلت الآية في ذلك (١) .

(١) أخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والطبراني ، عن أم سلمة رضي الله عنها . (الدر المنثور) .

وروي قتادة أن نساءً من الأنصار دخلن على أزواج النبي عليه الصلاة والسلام ، فقُلْنَ لَهُنَّ : « ذَكَرَكُنَّ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يَذَكَرْ سَائِرَ النِّسَاءِ بِشَيْءٍ » ، فنزلت الآية في ذلك (١) . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نساء النبي قلن له : « ما له تعالى يذكر المؤمنين ولم يذكر المؤمنات » ، فنزلت الآية في ذلك (٢) .

وبدأ تعالى بذكر «الإسلام» الذي يُعَمُّ الإِيمانَ وعَمَلِ الجوارح ، ثم ذكر «الإيمان» تخصيماً له وتنبهياً على أنه عَظْمُ الإِسلامِ ودعامته ، و «الْقَانِتُ» : العابد المطيع ، و «الصَّادِقُ» معناه : فيما عاهد عليه أن يفي به ويكمله ، و «الصابر» : عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْرَهِ والمَنْشَطِ ، و «الخاشعُ» : الخائفُ اللهُ المستكينُ لربوبيته الوقورُ ، و «الْمُتَّصِدِّقُ» بالفِرْضِ والنَّفْلِ ، وقيل : بل هي في الفِرْضِ خاصةً ، والأول أمدح ، و «الصائم» كذلك في الفِرْضِ والنَّفْلِ ، و «حِفْظُ الفَرَجِ» هو من الزنى وشبهه ، ويدخل مع ذلك كل ما يؤدي إلى الزنى

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن سعد عن عكرمة عن قتادة من وجه آخر . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

أو هو في طريقه . وفي قوله : [وَالْحَافِظَاتِ] حذف ضمير يدل عليه المتقدم ، تقديره : والحافظاتُها ، وفي [الذَّاكِرَاتِ] أيضاً مثله ، و «المَغْفِرَةُ» هي سترُ ذنوبهم والصَّفْحُ عنها ، و «الْأَجْرُ الْعَظِيمُ» : الْجَنَّةُ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ
 الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ
 تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ
 فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا
 وَطَرًّا زَوْجَهَا لَوْ كَانَ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرَّجَ فِي أَزْوَاجِهِمْ إِذَا
 قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٦٨﴾﴾

قوله : ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظه النفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا ، وهذه العبارة : (ما كان) و (ما ينبغي) ونحوها تجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون ، وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً ، كقوله :

﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ (١) ، وربما كان العلم بامتناعه شرعاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ (٢) ، وربما كان حظره بحكم شرعي لهذه الآية ، وربما كان في المندوبات ، كما تقول : « ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل » ونحو هذا .

وسبب هذه الآية فيما قال قتادة ، وابن عباس ، ومجاهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش ، فظننت أن الخطبة لنفسه ، فلما بين أنه إنما يريد لها لزيد بن حارثة كرهت وأبت ، فنزلت الآية ، فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته (٣) ، وقال ابن زيد : إنما أنزلت بسبب أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك هي وأخوها ، وقالوا : إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها غيره . فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد (٤) .

(١) من الآية (٦٠) من سورة (النمل) .

(٢) من الآية (٥١) من سورة (الشورى) .

(٣) أخرجه الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن جرير ، وابن مردويه ، وأخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه . (الدر المنثور) . ورواه الطبري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال الحافظ بن حجر في « تخریج الكشاف » : « رواه الثعلبي بغير سند » .

و [الْخَيْرَةُ] : مصدر بمعنى التَّخْيِيرُ ، وهذه الآية في ضمن قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ أُوتُوا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ . وهذه الآية تُقَوِّي في قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ (١) أَنْ [مَا] نافية لا مفعولة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، وعيسى : ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ بالتاء على لفظ [الْخَيْرَةُ] .
 وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، والأعمش ، وأبو عبد الرحمن : ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ على معنى [الْخَيْرَةُ] ، وأن تأنيثها غير حقيقي . وقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ دون علامة تأنيث يُقَوِّي هذه القراءة التي بالياء .

ثم توعدَّ تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ، وهذا العصيان يُعمُّ الكفر فما دونه ، وكلُّ عاصٍ آخذٌ من الضلال بقدر معصيته .

ثم عاتب تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية . واختلف الناس في تأويلها - فذهب قتادة ، وابن زيد ، وجماعة

(١) من الآية (٦٨) من سورة (القصص) .

من المفسرين - منهم الطبري وغيره - إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع منه استِحْسَانٌ لزَيْنَب وهي في عصمة زيد ، وكان حريصاً على أن يطلقها زيدٌ فيتزوجها هو ، ثم إنَّ زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها ، ويشكو منها غِلْظَةً قولٍ وَعِضْيَانَ أَمْرٍ وَأَذَى بِاللِّسَانِ وَتَعْظُمًا بِالشَّرْفِ قال له : ﴿ أَتَقِي اللَّهَ ﴾ ، أي فيما تقول عنها ، و ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ ، وهو يخفي الحرصَ على طلاق زيدٍ إِيَّاهَا ، وهذا هو الذي كان يخفي في نفسه ، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف . وقالوا : خَشِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَةَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ ، فعاتبه الله على هذا (١) .

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور أن أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي . وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في السنن قد أخرجوا عن أنس رضي الله عنه أنه قال : جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه يشكو زينب رضي الله عنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ . فتزلت : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ ، قال أنس : فلو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً لکنتم هذه الآية ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أولتم على امرأة من نسائه ما أولتم عليها ، ذبح شاة ... الخ ما ذكره السيوطي . والصواب في معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ هو ما ذكره ابن عطية من أنه خشي قالة الناس . وأخفى علمه بأن زيداً سيطلق زينب وأن الله سيزوجها له ، بدليل أن الذي أبداه الله تعالى هو زواجه إِيَّاهَا في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا ﴾ ، ولم يُبْدِ الله تعالى شيئاً مما زعموه من حبه صلى الله عليه وسلم لها ، ثم إن الله تعالى صرح بأنه هو الذي زوجه إِيَّاهَا لحكمة ذكرت صريحة في الآية في قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ .

وقرأ ابن أبي عبيدة : « مَا اللَّهُ مُظْهِرَةٌ » ، وقال الحسن : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدُّ عليه من هذه الآية ، وقال هو وعائشة رضي الله عنهما : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتتم هذه الآية لِشِدَّتِهَا عليه ، وروى ابن زيد في نحو هذا القول أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم طلب زيدا في داره فلم يجده ، ورأى زينب حاسرةً فأعجبته فقال : (سبحان الله مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ) (١) وروى في هذه القصة أشياء يطول ذكرها ، وهذا الذي ذكرنا مُسْتَوْفٍ لمعانيها .

وذهب قوم من المتأولين إلى أَنَّ الآية لا كبير عتب فيها ، ورووا عن علي بن الحسين أَنه قد كان أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ زيدا يطلق زينب ، وَأَنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خُلُقَ زينب وَأَنَّها لا تطيعه ، وأعلمه بَأَنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : (أَتَقِ اللَّهَ) - أَي في أقوالك - (وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ

(١) قال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف : « ذكره الثعلبي بدون سند » ، وكذلك ذكر مثل هذا المعنى الخازن البغوي بدون سند ، وما رواه الطبري في هذا كان عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم . وعبد الرحمن بن زيد هذا ضعيف .

زوجك) ، وهو يعلم أنه سيفارقها ، وهذا هو الذي أخفى في نفسه ، ولم يُرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها ، وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تبارك وتعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيءٍ قد أباحه الله له بأن قال : «أَمْسِكْ» مع علمه بأنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية ، أي في كل حال (١) .
قوله تعالى : ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالإسلام وغيره ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي بالعتق ، وهو زيد بن حارثة ، وزينب بنت جحش هي بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي عليه الصلاة والسلام .

ثم أعلم تعالى أنه زوجها منه لما قضى زيد وطره منها ليكون سنة للمسلمين في أزواج أديائهم ، وليبين أنها ليست كحرمة البنوة ، ورؤي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لزيد : (ما أجد في نفسي أوثق منك ، فاخطب زينب عليّ) ، قال : فذهبت ووليتها ظهري توقيراً

(١) قال القرطبي في تفسيره ، ونقله عنه أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : «قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية . وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ، كالزهري ، والقاضي بكر بن العلاء القشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي ، وغيرهم .»

للنبي عليه الصلاة والسلام ، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربِّي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ودخل بها (١) .

و «الْوَطْرُ» : الحاجة والبُغية ، والإشارة إلى الجماع ، وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «وَطْرًا زَوَّجْتُكُمَا» . وذهب بعض الناس من هذه الآية ومن قول شعيب : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ (٢) إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أن يكون : «أَنْكِحَهُ إِيَّاهَا» ، فَتُقَدَّمُ ضمير الزوج كما في الآيتين ، وهذا عندي غير لازم ؛ لأن الزوج في الآية مُخَاطَبٌ فَحَسُنَ تقديمه ، وفي المهور الزوجان غائبان (٣) فَتُقَدَّمُ من شئت ، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال وأنهم القائمون .

(١) رواه أحمد في المسند ، ومُسَلَّمٌ في صحيحه ، والنسائي في سننه ، وذكر السيوطي في الدر المنثور أن ابن سعد ، وأبا يعلى ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، كلهم قد أخرجوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (القصص) .

(٣) معنى ذلك أنهما في الرتبة سواء ، ولا ترجيح لأحد الضميرين على الآخر ، اللهم إلا إذا رُوي ترجيح ضمير الرجال .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ فيه حذفٌ مضافٌ تقديره : « وكان حكم أمر الله » ، أو « مُضَمَّنَ أمر الله » ، وإِلَّا فالأمر قديمٌ لا يوصف بأنه مفعول ، ويحتمل - على بُعد - أن يكون « الأَمْرُ » واحد الأُمور التي شأنها أن تُفعل . ورُوي أن عائشة وزينب تفاخرتا ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أنا التي سِيقَتْ صفتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة في سَرَقَةٍ حرير (١) ، وقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي زَوَّجني الله من فوق سبع سموات (٢) ، وقال الشعبي : كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأَدِلُّ عليك بثلاثٍ ما من نساءك امرأةٌ تَدِلُّ بهن ، إنَّ جدِّي وجدَّك واحد ، وإنَّ الله أنكحك إياي من السماء ، وإن السفير في ذلك جبريل (٣) .

(١) السَّرَقُ : شقق الحرير ، أو أجوده ، والواحدة سَرَقَةٌ . (مع) - عن المعجم الوسيط .
 (٢) لفظه في القرطبي : (أنا التي جاء بي الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سَرَقَةٍ من حرير ، فيقول : « هذه امرأتك ») ، ثم قال : « خرَّجه الصحيح » . وقال السيوطي في « الدر المنثور » : « أخرج الحكيم الترمذي ، وابن جرير عن محمد بن عبد الله بن جحش ، قال : تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما ، فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أنا الذي نزل علي من السماء في كتابه حين حملني ابن المفضل على الراحلة ، فقالت لها زينب رضي الله عنها : ما قلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، قالت : قلت كلمة المؤمنين .
 (٣) أخرجه ابن جرير عن الشعبي . (الدر المنثور) .

قوله عز وجل :

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۗ
وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا ﴾ (٢٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَهُ وَلَا يَحْشُونَ
أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ
وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٣١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي
عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٣٣﴾
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَّمَ ۗ وَاعِدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٣٤﴾ ۞

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأئمة ، أعلمهم أنه لا حرج
على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيل ما فرض الله له وأباحه ،
من تزوجه لزينب بعد زيد ، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم
في الأنبياء ، من أن ينالوا ما أحله الله لهم ، وحكى الثعلبي عن مقاتل
وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام ، حيث جمع الله بينه
وبين من فُتن بها . و [سنة] نصب على المصدر ، أو على إضمار فعل

تقديره : الزم أو نحوه ، أو على الإغراء ، كأنه قال : فعَلَيْهِ سُنَّةُ اللَّهِ . و (الَّذِينَ خَلَوْا) هم الأنبياء ، بدليل وصفهم بعدُ بقوله : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ) . و (أمرُ اللَّهِ) في هذه الآية ، أي : مأمورات الله والكائنات عن أمره ، فهي مقدورة ، وقوله : [قَدَرًا] فيه حذف مضاف ، أي : ذا قَدَرٍ وَعَنْ قَدَرٍ ، وقرأ ابن مسعود : «الَّذِينَ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ اللَّهِ» .

وقوله : (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) تعريض بالعتاب الأول في خشية النبي صلى الله عليه وسلم الناس ، ثم رد الأمر كله إلى الله ، وأنه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات ، وكفى به لا إله إلا هو ، ويحتمل أن يكون [حَسِيبًا] بمعنى «مُحْسِبٍ» ، أي كافيًا .

قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) . أذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من بعد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينبَ زوجة دَعِيَّةِ زيد ؛ لأنهم كانوا استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه ، فنفى القرآن تلك الصورة في البُنُوَّةِ ، وأعلم أن محمداً لم يكن في حقيقة أمره أباً أحد من رجال المعاصرين له ، ولم يُقصد بهذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج في أمر بنيه بأنهم كانوا ماتوا ، ولا في أمر

الحسن والحسين بأنهما كانا طفلين ، ومن احتج بذلك فإنه تأول
نفي البُنوّة عنه بهذه الآية على غير ما قصد بها .

وقرأ ابن أبي عبيدة وبعض الناس : ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ بالرفع
على معنى : هو رسولُ الله ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، والأعرج ،
وعيسى : [رَسُولَ] بالنصب على العطف على [أَبَا] ، وهؤلاء قرءوا
[وَلَكِنْ] بالتخفيف ، وقرأت فرقة : [وَلَكِنْ] بشد النون ، فينتصب
[رَسُولَ] على أنه اسم [لَكِنْ] والخبر محذوف .

وقرأ عاصم وحده (١) ، والحسن ، والشعبي ، والأعرج بخلاف :
﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بفتح التاء على معنى أنهم به خُتِمُوا ، فهو كَالْخَاتَمِ
وَالطَّابِعِ لَهُمْ ، وقرأ الباقر والجمهور بكسر التاء بمعنى أنه خَتَمَهُمْ
أي جاء آخرهم ، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام
قال : (أنا خاتم ألف نبي) (٢) ، وهذه الألفاظ عند جماعة علماء الأئمة

(١) يعني : من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف .

(٢) الأحاديث في ذلك كثيرة ، وهي مروية في صحيح السنّة ، ومنها ما أخرجه البخاري ،
ومسلم ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل ابنتى داراً فأكلها وأحسنها
إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع اللبنة ، فأنا موضع
اللبنة ، فختم بي الأنبياء) . ومنها ما رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه =

خَلْفًا وَسَلَفًا مُتَلَقَّاءٌ عَلَى الْعَمومِ التام ، مُقْتَضِيَةٌ نَصًّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، وما ذكره القاضي ابن الطَّيِّب في كتابه المسمَّى بالهداية من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف ، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالاقتصاد إلحادٌ عندي ، وتطرَّقُ خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد عليه الصلاة والسلام النبوة ، فالحذر الحذر منه ، والله الهادي برحمته (١) . وقرأ ابن مسعود : « مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ نَبِيًّا خَتَمَ النَّبِيِّينَ » ، قال الرُّمَّانِي : خُتِمَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْاِسْتِصْلَاحُ ، فَمَنْ لَمْ يَصْلِحْ بِهِ فَمَيْثُوسٌ مِنْ صِلَاحِهِ . قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ عمومٌ ، والمقصود به هنا علمه تبارك وتعالى بما رآه الأصلح لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما قدره في الأمر كله .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسِيتٌ : أُعْطِيَتْ جِوَامِعُ الْكَلِيمِ ، وَنُصِرَتْ بِالرَّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ طَهورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ) . ومنها ما أخرجه البخاري ، ومسلم ، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنْ لِي أَسْمَاءٌ : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يَحْشُرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ) .

(١) نقل هذا الكلام عن ابن عطية كلٌّ من القرطبي في تفسيره ، وأبو حيان في البحر

المحيط .

ثم أمر تعالى عباده بأن يذكروه ذكراً كثيراً ، وجعل ذلك دون حدٍّ ولا تقدير لسهولته على العبيد ، ولِعِظَمِ الأجر فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يعذر أحدٌ في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله ، وقال : الكثيرُ : ألا ينسأه أبداً ، وروى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، (أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون) (١) .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أراد : في كل الأوقات ، فحدّد الزمن بطرفي نهاره وليله ، وقال قتادة ، والطبري وغيرهما : الإشارة إلى صلاتي الغداة والعصر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية مدنية فلا يتعلق بها من زعم أن الصلاة إنما فرضت أولاً صلاتين في طرفي النهار ، والرواية بذلك ضعيفة . و «الأصيل» من العصر إلى الليل .

ثم عدّد تعالى على عباده نعمته في الصلاة عليهم ، وصلاة الله تبارك وتعالى على العبيد هي رحمته لهم ، وبركته لديهم ، ونشره إلينا الجميل ، وصلاة الملائكة الدعاء للمؤمنين ، وروت فرقة أن

(١) أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان . والحاكم وصححه . (الدر المنثور) .

النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : يا رسول الله ، كيف صلاة الله على عباده ؟ قال : (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي) (١) ، واختلف في تأويل هذا القول - ف قيل : إنه كله من كلام الله ، وهي صلاته على عباده ، وقيل : «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ» من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، يُقدمه بين يَدَيَّ نطقه باللفظ الذي هو صلاة الله ، وهو : «رحمتي سبقت غضبي» ، وقدم عليه الصلاة والسلام هذا من حيث فهم من السائل أن توهم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله تعالى ، فقدم التنزيه لله والتعظيم بين يَدَيَّ إخباره .

وقوله تعالى : [لِيُخْرِجَكُم] أي : صَلَاتُهُ وَصَلَاةُ مَلَائِكَتِهِ لَكِي يَهْدِيَكُمْ وَيُنْقِذَكُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ، ثم أخبر تبارك وتعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم .

(١) أخرج ابن مردويه عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ قال : (صلاته على عباده سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، تغلب رحمتي غضبي) ، وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق عطاء بن رباح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قلت لجبريل عليه السلام : هل يصلي ربك ؟ قال : نعم ، قلت : وما صلاته ؟ قال : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، سبقت رحمتي غضبي) .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ ، قيل : يوم القيامة المؤمن تحييه الملائكة بالسلام ، ومعناه : السلامة من كل مكروه . وقال قتادة رضي الله عنه : يوم دخولهم الجنة يُحْيِي بعضهم بعضاً بالسلام ، أي : سلمنا وسلمت من كل همٍّ وتخوف . وقيل : تحييه الملائكة يومئذ ، وأما «الأجر الكريم» فإنه جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى .

قوله عز وجل :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سِرًّا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

هذه الآيات فيها تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم ، وقوله : [شاهداً] معناه : على أمتك بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم في تبليغ أنبيائهم ، ونحو ذلك . وقوله : [ومبشراً] معناه : مبشراً للمؤمنين برحمة الله وبالجنة . و [نذيراً] معناه : للعصاة

والمكذبين من النار وعذاب الخلد . قال ابن عباس رضي الله عنهما :
لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ومُعَاذاً
رضي الله عنهما ، فبعثهما إلى اليمن ، وقال : (أذهبا فَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا ،
وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا ، فَإِنِّي قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ : وَقُرْأَ الْآيَةَ) (١) ، و «الدُّعَاءُ
إِلَى اللَّهِ» هو تبليغ التوحيد والأخذ به ، ومكافحة الكفرة . و «بِإِذْنِهِ»
معناه هنا : بأمره إِيَّاكَ وتقديره ذلك في وقته وأوانه . و (سِرَاجاً مُنِيرًا)
استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه ، فكان المهتدين به والمؤمنين يخرجون
بنوره من ظُلْمَةِ الكفر .

وقوله تعالى : [وَبَشِّرْ] ، الواو عاطفة جملة على جملة ، والمعنى
منقطع من الذي قبله ، أمره تعالى بأن يبشِّر المؤمنين بالفضل الكبير
من الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قال لنا أبي رضي الله عنه : هذه من أرجى آية عندي في كتاب
الله تعالى ؛ لأن الله سبحانه قد أمر نبيه أن يبشِّر المؤمنين بأن لهم عنده

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر ،
عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

ثم خاطب تعالى المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء (١) .
 وأستدل بعض الناس بقوله : (ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ) وبمهلة [ثُمَّ] على أن
 الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح ، وأن من طلق المرأة قبل نكاحها
 وإن غينها - فإن ذلك لا يلزمه ، وقال هذا نيّف على ثلاثين من أصحاب
 وتابع وإمام ، سَمَّى البخاري منهم اثنين وعشرين (٢) . وقالت طائفة
 من أهل العلم : إن طلاق المعينة الشخص أو القبيل أو البلد لازم قبل
 النكاح ، منهم مالك وجميع أصحابه وجمع عظيم من علماء الأئمة
 وقرأ جمهور القراء : [تَمَسُّهُنَّ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وطلحة ،
 وابن وثاب : [تَمَسَّوهُنَّ] ، والمعنى فيهما الجماع ، وهذه العدة إنما هي
 لاستبراء الرحم وحفظ النسب في الحمل ، فمن لم تمس فلا يلزم
 ذلك فيها . وقرأ جمهور الناس بتشديد الدال من [تَعْتَدُونَهَا] على وزن تفتعلونها ،
 من العدة (٣) ، وروى ابن أبي برزة عن ابن كثير [تَعْتَدُونَهَا] بالتخفيف ،

(١) يقال : بنتى بزوجه وعليها : دخل بها . (المعجم الوسيط) .

(٢) سَمَّاهم البخاري في باب (لا طلاق قبل النكاح) ، لكنه ذكر أربعة وعشرين اسماً .

(٣) في بعض النسخ : « من العدد » ، وعلى كل فالعنى : تستوفون عددها ، من قولك :

عدّ الدراهم فاعتدتها ، أي : استوفى عددها ، وهذا نحو قولك : كلتُه واكتالته .

من العدوان ، كأنه قال : فما لكم من عدة تعتدونها عدواناً وظلماً
لهن (١) . والقراءة الأولى أشهر عن ابن كثير ، وتخفيف الدال وهم
من ابن أبي برزة (٢) .

ثم أمر تعالى بتمتع المطلقة قبل البناء ، واختلف الناس في المتعة -
فقال فرقة : هي واجبة ، وقالت فرقة : هي مندوب إليها ، منهم
مالك وأصحابه ، وقال قوم : المتعة للتي لم يُفرض لها ، ونصف المهر
للتّي فرض لها ، وقال سعيد بن المسيب : بل المتعة كانت لجميعهن

(١) في بعض النسخ : «فما لكم من عدة تلمونها عدواناً وظلماً هن» .
(٢) قال أبو حيان تعقياً على كلام ابن عطية بعد أن ذكره : «وليس بوهم ؛ إذ قد نقلها
عن ابن كثير ابن خالويه ، وأبو فضل الرازي في كتاب «اللوامح» في شواذ القراءات ، ونقلها
الرازي المذكور عن أهل مكة ، وقال : هو من الاعتداد لا محالة ، لكنهم كرهوا التضعيف
فخففوه ، فإن جعلت من الاعتداء الذي هو الظلم ضعف ؛ لأن الاعتداء يتعدى بعكسي ،
ثم أكمل أبو حيان كلامه فقال : «وإذا كان يتعدى بعكسي فيجوز أن يحذف (على) ويصل الفعل
إلى الضمير ، نحو قوله :

تَحِينُ فَتُبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ وَأُخْفِيَ النَّدَى لَوْلَا الْأَسَى لَقَضَانِي

أي : لقضى عكسي . وقال الزمخشري : «وقرى (تعتدونها) مخففاً ، أي : تعتدون فيها ،
كقوله : ويوماً شهدناه ، والمراد بالاعتداء ما في قوله : ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُمْ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا﴾ ،
ومعنى كلامه أنه لما حذف حرف الجر وصل الفعل إلى ضمير العدة ، وذلك كقول الشاعر :

وَيَوْمًا شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا

أي : شهدنا فيه سليمان وعامراً ، أما على تقدير (عكسي) فيكون المعنى : تعتدون عليهن فيها .

بهذه الآية ، ثم نسخت آية البقرة بالنصف لمن فرض لها ما تضمنته هذه الآية من المتعة .

وهذه الآية خصصت آيتين : إحداهما (وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) (١) ، فخصصت هذه الآية من لم يدخل بها ، وكذلك خصصت من ذوات الثلاثة الأشهر ، وهُنَّ من قَعَدْنَ عن المحيض (٢) ، ومن لم يحضن من صغير المطلقات قبل البناء . و «السَّراحُ الجميلُ» هو الطلاق يتبعه عشرة حسنة وكلمة طيبة دون أذى .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيَجْلَىٰ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٥﴾ ﴾

(١) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة) .

(٢) وهن اللاتي ذكرهن الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَاللَّاتِي يَتَّبِعْنَ مِنْ الْمُحْبِصِاتِ مِنَ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ — من الآية (٤) من سورة (الطلاق) .

قرأ الجمهور: [اللاتي] ببناء من فوق ، وقرأ الأعمش: [اللاتي] ببناء من تحت (١) . وذهب ابن زيد ، والضحاك في تفسير قوله: ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ إلى أن المعنى أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها ، وأباح له كل النساء بهذا الوجه ، وأباح له ملك اليمين ، وأباح له بنات العم والعمة والخال والخالة ممن هاجر معه ، وخصص هؤلاء بالذكر تشريفاً وتنبهاً ، إذ قد تناولهن - على تأويل ابن زيد - قوله: ﴿ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، وأباح له الواهبات خاصة له ، فهذه - على تأويل ابن زيد - إباحتهم مطلقاً في جميع النساء حاشى ذوات المحارم ، لاسيما - على ما ذكره الضحاك - أن في مصحف ابن مسعود «وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَاللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ» . ثم قال - بعد هذا - : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي : من هذه الأصناف كلها ، ثم تجري الضمائر بعد ذلك على العموم إلى قوله: ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ فيجوز هذا الضمير مقطوعاً من الأول عائداً على أزواجه التسع فقط ، على الخلاف في ذلك .

وتأول غير ابن زيد في قوله: ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أن الإشارة إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما ومن

(١) في بعض النسخ: ببناء من تحت .

في عصمته ممن تزوجن بمهر ، وأن ملك اليمين بعد حلال له ، وأن الله تعالى أباح له صلى الله عليه وسلم مع المذكورات بنات عمه وعماته وخاله وخالاته ممن هاجرن معه ، والواهبات خاصة له صلى الله عليه وسلم ، فيجزي الأمر على هذا التأويل - أضيف على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج في أي الناس شاء ، وكان ذلك يشق على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وجرم عليه الناس (١) إلا من سمي سر نساؤه بذلك » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأن ملك اليمين إنما تعلقه في النادر من الأمر ، وبنات العم والعمات والخال والخالات يسير (٢) ، ومن يمكن أن يتزوج منهن محصور عند نسائه ، لاسيما وقد قيد ذلك بشرط الهجرة ، وكذا الواهب من النساء قليل ، فلذلك سُرَّ أزواجه بإنحصار الأمر ، ثم يجيء قوله : « ترجي من تشاء منهن » إشارة إلى من تقدم ذكره ، ثم يجيء

(١) هكذا في جميع الأصول ، واللفظ في القرطبي : « حرم عليه النساء » . وهو أيضاً اللفظ في (الدر المشور) ، وقد ذكر الخبير ، وقال : « أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه » .
 (٢) سقطت كلمة (يسير) من جميع الأصول ، والتصويب عن (البحر المحيط) الذي نقل الكلام كاملاً ، فيكون المعنى : بنات العم والعمات والخال والخالات أمرهن يسير ، على أنه يمكن أن يجعل « محصور عند نسائه » خبراً عن المبتدأ « بنات » مع ما في ذلك من حقائق .

قوله : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَهُ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ إشارة إلى أزواجه اللواتي تقدم النص عليهن بالتحليل ، فيأتي الكلام منسقاً مطرداً أكثر من أطراده على التأويل الأول (١) . والأجور : المهور .

وقوله : ﴿ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ ﴾ أي رده عليك في الغنائم ، يريد : أو على أمتك لأنه فيء عليه . وملك اليمين أصله الفيء من الغنائم ، أو ما تناسل ممن سبي ، والشراء من الحربيين كالسباء ، ويباح السباء من الحربيين ، ولا يجوز سبي من له عهد ولا تملكه ، ويسمى سبي الخبيثة (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ ﴾ يريد قرابته (٣) ، روي عن أم هانئ بنت أبي طالب أنها قالت : « خطبني رسول الله صلى الله عليه

(١) ولأن قوله تعالى : ﴿ آتَيْتَ أَجُورَهُمْ ﴾ ماضٍ ، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط .

(٢) الخبيثة : الحرام ، ويقال : سبني لا خبيثة فيه ، أي : سبي من قوم يحل استرقاقهم ، وسبني خبيثة ، أي : سبني من قوم لا يحل استرقاقهم لعهد تقدم لهم ، أو حرية في الأصل ثبت لهم . (راجع كتب اللغة والمعجم) .

(٣) قال ابن كثير : « هذا عدلٌ وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباحت بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وبمحرّم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا شنيع فظيع . »

وسلم ، فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم نزلت هذه الآية فحرممتني عليه
لأنني لم أهاجر معه ، وإنما كنتُ من الطُّلُقَاءِ» (١) .

وقرأ جمهور الناس : (إِنْ وَهَبْتُ) بكسر الألف ، وهذا يقتضي
استثناف الأمر ، أي : إِنْ وقع فهو حلال له ، على أنه قد رُوِيَ عن
ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « لم يكن عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين . وأما بالهبة فلم يكن
عنده منهن أحد . » . وقرأ الحسن البصري ، وأبي بن كعب ، والثقفى ،
والشَّعْبِي : (أَنْ وَهَبْتُ) بفتح الألف ، فهي إشارة إلى ما وقع من
الواهبات قبل نزول الآية ، وكسر الألف يجري مع تأويل ابن زيد
الذي قدَّمناه ، وفتحها يجري مع التأويل الآخر ، ومن قرأ بالفتح قال :
الإشارة إلى من وهب نفسه للنبي صلى الله عليه وسلم من النساء على
الجملة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما حكى الطبري - :
هي ميمونة بنت الحارث ، وقال علي بن الحسين : هي أمُّ شريك .

(١) أخرجه ابن سعد ، وابن راهويه ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ،
وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي . (الدر المنثور) ،
وقال القرطبي : « أخرجه أبو عيسى وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .
قال ابن العربي : « وهو ضعيف جداً ، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج بها » .

وقال الشعبي وعُروة : هي زينب بنت خزيمة أم المساكين ، وقال أيضاً
 عُروة بن الزبير : هي خولة بنت حكيم بن الأوقص السلمي ، وفي
 مصحف بن مسعود : « وامرأة مؤمنة وهبت » ، دون « إن » .
 وقوله : « خالصة لك » أي : هبة النساء أنفسهن خاصة ومزينة
 [لا تجوز] (١) ، فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل ، وأجمع الناس
 على أن ذلك غير جائز ؛ إلا ما روي عن أبي جنيفة ، ومحمد بن
 الحسن ، وأبي يوسف أنهم قالوا : إذا وهبت وأشهد هو على نفسه بمهر
 فذلك جائز .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : قوله « خالصة لك »
 فليس في قولهم إلا تجويز العبارة بلفظة ألّهبة . وإلا فالأفعال
 التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه ، ويظهر من لفظ أبي بن كعب
 رضي الله عنه أن معنى قوله : « خالصة لك » يراد به جميع الإباحة ،
 لأن المؤمنين قُصروا على مثنى وثلاث ورباع .
 قوله تعالى : « قَدْ عَلِمْنَا » الآية ، يريد : فرَضْنَا الوليَّ والشاهدَ
 والمهرَ والاقتصارَ على أربع ، قاله قتادة ومجاهد ، وقال أبي بن كعب :

(١) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية ، وقد سقطت هذه
 الزيادة من الأصول .

هو مشى وثلاث ورباع . وقوله : ﴿لَعَلَّأ يَكُون﴾ أي : بينا هذا البيان ، وشرحنا هذا الشرح لئلا يكون عليك حرج ويظن بك أنك أثمت عند ربك في شيء ، ثم آانس الجميع من المؤمنين بغفرانه ورحمته .

قوله عز وجل :

﴿ تَرْجِي مَن نَّسَاءَ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن نَّسَاءَ وَمِنِ ابْتِغَايَتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقْرَءِ عَنَّهُنَّ وَلَا يُحِزْنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بَيْنَ مَنِ أَزْوَاجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

[تُرْجِي] [معناه : تؤخر] ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم (١) : [تُرْجِي] بالهمز ، وقرأ عاصم - في رواية حفص - وحمزة ، والكسائي : [تُرْجِي] بغير همز ، وهما لغتان بمعنى . [وَتُؤْوِي] [معناه : تَضُمُّ وتُقَرَّبُ] ، وقال المبرد : هو مُعَدِّي (رَجَا يَرْجُو) ، تقول : «رَجَا الرَّجُلَ وَأَرْجَيْتُهُ» جعلته ذا رجاء .

(١) في رواية أبي بكر عنه .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى فسح لنبيه فيما يفعله في جهة النساء ،
والضمير في [مِنْهُنَّ] عائد على من تقدم ذكره من الأصناف حيث الخلاف
المذكور في ذلك .

وهذا الإرجاء والإيواء يحتمل معاني : منها في القسم ، أي : تُقْرَبُ
من شئت في القسمة لها من نفسك ، وتؤخر من شئت ، وتكثر لمن
شئت ، لا حرج عليك في ذلك ، فإذا علمن هن أن هذا هو حكم الله
وقضاؤه زالت الأنفة والتغاير عنهن ، وقرت أعينهن . هذا تأويل
مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ؛ لأن سبب الآية إنما كان تغايراً - وقع
بين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام - عليه ، فشقي بذلك ، ففسح
الله تبارك وتعالى له ، وأنبهن بهذه الآيات .

وقال ابن زيد (١) ، وابن عباس : في طلاق من شاء ممن حصل
في عصمته ، وإمساك من شاء ، قال ابن زيد (١) : وكان عليه الصلاة
والسلام قد همَّ بطلاق بعض نسائه ، فقلن له : اقسم لنا ما شئت ،
فكان ممن أَرْجَأَ سودةً وجويرةً وصفيةً وأم حبيبة وميمونة ، وآوى إليه
عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب رضي الله عنهن أجمعين .

(١) في إحدى النسخ : (أبو رزين) بدلا من (ابن زيد) ، ولعله أقرب إلى الصواب ،
إذ هو موافق لما في القرطبي وغيره .

وقال الحسن بن أبي الحسن : المعنى : في تزوج من شاء من النساء وترك من شاء ، وقالت فرقة : المعنى : في ضم من شاء من الواهبات وتأخير من شاء .

وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة عليه - صلى الله وسلم عليه - والإباحة ؛ قالت عائشة رضي الله عنها : لما قرأ علي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك (١) .

وذهب هبة الله في «الناسخ والمنسوخ» له إلى أن قوله : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ الآية ناسخ قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾ الآية ، وقال : ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا . وكلامه يضعف من جهات (٢) .

(١) الحديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير عن الحسن ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه - عن عائشة رضي الله عنها ، ونصه : (قالت : كنت أغار من اللاتي وهن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : كيف تهب نفسها ؟ فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك) . وقال ابن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح .

(٢) منها أن أكثر العلماء قالوا : إن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ ناسخ لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَاجاً وَصِيَّةً لَأَرْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ﴾ مع أن آية الأشهر الأربعة متقدمة على آية الحول . (راجع كل كتب التفسير ، وبخاصة القرطبي =

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أبتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ . يجتمل معاني :
 أحدهما أن تكون [مَنْ] للتبويض أي : مَنْ أَرَدْتَهُ . وطلبته نفسك
 مِمَّنْ كُنْتَ عَزَلْتَهُ وَأَخْرَجْتَهُ فَلَاحِ جُنَاحَ فِي رَدِّهِ إِلَى نَفْسِكَ وَإِيوَاءِهِ إِلَيْكَ
 بَعْدَ عَزَلْتَهُ . ووجه ثانٍ وهو أن يكون مُقْوِيًّا وَمُؤَكِّدًا لِقَسْوَلِهِ :
 ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ . فيقول بعدُ :
 ﴿ وَمَنْ أبتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ فذلك سواءٌ لا جناح عليك في جميعه
 وذلك كما تقول : « مَنْ لقيك ممن لم يلقك جميعهم لك شاكرين » .
 وأنت تريد : « مَنْ لقيك ومن لم يلقك » . وهذا المعنى يصح أن يكون
 في القَسْمِ ، ويصح أن يكون في الطلاق والإمساك ، وفي الواهبات ،
 وبكل واحدٍ قالت فرقة .

ج ٣ صفحة ١٧٤) . وجاز أن ينسخ المتقدم المتأخر لأن القرآن كله بمنزلة سورة واحدة ، قال
 ذلك النحاس ، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله أنزل القرآن جملة واحدة إلى
 السماء الدنيا في شهر رمضان . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال
 أن ينسخ قوله تعالى : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ قوله سبحانه : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ
 النِّسَاءُ ... ﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون ، وقد عارض النحاس
 هذا الرأي كما قدمنا . ومما يؤيد قوله هذا ما رواه الطحاوي عن أم سلمة : قالت : لم يمت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء ، إلا ذات محرم .
 وذلك قوله تعالى : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ الآية . قال القرطبي : وهذا هو قول علي بن
 أبي طالب ، وابن عباس ، وعلي بن الحسين ، والضحاك .

وقرأ الجمهور : ﴿ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ برفع الأعين ،
 وقرأ ابن محيصن : ﴿ [أَنْ تَقْرَأَ] بضم التاء من [تَقْرَأَ] وكسر القاف
 [أَعْيُنُهُنَّ] نصيباً . وقوله : ﴿ بِمَا آتَيْتُهُنَّ ﴾ أي : من نفسك ومالك .
 وقرأ جمهور الناس : [كُلُّهُنَّ] رفعا على التأكيد للضمير في [يَرْضَيْنَ] ،
 ولم يُجوز الطبري غيرها ، وقرأ جويرية بن عابد (١) : [كُلُّهُنَّ] بالنصب
 على تأكيد ضمير [آتَيْتُهُنَّ] ، والمعنى أَنَّهُنَّ يَسَلِّمُنَّ لَكَ وَلِحُكْمِهِ ،
 وَكُنَّ قَبْلَ لَا يَتَسَامَحْنَ بَيْنَهُنَّ لِلغَيْبَةِ ، وَلَا يَسَلِّمُنَّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ أَنْفَةً ، نحا إلى هذا المعنى ابن زيد ، وقتادة .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ خبرٌ عام ، والإشارة
 إلى ما في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص ،
 وكذلك يدخل في المعنى أيضاً المؤمنون . وقوله : [حَلِيمًا] صفة تقتضي

(١) هكذا في الأصول ، لكن الذي أثبتته ابن جني في (المحتسب) أنها قراءة أبي إسحاق
 جُوَيْبَةَ بن عائد ، ويتفق مع هذا كلام أبي حيان في (البحر المحيط) ، قال ابن جني : نصبه
 على أنه توكيد لـ [هُنَّ] من قوله [آتَيْتُهُنَّ] ، وهو راجع إلى معنى قراءة العامة [كُلُّهُنَّ]
 بضم اللام ، وذلك أن رضاهن كلهن بما أوتين كلهن على انفرادهن واجتماعهن ، فالمعنيان
 إذاً واحد ، إلا أن الرفع أقوى معنى ، وذلك أن فيه إصراحاً من اللفظ بأن يرضيهن كلهن ،
 والإصراح في القراءة الشاذة - أعني النصب على قراءة جُوَيْبَةَ بن عائد إنما هو بإيتائهن كلهن ،
 وإن كان محصول الحلل فيهما مع التأويل واحداً .

منه تبارك وتعالى صفحاً وتأنيساً في هذا المعنى ؛ إذ هي خواطر وفكرٌ لا يملكها الإنسان في الأغلب .

واتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام عدل بينهن في القسمة حتى مات ، ولم يمثّل ما أبيع له معهن ضبطاً لنفسه ، وأخذاً بالفضل ، غير أن سوّدة وهبت يومها لعائشة توصلًا لمسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ ، قيل كما قدّمنا : إنّما حظرت عليه النساء إلا التسع اللواتي كن عنده ، فكان الآيّة ليست متصلة بما قبلها . قال ابن عباس ، وقتادة رضي الله عنهم : لما هجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً وآلى منهن ، ثم خرج وخيّرهن فاخترن الله ورسوله ، جازاهن الله بأن حظر عليه النساء غيرهن ، وقنعه بهن ، وحظر عليه تبديلهن ، ونسخ بذلك ما أباحه له من قبل من التوسعة في جميع النساء . وقال أبي بن كعب ، وعكرمة : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد الأصناف المسماة . ومن قال بأن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾ معناه : لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات ، وهذا تأويل فيه بُعد وإن كان روي عن مجاهد ، وكذلك قدر : « ولا أن تبدّل اليهوديات والنصرانيات

بالمسلمات ، وهو قول أبي رزين ، وسعيد بن جبير . وقال أبي بن كعب :
 ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ يعني : لا يحلُّ لك العماتُ ولا الخالاتُ
 ونحوهن ، وأمر مع ذلك ألاَّ يتبدَّل بأزواجه التسع ، ومنع أن يُطلق
 منهن ويتزوَّج غيرهن ، قاله الضَّحَّاك . وقيل : ممن تزوَّج وحصل
 في عصمته ، أي : لا يُبدَّلها بأن يأخذ زوجة إنسان ويعطيه هو زوجته .
 قال ابن زيد : وهذا شيءٌ كانت العرب تفعله . وهذا قولٌ ضعيفٌ
 أنكره الطبري وغيره في معنى الآية ، وما فعلت العرب هذا قط ، وما روي
 من حديث عُيَيْنَةَ بن حصن أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم
 وعنده عائشة رضي الله عنها فقال : (من هذه الحميراء؟) فقال له النبي
 صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة ، فقال عُيَيْنَةَ : يا رسول الله ، إن
 شِئْتَ نزلتُ لك عن سيدة نساء العرب جمالاً ونسباً) فليس بتبديل ،
 ولا أراد ذلك ، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبيبةً فقال هذا القول (١).

(١) اختصر ابن عطية رواية خبر عُيَيْنَةَ بن حصن ، وحتى لا يكون هنا تساؤلات
 ترد على الذهن عند قراءة الخبر بهذه الصورة أوردته هنا كاملاً كما رواه القرطبي في تفسيره
 وكذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور . (أخرج البزار ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة
 رضي الله عنه قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل : تنزل لي عن امرأتك . وأنزل
 لك عن امرأتي ، وأزيدك ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِيَهِنٍ مِّنْ أَزْوَاجٍ وَكُؤُ
 أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، قال : فدخل عُيَيْنَةَ بن حصن الفزاريُّ على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وعنده عائشة رضي الله عنها ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : يا عُيَيْنَةَ فأين الاستئذان؟ فقال : يا رسول الله ، ما استأذنت علي رجل من مُضَرِّ -

وقرأ أبو عمرو - بخلاف - : [تَحَلُّ] بالتاء على معنى : جماعة النساء ، وقرأ الباكون بالياء من تحت ، على معنى : جميع النساء ، وهما حسنان ؛ لأن تأنيث لفظ النساء ليس بحقيقي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزل ذلك بسبب أسماء بنت عميس ، أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم حُسْنُهَا حين مات عنها جعفر بن أبي طالب ، [فأراد أن يتزوجها] (١) ، وفي هذه اللفظة : ﴿ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، وقد أراد المغيرة ابن شعبة زواج امرأة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (انظر إليها

منذ أدركت ، قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة أم المؤمنين ، قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ قال : يا عَيِّسَةَ ، إن الله قد حرم ذلك ، قال : فلما خرج قالت عائشة : يا رسول الله ، من هذا ؟ قال : أحرق مطاع . وإنه - على ما تَرَيْنَ - لَسَيِّدُ قَوْمِهِ . ا . ه . فعينة دخل بدون استئذان ، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعينية لم يعرض بدلا ، وإنما عرض على الرسول صلى الله عليه وسلم ما يناسب مقامه في نظره بعد أن استصغر عائشة رضي الله عنها ، والنبي صلوات الله وسلامه عليه نبهه إلى أن ذلك حرام ، ثم وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه أحرق ، ومن سماحة النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعامل مع الأحرق بما يناسبه .

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة وردت في كتب التفسير ، وأثبتناها لأنها تفصح عن الغرض الذي حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على النظر إليها . فهو نظر مشروع ، والغرض منه الخطبة والزواج .

فإنه أجدر أن يُؤدِم بينكما (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم لآخر :
 (انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً) (٢) ، قال الحميدي : يعني :
 صفراء ، وقال سهل بن أبي حثمة : رأيت محمد بن مسلمة يطارد
 بُيْتَةَ بنت الضحاك على إجار من أججير (٣) المدينة ، فقلت له :
 أتفضل هذا ؟ فقال : نعم : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا ألقى
 الله في قلب أحدكم خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها) (٤) .
 قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ . [مَا] في موضع رفع بدل
 من [النِّسَاءِ] ، ويجوز أن تكون في موضع نصب على الاستثناء ، وفي
 النصب ضعف ، ويجوز أن تكون [مَا] مصدرية ، والتقدير : إلا ملك

(١) أخرجه الترمذي في النكاح ، وكذلك النسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأخرجه
 أحمد في مسنده ٤-٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ولفظه كما في المسند ، عن المغيرة بن شعبة ، قال : (أتيت
 النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرت له امرأة أخطبها ، فقال : اذهب فانظر إليها فإنه أجدر
 أن يُؤدِم بينكما ، قال : فأتيت امرأة من الأنصار فخطبتها إلى أBOيها ، وأخبرتهما بقول رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهما كرها ذلك ، قال : فسمعت ذلك المرأة وهي في خدرها .
 فقالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تنظر فانظر ، وإلا فإني أنشدك ،
 كأنها عظمت ذلك عليه ، قال : فنظرت إليها فتروجتها ، فذكر عن موافقتها) .

(٢) قال عنه القرطبي : «أخرجه الصحيح» ، ثم نقل أيضاً عن الحميدي قوله بلفظ :
 يعني صفراء أو زرقاء ، وقيل : رمضاء ، والرمص : وسخ يتجمع في موق العين . ويسمى
 الغمص إن كان سائلاً ، والرمص إن جامداً .

(٣) الإجار : السطح بلغة الشام والحجاز ، والجمع : أججير وأججرة ، قال ابن سيده :
 الإجار والإجارة : سطح ليس عليه سرة ، وفي الحديث (من بات على إجار ليس حوله
 ما يرُدُّ قدميه فقد برئت منه الذمة) . قال ذلك في اللسان ، ثم استشهد بحديث محمد بن مسلمة هذا .

(٤) أخرجه ابن ماجه في النكاح .

يمينك ، وبمعنى (مملوك) ، وهو في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول (١) . و «الرَّقِيبُ» فعيل بمعنى فاعل ، أي : راقب (٢) .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ
غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَسِينَ
لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَىٰ النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ
مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ
أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(١) عقّب أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام ابن عطية في إعراب [ما] بعد أن نقله فقال : «وليس يجيد ؛ لأنه قال : «والتقدير : إلا ملئك اليمين ، وملئك بمعنى مملوك» ، فإذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساء ؛ لأنه لم يرد حقيقة المصدر ، فيكون الرفع أرجح ، ولأنه قال : «وهو في موضع نصب» ، ولا يتحتم أن يكون في موضع نصب ولو فرضنا أنه من غير الجنس حقيقة ، بل الحجاز ينصب ، وتميم تبدل ؛ لأنه مستثنى توجهه العامل عليه ، وإنما يكون النصب متحتماً حيث كان المستثنى لا يمكن توجه العامل عليه ، نحو : ما زاد المال إلا النقص ، فلا يمكن توجه الزيادة على النقص . ولأنه قال : «استثناء من غير الجنس» ، وقال : ملئك بمعنى مملوك» فناقض . ا هـ .

(٢) وفي ذلك تحذير من تجاوز حدوده ونحطه حلاله وحرامه .

هذه الآية تتضمن قصتين : إحداهما الأدب في أمر الطعام والجلوس ،
والثانية أمر الحجاب .

فَأَمَّا الْأُولَى فَالْجَمْهُورُ مِنَ الْمَفْسُرِينَ عَلَى أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ أَوْلَمَ عَلَيْهَا ، فَدَعَا النَّاسَ ، فَلَمَّا طَعَمُوا قَعَدَ نَفَرٌ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْبَيْتِ ، فَثَقُلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَانَهُمْ ، فَخَرَجَ لِيُخْرِجُوا بِخُرُوجِهِ ، وَمَرَّ عَلَى حَجَرِ نِسَائِهِ ، ثُمَّ عَادَ فَوَجَدَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ وَزَيْنَبَ فِي الْبَيْتِ مَعَهُمْ ، فَلَمَّا دَخَلَ وَرَأَاهُمْ انصرفت ، فخرجوا عند ذلك ، قال أنس : فأعلم أو أعلمته بانصرافهم فجاء ، فلما وصل الحجرة أرخى الستر بيني وبينه ودخل ، ونزلت الآية بسبب ذلك (١) . وقال قتادة ، ومقاتل - في كتاب الثعلبي - : إن هذا جرى في بيت أم سلمة (٢) ، والأول أشهر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي عليه الصلاة والسلام ، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون (٣) . وقال اسماعيل بن أبي حكيم : هذا أدب

(١) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه - من طرق - عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) ، وفي (فتح القدير) : أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما بدون سند .

أَدَّبَ اللهُ به الثَّقَلَاءَ ، وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي : بحسبك من الثَّقَلَاءِ أنَّ الشرع لم يحتملهم .

وأما آية الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود في بيت زينب ، القصة المذكورة آنفاً ، وقالت فرقة : بل في بيت أمِّ سلمة ، وقال مجاهد : نزلت آية الحجاب بسبب ذلك ، وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة : سبب الحجاب كلام عمر رضي الله عنه ، وأنه كلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً في أن يحجب نساءه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفعل ، وكان عمر يتابع ، فخرجت سودة ليلاً لحاجتها - وكانت امرأة تفرع النساء طولاً - فنادها عمر رضي الله عنه : قد عرفناك يا سودة - حرصاً على الحجاب (١) - وقالت له زينب بنت جحش : عجباً لك يا ابن الخطاب ، تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا ؟ فما زال عمر رضي الله عنه يتابع حتى نزلت آية الحجاب (٢) .

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها - (فتح القدير ، والدر المنثور) ، قال ابن كثير : هكذا وقع في هذه الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

(٢) أخرجه ابن جرير ، عن ابن مسعود من طريق عطاء بن السائب ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ، من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال الحافظ بن حجر في تخريج (الكشاف) : « رواه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في ثلاث : منها الحجاب ، ومقام إبراهيم ، و ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ (١) . الحديث (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يُبَكَّر من شاء إلى دار الدعوة ، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه في حديث وأنس . وكذلك إذا انتهوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل في النهي سائر المؤمنين ، وألتزم الناس أدب الله لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، لا قبله لانتظار نضج الطعام .

و [نَاطِرِينَ] معناه : منتظرين ، و [إِنَاهُ] مصدرٌ أَنَى الشيءُ يَأْنِي إذا فرغ وحنَّ إِنَى ، ومنه قول الشاعر :

(١) من الآية (٥) من سورة (التحريم) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ، وفي تفسير آل عمران ، ومسلم في فضائل الصحابة . والدارمي في المناسك ، والإمام أحمد في مسنده (١-٢٣ ، ٢٤ ، ٣٦) . ولفظه : (وافقت ربي عز وجل في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، وقلت : يا رسول الله . إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه في الغيرة : « عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجاً خيراً منك » فنزلت كذلك . هذا وقد ذكر - في رواية لمسلم - قصة أسارى بدر ، وهي نقطة رابعة حصلت فيها الموافقة .

تَمَخَّضَتِ الْمُنُونُ لَهُ يَوْمَ . أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ (١)
 وقرأ الجمهور بفتح النون من [إنأه] ، وأمالها حمزة والكسائي .
 ثم أكد المنع وحصر وقت الدخول بأن يكون عند الإذن ، ثم أمر
 بعد الطعام بأن يفترق جمعهم وينتشر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ عطف على قوله : (غَيْرَ
 نَاطِرِينَ) ، و [غَيْرَ] منصوبة على الحال من الكاف والميم في [لَكُمْ] ،
 أَي : غَيْرَ نَاطِرِينَ وَمُسْتَأْنِسِينَ . وقرأ ابن أبي عملة : [غَيْرِ] بكسر
 الراء ، وجوازه على تقدير : غير ناظرين إنأه أَنْتُمْ (٢) . وقرأ الأعمش :

(١) نسبة في التاج إلى عمرو بن حسان ، ونسبه في القرطبي إلى الشيباني ، وذكره مع
 بيت قبله وهو :

وَكِسْرَى إِذْ تَمَسَّمَهُ بَنُوهُ بِأَسْيَافٍ كَمَا اقْتَسِمَ اللَّحَامُ

واستشهد به في اللسان غير منسوب ، قال : « ابن الأنباري : الأتَى من بلوغ الشيء منتهاهُ ،
 مقصور يكتب بالياء ، وقد أتَى يَأْتِي ، وقال : تمخضت المنون ... البيت » ، أي : أدرك
 وبلَغَ ، وهكذا قال صاحب التاج ، وعلى هذا فإنَّ (أتَى) في البيت فعل ماض بمعنى أدرك
 وبلغ . ومعنى البيت أن كل شيء له أوان ينتهي عنده ، كما أن كل من تحمل من النساء لا بدَّ
 أن تلد عندما تُتَمِّمُ حملها .

(٢) يرى الفراء أن [غَيْرَ] بالنصب نعتٌ للقوم ، وهم معرفة ، و [غَيْرَ] نكرة ،
 فنصبت على الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ أَحَلِّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
 غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ . ثم قال : « ولو خفضت ﴿ غَيْرَ نَاطِرِينَ ﴾ كان صواباً ،
 لأن قبلها [طَعَامٍ] وهو نكرة ، فتجعل فعلهم تابعاً للطعام ، كما تقول العرب : رأيت زيدا
 مع امرأة مُحَسِّنٍ إليها ، مُحَسِّنًا إليها » .

[إِنَاهُ] على جمع (إِنَى) بَمَدَّةٍ بعد النون (١) . وقرأت فرقة : [فَيْسْتَحِي] بإظهار الياء المكسورة قبل الساكنة ، وقرأت فرقة : [فَيْسْتَحِي] بسكون الياء دون ياء مكسورة قبلها . وقوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي﴾ معناه : لا يقع منه تَرْكُ قول الحق ، ولما كان ذلك يقع من البَشْرِ لِعِلَّةِ الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ الآية هي آية الحجاب ، و «المتاع» عام في جميع ما يمكن أن يطلب على غرف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا . ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد الخواطر التي تعرض للنساء في أمر الرجال .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية ، روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : «لومات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتزوجت عائشة» ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتأذى به ، هكذا كنى عنه ابن عباس بـ «بعض الصحابة» ، وحكى مكي عن معمر أنه قال : «هو طلحة بن عبيد الله» (٢) .

(١) في (أَنَى) لغاتٌ ، تكرر بكسر الهمزة ، و (أَنَى) بفتحها ، و (أَنَاء) بفتح الهمزة والمدِّ ، وعلى هذه جاء قول الخطيب :

وَأَخْرَجَتِ الْعِشَاءَ إِلَى سُهَيْبٍ أَوْ الشَّعْرَى فَطَالَ بَيْتِ الْأَنْسَاءِ

(٢) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة التيمي ، أبو محمد المدني ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، مشهور ، استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين هـ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لله در ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا عندي لا يصحُّ على طلحة ،
الله عاصمه منه ، ورؤي أن رجلا من المنافقين قال حين تزوج
رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بعد أبي سلمة ، وحفصة بعد
خنيس بن حذافة . « ما بال محمد يتزوج نساءنا ، والله لو قد مات

= وكان عمره ثلاثاً وستين سنة . (تقريب التهذيب) . هذا وقد ذكر السيوطي الحديث في (الدر
المنثور) من طريق ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال الحافظ بن حجر في (تخريج الكشاف) :
« ورؤي ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما
في هذه الآية ، قال : نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم ...
الحديث ، قال السيوطي في (الدر) : قال : سفيان : ذكروا أنها عائشة رضي الله عنها « ا هـ .
كلام الحافظ . وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن : « قال ابن عباس : قال رجل من سادات
قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء - في نفسه - :
لو توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة . وهي بنت عمي ، قال مقاتل : هو
طلحة بن عبيد الله ، قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدث به في نفسه ، فمشى إلى
مكة على رجله ، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله ، وأعتق رقيقاً ، فكفّر الله عنه .
هذا مجمل ما روي عن طلحة في هذه القصة ، ولكن ابن عطية رحمه الله ينفىها عنه كما
رأينا ، والقرطبي أيضاً يقول بعد أن حكى الخبر عن النحاس : « ولا يصح » ، وقال الإمام
أبو العباس : « وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ، وإنما
الكذب في نقله » ، والآية صريحة في تحريم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على الناس بعد
وفاته ، قال الشافعي : « ومن استحل ذلك كان كافراً » .

لأجلنا السهام على نسائه» ، فنزلت الآية في هذا ، حرم الله نكاح أزواجه بعده ، وجعل لهن حكم الأمهات ، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب ثم رجعت تزوج عكرمة بن أبي جهل قبيلة بنت الأشعث بن قيس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوجها ولم يَبْنِ بها (١) ، فصعب ذلك على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وَقَدِّقْ له ، فقال له عمر رضي الله عنه : مهلاً ، إنها ليست من نسائه ، إنه لم يخيرها ولا أرخى عليها حجاباً ، وقد أبانتها منه رَدَّتْهَا مع قومها ، فسكن أبو بكر رضي الله عنه (٢) ، وذهب عمر إلى ألا يشهد جنازة زينب بنت جحش إلا ذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش بالقبة ، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنعه ، ورُوي أن ذلك صنِع في جنازة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) أي : لم يدخل بها ، يقال : بَنَى الرجل بامرأته وعليها بمعنى : دخل بها .

(٢) قال القرطبي : « أما زوجاته صلى الله عليه وسلم اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلبية ،

فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف ، والصحيح جواز ذلك ، لما رُوي أن الكلبية تزوجها عكرمة بن أبي جهل » ، وقيل : إن الذي تزوجها هو الأشعث بن قيس الكندي - لاحظ اسمها كما نقله ابن عطية - ، وقيل : بل إن الذي تزوجها هو مهاجر بن أبي أمية . قال القاضي أبو الطيب : « ولم ينكر ذلك أحد ، فدلَّ على أنه إجماع » .

قوله عز وجل :

﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي
ءَابَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أبنَاءِ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أبنَاءِ أَخَوَاتِهِمْ وَلَا
نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ الآية ... وعيدٌ وتوبيخ

لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها ، من أشير إليه بقوله : ﴿ذَلِكُمْ

أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾ ، ومن أشير إليه في قوله : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ

أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ ، فقبل لهم في هذه الآية : إن الله يعلم ما تخفونه

من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ، ويُجازيكم عليها ، ثم ذكر

تبارك وتعالى الإباحة فيمن سمى من القرابة ؛ إذ لا تقتضي أحوال

البشر إلا مداخلة من ذكر ، وكثرة ترداده ، وسلامة نفسه من أمر

الغزل ؛ لما تتحاماها النفوس من ذوات المحارم ، فمن ذلك الآباء والأولاد

والإخوة وأبناؤهم وأبنائهم الأخوات .

قوله تعالى : ﴿وَلَا نِسَائِهِمْ﴾ دخل فيه الأخوات والأمهات وسائر

القرابات ومن يتصل من المنصرفات لهن ، هذا قول جماعة من أهل

العلم ، ويؤيد قولهم هذه الإضافة المخصصة في قوله : [نِسَائِهِنَّ] ، فقال ابن زيد وغيره : إنما أراد جميع النساء المؤمنات ، وتخصيص الإضافة إنما هي في الإيمان .

قوله : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ، قالت طائفة : من الإماء دون العبيد ، وقالت طائفة : من العبيد والإماء ، ثم اختلفت هذه الطائفة - فقالت فرقة : ما مَلَكَتَهُ من العبيد دون من ملك سواهن ، وقالت فرقة : بل من جميع العبيد ، كان في ملكهن أو ملك غيرهن ، والمُكَاتَبُ إذا كان عنده ما يؤدي فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم نضرب الحجاب دونه ، وفعلت ذلك أم سلمة مع مكاتبها نبهان ، ذكره الزهراوي .

وقالت فرقة : دخل الأعمام في الآباء ، وقال الشعبي ، وعكرمة : لم يذكرهم لإمكان أن يصفوا لأبنائهم ، وكذلك الأخوال ، وكرهوا أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها .

واختلف المتأولون في المعنى الذي رفع فيه الجناح بهذه الآية - فقال قتادة : هو الحجاب ، أي : أتيح لهذه الأصناف الدخول على النساء دون الحجاب ورويتهن ، وقال مجاهد : ذلك في وضع الجلباب وإبداء الزينة .

ولما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف ، وانجزمت الإباحة ،
عطف فأمرهن بالتقوى عطف جملة ، وهذا في غاية البلاغة والإيجاز ،
كأنه قال : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره ،
ثم توعه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .
قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا ٥٦ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ
عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ
أَحْتَمَلُوا بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ٥٨ ﴾

هذه الآية شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذكر منزلته
منه ، وظهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء في أمر
زوجاته ، ونحو ذلك .

وقوله : [يُصَلُّونَ] ، قالت فرقة : الضمير فيه لله وللملائكة .
وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض
الذي جاء في قول الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم : « من أطاع الله
ورسوله رشد ، ومن يعصهما فقد ضل » ، فقال له رسول الله صلى الله

عليه وسلم : (بئس الخطيب أنت) (١) ، قالوا : لأنه ليس لأحد من البشر أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير واحد ، والله أن يفعل من ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : في الكلام حذف تقديره : إن الله يصلي على النبي وملائكته يصلون ، ودلّ الظاهر من القول على ما ترك ، وليس في الآية اجتماع في ضمير ، وقالت فرقة : بل جمع الله تعالى الملائكة مع نفسه في ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله ، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بئس الخطيب أنت) لهذا المعنى ، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على «من يعصهما» وسكت سكتة ، ومما يؤيد هذا أن في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في مصنف أبي داود : «فجمع ذكر الله وذكر رسوله في ضمير» ، ومما يؤيد القول الأول أن في كتاب مسلم : (بئس الخطيب أنت ، قل : ومن يعص الله ورسوله) ، وهذا يحتمل أن يكون لما خطأه في وقفه وقال له : (بئس الخطيب أنت) أصح له بعد ذلك جميع كلامه ؛ لأن فصل ضمير اسم الله تعالى من ضمير غيره أولى لا محالة ، فقال له : (بئس الخطيب أنت) لموضع

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة ، والإمام أحمد في مسنده (٤-٢٥٦ ، ٣٧٩) . ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن عدي بن حاتم أن رجلا خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بئس الخطيب أنت ، قل : ومن يعص الله ورسوله) ، قال ابن نمير : فقد غوي .

خطئه في الوقف ، وحمله على الأولى في فصل الضميرين وإن كان جمعهما جائزاً .

وقراءة الجمهور : [وَمَلَائِكَتُهُ] نصباً عطفاً على المكنون . وقرأ

ابن عباس رضي الله عنهما بالرفع عطفاً على الموضع قبل دخول [إن] ، وفي هذا نظر (١) .

وصلاة الله تعالى رحمةً منه وبركة ، وصلاة الملائكة دعاءً وتعظيم ،

والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حين من الواجبات

وجوب السنن المؤكدة التي لا يصح تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير

فيه ، وقال عليه الصلاة والسلام : (أكثرُوا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة

فإنه يوم مشهود) (٢) .

وصفتها على ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في كتاب الطبري .

ومن طريق ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه لما نزلت هذه الآية قال

له قوم من الصحابة : هذا السلام عليك يا رسول الله عرفناه ، فكيف

(١) ذلك لأنه الكوفيين - فيما عدا الفراء - هم الذين يميزون ذلك . أما الفراء فيشترط

خفاء إعتراب اسم (إن) ، وأما البصريون فيقولون : هو على حذف الخبر . والتقدير هنا :

«إن الله يصلي على النبي وملائكته يصلون» ، فالنظر الذي يشير إليه ابن عطية هو عدم جواز

ذلك عند البصريين .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنايز .

نصلي عليك ؟ قال : (قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد) ، وفي بعض الروايات زيادة ونقص ، وهذا معناه (١) .

وقرأ الحسن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ ، وهذه الفاء تُقَوِّي معنى الشرط ، أي : صلى الله فصلوا أنتم ، كما تقول : أعطيتك فخذ ، وفي حرف عبد الله : « صلوا عليه كما صلى الله عليه وسلموا تسليماً » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية ، قال الجمهور معناها : بالكفر ونسبة الصاحب والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ، وفي الحديث (قال الله : شتمني عبدي فقال : إن لي ولداً ،

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه . عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن جرير عن يونس بن خباب ، وأخرج أيضاً مثله عن إبراهيم ، ومثله عن عبد الرحمن بن أبي كثير بن أبي مسعود الأنصاري ، وأخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والبخاري . ومسلم ، وأبو داود . والترمذي . وغيرهم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، والحديث له صيغ مختلفة باختلاف الروايات . (راجع الدر المنثور ، وفتح القدير) . ومن هذا نعرف معنى قول المؤلف : « وفي بعض الروايات زيادة ونقص » .

وكذّبي فقال : إنه لن يبعث) (١) ، وقال عكرمة : معناه :
 بالتصوير والتعرض لفعل مالا يفعله إلا الله بنحت الصور وخلقها ،
 وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لعن الله المصورين) (٢) ،
 وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف ، تقديره : يؤذون أولياء الله .
 وإذاية الرسول صلى الله عليه وسلم هي بما يؤذيه به من الأقوال
 في غير معنى واحد ، ومن الأفعال أيضاً ، وقال ابن عباس رضي الله
 عنهما : نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفيّة بنت حيي (٣) .

(١) أخرج مثله ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية ، قال : ذكر لنا أن النبي
 صلى الله عليه وسلم كان يقول فيما يروي عن ربه عزّ وجلّ : (شتمني ابن آدم ولم ينبغ له
 أن يشتمني ، وكذّبي ولم ينبغ له أن يكذّبي ، فأما شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا
 الأحد الصمد ، وأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يعيدني كما بداني) . (الدر المنثور) .
 (٢) روي لعنُ (المصور) بالإنفراد في حديث أخرجه البخاري في اللباس ، والبيع ،
 والطلاق ، وأخرجه أحمد (٤-٣٠٨) ، ولفظه كما في مسنده : (عن عون بن أبي جحيفة قال :
 رأيت أبي اشترى حجماً ، فأمر بالمحاجم فكسرت ، قال : فسألته عن ذلك فقال : إن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الدم وثن الكلب وكسب البغي ، ولعن الواشمة والمستوشمة
 وآكل الربى وموكله ، ولعن المصور) ، وأخرج البخاري في اللباس عن عبد الله قال : سمعت
 النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون) .
 (٣) رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، من طريق عطية العوفي ، وزاد السيوطي
 في الدر المنثور نسبه لابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما . ومعنى (اتخذ صفيّة) :
 اتخذها زوجة له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
 والطَّعْنُ في تَأْمِيرِ أُسَامَةَ إِذَايَةٌ لَهُ أَيْضاً (١) .
 وقوله : [لُعِنُوا] معناه : أبعدوا من كل خير .
 وإذاية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة
 والبُهتان والكذب الفاحش المختلق ، وروى أن عمر بن الخطاب
 رضي الله تعالى عنه قال يوماً لأبي بن كعب : إنني قرأت البارحة
 هذه الآية ففرغت منها (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ) الآية ، والله إنني
 لأضربهم وأنهرهم ، فقال له أبي : لست منهم يا أمير المؤمنين ،
 إنما أنت معلّم ومقوم ، وذكر أبو حاتم أن عمر بن الخطاب رضي الله
 عنه قرأ : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » ، ثم قال لأبي
 رضي الله عنه : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقرأها كما قرأها عمر
 رضي الله تعالى عنه .

(١) روي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وأمراً عليه أسامة بن زيد ، فطعن الناس في إمرته ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمره أبيه من قبل ، وأيّم الله إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لئمين أحب الناس إليّ ، وإن هذا لئمين أحب الناس إليّ بعده) . »

وبعث أسامة هذا كان لغزو قرية اسمها (ابتي) قرب مؤتة ، وهي المكان الذي قتل فيه أبوه زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بثأر أبيه . وقال الذين طعنوا في إمرته : إنه صغير السن (إذ كان في الثامنة عشرة من عمره) ، وإنه من الموالي . ومات النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يخرج أسامة بالجيوش ، فلما تولى أبو بكر رضي الله عنه أنفذ هذا البعث .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

لما كانت عادة العربيات التبذل في معنى الحجة ، وكن يكشفن وجوههن كما تفعل الإماماء ، وكان ذلك داعياً إلى نظر الرجال إليهن وتشعب الفكرة فيهن - أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرهن بإدناء الجلابيب ليقع تسترهن ، ويبين الفرق بين الإماماء والحرائر ، فتعرف الحرائر بسترهن ، فيكف عن معارضتهن من كان غزلاً أو شاباً . ورؤي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصعداء لروية النساء ومعارضتهن ومراودتهن ، ونزلت الآية بسبب ذلك .

و «الجلباب» : ثوب أكبر من الخمار ، ورؤي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن مسعود رضي الله عنه أنه الرداء . واختلف الناس في صورة إدنائه - فقال ابن عباس ، وعبيدة السلماني (١) : ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها ، وقال ابن

(١) هو عبيدة بن عمرو السلماني - بفتح العين من عبيدة ، وبسكون اللام من السلماني - ويقال : بفتح اللام من (السلماني) ، أبو عمرو الكوفي . تابعي كبير ، مخضرم . ثقة ثبت . كان شريح إذا أشكل عليه شيء سأله ، مات سنة اثنتين وسبعين للهجرة . أو بعدها ، وقيل : الصحيح أنه مات قبل السبعين (تقريب التهذيب) .

عباس أيضاً ، وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه .
 وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ ﴾ ، أي : على الجملة بالفرق حتى لا يختلطن بالإماء ، فإذا عُرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية ، وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هي ، وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمةً تقنعت قنعها الدرّة محافظة على زيِّ الحرائر .

وباقى الآية ترجية ولطف وحض على التوبة وتطميع في رحمة الله .
 وفيها تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع .

قوله عز وجل :

﴿ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ ﴿١٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ۗ ﴿١١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ ﴿١٢﴾ ﴾

اللام في [لئن] هي المؤذنة بمجيء القسم ، واللام في [لنغرينك] هي لام القسم ، وتوعد الله تبارك وتعالى هذه الأصناف في هذه الآية ، وقرن توعدده بقريته متابعتهم في تركهم الانتهاء . فقالت فرقة :

إن هذه الأصناف لم تنته ، ولم ينفذ الله عليهم هذا الوعيد ، فهذه الآية دليل على بطلان القول بإنفاذ الوعيد في الآخرة . وقالت فرقة : إن هذه الأصناف انتهت ، وتستر جميعهم بأمرهم وكفوا ، وما بقي من أمرهم أنفذ الله وعيداً بإزائه ، وهو مثل نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عليهم ، إلى غير ذلك مما أحله رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بالمنافقين : من الإذلال في إخراجهم من المسجد ، وبما نزل فيهم من سورة براءة ، وغير ذلك ، فهم لم يمتثلوا الانتهاة جملة ، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً .

و [الْمُنَافِقُونَ] صنف يظهر الإيمان ولا يبطنه ، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هو الغزل وحب الزنى ، قاله عكرمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (١) ، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم قوم من المنافقين كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة ، وبأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيغلب ، إلى نحو هذا مما يرجفون به نفوس المؤمنين ، فيحتمل أن تكون هذه الأصناف متفرقة بعضها من بعض ، ويحتمل أن تكون داخلة : في جملة المنافقين لكنه نص على هاتين الطائفتين - وقد ضمهم عموم لفظة النفاق - تنبيهاً عليهم ، وتشريداً بهم ، وغضاً منهم .

(١) من الآية (٣٢) من هذه السورة (الأحزاب) .

و «نُغْرِيَنَّكَ» معناه : نحضك عليهم بعد تعيينهم لك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لِنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ ، وقال قتادة : لنحرسنك بهم . وقوله : ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ أي بعد الإغراء ؛ لأنك تنفيهم بالإخافة والقتل ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل أن يريد : إِلَّا جَوَارًا قَلِيلًا ووقتاً قليلاً ، ويحتمل أن يريد : إِلَّا عِدَدًا قَلِيلًا كَأَنَّهُ قَالَ : إِلَّا أَقْلَاءً . وقوله : [مَلْعُونِينَ] يجوز أن ينتصب على الذم ، قاله الطبري ، ويجوز أن يكون بدلاً من «أقلاء» الذي قدرناه قبل في أحد التأويلات (١) ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في [يُجَاوِرُونَكَ] ، كأنه قال : ينتفون من المدينة ملعونين ، [فلما تقرر ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ تقدير «يَنْتَفُونَ» حسن هذا] (٢) ، واللَّعْنَةُ : الإبعاد ، و [ثُقِفُوا] معناه : حُصِرُوا وَقُدِرَ عَلَيْهِمْ ، و [أَخَذُوا] معناه : أُسِرُوا ، وَالْأَخِيذُ : الأسير . ومنه قول العرب : «أَكْذَبُ مِنَ الْأَخِيذِ الصَّبْحَانِ» (٣) ، وقرأ جمهور

(١) قال أبو حيان في البحر : «وتجوز ابن عطية أن يكون بدلاً ، فالبدل بالمشقق قليل» .
 (٢) العبارة بين العلامتين وردت هكذا في الأصول ، وأثبتت في البحر محرفة ، والظاهر أن الصواب فيها أن يقال : (فلما تقرر في ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ تقدير «ينتفون» - حسن هذا) ، أي كون [مَلْعُونِينَ] حالاً من الضمير في [يُجَاوِرُونَكَ] .
 (٣) الأخيذ : المأخوذ ، أي : الأسير . والصَّبْحَانِ : المصططح ، وهو الذي شرب الصَّبُوحَ ، والمرأة : صَبْحَى ، والمراد الأسير الذي أسر بعد أن شرب لبن الصباح . وأصل المثل أن رجلاً خرج من حبيته وقد اصططح ، فلقى جيشاً يريدون قومه . فأخذوه وسألوه عن =

الناس : [وَقْتُلُوا] بشد التاء ، ويؤيدها المصدر بعدها ، وقرأت فرقة بتخفيف التاء ، والمصدر - على هذه القراءة - على غير الصدر ، قال الأعمش : كل ما في القرآن غير هذا الموضع فهو «قُتِلُوا» بالتخفيف (١).

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر ، ويجوز فيه الإغراء على بعد ، و ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم منافقوا الأمم ، وقوله : ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ، أي : من غالبٍ يستقر تبديله ، فيخرج عن هذا تبديل العصاة والكفرة ، ويخرج عنه ما يبدله الله من سنة بسنة في النسخ .

= الحمي ، فقال : إنما بُت في التفر ولا عهد لي بقومي ، فبينما هم يتنازعون إذ غلبه البول فبال ، فعملوا أنه قد اصطحح ولولا ذلك لم يببل ، فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن ، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحمي ، وقال الفراء في مصادره : «أكذب من الأخيد الصبحان» يعني التفصيل ، يقال : أخذ يأخذ أخذاً ، إذا أكثر شرب اللبن ، بأن يتغلّت على أمه فيمتك لبنها فيأخذها ، أي : يتختم منه ، وكذبه أن التخمّة تكسبه جوعاً كاذباً ، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً .

(١) من ذلك قوله تعالى في الآية (١٦٩) من سورة (الأعراف) : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾ ، وقوله في الآية (١٩٥) من نفس السورة : ﴿وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا لَا تَكْفُرُوا عَنْهُمْ سَبِيلًا﴾ ، وقوله في الآية (٥٨) من سورة الحج : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ ، وقوله في الآية (٤) من سورة (محمد) : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۗ قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٥
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ
يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۝٦٧ رَبَّنَا آتِنِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ
لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾

سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ وَقْتِ السَّاعَةِ ، مَتَى هُوَ ؟
فَلَمْ يُجِبْ فِي ذَلِكَ بِشَيْءٍ ، وَنَزَلَتْ الْآيَةُ أَمْرًا أَنْ يَرُدَّ الْعِلْمَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ ؛
إِذْ هِيَ مِنْ مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا ، ثُمَّ تَوَعَّدَ الْعَالَمَ
بِقُرْبِهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ الْآيَةُ .. أَي : يَنْبَغِي أَنْ تَحْذَرُ ،
وَ [قَرِيبًا] لَفْظَةٌ وَاحِدٌ جَمْعًا وَإِفْرَادًا وَمَذْكَرًا وَمَوْثِقًا ، وَلَوْ كَانَ صِفَةً
لِ [السَّاعَةِ] لَكَانَ « قَرِيبَةً » . ثُمَّ تَوَعَّدَ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ لَا وِلِيَّ لَهُمْ فِيهِ
وَلَا نَاصِرٍ .

وقوله : [يَوْمَ] يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله ، والعامل فيه [يَجِدُونَ] ، وهذا تقدير الطبري ، ويجوز أن يكون العامل فيه [يَقُولُونَ] ويكون ظرفاً للقول .

وقرأ الجمهور : ﴿تُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ﴾ على المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله ، بضم التاء وشد اللام المفتوحة ، وقرأ أبو حيوه ﴿تَقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ﴾ بفتح التاء ، بمعنى تَتَقَلَّبُ ، وقرأ ابن أبي عبلة : [تَتَقَلَّبُ] بتاءين ، وقرأ خارجة ، وأبو حيوه : [نُقَلَّبُ] بالنون ، وقرأ عيسى ابن عمر الكوفي [تُقَلِّبُ] بالتاء المضمومة وكسر اللام ونصب الوجوه ، أي تُقَلِّبُ السعيرُ وُجُوهَهُمْ ، فيومئذ يتمنون الإيمان وطاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم التمني .

ثم لاذوا بالتشكي من كبرائهم في أنهم أضلُّوهم ، وقرأ جمهور الناس : [سَادَتَنَا] ، وهو جمع سيِّد ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وابن عامر وحده - من السبعة - ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو رجاء ، وقنادة ، والعامه في المسجد الجامع بالبصرة : [سَادَاتِنَا] ، على جمع الجمع ، و [السَّيِّلَا] مفعول ثان ؛ لأنَّ «أَضَلَّ» مُعَدَّى بالهمزة ، و «ضَلَّ» يتعدى إلى مفعول واحد ، وهي سبيل الإيمان والهدى ، ثم دعوا بأن يضاعف الله للكبراء المُضِلِّين العذاب ، أي : عن أَنفُسِهِمْ وَعَمَّنْ أَضَلُّوا . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحذيفة بن اليمان ، والأعرج - بخلاف

عنه - : (لَعْنًا كَبِيرًا) بالياء ، من الكِبَر ، وقرأ الباقون والجمهور :
 (لَعْنًا كَثِيرًا) بالثاء ذات الثلاث ، والكثرة أشبه بمعنى اللعنة من
 الكِبَر ، أي : أَلْعَنَهُمْ مرات كثيرة .

قوله عرَّ وجلَّ :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا
 وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا
 ﴿٦٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَقَدْ
 فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾

الذين آذوا موسى هم قوم من بني إسرائيل ، واختلف الناس
 في الإذاية التي كانت وبرَّاهُ الله منها - فقالت فرقة : هي قصة قارون
 وإدخاله المرأة البغي في أن تدَّعي على موسى ، ثم تبرئتها موسى وإشهارها
 لمداخلة قارون ، وقد تقدمت القصة في ذكر قارون . وقال علي بن أبي
 طالب رضي الله عنه : هي أن موسى وهارون عليهما السلام خرجا من فحوص
 التِّيهِ (١) إلى جبل ، فمات هارون فيه ، فجاء موسى وحده ، فقال قوم :

(١) التِّيهِ هو المكان الذي ضلَّ فيه موسى عليه السلام وقومه ، وهو أرض بين أَيْلَةَ
 (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر) ، وهو الآن وسط شبه جزيرة سيناء . وفحص
 التِّيهِ هو المكان الذي يُسكن منه ، والفحص كلُّ موضع يُسكن ، سهلا كان أو جبلا .

هو قتله ، فبعث الله ملائكة حملوا هارون عليه السلام حتى طافوا به في أسباط بني إسرائيل ، ورأوا آية عظيمة دلَّتهم على صدق موسى عليه السلام ، ولم يكن فيه أثر [القتل] (١) ، وروي أنه حيي فأخبرهم بأمره وببراءة موسى ، وقال ابن عباس ، وأبو هريرة ، وجماعة : هي ما تضمنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : (كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، وكان موسى عليه السلام يتستر كثيراً ويُخفي بدنه ، فقال قوم : هو آدر أو أبرص أو به آفة (٢) ، فاغتسل موسى يوماً وحده وجعل ثيابه على حجر ، ففرَّ الحجر بشيابه واتبعه موسى يقول : ثوبي حجرٌ ، ثوبي حجرٌ (٣) ، فمرَّ في أتباعه في ملاٍ من بني إسرائيل فرأوه سليماً مما ظنُّ به ..) ... الحديث بطوله خرَّجه البخاري (٤) ، فبرَّاه الله مما قالوا .

(١) كلمة (القتل) زيادة عن كتب التفسير يقتضيه المعنى .

(٢) الأذرة (على وزن عُرفة) : انتفاخ الحصىة . والبرص : بياض يظهر في الجسد لعلَّة ، وهو مرض معروف ، والآفة : كلُّ ما يُصيب شيئاً فيفسده . من عاهة أو مرض أو فحط ، يقال : آفة العلم النسيان .

(٣) أي : اترك ثوبي يا حجر ، اترك ثوبي يا حجر .

(٤) هذا الحديث مشهور ، وهو في الصحاح ، أخرجه البخاري ، وأخرجه مسلم بمعناه . وقد ذكره ابن الجوزي بإسناده في كتابيَّته : « المعنى » و « الحقائق » . وأورده السيوطي في « الدر المنثور » ، وقال : أخرجه عبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي ، =

و «الْوَجِيهُ» : المكرم الوجه ، وقرأ الجمهور : (وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ) ،
 وقرأ عبد الله بن مسعود : «وكان عبداً لله» . ثم وصى الله المؤمنين
 بالقول السداد ، وذلك يُعمُّ جميع الخيرات ، وقال عكرمة : أراد :
 «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، والسداد يُعمُّ جميع هذا (١) ، وإن كان ظاهر الآية
 يُعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول
 صلى الله عليه وسلم وجهة المؤمنين ، ثم وعد تعالى بأنه يجازي على
 القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب . وباقى الآية بين .

وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، من طرق عن أبي هريرة ، وقال
 ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث : «وهذا سياق حسن مطول» ، وقال : «وهذا
 الحديث من أفراد البخاري دون مسلم» ، على أن القرطبي قال في تفسيره : «أخرجه البخاري
 ومسلم بمعناه» ، ولفظ مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت بنو إسرائيل
 يغتسلون ... الحديث .

وفي الدر المنثور قال السيوطي : «وأخرج البزار ، وابن الأثير في المصاحف ، وابن
 مردويه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كان موسى رجلاً حبيباً ،
 و نه أتى الماء ليغتسل ...) ، وساق مثل الحديث السابق .

(١) يظهر أن في الكلام نقصاً ، وأنه قد سقط من النسخ بعض الجمل ، فقد أورد القرطبي
 العبارة بمثل ما ذكرها هنا ابن عطية وفيها بعد قوله : وقال عكرمة : أراد : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»
 ما يأتي : (وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه ، وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره ،
 وقيل : هو الإصلاح بين المتشاجرين ، وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض ،
 والقول السداد يُعمُّ الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر) ، وإن كان ظاهر الآية ... الخ .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ
الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٧﴾ ﴾

اختلف الناس في الأمانة - فقال ابن مسعود رضي الله عنه : هي
في أمانات المال كالودائع ونحوها ، ورُوي عنه أنه في كل الفرائض .
وأشدّها أمانةُ المال .

وذهبت فرقة هي الجمهور إلى أنها كل شيء يؤتمن الإنسان عليه .
من أمر ونهي وشأن دين ودُنيا ، فالشرع كله أمانة ، قال أبي بن
كعب رضي الله عنه : من الأمانة أن تؤتمن المرأة على فرجها . وقال
أبو الدرداء رضي الله عنه : غسل الجنابة أمانة ، ومعنى الآية : إنا
عرضنا على هذه المخلوقات العظام أن تحمل الأوسار النواهي ، وتقتضي
الثواب إن أحسنت والعقاب إن أساءت ، فأبت هذه المخلوقات وأشرفت .
ويحتمل أن يكون هذا العرض بإدراك يخلقه الله لها ، ويحتمل
أن يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة ، ورُوي أنها قالت :

ربُّ ذَرْنِي مَسْحَرَةٌ لِمَا شِئْتَ أَنْتَ ، طَائِعَةٌ فِيهِ ، وَلَا تَكَلِّبْنِي إِلَى نَظَرِي وَعَمَلِي ، وَلَا أُرِيدُ ثَوَابًا . وَحَمَلَ الْإِنْسَانَ الْأَمَانَةَ : أَيُّ : التَّزَمَ الْقِيَامَ بِحَقِّهَا ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ ظُلُومٌ لِنَفْسِهِ ، جَهُولٌ بِقَدْرِ مَا دَخَلَ فِيهِ ، وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَابْنِ جُبَيْرٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ : [وَحَمَلَهَا] مَعْنَاهُ : خَانَ فِيهَا ، وَالآيَةُ فِي الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والعصاة على قدرهم .

وقال ابن عباس وأصحابه ، والضحاك ، وغيره : الْإِنْسَانُ : آدَمُ ، تَحَمَّلَ الْأَمَانَةَ ، فَمَا تَمَّ لَهُ يَوْمَ حَتَّى عَصَى الْمَعْصِيَةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ مِنَ الْجَنَّةِ . وَرُوي أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لَهُ : يَا آدَمُ ، إِنِّي عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيَّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، أَفْتَحْمِلُهَا أَنْتَ بِمَا فِيهَا ؟ قَالَ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : إِنْ أَحْسَنْتَ أُجِرْتَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ عَوِّبْتَ ، قَالَ : نَعَمْ قَدْ حَمَلْتُهَا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَمَا مَرَّ لَهُ مَا بَيْنَ الْأَوَّلِيِّ وَالْعَصْرِ حَتَّى عَصَى رَبَّهُ .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس : الْإِنْسَانُ : ابْنُ آدَمَ ، قَابِيلُ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ ، وَكَانَ قَدْ تَحَمَّلَ لِأَبِيهِ أَمَانَةَ أَنْ يَحْفَظَ الْأَهْلَ بَعْدَهُ ، وَكَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَافِرًا عَنْهُمْ إِلَى مَكَّةَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ .

وقال بعضهم : الإنسان : النوعُ كله ، وهذا حسن مع عموم الأمانة .
وقال الزجاج : معنى الآية : إنا عرضنا الأمانة في نواهينا وأوامرنا
على هذه المخلوقات ، فقمنا بأمرها . وأطعن فيما كلفناها ، وتابَّينَ
من حمل المذمة في معصيتنا ، وحمل الإنسان المذمة فيما كلفناه من
أوامرنا وشرعنا ، والإنسان - على تأويله - الكافر والعاصي .

وتستقيم هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١) . فعلى
التأويل الأول الذي حكيناه يكون قوله : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ إجابةً
لأمر أمرت به ، وتكون هذه الآية إجابةً وإشفاقاً من أمر عرض عليها
وخيرت فيه ، رُوي أن الله عرض الأمانة على هذه المخلوقات فأبَّت .
فلما عرضها الله تبارك وتعالى على آدم عليه السلام قال : أنا أحملها
بين أذني وعاتقي ، فقال الله : إنني سأعينك ، وقد جعلت لبصرك
حجاباً فأغلقه عما لا يحلُّ لك ، ولفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على
ما أخذتُ لك . ورُوي في هذا المعنى أشياء تركتها اختصاراً لعدم صحتها .
وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أي : إنا إذا قايستنا ثقل الأمانة
بقوة السموات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت
لأبَّتْها وأشفتت ، فعبّر عن هذا المعنى بالآية . وهكذا كما تقول :

(١) من الآية (١١) من سورة (فصلت) .

عرضتُ الحِمْلُ على البعير فأباه ، وأنت تريد بذلك : قايستُ قوته
بثقل الحِمْلُ فرأيتُ أنها تقصر عنه .

قوله تعالى : ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ﴾ هي لام العاقبة ؛ لأن الإنسان لم
يحمل ليقع العذاب ، لكن حمل فصار الأمر وآل إلى أن يُعَذِّبَ من
نافق أو أشرك ، وأن يتوب على من آمن (١) . وقرأ الجمهور : [يَتُوبَ]
نصباً ، عطفاً على قوله : [لِيُعَذِّبَ] ، ورفعها الحسنُ على القطع
والاستئناف (٢) . وباقي الآية بين .

كامل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة الأحزاب

والحمد لله رب العالمين

(١) وقال الزمخشري : هي لام التعليل ، على طريق المجاز ؛ لأن نتيجة حمل الأمانة
العذاب ، كما أن (التأديب) في قولك : (ضربته للتأديب) نتيجة الضرب .

(٢) وهي أيضاً قراءة الأعمش ، والمعنى فيها جعلُ العلة قاصرة على فعل من حمل الأمانة .
ثم ابتدئ كلامٌ جديد بقوله : [وَيَتُوبُ] ، أما المعنى على قراءة الجمهور بالنصب فهو :
ليُعَذِّبَ اللهُ من حمل الأمانة ، ويتوب على غيره ممن لم يحملها ، وهذا المعنى يتفق مع الآراء
التي تجعل المراد بالإنسان الكافر أو العاصي ، لكنه لا يتفق مع قول من يرى أن المراد بالإنسان
النوع كله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هي مكيّة ، واختلف في قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾
الآية (١) - فقالت فرقة : هي مكيّة ، والمراد المؤمنون بالنبي عليه
الصلاة والسلام ، وقالت فرقة : هي مدنية ، والمراد من أسلم بالمدينة
من أهل الكتاب كابن سلام وأشباهه (٢) .

(١) هي الآية رقم (٦) من السورة .

(٢) وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كائناً من كان ، وعدد آيات

السورة (٥٤) آية ، وقد نزلت بعد سورة (لقمان) .

قوله عز وجل :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴿٢﴾ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٣﴾ ﴾

الألف واللام في [الْحَمْدُ] لاستغراق الجنس ، أي : الحمد على تنوعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة ، ثم جاء بالصفات التي تستوجب المحامد ، وهي : مُلْكُهُ جميع ما في السموات وما في الأرض ، وَعِلْمُهُ المحيط بكل شيء ، وَحِكْمَتُهُ وخبرته بالأشياء ، إِذْ وجودها إنما هو به جلَّتْ قدرته ، وَرَحْمَتُهُ بأنواع خلقه ، وَغَفْرَانُهُ لمن سبق في علمه أن يغفر له من مؤمن (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ يحتمل أن تكون الألف واللام للجنس أيضاً ، وتكون الآية خبراً أن الحمد في الآخرة هو له وحده لإنعامه وأفضاله وتغمده وظهور قدرته وغير ذلك من صفاته ، ويحتمل أن تكون الألف واللام فيه للعهد والإشارة إلى قوله تعالى :

(١) في بعض النسخ : « لمن سبق في علمه أن يغفر له في الآخرة » .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (١) ، أو إلى قوله :
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ) (٢) .

و [يَلِجُ] معناه : يدخل ، ومنه قول الشاعر :

رَأَيْتُ الْقَوَافِي يَتَلَجَّنَ مَوَالِجاً تَضَاقِقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الْإِبْرُ (٣)

(١) من الآية (١٠) من سورة (يونس) .

(٢) من الآية (٧٤) من سورة (الزُّمَر) .

(٣) البيت لطرفة بن العبد ، وهو آخر ثلاثة أبيات قالها في حادثة رواها ابن الأعرابي ، قال : كان لطرفة أخ اسمه معبد . وكان لهما إبل يرعياها يوماً ويوماً ، فلما أغبها طرفه — أي ترك سقيها — قال له أخوه : لم لا تستريح في إبلك ؟ ترى أنها لو أخذت تردّها بشعرك هذا ؟ قال : فإني لا أخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت ، فتركها وأخذها أناس في مضر ، فادّعى جوار عمرو ، وقابوس ، ورجل من اليمن يقال له : بشر بن قيس ، فأنشد في ذلك :

أَعْمَرُوْ بِنَ هَنْدٍ مَا تَرَى رَأْيَ صَرْمَةٍ لَهَا سَبَبٌ تَرَعَى بِهِ الْمَاءَ وَالشَّجَرَ ؟
وكان لها جاران ، قابوس منهما — وعمرو ولم أسترعها الشمس والقمر
رَأَيْتُ الْقَوَافِي يَتَلَجَّنَ مَوَالِجاً تَضَاقِقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الْإِبْرُ

والبيت في (اللسان - وكَلَجَ) غير منسوب ، وفي (فرائد القلائد في شرح مختصر الشواهد) للعمري . والقوافي : جمع قافية ، وأراد بها هنا القصائد ؛ لأن القصيدة تشتمل على القافية ، أو لأن القافية من أبرز خصائص القصيدة . و (يَتَلَجَّنَ) : يدخلن ، وأصلها : (يَتَوَلَّجَنَ) ؛ لأنها من (وكَلَجَ) ، والموالج : جمع مولج ، وهو موضع الولوج ، والإبر : جمع إبرة ، وهي آلة الخياطة . يقول طرفه : إن قصائد الشعر تبلغ من التأثير في النفوس مواضع بعيدة عميقة ، لا تصل إليها أسنة الإبر إذا طعن بها المهجور . وكأنه يعني أن الإبر تصيب الأبدان . وأن القصائد تؤثر في النفوس ، وجراحات النفوس أعمق وأبقى أثراً من جراحات الأبدان ، «والقول ينفذ مالا تنفذ الإبر» .

و [يَعْرُجُ] معناه : يصعد . وهذه الرُّتْبُ حَصْرَتْ كُلَّ مَا يَصْحُ
 عمله من شخص أو قول أو معنى ، وقرأ أبو عبد الرحمن : ﴿ وَمَا يُنْزَلُ
 مِنَ السَّمَاءِ ﴾ بضم الياء وفتح النون وشد الزاي .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ
 لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا
 أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٤٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ
 أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

رُوي أَن قائل هذه المقالة هو أبو سفيان بن حرب . قال : « واللآت
 والعزى ما ثم ساعة تأتي ، ولا قيامة ولا حشر » . فأمر الله تعالى نبيه
 صلى الله عليه وسلم أَن يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ مَقَابِلَةَ لِقَسَمِ أَبِي سَفِيَانَ . قيل :
 رداً وتكذيباً وإيجاباً لما نفاه ، وأجاز نافع الوقف على [بلى] . وقرأ
 الجمهور : [لَتَأْتِيَنَّكُمْ] بالتاء من فوق ، وحكى أبو حاتم قراءة :
 [لَيَأْتِيَنَّكُمْ] بالياء على المعنى في البعث .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي - بخلاف عنه - :
 [عَالِمٍ] بالخفض على البدل من [رَبِّي] ، وقرأ نافع ، وابن عامر :
 [عَالِمٌ] بالرفع على القطع ، أي : هو عالمٌ ، ويصح أن يكون [عَالِمٌ]
 رفع بالابتداء ، وخبره ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وما بعده ، ويكون الإخبار بأن
 «الْعَالِمَ» لا يعزب عنه شيءٌ إشارةً إلى أنه قدّر وقتها وعلمه ، والوجه
 الأول أقرب . وقرأ حمزة ، والكسائي : [عَلَامٍ] على المبالغة مخفوضاً
 على البدل (١) . و [يَعْزُبُ] معناه : يغيب ويبعد ، وبه فسر مجاهد
 وقتادة . وقرأ جمهور القراء بضم الزاي ، وخفضها الكسائي ، وابن
 وثاب ، وهما لغتان . و ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ معناه : مقدار تثاقلها ، وهذا
 في الأجرام بين ، وفي المعاني بالمقايسة . وقرأ الجمهور : ﴿وَلَا أَصْغَرُ
 مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع عطفاً على قوله : [مِثْقَالُ] ، وقرأ نافع ،
 والأعمش ، وقتادة : [أَصْغَرَ] ، و [أَكْبَرَ] بالنصب عطفاً على [ذَرَّةٍ] ،
 ورويت عن أبي عمرو (٢) ، وفي قوله : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ضمير

(١) وأجاز أبو البقاء أن تكون [عَالِمٍ] صفة ، قال أبو حيان : «ويغني أن ﴿عَالِمٍ
 الْغَيْبِ﴾ يجوز أن يتعرف ، وكذا كلُّ ما أُضيف إلى معرفة مما كان لا يتعرف بذلك ، يجوز
 أن يتعرف بالإضافة إلا الصفة المشبهة فلا تتعرف بإضافة ، ذكر ذلك سيويه في كتابه ، وقل
 من يعرفه .»

(٢) علّق أبو حيان على ذلك بقوله : «ولا يتعيّن ما قال ، بل تكون (لا) لنفي الجنس .
 وهو مبتدأ ، أعني مجموع (لا) وما بني معها على مذهب سيويه ، والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مُبِينٍ﴾ . وهو من عطف الجُمْل لا من عطف المفردات كما قال ابن عطية .»

تقديره : **إِلَّا هُوَ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ، و « **الْكِتَابِ الْمُبِينُ** » هو اللوح المحفوظ .
وَاللَّامِ فِي قَوْلِهِ : [لِيَجْزِيَ] يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةً بِقَوْلِهِ : [لَتَأْتِيَنَّكُمْ] ،
وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةً بِقَوْلِهِ : [لَا يَعْزُبُ] ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةً
بِمَا فِي قَوْلِهِ : (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى : إِلَّا
أَثْبَتَهُ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . وَ « الْمَغْفِرَةَ » تَغْمُدُ الذُّنُوبَ ، وَ « الرِّزْقُ الْكَرِيمُ »
الْجَنَّةُ .

قوله : **[وَالَّذِينَ] مَعْطُوفٌ عَلَى [الَّذِينَ] الْأُولَى ، أَي :** وليجزى
 الذين **سَعَوْا** ، و **[مُعْجِزِينَ]** معناه : محاولين تعجيز قدرة الله فيهم .
 وقرأ الجحدري ، وابن كثير ، وأبو عمرو : **[مُعْجِزِينَ]** دون ألف (١) ،
 أي : معجزين قدرة الله تبارك وتعالى بزعمهم . وقال ابن الزبير :
 معناه : **مُثَبِّطِينَ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ أَرَادِهِ ، مَدْخِلِينَ عَلَيْهِ الْعِجْزَ فِي نَشَاطِهِ ،**
 وهذا هو سعيهم في الآيات ، أي : في شأن الآيات . ثم بين تعالى
 جزاء هؤلاء الساعين ، كما بين قبل جزاء المؤمنين .

(١) لم يضبط المؤلف قراءة الجحدري وابن كثير وأبي عمرو ، وقد ضبطناه بالتشديد اعتماداً على قول صاحب « البحر المحيط » : « وقرأ الجمهور : [مُعْجِزِينَ] مخففاً ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والجحدري ، وأبو السماك مثقلاً » .

وقرأ عاصم - في رواية حفص - : [أَلِيمٌ] بالرفع على النعت ،
 والباقون بالكسر على نعت «الرَّجْزِ» ، و«الرَّجْزُ» هو العذاب السيِّءُ جداً ،
 وقرأ ابن محيصن : [رُجْزٍ] بضم الرَّاء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي
 إِلَيْكَ صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١٧) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبِينُ لَكَ
 إِذَا مَرَّ قَوْمٌ كُلٌّ مُمْرِقٌ لِإِنِّكَ لَنِي خَلَقِ جَدِيدٍ ﴿١٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ
 بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿١٨﴾ ﴿١٨﴾

قال الطبريُّ والثعلبي وغيرهما : [يَرَى] معطوف على ما قبله من
 الأفعال ، والظاهر أنه مُستأنف ، وأن الواو إنما عطفت جملة على جملة ،
 وكان المعنى الإخبارُ بأن أهل العلم يروون الوحي المنزل على محمد
 صلى الله عليه وسلم حقاً وأنه يهدي إلى صراطٍ مستقيم .

وقوله : ﴿ الَّذِي أُنزِلَ ﴾ مفعول بـ [يَرَى] ، و [أَلْحَقُّ] مفعول ثانٍ .
 و [هُوَ] عماد . و ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ قيل : هم من أسلم من أهل

الكتاب ، وقال قتادة : هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام المؤمنون به كائناً من كان ، و [يَهْدِي] معناه : يُرشد ، و «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ» الطريق المعتدل ، وأراد طريق الشَّرْع والدين .

ثم حكى عن الكفار مقاتلتهم التي قالوها على جهة التَّعَجُّب والهُزء ، أي : قالها بعضهم لبعض ، كما يقول الرجل لمن يريد أن يُعجِّبه : هل أدلك على أضحوكة نادرة ؟ فلما كان البعث عندهم من البعيد المحال جعلوا من يُخبر بوقوعه في حيزٍ من يُتَعَجَّب منه ، والعامل في [إِذَا] فعل مضمَر قبلها فيما قال بعض النَّاس ، تقديره : يُنَبِّئُكُمْ بِأَنَّكُمْ تَبْعَثُونَ إِذَا مُزِّقْتُمْ ، ويصح أن يكون العامل ما في قوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ من معنى الفعل ؛ لأن تقدير الكلام : يُنَبِّئُكُمْ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ إِذَا مُزِّقْتُمْ . وقال الزَّجَّاج : العامل في [إِذَا] هو [مُزِّقْتُمْ] وهو خطأٌ وإفسادٌ للمعنى المقصود (١) ، ولا يجوز أن يكون

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي على ذلك بقوله في «البحر المحيط» : «وليس بخطأ ولا إفساد للمعنى . وإذا الشرطية مختلف في العامل فيها . وقد بينا ما كتبناه في شرح التسهيل أن الصحيح أن يعمل فيها فعلُ الشرط كسائر أدوات الشرط ، والجملة الشرطية يحتمل أن تكون معمولة ! [يُنَبِّئُكُمْ] لأنه في معنى : يقول لكم إذا مُزِّقْتُمْ كل مُمزَّق : تبعثون ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ . ويحتمل أن يكون : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي -

العامل [يُنَبِّئُكُمْ] بوجه ، و [مُزُقْتُمْ] معناه : بِالْبَيْلِ وَتَقَطَّعَ الْأَوْصَالُ فِي الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا . وَكُسِرَ الْأَلْفُ مِنْ [إِنْكُمْ] لِأَنَّ [يُنَبِّئُكُمْ] فِي مَعْنَى : يَقُولُ لَكُمْ ، وَلَمَّا كَانَ اللَّامُ الَّتِي فِي الْخَبَرِ . وَ [جَدِيدٌ] بِمَعْنَى : مُجَدِّدٌ .

وقولهم : « أَفْتَرَى » هو من قول بعضهم لبعض ، وهي ألف الاستفهام دخلت على ألف الوصل ، فحذف ألف الوصل ، وبقيت مفتوحة غير ممدودة ، فكأن بعضهم استفهم بعضاً عن محمد - صلى الله عليه وسلم - : أَحَالُ الْفِرْيَةِ عَلَى اللَّهِ هِيَ حَالُهُ أَمْ حَالُ الْجَنُونَ ؟ لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ أَحَدِ هَذَيْنِ . فَأَضْرَبَ الْقُرْآنُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَكَذَّبَهُ . فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالُوا ، ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ ، وَالْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَيْهِمْ ، ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ ، يَرِيدُ : عَذَابَ الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ : فِي الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا بِمُكَابِدَةِ الشَّرِّ وَمُكَابِدَتِهِ ، وَمُحَاوَلَةِ إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ وَهُوَ يَتِمُّ ، وَهَذَا كُلُّهُ عَذَابٌ ،

« خَلَّتْ جَدِيدٌ » معمولاً لـ [يُنَبِّئُكُمْ] ، ولولا اللام في خبر [إن] لكانت مفتوحة ؛ فالجملة سدّت مسدّ المفعولين ، والجملة الشرطية - على هذا التقدير - اعتراض « ا. هـ . » وفي هذا الكلام نقض لقول ابن عطية بعد ذلك : « ولا يجوز أن يكون العامل [يُنَبِّئُكُمْ] بوجه » .

وفي الضلال البعيد ، أي : قويت الحيرة وتمكن التلف لأنه قد أبعده صاحبه عن الطريق الذي ضلَّ منه (١) .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِمَّنِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ نَسْأًا نَحْسِفُ
بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ
﴿١٠﴾ * وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يٰجِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ بِطِئْنَاهُ
الْحَدِيدَ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ ۖ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا ۗ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ *

الضمير في [يروا] لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وقفهم الله على قدرته ، وخوفهم من إحاطتها بهم ، المعنى : أليس يرون أمامهم ووراءهم سمائي وأرضي ، لا سبيل لهم عن فقد ذلك عن أبصارهم ، ولا عدم إحاطته بهم .

(١) يريد أن يقول : إن الضلال يُقَوِّي حيرة صاحبه ويُمكن التلف منه لأنه أبعده عن طريق الصواب ، ولهذا سمي بعيداً ، والعبارة قلقة .

وقرأ الجمهور : ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفُ﴾ ، ﴿أَوْ نُسْقِطُ﴾ بالنون في
الثلاثة ، وقرأ حمزة ، والكسائي بالياء فيهن ، وهي قراءة ابن وثاب ،
وابن مصرف ، والأعمش ، وعيسى ، واختارها أبو عبيد . و «خَسَفُ
الْأَرْضِ» هو إِنْهَوَاؤُهَا بِهِمْ وَتَهْوُّرُهَا وَغَرَقَهُمْ فِيهَا ، و «الْكَسْفُ» قيل :
هو مفرد اسم القطعة ، وقيل : هو جمع كَسْفَةٍ ، على مثال تَمْرَةٍ وَتَمْرٍ ،
ومشهور جمعها كِسْفٌ كَسِدْرَةٌ وَسِدْرٌ (١) .

وأدغم الكسائي الفاء في الباء في قوله تعالى : ﴿نَخْسِفُ بِهِمْ﴾ .
قال أبو علي : وذلك لا يجوز ؛ لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء
فلا تدغم فيها ، وإن كانت الباء تدغم في الفاء في قولك : «اضرب
فلاناً» ، وهذا كما تدغم الباء في الميم في قولك : «اضرب محمداً» .
ولا تدغم الميم في الباء في قولك : «أصمم بك» ؛ لأن الباء انحطت
عن الميم بفعل الغنة التي في الميم (٢) .

(١) في (اللسان - كَسَفَ) : «كَسَفُ السَّحَابِ وَكَسْفُهُ : قَطَعُهُ» ، وفيه : «وقال
الزجاج : قرئ : ﴿أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ و [كِسْفًا] ،
فمن قرأ : [كِسْفًا] جعلها جمع كِسْفَةٍ ، وهي القطعة ، ومن قرأ : [كِسْفًا] جعله واحداً» .
(٢) وقال الزمخشري : «وقرأ الكسائي : ﴿نَخْسِفُ بِهِمْ﴾ بالإدغام . وليست بقوة»
ا. هـ. وعلّق أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط على كلام أبي علي المذكور هنا ، وعلى
كلام الزمخشري فقال : «والقراءة سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، ويوجد فيها النصيح والأفصح ، وكل ذلك
من تيسيره تعالى القرآن للذكر ، فلا التفات لقرن أبي علي ولا الزمخشري» .

والإشارة بقوله : ﴿ فِي ذَلِكَ ﴾ إلى إحاطة السماء بالمرء ، ومماسّة الأرض له على كل حال . و « الْمُنِيبُ » : الرَّاجِعُ .

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً صلى الله عليه وسلم ، أي : لا تستبعدوا هذا فقد تفضلنا على عبيدنا قديماً بكذا ، فلما فرغ التمثيل بمحمد (١) عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسببٍ وما كان من هلاكهم بالكفر والعُتُوِّ ، والمعنى : قلنا : يا جبال ، و [أوبى] معناه : رجّعي معه ؛ لأنه مضاعف أب يوؤب ، فقال ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : معناه : سبّحي معه ، أي : يُسبّح هو وترجع هي معه التّسبيح ، أي : تردُّ بالذكر ، ثم ضوعف الفعل للمبالغة ، وقيل : معناه : سيرى معه ؛ لأنّ التأويب سير النهار ، كأنّ الإنسان يسير بالليل ثم يرجع السير بالنهار ، أي يُردّده ، فكأنه يُؤوبه ، فقيل له : التأويب ، ومنه قول الشاعر :

يَوْمَانِ يَوْمٌ مُقَامَاتٍ وَأَنْدِيَةٌ وَيَوْمٌ سِيرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيبٌ (٢)

(١) في بعض النسخ : « فلما فرغ التمثيل لمحمد ... » .

(٢) هذا البيت لسلامة بن جندل السّعدى ، وهو من فرسان العرب المعدودين ، وكان من أحسن من وصف الخيل ، والبيت من قصيدة له يأسف فيها على شبابه ، ثم يفخر بجزده ويجود قبيلته ، وبما أظهره من الشجاعة في الحرب ، وقوله : يومان ، أي : لبّتي سعد ، =

ومنه قول ابن مقبل :

لَحِقْنَا بِحَيٍّ أَوْبُوا السَّيْرَ بَعْدَمَا دَفَعْنَا شُعَاعَ الشَّمْسِ وَالطَّرْفُ يَجْنَحُ (١)

وقال مؤرج : [أوبي] : سبَّحي بلغة الحبشة ، وهذا ضعيف غير معروف ،

وقال وهب بن مُنَبِّه : المعنى : نوحى معه والطير تساعدك على ذلك ،

قال : فكان داود عليه السلام إذا نادى بالنياحة والحنين أجابته الجبال

وعكفت الطير عليه من فوقه ، قال : فمن حينئذ سُمع صدى الجبال ،

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وابن أبي إسحق : [أوبي] بضم الهمزة

وسكون الواو ، أي : ارجعي معه ، أي في السير أو في التسبيح ،

- ومقامات : جمع مقامة - بالضم - وهي الإقامة ، أو - بالفتح - وهي المجلس ، والأندية : الأندية ، والنديُّ والنادي سواهُ ، وهو ما حول الدار وإن لم يكن مجلساً ، يريد بالمقامات والأندية مواقف الخطابة ونحوها ، والتأويب : سير اليوم كله إلى الليل ، يقال : أوب القوم تأويباً ، أي : ساروا النهار كله . والبيت في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، وفي (اللسان - أوب) ، وعلّق عليه بقوله : والتأويب سير النهار كله إلى الليل ، والقصيدة التي منها هذا البيت رقمها (٢٢) في المفضليات ، ومطلعها :

أودَى الشَّبَابُ حَمِيداً ذُو التَّعَاجِبِ أودَى وَذَلِكَ شَأْوَ غَيْرُ مَطْلُوبِ

(١) ابن مقبل اسمه : تميم ، وهو من بني العجلان ، شاعر جاهلي إسلامي ، بلغ مائة وعشرين سنة ، ويروى : (رَفَعْنَا) بدلا من (دفعنا) ، وفي بعض النسخ (مُجْنَح) بدلا من (يَجْنَح) ، والجنوح هو الميل ، يقال : جنحت الشمس للغروب ، أي : مالت . وجنح الليل ، أي : للذهاب أو المجيء ، والشاهد أن (أوب) بمعنى سار النهار كله إلى الليل كاليبت الذي قبله .

وأمر الجبال كما تؤمر الواحدة المؤنثة لأن جميع مالا يعقل كذلك يُؤمر ، وكذلك يكنى عنه ويوصف ، ومنه المثل «يا خيل الله اركبي» (١) ، ومنه (مَارِبُ أُخْرَى) (٢) ، وهذا كثير .

وقرأ الأعرج ، وعاصم - بخلاف - وجماعة من أهل المدينة : [وَالطَّيْرُ] بالرفع عطفاً على لفظ قوله : (يَا جِبَالُ) ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، والحسن ، وابن أبي إسحق ، وأبو جعفر : [وَالطَّيْرَ] بالنصب - فقيل : ذلك عطف على [فَضْلاً] ، وهو مذهب الكسائي ، وقال سيبويه : هو على موضع قوله : (يَا جِبَالُ) ؛ لأن موضع المنادي المفرد نصب ، وقال أبو عمرو : نَصَبُهَا بإضمار فعل تقديره : وسخرنا الطير . وقوله : (وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ) معناه : جعلناه لِيناً ، وروى قتادة أن الحديد كان له كالشمع لا يحتاج في عمله إلى نار ، وقيل : أعطاه قُوَّةً يَثْنِي بها الحديد ، ورُوي أنه لقي ملكاً - وداود

(١) قال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر - خَيْلٌ) : «وفي الحديث (يا خيل الله اركبي) ، وهذا على حذف مضاف ، وأراد : يا فرسان خيل الله اركبي ، وهذا من أحسن المجازات والطفها .

(٢) من الآية (١٨) من سورة (طه) ، وهي قوله تعالى : ﴿ قَالَ مِثْيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ﴾ .

عليه السلام يظنه إنساناً - وداودُ متنكّرٌ خرج ليسأل الناسَ عن نفسه في خفاءٍ ، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثّل فيه الملك : ما قولك في هذا الملك داود ؟ فقال له الملك : نِعَمَ العبد لولا خلةٌ فيه . فقال داود : وما هي ؟ قال : يرتزق من بيت المال ، ولو أكل من عمل يده لَتَمَّتْ فضائله ، فرجع فدعا الله في أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلمه صنعة اللبوس ، وألان له الحديد ، فكان - فيما روي - يصنع فيما بين يومه وليلته درعاً تُساوي ألف درهم ، حتى أدخر منها كثيراً وتوسّعت معيشته ، وكان ينفق بيت المال في مصالح المسلمين .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ ﴾ ، قيل : إِنَّ [أَنْ] مفسّرةٌ لا موضع لها من الإعراب (١) ، وقيل : هي في موضع نصب بإسقاط حرف الجرّ ، و « السابغاتُ » : الدروع الكاسيات ذوات القفول ، قال قتادة : داود عليه السلام أول من صنعها ، ودرع الحديد مؤنثة ، ودرع المرأة مذكّر .

(١) هذا قول الحوفي ، ذكر ذلك أبو حيان في البحر المحيط . ثم عقّب عليه بقوله : « ولا يصح ؛ لأن من شرطها أن يتقدمها معنى القول . وليس في الكلام هذا ، وقدر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً يحمل معنى القول حتى يصح أن تكون مفسّرة . وتقديره : وأمرناه أن أعْمَل ، ولا ضرورة تدعو إلى هذا المحذوف » . اهـ . بتصرف .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرُ فِي السَّرْدِ ﴾ . اختلف المتأولون ، في أي شيء هو التقدير من أشياء السرد ؟ إذ السرد هو إتباع الشيء بالشيء من جنسه ، قال الشماخ :

كَمَا تَابَعَتْ سَرْدَ الْعِنَانِ الْخَوَارِزُ (١)

ومنه : سرد الحديث (٢) ، وقيل للدرع : مسرودة لأنها توبعت فيها الحلق بالخلق ، ومنه قول الشاعر :

(١) هذا عجز بيت ، وهو بتمامه كما في (جمهرة أشعار العرب) :

رَكِبْنَ الذُّنَابِي فَاتَّبَعْنَ بِهِ الْهُوَى كَمَا تَابَعَتْ سَرْدَ الْعِنَانِ الْخَوَارِزُ

وقيل : بل الشطر الأول هو : (فَظَلَّتْ تِسَاعًا خَيْلُنَا فِي بُيُوتِكُمْ) ، وهذه رواية القرطبي في تفسيره ، وفي الديوان روى الشطر الأول هكذا : (شَكَّكُنَّ بِأَحْشَاءِ الذُّنَابِي عَلَيَّ هُدَى) .

هذا والشماخ لقب للشاعر ، وأسمه معقل بن ضرار ، وهو أرجز الناس على بديهته ، والبيت من قصيدة له قال عنها الأصمعي : « ما قيلت قصيدة على الزاي أجود من قصيدة الشماخ في وصف القوس ، ولو طالت قصيدة المتنخل كانت أجود » . وهو يقصد أبياتاً قالها المتنخل أيضاً على الزاي ، ومعنى (رَكِبْنَ الذُّنَابِي) : فررن ، واتَّبَعْنَ بِهِ الْهُوَى : أي هوى الحمام الوحشي ، والخوارز : جمع خارز ، من قولهم : خَرَزَ الْجِلْدَ ، أي ثَقَبَهُ بِالْمَخْرَزِ وَخَاطَهُ . والشاهد أن السرد هو : إتباع الشيء بالشيء من جنسه كما قال المؤلف ، وقد روي البيت في الجمهرة : (كَمَا تَابَعَتْ شَدَّ الْعِنَانِ) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

(٢) في (اللسان -- سرد) : « سَرَدَ الْحَدِيثَ وَنَحْوَهُ سَرْدًا : إِذَا تَابَعَهُ ، وَفِي صِفَةِ كَلَامِهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَمْ يَكُنْ يَسْرِدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا) أَي : يَتَّبَعُهُ وَيَسْتَعْجَلُ فِيهِ .

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تَبَعٌ (١)
 وقول دُرَيْدٍ :

..... في الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ (٧)

(١) البيت لأبي ذُوؤَيْبِ الْهُذَلِيِّ ، وهو من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

أَمِينَ الْمُنُونِ وَرَيْبِيهَا تَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبِرٍ مَنْ يَجْزَعُ

ورواية الديوان في (أشعار الهذليين) : (وَعَلَيْهِمَا مَاذِيَّتَانِ) ، وفي رواية الأصمعي (وَتَعَاوَرَا مَسْرُودَتَيْنِ) . وَالسَّرْدُ : الْخَرَزُ فِي الْأَدِيمِ ، وَالْمِسَرْدُ : مَا يُخْرَزُ بِهِ ، وَيُقَالُ لِلدَّرْعِ : مَسْرُودَةٌ لِأَنَّهَا مَخْرُوزَةٌ وَمَنْظُومَةٌ . وَقَضَاهُمَا : فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِمَا ، وَالصَّنْعُ : الْحَاذِقُ بِالْعَمَلِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا تَبَعٌ ، يُقَالُ : رَجُلٌ صَنَعَ وَأَمْرَأَةٌ صَنَاعٌ ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : سَمِعَ الشَّاعِرَ بَأَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ سَخَّرَ لَهُ الْحَدِيدَ فَكَانَ يَصْنَعُ مِنْهُ مَا أَرَادَ ، وَسَمِعَ بَأَنَّ تَبَعًا عَمِلَهُمَا فَقَالَ : عَمِلَهُمَا ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ أَمَرَ بِالسَّوَابِغِ أَنْ تَعْمَلَ ، وَتَبَعٌ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَصْنَعَ بِيَدِهِ .

(٢) هذا جزء من بيت قاله دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ يَرْتِي بِهَا أُنْثَاهُ رِثَاءً لِإِنْسَانِيًّا

عميقاً ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

وَقَلْتُ لِعَرَاضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ وَرَهْطِ بَنِي السُّودَاءِ وَالْقَوْمِ شُهْدِي

عَلَانِيَةً : ظَنُّوا بِالْأَلْفِي مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

وعارض هو أخو دريد ، والقوم شهدي : شهودي على ما قلته ، وعلانية : جهراً أمام الجميع ، وَظَنُّوا : أَيَقْنُوا ، وَالْمُدَجَّجُ : التَّمَامُ السَّلَاحِ ، وَسَرَاتُهُمْ : أَسْرَافُهُمْ وَرُؤْسَاؤُهُمْ ، وَالْفَارِسِيُّ : دِرْعٌ مِنْ بِلَادِ فَارَسٍ . وَالْمُسَرَّدُ : الْمَحْكَمُ النَّسْجِ أَوْ الدَّقِيقُ الصَّنْعُ الْمَتَابِعُ الْحَلَقَاتُ . وَالْمَعْنَى : لَقَدْ نَصَحْتُ عَارِضًا وَأَصْحَابِيهِ وَجَمَاعَةً مِنْ بَنِي السُّودَاءِ ، وَنَهَيْتُهُمْ فِي مَشْهَدٍ مِنَ الْقَوْمِ . وَكَانَ حَدِيثِي لَمْ عَلَانِيَةً وَجَهْرًا ، وَقَلْتُ لَهُمْ : إِنْ أَلْفِي مَقَاتِلٌ يَتَرَبِّصُونَ بِكُمْ ، وَأَسْرَافُهُمْ مُدَجَّجُونَ =

قال ابن زيد : التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة ، أي : لا تعملها صغيرة فتضعف حتى لا تقوى الدرع على الدفاع ، ولا كبيرة فينال لابسها من خلالها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : التقدير الذي أمر به هو في المسامير ، يريد : قدر المسامير والحلق ، حتى لا تدق (١) المسامير فتسلس ، ويروى : فيسلسل ، ولا تغلظه فينقصم ، بالقاف - وبالفاء أيضاً رواية - ، وروى قتادة أن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقلاً ، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة ، أي : قدر ما يأخذ من هذين المعينين بقسطه ، أي : لا يقصد الحصانة فيثقل ، ولا الخفة وحدها فيزيل المنعة .

قوله : ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾ ، لما كان الأمر لداود وآله حكي وإن كان لم يجز لهم ذكر للدلالة المعنى عليهم ، ثم توعدهم بقوله : ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، أي : لا يخفى علي حسن من قبيحه . وبحسب ذلك يكون جزائي لكم .

« وَمُحَصَّنُونَ بِالدروع الفارسية المحكمة الصنع . ثم يصرخ بعد هذين البيتين بيته الرائع الذي جرى بعد ذلك مجرى الأمثال :

أمرتهمُ أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

(١) في بعض النسخ : (ترقى) بالراء .

قوله عز وجل :

﴿وَلَسَلِيمَنَّ الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَن أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ

السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴿

قال الحسن : عقر سليمان عليه السلام الخيل أسفاً على ما فوتته من وقت صلاة العصر ، فأبدله الله خيراً منها وأسرع ، الريح بأمره (١) ، وقرأ الجمهور : [الرَّيْحَ] بالنصب على معنى : ولسليمان سخرنا الريح ، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - والأعرجُ : [الرَّيْحُ] بالرفع على تقدير : تسخرت الريحُ ، أو على الابتداء ، والخبر في المجرور ، وذلك على حذف مضاف تقديره : ولسليمان تسخير الريح . وقرأ الحسن : ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحُ﴾ ، وكذلك جمع في كل القرآن .

قوله تعالى : ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾ ، قال قتادة : إنها كانت تقطع به في الغدو إلى قرب الزوال مسيرة شهر ، وتقطع به في الرواح من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر ، وروي عن الحسن البصري أنه قال : كان يخرج من الشام من مُسْتَقَرِّه بتدمر التي بنتها له الجن بالصفاح والعمد فيقيل في اصطخر ، ويروح منها فيبیت في كابل

(١) في بعض النسخ : «الريح يأمره» .

من أرض خراسان ، ونحو هذا ، وكانت الأعاصير تُقِلُّ بساطه وتحمله بعد ذلك الرُخاء ، وكان هذا البساط يحمل - فيما رُوي - أربعة آلاف فارس وما يشبهها من الرجال والعُدد ويتسع لهم ، ورُوي أكثر من هذا بكثير ، ولكن عدم صحته مع بُعد شبهه أوجب اختصاره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (خير الجيوش أربعة آلاف) (١) ، وما كان سليمان ليعدو الخير .

وقرأ ابن أبي عبلة : «عَدَوْتَهَا شَهْرٌ وَرَوَحَتْهَا شَهْرٌ» (٢) ، وكان سليمان عليه السلام إذا أراد قوماً لم يُشعر به حتى يُظللهم في جو السماء . قوله تعالى : ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ ، رُوي عن ابن عباس ، وقتادة أنه كان يسيل له باليمن عين جارية من نحاس يُصنع له منها جميع ما أحب ، والقِطْرُ : النُّحاس ، وقالت فرقة : القِطْرُ : الفلِزُّ كله ، النحاس والحديد وما جرى مجراه ، كانت تسيل له منه عيون ، وقالت فرقة : بل معنى ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ : أذَبْنَا له النحاس ، على نحو ما كان الحديد يلين لداود ، قالوا : وكانت الأعمال تتأتى منه لسليمان وهو بارد دون نار ، و [عَيْن] - على هذا

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ، وكذلك ابن ماجه . وأخرجه الدارمي في السير . ولفظه كما في سنن الدارمي . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خير الأصحاب أربعة ، وخير الجيوش أربعة آلاف . وخير السرايا أربعمائة ، وما بلغ اثنا عشر ألفاً فصبروا وصدقوا فعُلبوا من قيَّته) .

(٢) على وزن (فَعَلَّة) . وهي المرة الواحدة من : (غدا) و (راح) .

التأويل - بمعنى المذاب ، وقالوا : لم يلن النحاس ولا ذاب لأحد قبله .
 وقوله : ﴿ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ ﴾ يحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع
 نصب على الإتياع لما تقدم بإضمار فعل تقديره : وسخرنا من الجن
 مَنْ يعمل ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على الابتداء ، والخبر
 في المجرور ، و [يَزِغُ] معناه : يَمِلُ ، أي ينحرف عاصياً ، وقال :
 ﴿ عَنَّا أَمْرًا ﴾ ولم يقل : « عن إرادتنا » لأنه لا يقع في العالم شيء
 يخالف الإرادة ، وقد يقع ما يخالف الأمر . قال الضحاك : وفي مصحف
 عبد الله : « وَمَنْ يَزِغُ عَنَّا أَمْرًا » بغير « مِنْهُمْ » . وقوله : ﴿ مِنْ عَذَابِ
 السَّعِيرِ ﴾ ، قيل : عذاب الآخرة ، وقيل : بل كان قد وكل بهم ملك
 بيده سوط من نار السَّعِيرِ ، فمن عصى ضربه فأحرقه .

قوله عز وجل :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ
 أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

المحارِب : الأبنية العالية الشريفة ، قال قتادة : القصور والمساجد ،
 وقال ابن زيد : المساكن . والمحراب أشرف موضع في البيت ، والمحراب

موضع العبادة أشرف ما يكون منه ، وغلب عُرف الاستعمال في موضع وقوف الإمام لشرفه ، ومن هذه اللَّفظة قول عديّ بن زيد :
 كَدُمِي أَلْعَاجَ فِي المَحَارِيبِ أَوْ كَا لَبِيضِ فِي الرُّوضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرٌ (١)
 والتماثيل ، قيل : كانت من زجاج ونحاس ، تماثيل أشياء ليست
 بحيوان ، وقال الضحاك : كانت تماثيل حيوان ، وكان هذا من الجائر
 في ذلك الشَّرْع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونُسخ بشرع محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال قوم : حرم التصوير لأنَّ الصُّور كانت تُعبد ، وحكى في الهداية أن فرقة تجوّز التصوير وتحتج بهذه الآية ، وذلك خطأ ، وما أحفظ من أئمة العلم من يجوّزه .

(١) هذا البيت من قصيدة قالها عدي وهو في السجن ، وتحدث فيها عن صروف الدهر ، لكنه استهلها بوصف السحاب وما فيه من رعد وبرق ومطر . وشبّه الغيوم البيض بالدُمى العاجية ، أو بالحسان اللواتي يرتدين الشفوف والحريز ، ويتضمخن بطيب الحياة الناعمة . وإذا كان وصف المطر والغيوم من الصور التقليدية في الشعر العربي إلا أن الشاعر قد غيّر في بيئة التشبيه ، وظهرت عنده معالم جديدة للحضارة . وكثرت فيها الخليل والأصباغ ، وهذا يكشف عن رؤية جديدة للشاعر تمثل فيها الأشياء ، والشاهد هنا أن المحاريب استعملت بمعنى المعابد .

وَالْجَوَابِي جَمْعُ جَابِيَةٍ ، وَهِيَ الْبِرْكَةُ الَّتِي يَجِيءُ إِلَيْهَا الْمَاءُ الَّذِي
يَجْتَمِعُ ، قَالَ الرَّاجِزُ :

فَصَبَّحْتُ جَابِيَةً صُهُارِجًا كَأَنَّهُ جِلْدُ السَّمَاءِ خَارِجًا (١)
وقال مجاهد : هي جمع جَوْبَةٍ (٢) ، وهي الحفرة العظيمة في الأرض ،
وفي هذا نظر ، ومنه قول الأعشى :

نَفَى الدِّمَّ عَن آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ (٣)

(١) البيتان من مشطور الرجز ، وهما غير منسوبان ، والبيت الأول في (اللسان - صُهُارِجَ) ،
استشهد به على أن (صُهُارِجَ) بمعنى (طَلَا) ، قال : «وَصُهُارِجَ الْحَوْضِ : طَلَاهُ ، وَحَوْضُ
صُهُارِجٌ : مَطْلِيُّ الْبَصَارِوَجِ ، وَالصُّهُارِجُ - بِالضَّمِّ - مِثْلُ الصُّهُرَيْجِ ، وَأَنشَدَ الْأَزْهَرِيُّ :
«فَصَبَّحْتُ جَابِيَةً صُهُارِجًا» ، يَقُولُ : إِنْ الْجَابِيَةَ مَطْلِيَّةٌ بِالْبَصَارِوَجِ ، أَوْ تَشْبَهُ الْمَطْلِيَّةِ بِهِ .
وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي يَشْبَهُ لَوْنُهَا بِأَوْنَ السَّمَاءِ فِي الزَّرْقَةِ . وَالشَّاهِدُ هُنَا أَنَّ الْجَابِيَةَ هِيَ الْحَوْضُ الْكَبِيرُ
الَّذِي يُجْمَعُ فِيهِ الْمَاءُ .

(٢) فِي الْلسَانِ : (قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : «هُوَ جَمْعُ جَابِيَةٍ» ، وَقَالَ : وَالْجَابِيَةُ وَالْجَبْوَةُ
وَالْجَبِيَّةُ وَالْجَبَا وَالْجَبَاوَةُ : مَا جَمَعَتْ مِنَ الْمَاءِ فِي الْحَوْضِ) .

(٣) رَوَايَةُ الْدِيوَانِ كَرَوَايَةِ ابْنِ عَطِيَّةٍ هُنَا ، وَرَوَايَةُ الْلسَانِ مِثْلَ رَوَايَةِ الطَّبْرِيِّ الَّتِي أَشَارَ
إِلَيْهَا ابْنُ عَطِيَّةٍ ، وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ لِلْأَعْشَى يَمْدَحُ فِيهَا الْمُحَلَّقَ بْنَ خَيْثَمِ بْنِ شَدَادِ بْنِ رِبْعَةَ ،
وَالْحَمْدُ : الْقَصْعَةُ الْكَبِيرَةُ ، وَالْجَابِيَةُ : الْحَوْضُ الضَّخْمُ أَوْ الْحَفْرَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي جَمَعَ فِيهَا الْمَاءُ ،
وَتَفْهَقُ : تَفِيضُ ، وَقَدْ خَصَّ الشَّيْخُ الْعِرَاقِيُّ لَجْهَلِهِ بِالْمِيَاهِ لِأَنَّهُ حَضْرِيٌّ ، فَإِذَا وَجَدَهَا مَلَأَ جَابِيَتَهُ
وَأَعَدَّهَا ، وَلَمْ يَدْرَ مَتَى يَجِدُ الْمِيَاهَ ، وَأَمَّا الْبَدَوِيُّ فَهُوَ عَالِمٌ بِالْمِيَاهِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَلَا يُعِدُّهَا . قَالَ
ذَلِكَ صَاحِبُ الْلسَانِ ، وَذَكَرَهُ أَيْضاً الْمُبَرِّدُ فِي كِتَابِهِ (الْكَامِلِ) ، وَعَلَّلَ الرَّوَايَةَ الثَّانِيَةَ أَيْضاً
وَهِيَ بِالنَّسَبِ وَالْحَاءِ الْمُهْمَلَتَيْنِ ، قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيَةً تُنْشِدُ (وَهِيَ رَوَايَةُ أَهْلِ
الْكُوفَةِ . وَالْأَعْرَابِيَّةُ هِيَ أُمُّ الْهَيْثَمِ الْكَلَابِيَّةِ مِنْ وَلَدِ الْمُحَلَّقِ) : «كَجَابِيَةِ السَّيِّحِ» تَرِيدُ النَّهْرَ
الَّذِي يَجْرِي عَلَى جَابِيَتِهِ ، فَمَاؤُهَا لَا يَنْقَطِعُ ؛ لِأَنَّ النَّهْرَ يَمْدَحُ .

وأنشده الطبريُّ : « تَرَوْحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِ » ، ويروى : « السَّيْحُ » بالسَّينِ المهمله والحاءِ المهمله ، وهو الماءُ الجاري على وجه الأرض ، ويروى بالسَّينِ والحاءِ منقوطين ، فيقال : أراد كسرى ، ويقال : أراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غيرَ مُعَيَّن ، وذلك أنه لضعفه يدَّخر الماء في جابية فهي تَفْهَقُ أبداً ، فشبهت الجفنة بها لعظمتها ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد : « الجوابي : الحياض » . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [كَالْجَوَابِ] بغير ياءٍ في الوصل والوقف ، وقرأ أبو عمرو ، وعيسى بغير ياءٍ في الوقف وبياءٍ في الوصل ، وقرأ ابن كثير بياءٍ فيهما . ووجه حذف الياءِ التخفيف والإيجاز ، وهذا كحذفهم الياءِ في « القاضِ » ، والغازِ ، والهادِ » ، وأيضاً فلما كانت الألف واللام تعاقب التنوين وكانت الياءُ تحذف مع التنوين وجب أن تحذف مع ما عاقبته ، كما يُعْمَلُونَ الشيءَ أبداً عمل نقيضه .

و [رَأْسِيَّاتٍ] معناه : ثابتات لكبرها ، ليست مما يُنقل ولا يُحمل ، ولا يستطيع عمله إلا الجن ، وبالثبوت فسرها الناس . ثم أمروا مع هذه النعم بأن يعملوا بالطاعات .

وقوله : [شُكْرًا] يحتمل أن يكون نصبه على الحال ، أي : اعملوا بالطاعة في حال شكر منكم لله على هذه النعم ، ويحتمل أن يكون

نصبه على جهة المفعول ، أي : اعملوا عملاً هو الشُّكر ، كأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر إذ سَدَّتْ مسدّه ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فتلا هذه الآية ، ثم قال : (ثلاثٌ من أوتيهنَّ فقد أُوتِيَ في العملِ شُكراً : العدلُ في الغضبِ والرِّضى ، والقصدُ في الفقر والغنى ، وخشية الله في السرِّ والعلانية) (١) ، وروي أن داود عليه السلام قال : يارب كيف أُطيقُ شُكركَ على نِعَمِكَ وإِلْهَامِي وقُدْرَتِي على شُكركَ نِعْمَةً لك ؟ فقال : الآن يا داود عرفتني حق معرفتي ، وقال ثابت (٢) : روي أَنَّ مُصَلَّى آلِ داود لم يَحُلْ قَطُّ من قائم يصلي ليلاً ونهاراً ، كانوا يتناوبونه دائماً ، وكان سليمان عليه السلام - فيما رُوي - يَأْكُلُ الشعير ، ويطعم أهله الخُشْكَارَ (٣) ، ويطعم المساكين الدرْمَكَ (٤) . ورُوي أَنه ما شبع قط ، فقبل له في ذلك فقال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجِيعَ .

(١) أخرجه الحاكم عن أبي هريرة (الجامع الصغير) .

(٢) هو ثابت بن أسلم البُناني - بضم الباء وتخفيف النون - أبو محمد البصري ، ثقة ، عابد ، من الرابعة ، مات سنة بضع وعشرين وله ستُّ وثمانون . (تقريب التهذيب) .

(٣) الخُشْكَارُ : الحَبْزُ الأَسْمَرُ غير النقي ، (فارسي) . عن المعجم الوسيط .

(٤) الدرْمُكُ : دقيق الحُوَارَى ، وهو الدقيق الأبيض .

وقوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ يحتمل أن تكون مخاطبة لآل داود ، ويحتمل أن تكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل حال ففيها تنبيه وتحريض ، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول : اللهم اجعلني من القليل ، فقال له : ما هذا الدعاء ؟ فقال : أردت قوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ ، فقال عمر : كل الناس أعلم من عمر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد قال الله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (١) ، والقلة أيضاً بمعنى الخمول منحة من الله تبارك وتعالى (٢) ، فلهذا الدعاء محاسن .

قوله عز وجل :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُمْ
فَلَمَّا أَخْرَجْتُمُوهُنَّ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْبَاهُنَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَلَهُنَّ آزْوَاجٌ غَيْرُ
أُولَئِكَ لَا حَسْرَةَ فِي الْآزْوَاجِ الْغَيْرِ الْمَآءُومَةِ﴾ (١٤)

الضمير عائد على سليمان عليه السلام ، و [قَضَيْنَا] بمعنى : أنفذنا وأخرجناه إلى حيز الوجود ، وإلا فالقضاء الأخير به متقدم في الأزل ،

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص) .

(٢) لعله يريد البعد عن الكبرياء والاعتزاز بالمظاهر .

وروي عن ابن عباس ، وابن مسعود رضي الله عنهما في قصصها أن سليمان عليه السلام كان يتعبد في بيت المقدس ، وكان ينبت في محرابه كل سنة شجرة ، فكان يسألها عن منافعها ومضارها وسائر شأنها فتخبره ، ويأمر بها فتقطع وتصرف في منافعها ، أو تُغرس لتتناسل ، فلما كان عند موته خرجت شجرة فقال لها : ما أنت ؟ قالت : أنا الخروب ، خرجت لخراب مُلكك هذا . فقال : ما كان الله ليخبره وأنا حي ، ولكنه لاشكَّ حضور أجلي ، فاستعد عليه السلام وغرسها ، وصنع منها عصاً لنفسه ، وجدَّ في عبادته ، وجاءه بعد ذلك ملك الموت ، فأخبره أنه قد أمر بقبض روحه ، وأنه لم يبق له إلا مدة يسيرة ، فروي أنه أمر الجن حينئذ فصنعت له قبة من زجاج تشفُّ ، وحصل فيها يتعبد ، ولم يجعل لها باباً ، وتوكأ على عصاه على وضع يتماسك معه وإن مات ، ثم توفي صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة ، ورُوي أنه استعد في تلك القبة بزاد سنة ، وكان الجن يتوهمون أنه يتغذى بالليل ، وكانوا لا يقربون من القبة ، ولا يدخلون من كوى كانت في أعاليها ، ومن رام ذلك منهم احترق قبل الوصول إليها ، هذا في مدة حياة سليمان عليه السلام في القبة ، فبقيت تلك الهيبة على الجن ، وروي أن القبة كان لها باب ، وأن سليمان أمر

بعض أهله بكتمان موته عن الجن والإنس ، وأن يترك على حاله تلك سنة ، وكان غرضه في هذه السنة أن يعمل الجن عملاً كان قد بدأ في زمن داود عليه السلام وقدر أنه بقي منه عمل سنة ، فأحب الفراغ منه ، فلما مضى لموته سنة خرَّ عن عصاه ، وقد أكلتها الأرضة ، وهي الدودة التي تأكل العود ، فرأت الجن انخراجه فتوهمت موته ، فجاء جسور منهم فاقترب فلم يحترق ، ثم عاد فقرب أكثر ، ثم قرب حتى دخل من بعض الكوى فوجد سليمان عليه السلام ميتاً فأخبر بموته ، فنظر ذلك الأجل فقدر أنه سنة ، قال بعض الناس : جعلت الأرضة فأكلت يوماً وليلة ، ثم قيس ذلك بأكلها في العَصَا فعلم أنها أكلت منذ سنة ، فهكذا كانت دلالة دابة الأرض على موته . وللمفسرين في هذا القصص إكثارُ عُمْدَتِهِ ما ذكرناه . وقال كثير من المفسرين : ﴿ دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ : سوسة العود ، وهي الأرضة . وقرأ ابن عباس ، والعباس بن الفضل : [الْأَرْضِ] بفتح الراء ، جمع أرضة ، فهذا يقوي ذلك التأويل . وقالت فرقة : ﴿ دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ : حيوان من الأرض ، شأنه أن يأكل العود ، وذلك موجود ، وليست السوسة من دوابِّ الأرض . وقالت فرقة منها أبو حاتم اللغوي : [الْأَرْضُ] هنا مصدر « أَرْضَتِ الْأَثْوَابُ وَالْخَشْبُ » إذا أكلتها الأرضة ، كأنه

قال : دابة الأكل الذي هو بتلك الصورة ، على جهة التسوس .
وفي مصحف عبد الله : « أَكَلْتُ مِنْسَاتَهُ » ، والمِنْسَاءُ هي العصا ،
ومنه قول الشاعر :

إِذَا دَبَبْتَ عَلَى الْمِنْسَاءِ مِنْ كَبِيرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ مِنْكَ اللَّهُوُ وَالْغَزَلُ (١)
وكذا قرأت جماعة من القراء بغير همز ، منها أبو عمرو ، ونافع ،
قال أبو عمرو : ولا أعرف لها اشتقاقاً ، فأنا لا أهمزها ؛ لأنها إن كانت
مما لا يُهمز فقد احتطت ؛ لأنه لا يجوز لي همز مالا يهمز ، وقال غيره :
أصلها الهمز ، وهي من المنسأة بهمزة مفتوحة ، من : « نَسَأْتُ الْإِبِلَ
وَالْغَنَمَ وَالنَّاقَةَ » إِذَا سُمَّتَهَا ، ومنه قول طرفة :

أَمُونُ كَعِيدَانِ الْأَرَانِ نَسَاتَهُمَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدٍ (٢)

(١) البيت في (اللسان - نساء) وفي (التاج - نساء) ، أما صاحب اللسان فقد استشهد
به - نقلاً عن الجوهري - على أن المِنْسَاءُ هي العَصَا ، قال : « وأصله الهمز ، وقد ذكر » ،
وأما صاحب التاج فقد استشهد به على أن يكون بغير همز ، والرواية فيهما « دَبَبْتُ » ،
والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) ، والرواية فيه « حَبَبْتُ » ، قال : « تَأْكُلُ
مِنْسَاتَهُ » وهي العصا ، وأصلها من : نَسَأْتُ بِهَا الْغَنَمَ ، وهو من المهموز الذي تركت
العرب الهمزة من أسمائها ، ويهمزون الفعل منها ، كما تركوا همزة النبي ، والبرية ، والحاية ،
وهو من : أَنْبَأْتُ ، ومن : بَرَأْتُ ، ومن : نَبَأْتُ .

(٢) البيت من معلقة طرفة ، ذكره في وصفه للناقة ، ورواية الديوان : « أمون كألواح
الأران » ، والأمون : التي يؤمن عثارها ، والأران : التابوت العظيم ، ونسأتها : سُمَّتَهَا ، =

ويروى : « وَعَنْسٍ كَأَلْوَا ح » ، وخففت همزتها جملة ، وكان القياس أن تخفف بينَ بينَ . وقرأ باقي السبعة على الأصل بالهمز . وقرأ حمزة : [مَنْسَاتُهُ] بفتح الميم وبغير همز ، وقرأت فرقة : [مَنْسَاتُهُ] وهذا لا وجه له إلا التخفيف في تسكين المتحرك لغير علة ، كما قال امرؤ القيس :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِظٍ (١)

= ورواية الديوان (نصاتها) بالصاد بمعنى : زجرتها - وعلى هذا فلا شاهد في البيت - ، والأحِب : الطريق الواضح ، والبُرْجُد : الكساء المخطط . يقول : هذه الناقة الموثقة الخلق يؤمن عثارها في أثناء العدو ، وعظامها ضخمة قوية كأنها ألواح التابوت العظيم ، وقد سقطت على طريق واضح كأنه كساء مخطط في عرضه ، والبيت يقدم كثيراً من الوصف والحديث عن الناقة ، فهي ناقة قوية ، مأمونة في سيرها من العثار ، وهذا هو السبب فيما سبق أن ذكره من أنه يُمنّضي همّة بها ، وعظامها كبيرة متينة تشبه ألواح التوابيت الضخمة التي يوضع فيها الموتى ، ثم إنه يسوقها أو يزجرها بعصاه ، والطريق الذي تسير فيه واضح مخطط ، ومع هذا الحشد الكثير من الأوصاف والمعلومات فإن التراكيب اللغوية دقيقة سهلة ليس فيها تكلف ولا تقديم أو تأخير .

(١) البيت من قصيدة قالها امرؤ القيس بعد ظفره ببني أسد ، وقبله يقول :

حَلَّتْ لِي الْحَمْرُ وَكُنْتُ أَمْرًا عِنْدَ شُرْبِهَا فِي شَعْلِ شَاغِلٍ

والمُسْتَحْقِب : المكتسب للإثم الحامل له ، والواغِلُ : الذي يدخل على القوم وهم يشربون من غير أن يُدْعَى ، ورواية الديوان : « فالיום أسقَى » بدلا من « أشرب » ، يقول : إنه بعد انتصاره على أعدائه بني أسد حلت له الخمر التي كان مشغولا عنها بطلب الثأر لأبيه ، فهو اليوم يشرب ما يريد . والشاهد أنه سكن المتحرك لغير علة عندما سكن الباء من (أشرب) دون سبب إلا مجرد التخفيف وضرورة الشعر ، قال الأعلام : وذلك في حال الرفع والوصل . وقد اعترض المبرد على سيبويه وقال : إنما الرواية : فاليوم فاشرب ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

وقرأت فرقة : ﴿ مِنْ سَاتِهِ ﴾ بفصل [مِنْ] وكسر التاء في [سَاتِهِ] ،
وهذه تنحو إلى : سِيَةِ القوس ؛ لأنه يقال : سِيَةٌ وَسَاءَةٌ ، فكأنه قال :
« من سَاتِهِ » ثم سكن الهمزة ، ومعناها : من طرف عصاه ، أنزل العصا
منزلة القوس .

وقال بعض الناس : إن سليمان عليه السلام لم يمت إلا في سفر
مضطجعاً ، ولكنه كان في بيت مبني عليه ، وأأكلت الأرضة عتبة
الباب حتى خرَّ البيت فعلم موته ، وهذا ضعيف (١) .

وقرأ الجمهور : ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ بإسناد الفعل إليها ، أي :
بان أمرها ، كأنه قال : افتضحت الجنُّ ، أي للإنس ، هذا تأويل .
ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ بمعنى : علمت الجنُّ وتحققت ،
ويريد بالجن : جمهورهم والفعللة منهم والخدمة ، ويريد بالضمير
في [كانوا] رؤسائهم وكبارهم ؛ لأنهم هم الذين يدعون علم الغيب
لأتباعهم من الجنِّ والإنس ويوهمونهم ذلك ، قاله قتادة ، فتبينَّ
الأتباعُ أن الرؤوس لو كانوا عالمين ما لبثوا . و [أن] - على التأويل

(١) لأن معنى ذلك أن المنسأة هي عتبة البيت ، ولو كان كذلك وعاد الضمير عليها
لكان التركيب : « فلما خرَّت » بناء التانيث ، ولا يجوز حذف هذه التاء إلا في ضرورة الشعر .
ولا يكون ذلك على معنى العود لأنه قليل ، قال ذلك أبو حيان في البحر المحيط لبيان سبب الضعف .

الأول - بدل من [أَلْجِن] ، وعلى التأويل الثاني مفعولة محضة ،
 وقرأ يعقوب : ﴿ تَبَيَّنَتْ أَلْجِنُّ ﴾ على الفعل المجهول ، أي : تَبَيَّنَهَا
 النَّاسُ ، و [أَنْ] - على هذه القراءة - بدلٌ ، ويجوز أن تكون في موضع
 نصب بإسقاط حرف الجرِّ ، أي : بِأَنْ ، على هذه القراءة ، وعلى
 التأويل الأول من القراءة الأولى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

مذهب سيبويه أن [أَنْ] في هذه الآية لا موضع لها من الإعراب ،
 وإنما هي مُؤذنة بجواب ما تَنَزَّلَ منزلة القَسَمِ من الفعل الذي معناه
 التَّحَقُّقُ واليقين ؛ لأن هذه الأفعال التي هي : تَبَيَّنَتْ وتحققت وعلمت
 وتيقنت ونحوها تحلُّ محلَّ القَسَمِ في قولك : علمتُ أن لو قام زيد
 ما قام عمرو ، وكأنك قلتَ : والله لو قام زيد ما قام عمرو ، فقوله :
 ﴿ مَا لَبِثُوا ﴾ - على هذا القول - جواب ما تَنَزَّلَ منزلة القَسَمِ لا جواب
 [لَوْ] ، وعلى الأقوال الأولى جواب [لَوْ] ، وفي كتاب النحاس إشارة إلى أنه يقرأ
 بنصب [أَلْجِن] ، أي : تَبَيَّنَتْ الْإِنْسُ أَلْجِنُّ ، و ﴿ أَلْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾
 هو العمل في تلك السُّخْرَةِ ، والمعنى أن الجن لو كانت تعلم الغيب
 لما خفي عليها أمر سليمان عليه السلام ، وقد ظهر أنه خفي عليها

بدوامها في الخدمة الصعبة وهو ميت ، فالمُهينُ : المُدِلُّ ، من الهوان .
قال الطبريُّ : وفي بعض القراءات « فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنْ أَلْجَنَّا لَوْ
كَانُوا » ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، والضحاك ، وعلي بن
الحسين . وذكر أبو حاتم أنها كذلك في مصحف ابن مسعود ، وأكثر
المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له ، ولا تقتضيه ألفاظ
القرآن ، وفي معانيه بُعد ، فاختصرته لذلك .

قوله عز وجل :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ
رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۖ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِىْ أُكُلٍ نَّخَعٍ وَأَثَلٍ وَمِشْيَءٍ مِّن سِدْرٍ
قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾﴾

هذا مثل لقريش بقوم أنعم الله عليهم وأرسل إليهم الرُّسل فكفروا
وأعرضوا فانتقم منهم ، أي : فأنتم أيها القوم مثلهم . وسبأٌ : أراد
به القبيل ، واختلف ، لِمَ سُمِّيَ القبيل بذلك ؟ فقالت فرقة : هو اسم
امرأة كانت أم القبيل ، وقال الحسن بن أبي الحسن في كتاب الرُّماني :

هو اسم موضع ، فَسُمِّي الْقَبِيلَ بِهِ ، وقال الجمهور : هو اسم رجل كان أباً للقبيل كلهم ، قيل : هو ابن يشجب بن يعرب ، ورؤي في هذا القول حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله فروة بن مسيك (١) عن سبأ ، ما هو ؟ فقال : (هو اسم رجل منه تناسلت قبائل اليمن) (٢) .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج : [لِسَبَأٍ] بهمزة منونة مكسورة ، على معنى الحَيِّ ، وقرأ أبو عمرو ، والحسن : [لِسَبَأٌ] بهمزة مفتوحة غير مصروف ، على معنى القبيلة .

(١) هو فروة بن مسيك - بالسُّنِّ مصغراً - المُرَادِي ، ثم الغُطَيْفِي - بمعجمة مصغراً - ، صحابي سكن الكوفة ، يكنى أبا عمير ، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (تقريب التهذيب) .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، والترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن فروة بن مسيك المرادي رضي الله عنه . قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله : ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم ؟ فأذن لي في قتالهم وأمرني ، فلما خرجت من عنده سألت عنِّي : (ما فعل الغُطَيْفِي ؟ فأخبرني قد سرت ، قال : فأرسل في أثري فردني ، فأتيت وهو في نفر من أصحابه ، فقال : ادع القوم . فمن أسلم منهم فاقبل منه ، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك) . قال : وأنزل في سبأ ما أنزل ، فقال رجل : يا رسول الله : وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال : (ليس بأرض ولا بامرأة ، ولكنه رجل وكلد عشرة من العرب ، فتيا من منهم ستة . وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا فلنخم وجندام وغسان وعاملة ، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وجمير وكيندة ومدحج وأنمار) . فقال رجل : يا رسول الله . وما أنمار ؟ قال : (الذين منهم خثعم وبجيلة) . (فتح القدير : والدر المنثور) .

وقرأ جمهور القراء : [مَسَاكِينُهُمْ] ، لَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَهُ مَسْكَنٌ ، وقرأ الكسائي وحده : ﴿ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴾ بكسر الكاف ، أي : في موضع سكنائهم ، وهي قراءة الأعمش ، وعلقمة ، قال أبو علي : والفتح حَسَنٌ أَيْضاً ، لكن هذا كما قالوا : «مَسْجِدٌ» ، وإن كان سيبويه يرى هذا اسم البيت ، وليس موضع السجود ، قال : هي لغة الناس اليوم ، والفتح هي لغة الحجاز ، وهي اليوم قليلة ، وقرأ حمزة ، وحفص : [مَسْكِنِهِمْ] بفتح الكاف ، على المصدر ، وهو اسم جنس يراد به الجمع ، وهي قراءة إبراهيم النخعي ، وهذا الإفراد هو كما قال الشاعر :

* كُلُّوْا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَخِفُّوْا * (١)

وكما قال الآخر :

قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ (٢)

(١) يريد الشاعر : « في بطونكم » . فاستعمل المفرد وأراد الجمع ، وسيبويه يرى ذلك ضرورة ، قال أبو حيان الأندلسي : « ومن أفرد ينبغي أن يُحمل على المصدر ، أي : في سكنائكم حتى لا يكون مفرداً يراد به الجمع » .
 (٢) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به على أن (سبأ) تكون ممنوعة من الصرف على أنها اسم قبيلة من اليمن ، وسبب المنع من الصرف هو العلمية والتأنيث ، ويمكن ملاحظة الأصل : وهو أنها اسم أُنثى القبيلة ، فهو مذكر ، ولهذا يجوز صرفه ، والبيت بتمامه :

و [آيَةٌ] معناه : عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته ، و [جَنَّتَانِ] ابتداءً ، وخبْرُهُ في قوله سبحانه : ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (١) ، أو خبر ابتداءً تقديره : هي جَنَّتَانِ ، وهي جملةٌ بمعنى : هذه حالهم ، والبدل من [آيَةٌ] ضعيف ، وقد قاله مكِّي وغيره ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿آيَةُ جَنَّتَيْنِ﴾ بالنصب ، وروى أنه كان في ناحية اليمن وادٍ عظيم بين جبليْن ، وكانت حُقَّتَانِ (٢) الوادي منبت فواكه وزرع ، وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبليْن جسر عظيم من حجارة من الجبل فارتدع الماء فيه وصار بحيرة عظيمة ، وأخذ الماء من جنبتيها فمشى مرتفعاً يسقي جنات جنوبي الوادي ، قيل : بنته بلقيس ، وقيل : بناه حمير أبو القبائل اليمنية كلها ، كانوا بهذا الحال في أرغد نعيم ، وكانت لهم بعد ذلك قُرَى ظاهرة مُتَّصِلة من اليمن إلى الشَّام ، وكانوا أرباب تلك البلاد في ذلك الزمان .

= الواردُونَ وتِيمٌ في ذَرَى سَبِيًّا قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ

أما الشاهد هنا فهو استعمال المفرد والمراد به الجمع ، فقد قال : « جلد الجواميس » ، والمراد : « جلود الجواميس » ، وهي التي تؤخذ منها القيود التي يربطون بها عند الأسر . (راجع الجزء الحادي عشر ص ١٩١ ، هامش ١) .

(١) قال أبو حيان : « ولا يظهر ؛ لأنه نكرة لا مُسَوِّغٌ للابتداء بها . إلا إن اعتقد أن ثمة صفة محذوفة ، أي : جَنَّتَانِ لَهُمْ ، أو : جَنَّتَانِ عَظِيمَتَانِ ، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام مفلتاً مما قبله » .

(٢) الحُقْمَةُ والحُقُّ : الأرض المطمئنة .

وقوله تعالى : [كُلُوا] فيه حذف ، كأنه قال : قيل لهم : كُلُوا ،
و [طَيِّبَةً] معناه : كريمة التربة ، حَسَنَةَ الهَوَاءِ ، رَغْدَةً مِنَ النَّعِيمِ ،
سليمة من الهوامِّ والمضار ، هذه عبارات المفسرين ، وكان ذلك الوادي -
فيما رُوِيَ عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه - لا يدخله برغوث
ولا قملة ولا بعوضة ولا عقرب ولا شيء من الحيوان الضَّار ، وإذا
جاء به أحد من سفر سقط عند أول الوادي ، ورُوِيَ أَنَّ الماشي كان
إِذَا مَشَى بِمَكْتَلٍ (١) فوق رأسه بين أشجاره كان يَمْتَلِي مَكْتَلَهُ دون أن
يعد يداً ، ورُوِيَ أَنَّ هذه المقالة من الأمر بالأكل والشرب والتوقيف
على طيب البلد والغفران من الرَّبِّ مع الإيمان به هي من قول الأنبياء
لهم . وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب : « بِلْدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبًّا غَفُوراً » بالنصب
في الكلِّ . وبعث إليهم - فيما رُوِيَ - ثلاثة عشر نبياً فكفروا بهم
وأعرضوا . فبعث الله على ذلك السَّدَّ جراداً أعمى توالد فيه وخرقه
شيئاً بعد شيء ، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي فحمل ذلك السَّدَّ ، فيروى
أنه كان من العِظْمِ وكثرة الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين وحمل الجنات
وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفِرَارُ ، ورُوِيَ أَنَّهُ لما خرق السَّدَّ

(١) المِكْتَلُ والمِكْتَلَةُ : الزَّيْبِلُ الذي يحمل فيه التمر والعنب إلى البحرين ، وفي حديث
الظَّهَارِ أَنَّهُ أُتِيَ بِمِكْتَلٍ مِنْ تَمْرٍ ، وَهُوَ بِكسر الميم ، كَأَنَّ فِيهِ كُتْلًا مِنَ التَّمْرِ ، أَي قِطْعًا
مَجْتَمِعَةً .

كان ذلك سبب يُبَسُّ الجنَّات فهلكت بهذا الوجه ، ورُوي أنه صرف الماء من موضعه الذي كان فيه أولاً فتعطل سقي الجنَّات .

واختلف الناس في لفظة [الْعَرَم] - فقال المغيرة بن حكيم ، وأبو

ميسرة : الْعَرَمُ في لغة اليمن جمع عِرْمَة وهو كل ما بُني أو سُنِم (١)

لِيُمْسِكَ الماء ، ويقال لذلك بلغة الحجاز : الْمُسْنَأَة ، كأنها الجسور (٢)

والسِّدَاد (٣) ونحوها ، ومن هذا المعنى قول الأعشى :

وَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِّي أُسْوَةٌ وَمَأْرِبٌ عَفَى عَلَيْهَا الْعَرِمُ

رِجَامٌ بَنَاهُ لَهُمْ حِمَيْرٌ إِذَا جَاءَ مَوَارِئُهُ لَمْ يَرِمُ (٤)

(١) سَنِمَ الشَّيْءُ : ارتفع على وجه الأرض ، فهو سَنِيمٌ ، وهي سَنِيمَةٌ ، ومنه : سَنِيمَ البعير بمعنى : عظيم سنَّاهه .

(٢) قال النحاس : الْمُسْنَأَةُ : هي التي يُسَمِّيها أهل مضرَ الْجِسْرَ .

(٣) السِّدَادُ : ما سدَّتْ به خَلَلًا ، ويقال : سِدَادُ القارورة : لما يسدُّ فيها .

(٤) هما من قصيدة قالها الأعشى يمدح قيس بن معديكرب ، والإشارة بقوله : (ففي

ذلك) إلى الموت في البيت قبلهما :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِمَنْ نَالَهُ إِذَا الْمَرْءُ أُمَّتُهُ لَمْ تَدُمُ

والرواية في الديوان : (ومأربٌ قَفَى) بدلا من (عَفَى) ، والموارئ : المضطرب المتحرك .

وفي الديوان : (إذا جاء مأوهم) ، وفسر أبو عبيدة قوله : (لَمْ يَرِمُ) فقال : أي حَبَسَهُ .

وبعد البيتين يقول :

فَأَرَوَى الزَّرُوعَ وَأَعْنَابَهَا عَلَى سَعَةِ مَأُوهُمْ إِذَا قُسِمَ

فَعَاشُوا بِذَلِكَ فِي غِيْطَةِ فِجَارَ بِهِمْ جَارِفٌ مِنْهُمْ زِمُ

ومنه قول الآخر :

مِنْ سَبَأٍ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهَا الْعَرِمَا (١)
 وقال ابن عباس ، وقتادة ، والضَّحَاكُ : اسم وادي ذلك الماء بعينه
 الذي كان السَّدُّ يُبْنَى له ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً :
 إن سَيْلَ ذَلِكَ الْوَادِي كَانَ يَصِلُ إِلَى مَكَّةَ وَيُنْتَفِعُ بِهِ ، وقال ابن عباس :
 الْعَرِمُ : الشَّدِيدُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكانه صفة لِلسَّيْلِ ، من الْعَرَامَةِ ، والإضافة إلى الصفة مبالغة ،
 وهي كثير في كلام العرب .

وقالت فرقة : الْعَرِمُ : اسم الْجُرُودِ ، وهذا ضعيف . وقيل : الْعَرِمُ :
 صفةٌ للمطر الشديد الذي كان عند ذلك السَّيْلِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ قولٌ فيه تجوزٌ
 واستعارة ؛ وذلك أن البدل من الخَمْطِ والأَثَلِ لم يكن جَنَاتٍ ، لكن

(١) البيت في (اللسان - سَبَأً) غير منسوب ، قال : « وكان أبو عمرو يقرأ : (لِسَبَأً) .
 قال : من سَبَأً ... البيت » ، فهو شاهد على أن (سَبَأً) يترك صرفه على إرادة القبيلة ، كما
 أنه بصرف على إرادة الحي كما قال ابن عطية ، وشاهده :

أَضَحَتْ يُسْتَمَرُّهَا الْوَالِدَانُ مِنْ سَبَأٍ كَأَنَّهُمْ تَحْتَ دَقِّيْهَا دَحَارِيحُ

هذا كما تقول لمن جرد ثوباً جيداً وضرب ظهره : « هذا الضربُ ثوبٌ صالحٌ لك » ، ونحو هذا . وقوله : [ذَوَاتِيْ] تشنية « ذات » . و « أَلْخَمَطُ » : شجر الأراك ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وقيل : « أَلْخَمَطُ » : كل شجر له شوك وثمرته كريهة الطعم بمرارة ، أو حمضه ، أو نحوه ، ومنه : تَخَمَطَ اللَّبْنُ : إذا تغير طعمه . و « الأَثَلُ » : ضربٌ من الطرفاء ، هذا هو الصحيح ، وكذا قال أبو حنيفة في كتاب النبات ، قال الطبري : وقيل : هو شجر شبيه بالطرفاء ، وقيل : إنه السَّمُر . و « السَّنْدُرُ » معروف ، وله نبق شبيه العناب ، لكنه دونه في الطعم بكثير . و « لِلْخَمَطِ » ثمرٌ غثٌ هو البربر ، و « لِلْأَثَلِ » ثمر قليل الغناء غير حسن الطعم .

وقرأ ابن كثير ، ونافع : [أأْكُلِ] بضم الهمزة وسكون الكاف . وقرأ الباقر بضم الهمزة وضم الكاف ، وروى أيضاً عن أبي عمرو السكون في الكاف ، وهما بمعنى الجني والثمرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تُوْتِيْ أُكْلَهَا ﴾ (١) أي جناها . وقرأ الجمهور بتنوين [أأْكُلِ] ، وصِفَتُهُ [خَمَطٍ] وما بعده ، قال أبو علي : البدل في هذا لا يحسن ؛ لأن « أَلْخَمَطِ » ليس بالأكل ، و « الأأْكُلِ » ليس بالخمط نفسه ، والصفة أيضاً كذلك ؛ لأن الخَمَطُ اسمٌ لا صفة ، وأحسن ما فيه

(١) من الآية (٢٥) من سورة (إبراهيم) .

عطف البيان ، كأنه بين أن «الأكل» هذه الشجرة ومنها ، ويحسن قراءة الجمهور أن هذا الاسم قد جاء مجيء الصفة في قول الهذلي :
عُقَارُ كَمَاءِ النَّيِّ لَيْسَتْ بِخَمْطَةٍ وَلَا خَلَّةٍ يَكْوِي الشُّرُوبَ شِهَابُهَا (١)
وقرأ أبو عمرو بإضافة [أكل] إلى [خمط] وبضم الكاف ، أي :
(أكل خمط) ، ورجح هذه القراءة أبو علي .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى ما أجراه عليهم ، وقوله : ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ ، أي : يُناقش ويُعارض (٢) بمثل فعله ، قدرأ بقدر ، لأن جزاء المؤمن إنما هو بتفضل وتضعيف ، وأما الذي لا يُزاد ولا ينقص فهو الكفور ، قاله الحسن بن أبي الحسن ، وقال طاوس : هي المناقشة . وكذلك إن كان المؤمن ذا ذنوب فقد يُغفر له ولا يجازى ، والكافر يُجازى ولا بُدُّ ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (من نُوقِسَ الحسابُ

(١) البيت في (اللسان - ختلل) ، والعُقَارُ : التي تعافر العقل أو الدن ، أي : بقي منها بقية في أسفل الدن لطول مرّ السنين عليها ، وماء النّيء : ما قَطَّرَ من اللحم ، يريد : هي في لونه وصفاته ، والخمطة : التي أخذت طعم الإدراك ولم تُدرك ، والخلّة : الحامضة ، ولا خلّة : أي : في مجاوزة القدر ، يعني لم تخرج من حال الحمر إلى حال الحموضة والخل ، يقول : هي في لون ماء اللحم الذي لم ينضج بعد ، وليست كالحمطة التي لم تدرك بعد ، ولا كالحلّة التي جاوزت القدر فصارت خلا ، فليس يكوي الشرّوب شهابها ، أي : لا يؤذيهم ما فيها من حدة ونار ، والشرّوب : جمع شرّب وهم الندامي .

(٢) استعمل هذه الصيغة لأن قراءة العامة هي : ﴿وَعَمَلٌ يُجَازَى﴾ ، والمعنى : يُناقش ويُعارض .

عُذْبُ) (١) ، وقرأ جمهور القراء : [يُجَازِي] بالياء وفتح الزاي ،
 وقرأ حمزة ، والكسائي : [نُجَازِي] بالنون وكسر الزاي [الْكَفُورَ]
 بالنصب ، وقرأ مسلم بن جُنْدَب (٢) : (وَهَلْ يُجْزَى) ، وحكى عنه
 أبو عمرو الداني أنه قرأ [يُجْزِي] بضم الياء وكسر الزاي . قال الزجاج :
 يقال : جَزَيْتُ فِي الْخَيْرِ ، وَجَازَيْتُ فِي الشَّرِّ . فَتَتَرَجَّحُ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ .

قوله عز وجل :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرًا وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
 سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 ففَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

هذه الآية وما بعدها وصف لحالهم قبل مجيء السيل ، وهي أن
 الله تبارك وتعالى - مع ما كان منهم - منحهم من الجنّتين والنعمة
 الخاصة بهم ، كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم وعمرها ،

(١) رواه البخاري ومسلم ، عن عائشة رضي الله عنها ، ورمز له الإمام السيوطي في
 الجامع الصغير بأنه حديث حسن ، وروى الطبراني في الكبير (من نوقش المحاسبة هلك) .
 (٢) هو مسلم بن جُنْدَب الهُدَلِي ، المدني ، القاص ، ثقة فصيح قارى ، من الثالثة ،
 مات سنة ست ومائة . (تقريب التهذيب) .

وجعلهم أربابها ، وقدر السير فيها بأن قرب القرى بعضها من بعض ، حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام ليبيت في قرية ويقيل^(١) في قرية ، فلا يحتاج إلى حمل زاد ، و «القرى» : المدن ، ويقال للجمع الصغير قرية أيضاً ، وكلها من : قرئت ، أي جمعت ، والقرى التي بورك فيها هي قرى الشام بإجماع من المفسرين ، والقرى الظاهرة هي التي بين الشام ومأرب ، وهي الصغار التي هي البوادي . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي قرى عربية بين المدينة والشام ، وقاله الضحاك ، واختلف في معنى [ظاهرة] - فقالت فرقة : معناه : مستعلية مرتفعة في الإكام والظراب^(٢) ، وهي أشرف القرى ، وقالت فرقة : يظهر بعضها من بعض ، فهي أبداً في قبضة عين المسافر ، ولا يخلو من رؤية شيء منها بهذا الوجه . والذي يظهر لي أن معنى [ظاهرة] : خارجة عن المدن ، فهي عبارة عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن ، وإنما فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي

(١) يقال : قال يقيل قبلاً : نام وسط النهار ، فهو قائل .

(٢) الإكام : جمع أكمة ، وهي التل ، ويقال في جمع أكمة أيضاً : إكام وأكّم . والظراب : جمع ظرب ، وهو الجبل المنبسط ، وفي حديث الاستسقاء : (اللهم على الآكام والظراب وبطن الأودية) .

المُدُن ؛ لأن ظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي والفحوص (١) ،
ومنه قولهم : نزلنا بظاهر فلانة ، أي : خارجاً عنها . وقوله : [ظَاهِرَةً]
نظير تسمية النَّاسِ إِيَّاهَا البادية والضاحية ، ومن هذا قول الشاعر :

فَلَوْ شَهِدْتَنِي مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ قُرَيْشُ الْبِطَاحِ لَا قُرَيْشُ الظَّوَاهِرِ (٢)

يعني الخارجين عن بطحاء مكة ، وفي حديث الاستسقاء : (وجاء أهل
الضواحي يشكون : الغرق الغرق) (٣) .

(١) الفيافي : جمع فيفاء ، وهي الصحراء الواسعة المستوية . والفحوص كالأفاحيص :
جمع أفحوص ، وهي حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها .
(٢) البيت في (التاج ، واللسان - بطح) ، وهو غير منسوب ، وكذلك ذكر شرطه
الثاني صاحب (أساس البلاغة) ، قال في التاج : «وبطحاء مكة وأبطحها معروفة لانبطاحها ،
وقريش البطاح ، الذين ينزلون أبطاح مكة وبطحاءها ، وقريش الظواهر : الذين ينزلون
ما حول مكة ، قال : فلو شهدتني ... البيت» . وفي التهذيب عن ابن الأعرابي : «قريش
البطاح هم الذين ينزلون الشَّعْبَ بين أخشبي مكة ، وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج مكة ،
وأكرمهما قريش البطاح ، وأخشبا مكة جبلاها : أبو قُبَيْسٍ والذي يقابله» . وعبارة
أرباب الأنساب : «قريش الأباطح ، ويقال : قريش البطاح ؛ لأنهم صباة قريش وصميمها
الذين اختطوا بطحاء مكة ونزلوها ، ويقابلهم قريش الظواهر الذين لم تسعهم الأباطح ، والكلُّ
قبائل» ، قالوا : وفي قريش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية .

(٣) الثابت في الصحيحين في حديث الاستسقاء الذي رواه أنس أن الذي اشتكى للنبي
صلى الله عليه وسلم من القحط هو رجل واحد ، ثم اشتكى في الجمعة التالية من كثرة المطر ،
ولعلَّ هذه الجملة عن أهل الضواحي جاءت في واحد من كتب الحديث الأخرى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، هو ما ذكرناه من أن المسافر فيها كان يقبل في قرية ويبيت في أخرى على أي طريق سلك ، لا يعوزه ذلك . وقوله تعالى : ﴿ سِيرُوا فِيهَا ﴾ معناه : وقلنا لهم . و [آمنين] معناه : من الخوف من الناس المفسدين ، وآمنين من الجوع والعطش وآفات المسافر .

ثم حكى عنهم مقالة قالوها على جهة البطر والأشر ، وهي طلب البعد بين الأسفار ، أو الإخبار بأنها بعيدة على القراءات الأخرى ، وذلك أن نافعاً ، وعاصماً ، وحمزة ، والكسائي قرءوا : ﴿ بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ بكسر العين على معنى الطلب ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والحسن ، ومجاهد : ﴿ بَعُدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ بشد العين وكسرها على معنى الطلب أيضاً ، فهاتان معناهما الأشر بأنهم ملؤا النعمة في القرب . وطابوا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير (١) . وفي كتاب الرمانى أنهم قالوا : لو كان جنى ثمارنا أبعد لكان أشهر وأكثر قيمة ، وقرأ

(١) هم في هذا كني إسرائيل حين قالوا : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْثِيَتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِيهَا ﴾ بعد أن كانوا في رغد من العيش ، ويأكلون المذن والسلوى ، وهم أيضاً كالنضر بن الحارث حين قال : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ ﴾ . فقتل يوم بدر بالسيف صبراً .

ابن السمين ، وسفيان بن حسين ، وسعيد بن أبي الحسن - أخو الحسن - (١) وابن الحنفية : [رَبَّنَا] بالنصب ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بفتح الباء وضم العين ، وبنصب [بَيْنَ] أيضاً . وقرأ سعيد بن أبي الحسن - من هذه الفرقة - : [بَيْنُ] بالرفع وإضافته إلى الأسفار (٢) ، وقرأ ابن عباس ، وأبو رجاء ، والحسن البصري ، وابن الحنفية : [رَبَّنَا] بالرفع [بَاعَدَ] بفتح العين والdal ، وقرأ ابن عباس ، وابن الحنفية أيضاً ، وعمرو بن فايد ، ويحيى بن يعمر : [رَبَّنَا] بالرفع [بَعَدَ] بفتح العين وشدها وفتح الdal . فهذه القراءة معناها الإخبار بأنهم استبعدوا القريب ، ورأوا أن ذلك غير مقنع لهم ، حتى كأنهم أرادوها متصلة الدور ، وفي هذا تعسف وتسخط على أقدار الله تعالى وإرادته ، وقلة شكر على نعمته ، بل هي مقابلة النعمة بالتشكي . وفي هذا المعنى ونحوه مما اقترن بكفرهم ظلموا أنفسهم ففرقهم الله تعالى ،

(١) يعني الحسن البصري ، فهو سعيد بن أبي الحسن البصري ، قال عنه أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني في كتابه (تقريب التهذيب) : «أخو الحسن ، ثقة ، من الثالثة ، مات سنة مائة» .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب : «وتدل هذه القراءة على أن (بَيْنَ) ليس ظرفاً في قراءة النصب ، بل منصوب على المفعول به» .

وخرَّب بلادهم ، وجعلهم أحاديث ، ومنه المثل السائر : «تفرَّقوا أيادي سباً» ، و «أيدي سباً» ، يقال المثل بالوجهين ، وهذا هو تمزُّقهم كل مُمزَّق . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن سباً أبو عشر قبائل) (١) ، فلما جاء السَّيْلُ على مأرب وهو اسم بلدتهم تيامن منهم ستة قبائل ، أي : تبددت في بلاد اليمن ، وتشاءمت منها أربعة ، فالمتيامنة كندة والأزد وأشعر ومدحج وأنمار التي منها بجيلة وخثعم ، وطائفة قيل لها : حمير ، بقي عليها اسم الأب الأول ، والتي تشاءمت لحم وجذام وغسان وخزاعة ، نزلت تهامة ، ومن هذه المتشائمة أولاد قبيلة ، وهم الأوس والخزرج ، ومنها عاملة وغير ذلك .

تم أخبر تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّته - على جهة التنبيه - أن هذه القصص فيها آياتٌ وعِبْرٌ لكل مؤمن على الكمال ، ومن اتصف بالصبر والشُّكر فهو المؤمن الذي لا تنقصه خلَّةٌ جميلة بوجه .

(١) سبق تخريج هذا الحديث وذكر نصه كاملاً في الهامش (٢) من صفحة (١٦٣) من هذا الجزء .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيهِ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ ﴾ بتخفيف الدال [إِبْلِيسُ] رفعاً [ظَنَّهُ] نصباً على المصدر ، وقيل : على الظرفية . أي : في ظَنَّهُ ، وقيل : على المفعول ، على معنى أنه لما ظن عمل عملاً يصدق به ذلك الظن ، فكأنه إنما أراد أن يصدق ظنه . وهذا نحو من قولك : « أَخْطَأْتُ ظَنِّي وَأَصْبَتُ ظَنِّي » . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [صَدَقَ] بتشديد الدال ، و «الظَّنُّ» - على هذا مفعول به [صَدَقَ] ، وهي قراءة ابن عباس ، وقتادة ، وطلحة ، [وعاصم] (١) . والأعمش . وقرأ الزهري ، وأبو الهجهاج (٢) ، وبلال بن أبي بردة :

(١) هكذا بالتكرار في جميع النسخ الأصلية .

(٢) هكذا في النسخ الأصلية ، وفي القرطبي ، وفي كتاب إعجاز القرآن للنحاس . وهو في البحر المحيط : (أبو الهجهاج) . وفي المحتسب روى أبو الفتح عن أبي حاتم قوله : « روى عبيد بن عقييل عن أبي الورداء قال : سمعتُ أبا الهجهاج - وكان فصيحاً - يقرأ : =

[صَدَقَ] بتخفيف الدال [إِبْلِيسَ] نصباً [ظَنَّهُ] رفعاً . وقرأت فرقة :
[صَدَقَ] بتخفيف الدال [إِبْلِيسُ] بالرفع [ظَنَّهُ] بالرفع على البدل ،
وهو بدل الاشتمال .

ومعنى الآية أن ما قال إبليس من أنه سيفتن بني آدم ويغويهم ،
وما قال من أن الله لا يجد أكثرهم شاكرين ، وغير ذلك كان ظناً
منه وصدق فيهم ، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم اتبعوه ، وهو اتباع
في كُفْرٍ ؛ لأنه في قصة قوم كفار ، وقوله تعالى : ﴿ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا
فِي شَكٍّ ﴾ يدل على ذلك ، [وَمِنْ] في قوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لبيان
الجنس لا للتبعيض ؛ لأن التبعيض يقتضي أن فريقاً من المؤمنين
اتبع إبليس .

و «السُّلْطَانُ» : التَّحْجَّةُ ، وقد يكون الاستعلاء والاستقدار ؛ إذ اللفظ
من التَّسَلُّطِ ، وقال الحسن بن أبي الحسن : والله ما كان له سوطٌ ولا سيف
ولكنه استمالهم فمالوا بتزيينه . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ أي :
لنعلم موجوداً ؛ لأن العلم به متقدم أولاً . وقرأت فرقة : ﴿ إِلَّا لِيُعْلَمَ ﴾
بالياء مضمومة على المجهول .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ آية تعجيز وإقامة حجة ،
ويروى أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشاً . والجمهور على

** [إِبْلِيسَ] بالنصب [ظَنَّهُ] ، رفع . قال أبو الفتح : « معنى هذه القراءة أن إبليس كان
سَوَّلَ له ظنه شيئاً فيهم ، فصَدَّقَهُ ظنُّه فيما كان عقد عليه معهم من ذلك الشيء » .

(قُلْ أَدْعُوا) بضم اللّام ، وروى عباسٌ عن أبي عمرو : (قُلْ أَدْعُوا) بكسر اللّام [الَّذِينَ] يريد الملائكة والأصنام ؛ وذلك أن قريشاً والعرب كان منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يقول : نعبدها لتشفع لنا ، ونحو هذا ، فنزلت هذه الآية معجزةً للكلّ منهم . ثم جاء بصفة هؤلاء الذين يدعونهم آلهةً ، من أنهم لا يملكون ملك الاختراع مثقال ذرّة في السماء ولا في الأرض ، وأنهم لا شرك لهم فيها ، وهذان نوعا الملك : إمّا استبداد وإمّا مشاركة ، فنفى عنهم جميع ذلك ، ونفى أن يكون لله معينٌ في شيءٍ من قدرته ، و «الظّهيرُ» : المُعين . ثم تقرر في الآية بعدُ أن الذين يظنون أنهم يشفعون لهم لا تصح منهم شفاعه لهم ؛ إذ هؤلاء كفرة ، ولا يأذن الله في الشفاعه في كافر .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٣)

المعنى : إن كلّ من دعوتهم إليها من دون الله لا يملكون مثقال ذرّة ، ولا تنفع شفاعتهم إلا بإذن الله فيمن آمن ، فكأنه قال : ولاهم شفعاء على الحدّ الذي ظننتم أنتم .

واختلف المتأولون في قوله : ﴿إِلَّا لِمَنْ أَدِنَ لَهُ﴾ - فقالت فرقة :

معناه : لمن أراد له ، وقالت فرقة : معناه : لمن أذن له أن يشفع هو .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللَّفْظُ يَعْمَهُمَا ؛ لِأَنَّهُ إِذَا انْفَرَدَ لِلشَّافِعِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَشْفُوعَ فِيهِ مُعَيَّنٌ لَهُ ، وَإِذَا انْفَرَدَ لِلْمَشْفُوعِ فِيهِ فَالشَّافِعُ لَا مُحَالَةَ عَالَمٍ مُعَيَّنٍ لِذَلِكَ ، وَانظُرْ أَنَّ اللّامَ الْأُولَى تُشِيرُ إِلَى الْمَشْفُوعِ فِيهِ مِنْ قَوْلِهِ : [لِمَنْ] . تُقُولُ : شَفَعْتُ لِفُلَانٍ .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بضم الألف - من [أَذِنَ] (١) - ، وقرأ

ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [أَذِنَ] بفتحها والضمير في [قُلُوبِهِمْ] عائد على الملائكة الذين دعوهم آلهة ، ففي الكلام حذف يدل عليه الظاهر ، كأنه قال : ولا هم شفعاء كما تحسبون أنتم ، بل هم عبدة ومستسلمون أبداً حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم .

وتظاهرت الأحاديث (٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

(١) ما بين العلامتين - . . . - زيادة للتوضيح والبيان .

(٢) من هذه الأحاديث ما أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخاري . وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير . وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه =

هذه الآية ، أعني قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل بالأمر يأمر الله به سمعت كجَرِّ سلسلة الحديد على الصفوان ، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة . وقيل : خوف أن تقوم الساعة ، فإذا فرغ ذلك فُزِّعَ عن قلوبهم ، أي : أطير الفزع عنها وكُشف ، فيقول بعضهم لبعض ولجبريل : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ ؟ فيقول المسئولون : قال الحقُّ ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ . وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى (١) ، ومن لم يشعر أن الملائكة مُشَارٌ إليهم من أوَّل قوله : ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها ، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها ، حتى قال بعضهم في الكفار - بعد حلول الموت -

= سلسلة على صفوان ، يفزعهم ذلك . فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الذي قال الحقُّ ، وهو العليُّ الكبير ، فيسمعها مسترقوا السمع ، ومسترقوا السمع هكذا . واحد فوق آخر - وصَفَّ سفیان بيده وفرَّج بين أصابعه ، نصبها بعضها فوق بعض - فيسمع الكلمة فيلقبها إلى مَنْ تحته ، ثم يلقبها الآخر إلى من تحته . حتى يلقبها على لسان الساحر أو الكاهن ، فرما أدركه الشهاب قبل أن يلقبها . وربما ألقاها قبل أن يُدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء .

(١) ناقش أبو حيان الأندلسي في « البحر المحيط » كلام ابن عطية هذا محاولاً إظهار

بعض الخطأ فيه . فارجع إليه هناك . (٧ - ٢٧٨) .

فُزِعَ عن قلوبهم بفقد الحياة فرأوا الحقيقة ، وزال فزعهم من شُبهِه
 ما يقال لهم في حياتهم ، فيقال لهم حينئذ : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ ؟
 فيقولون : قال الحق ، يَقْرُونَ حين لا ينفعهم الإقرار . وقالت فرقة :
 الآية في جميع العالم ، وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا ﴾ يريد : في القيامة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتأويل الأول في الملائكة هو الصحيح ، وهو الذي تظاهرت
 به الأحاديث . وهذان بعيدان .

وقرأ الجمهور : [فُزِعَ] بضم الفاء وكسر الزاي (١) ، ومعناه :
 أُطير الفزع عنهم ، وهذه الأفعال جاءت مخالفة لسائر الأفعال ؛
 لأن « فَعَّلَ » أصلها الإدخال في الشيء (٢) ، وقولك : فَزَعْتُ زيدا معناه :
 أزلتُ الفزع عنه . وكذلك : جَزَعْتُهُ : أزلتُ الجزعَ عنه ، ومنه في
 الحديث : (فدخل ابن عباس على عمر فجزعَهُ) (٣) ، ومنه : مَرَّضْتُ

(١) أي : مع تشديدها .

(٢) (فَعَّلَ) تأتي لمعان كثيرة ، أولها وأصلها الإدخال في الشيء ، يقال : فزعه بمعنى
 أخافه وروّعه . أي أدخله في الخوف والرّوع ، ومنها الإزالة نحو قرّدت البعير ، بمعنى :
 أزلتُ عنه القراد ، ونحو ما ذكره ابن عطية من أفعال .

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه في باب « مناقب عمر » ، عن المسور بن مخرمة ،
 قال : لما طعن عمر -- رضي الله عنه -- جعل يألم ، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما - =

فلاناً : أزلتُ المرضُ عنه . وانظر أن مضارع هذه الأفعال يلحق بـ (تَحَنَّثَ) وتَحَرَّجَ وتَفَكَّهَ وتَنَأَّمُ وتَخَوَّتَ (١) . وقرأ ابن عامر : [فَزَعَ] بفتح الفاء والزَّاي وشد الزاي ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، وطلحة ، وأبي المتوكل الناجي ، واليماني . وقرأ الحسن البصري - بخلاف - : [فُزِعَ] بضم الفاء وكسر الزاي وتخفيفها ، كأنه بمعنى : ألق ، ومن قال إنها في العالم أجمعه قال : معنى هذه القراءة : فُزِعَ الشيطان عن قلوبهم ، أي بادر . وقرأ أيوب عن الحسن أيضاً : [فُرِّغَ] بضم الفاء وبراءٍ مهملة مشددة وبغين منقوطة ، من التفريغ . قال أبو حاتم : ورواها عن الحسن نحو من عشرة أنفس ، وهي قراءة أبي مجلز . وقرأ مطر الوراق ، عن الحسن : [فَزِعَ] على بناء الفعل للفاعل ، وهي قراءة مجاهد ، وقرأ الحسن أيضاً : [فَرَّغَ] بالراء المهملة مخففة ، من الفراغ . قال أبو حاتم : ما أظن الثقات رَوَوْها عن الحسن على وجوه إلا لصعوبة المعنى عليه فاختلفت ألفاظه

= وكأنه يُجَزَّعُهُ - : يا أمير المؤمنين ، ولئن كان ذلك لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته ، ثم فارقتهُ وهو عنك راضٍ . ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ، ثم فارقتهُ وهو عنك راضٍ ... الخ وهو حديث طويل .

(١) تَخَوَّتَ الشيء : اختطفه .

فيها (١). وقرأ عيسى بن عمر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفْرُنُقِعَ﴾ ، وهي قراءة ابن مسعود .
ومعنى هذا كله : وقع فراغها من الفرع والخوف . ومن قرأ شيئاً من
هذا على بناء الفعل للمفعول فقوله تعالى : ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ في موضع
رفع ، و «أفْرُنُقِعَ» معناه : تفرَّق .

وقوله تعالى : [مَآذَا] يجوز أن تكون [مَا] في موضع نصب بـ [قَالَ] ،
ويصح أن تكون في موضع رفع بمعنى : أي شيء قال ؟ والنصب في
قولهم : [أَلْحَقَّ] على نحوه في قوله تعالى : ﴿مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا
خَيْرًا﴾ (٢) ؛ لأنهم حققوا أن ثم ما أنزل ، وحقَّقوا هنا أن ثم ما قيل .
وباقى الآية تحميداً وتمجيداً .

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في «المحتسب» : «يعني أبو حاتم اجتماع معنى
(فزع) مع معنى (فرغ) في أن الفرع : قَلَقَ ومُفَارَقَةُ للموضوع المقلوب
عليه . والفراغ : إخلاء الموضع ، فهما من حيث المعنى ملتقيان ، وكذلك معنى
(أفْرُنُقِعَ) ، يقال : أفْرُنُقِعَ القومُ عن الشيء ، أي : تفرقوا عنه .

ومما يحكى في ذلك أن أبا علقمة النحوي ثار به المرار (وهو مزاجٌ من أمزجة البدن) ،
فاجتمع الناس عليه : فلما أفاق قال : مالكم قد تكأكتأم علي كتكأكتكم على ذي جنة ،
أفرتقوا عني . قال : فقال بعض الحاضرين : إن شيطانه يتكلم بالهندية . « . ٥١ . المحتسب (٢-١٩٣) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (النحل) : ﴿وَإِذَا قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا
أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ، وفي الأصول
خطأ في الآية حيث وردت بحيث تجمع بين هذه الآية ، وبين الآية (٢٤) من نفس السورة
وهي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

قوله عز وجل :

* قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى
 أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾
 قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي
 الَّذِينَ ادَّعَىٰ الْحَقَّ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ *

أمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم - على جهة الاحتجاج ، وإقامة الدليل على الرازق لهم من السموات والأرض - [أَنْ يَسْأَلَهُمْ] (١) : من هو ؟ ثم أمره أن يقتضب الاحتجاج بأن يأتي بجواب السؤال ؛ إذ هم في بهتة ووجمة من السؤال ، وإذا لا جواب لهم ولا لمفطور إلا بأن يقول : هو الله . وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح ؛ لأن المحتج يريد أن يقتضب ويتجاوز إلى حجة أخرى بوردها . ونظائر هذا في القرآن كثير .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ تلطف في الدعوى والمحاورة والمعنى ، كما تقول لمن خالفك في مسألة : أهدنا مخطئاً ، أي : تثبت وتنبه ، والمفهوم من كلامك أن مخالفك هو المخطئ ، فكذلك

(١) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها المعنى .

هذا معناه : وَإِنَّا لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، وَإِنَّكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، فَلَنَتَّبِعَنَّهُ ، والمقصد أن الضلال في حيز المخاطبين ، وحذف أحد الخبرين لدلالة الباقي عليه (١) . وقال أبو عبيدة : [أَوْ] في الآية بمعنى واو النسق ، والتقدير : وإنا وإياكم لعلَى هدى أو في ضلال مبين ، وهما خبران غير مبتدأين ، وهذا القول غير متجه واللفظ لا يساعده ، وإن كان المعنى - على كل قول - يقتضي أن الهدي في حيز المؤمنين والضلال في حيز الكفرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ الآية - مهادنة ومشاركة ، وهي منسوخة بآية السيف .

(١) هذا الأسلوب يسمى في علم البيان : استدراج المخاطب . يذكر المتكلم له أمراً يسأله وإن كان هو على خلاف ما ذكر حتى يصغي إليه ، ولا يزال ينقله من حال إلى حال حتى يتبين له الحق ويقبله ، ومثاله من الشعر العربي قول حسّان :

أَتَهْجُؤُهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّكُمْ لِي خَيْرُكُمْ مَا نَسِيتُهُ

والآية الكريمة فوق ما فيها من التلطف في الدعوة والمحاورة فإنها تتضمن الإنصاف . وتحمل معنى التورية والتعريض ، والردُّ بهما أبلغ من الردِّ بالتصريح ، ومن ذلك قول العرب : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، يقول ذلك من يتيقن أن صاحبه هو الكاذب ، ولكنه يوبّخه بانظ غير مكشوف .

و [أَوْ] هنا على موضوعها لكونها لأحد الشيئين أو الأشياء ، وخبر ﴿ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ هو قوله تعالى : ﴿ لَسَأَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، ولا يحتاج إلى تقدير حذف ؛ إذ المنى : إنَّ أحدنا لفي أحد هذين ، كقولك : زيدٌ أو عمروٌ في المسجد أو في البيت . والمعنى : أحد هذين في أحد هذين .

وقوله تعالى : (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا) الآية .. إخباراً بالبعث من القبور ، وقوله : [يَفْتَحُ] معناه : يحكم ، والفتاح : القاضي ، وهي مشهورة في لغة اليمن ، وهذا كله منسوخ بالسيف .

وقوله تعالى : (قُلْ أَرُونِي) يحتمل أن تكون رؤية قلب ، فيكون قوله : [شُرَكَاءَ] مفعولاً ثالثاً ، وهذا هو الصحيح ، أي : أروني بالحجة والدليل كيف وجه الشركة ، وقالت فرقة : هي رؤية بصر ، و [شُرَكَاءَ] حال من الضمير المفعول بـ [أَلْحَقْتُمْ] والعائد على [الَّذِينَ] ، وهذا ضعيف ، لأن استدعاء رؤية العين في هذا لا غناء له . وقوله : [كَلَّا] ردٌّ لما تقرّر من مذهبهم في الإشراك بالله تعالى ، ووصف سبحانه وتعالى نفسه باللائق من العزة والحكمة .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُمْ

مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿

هذا إعلام من الله تبارك وتعالى بأنه بعث محمداً صلى الله عليه

وسلم إلى جميع العالم ، و « الكافّة » : الجمع الأكمل من الناس ،

وهي نصب على الحال ، وقدمها للاهتمام ، وهذه إحدى الخصال التي خصَّ بها محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء ، والتي حصرها في قوله عليه الصلاة والسلام : (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَبُؤِثَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ وَبُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) .
وفي هذه الخصال زيادة في كتاب مسلم (١) .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يريد به العموم في الكفرة ، والمؤمنون هم الأقل .

ثم حكى عنهم مقالاتهم في الهُزءِ بأمر البعث ، واستعجالهم على معنى التكذيب - بقولهم : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ ؟ فأمر الله تعالى نبيه بأن يخبرهم عن ميعاد يوم هو يوم القيامة ، لا يتأخر عنه أحد ولا يتقدمه . قال أبو عبيدة : الوعد والوعيد والميعاد بمعنى ، وخولف

(١) أخرجه أبو داود في السير والصلاة ، والبخاري في التيمم والجهاد والصلاة والاعتصام ، ومسلم في المساجد ، والترمذي في السير ، والنسائي في الغسل والجهاد ، وأحمد في مواضع كثيرة في مسنده . ومن الزيادات التي في صحيح مسلم وأشار إليها ابن عطية قوله صلى الله عليه وسلم في بعض الروايات : (وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ) ، وقوله في رواية أخرى : (وَخُتِمَ لِي النَّبِيُّونَ) ، وقوله في غيرهما : (وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُوتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوَضَعَتْ فِي يَدِي) .

في هذا ، والذي عليه الناس أن الوعد في الخير ، والوعيد في المكروه ، والميعاد يقع لهذا ولهذا ، وأضاف الميعاد إلى اليوم تَجَوُّزاً من حيث كان فيه ، وتحتمل الآية أن يكون استعجال الكفرة لعذاب الدنيا ، ويكون الجواب عن ذلك أيضاً ، ولم يجر للقيامة ذكر على هذا التأويل .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

حكيت في هذه الآية مقالة قالها بعض قريش ، وهي أنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بما بين يديه من التوراة والإنجيل والزبور ، وكانهم كذبوا بجميع كتب الله ، وإنما فعلوا هذا لما وقع الاحتجاج عليهم بما في التوراة من أمر محمد عليه الصلاة والسلام . وقالت فرقة : « وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » هي الساعة والقيامة ، وهذا خطأ لم يفهم قائله أمر « بَيْنَ الْيَدِ » في اللغة وأنه المتقدم في الزمن ، وقد بينا معناه فيما تقدم .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى نبيه عن حالة الظالمين في صيغة التعجب من حالهم ، وجواب [لَوْ] محذوف ، و (يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) يريد : يتحاورون ويتجادلون ، ثم فسّر ذلك الجدل بأن الأتباع والضعفاء من الكفرة يقولون للكبار والرؤوس - على جهة التذنب والتوبيخ وردّ اللائمة عليهم - : لولا أنتم لآمنّا نحن واهتدينا ، أي : أنتم أغويتمونا وأمرونا بالكفر ، فقال لهم الرؤساء - على جهة التقرير والتكذيب - : أنحن صددناكم عن الهدى ؟ بل كنتم مجرمين ، أي : دخلتم في الكفر ببصائرکم ، وأجرمتم بنظر منكم ، ودعوتنا لم تكن ضربة لازم عليكم ، لأننا دعوناكم بغير حجة ولا برهان ، هذا كله يتضمنه اللفظ .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْبَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه مراجعة من الأتباع للرؤساء حين قالوا لهم : إنما كفرتم ببصائرکم ومن أنفسکم ، فقال المستضعفون : بل كفرنا بمكركم

بنا في الليل والنهار ، وأضاف المكر إلى الليل والنهار من حيث هو
فيهما ، وتدل هذه الإضافة على الندوب والزمان ، كما قالوا : ليلٌ
نائم ونهار صائم ، وأنشد سيبويه :

* فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي * (١)

وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ قتادة بن دعامة : ﴿ بَلْ مَكْرٌ مُنُونًا
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ نصباً ، وذكرت عن يحيى بن يعمر ، وكان معناها
الإحالة على طول الأمل والاعتزاز بالأيام ، مع أمر هؤلاء الرؤساء
بالكفر . و [الندُّ] : المثل والشبه ، والضمير في قوله : [وَأَسْرُوا]
عام في جميع من تقدم من المستضعفين والمستكبرين ، و [أَسْرُوا]
معناه : اعتقدوها في نفوسهم ، ومعتقدات النفس كلها سرٌ ، لا يعقل
غير ذلك ، وإنما يظهر ما يصدر عنها من كلام أو قرينة . وقال بعض

(١) أي : نمت فيه : وهذا مثل قول جرير :

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السَّرِيِّ وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ السَّطِيبِيِّ بِسَائِسِمِ

إذ أسند النوم إلى الليل إسناداً مجازياً عقلياً ، والأصل أن يسند النوم إلى الناس ، وهذا من باب
التوسع المجازي ، والعلاقة هنا الزمانية . قال الفراء في (معاني القرآن) : « المكر ليس ليليل
ولا للنهار ، وإنما المعنى : بل مكركم بالليل والنهار ، وقد يجوز أن تُضيف الفعل إلى الليل
والنهار ، ويكونا كالفاعلين ؛ لأن العرب تقول : نهارك صائم ، وليلُك قائم . ثم تُضيف
الفعل إلى الليل والنهار وهو في المعنى للادميين ، كما تقول : نام ليلُك » ا هـ . (معاني القرآن

الناس : [أَسْرُوا] : أظهروا ، وهي من الأضداد ، وهذا كلام من لم يعتبر المعنى ، أما نفس الندامة فلا تكون إِلَّا مُسْتَسْرَةً ضرورة ، وأما الظاهر عنها فغيرها ، ولم يثبت قطُّ في لغة أن (أَسْرَ) من الأضداد .
وقوله تعالى : ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أي : وافوه وتيقنوا حصولهم فيه . وباقي الآية بين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾
وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٧﴾

هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن فعل قريش وقولها ،
أي : هذه يا محمد سيرة الأمم ، فلا يهمنك أمر قومك ، و « القرية » :
المدينة ، و « المُتْرَفُ » : المنعم البطل الغني القليلُ تعب النفس والجسم ،
فعادتهم المبادرة بالكذب .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «المُتَرَفِينَ» ، ويكون ذلك من قولهم مع تكذيبهم ، ولما كانت قريش مثلهم أمره الله تعالى أن يقول : ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ﴾ الآية ، ويحتمل أن يكون الضمير في [قالوا] لقريش ، ويكون كلامُ «المُتَرَفِينَ» قد تقدم ، ثم تطرد الآية بعد . ومعنى قولهم : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ الاحتجاج بأن الله لم يعطنا هذا وقدره لنا إلا لرضاه عنا وعن طريقتنا ، ونحن ممن لا يُعَذَّبُ البتة ؛ إذ الله الذي تزعم أنت علمه بجميع الأشياء وإحاطته قد قدر علينا النعم ، فهو إذا راضٍ عنا . وقال بعض المفسرين : معنى قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي : بالفقر ، وهذا ليس كالأول في القوة ، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن الأمر ليس كما ظنوا ، بل بسط الرزق وقدره مُعلق بالمشيئة في كافر ومؤمن ، وليس شيء من ذلك دليلاً على رضي الله والقرب منه ؛ لأنه قد يُعطي ذلك أملاً واستدراجاً ، ولكن كثيراً من الناس لا يعلم ذلك كأنتم أيها الكفرة . وقرأت فرقة : [وَيَقْدِرُ] ، وفرقة بالتشديد ، وهي راجعة إلى معنى التضييق الذي هو ضد البسط .

ثم أخبرهم أن أموالهم وأولادهم ليست بمقربة من الله [زُلْفَى] ،
وهي مصدر بمعنى القرب ، وكأنه قال : تقربكم عندنا تقريباً ،
وقرأ الضحاك : [زُلْفَاً] بفتح اللام والتنوين . وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾
استثناء ، و [مَنْ] في موضع نصب بالاستثناء . وقال الزجاج : هي
بدل من الضمير في [تُقَرَّبُكُمْ] ، وقال الفراء : هي في موضع رفع ،
وتقدير الكلام : ما هو مقرب إلا من آمن . وقرأ الجمهور : ﴿جَزَاءُ
الضَّعْفِ﴾ بالإضافة ، وقرأ قتادة : [جَزَاءً] منوناً [الضَّعْفُ] رفعاً ،
وحكى عنه الداني [جَزَاءً] نصباً منوناً [الضَّعْفُ] نصباً . و «الضَّعْفُ»
هنا اسم جنس ، أي التضعيف ؛ إذ بعضهم يجازى إلى عشرة ، وبعضهم
أكثر صاعداً إلى سبعمائة بحسب الأعمال ومشية الله فيها .
وقرأ الجمهور : ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾ بالجمع ، وقرأ حمزة وحده :
﴿فِي الْغُرْفَةِ﴾ على اسم الجنس يراد به الجمع ، ورويت عن الأعمش ،
وهما في القراءة حسنتان . قال أبو علي : وقد يجيء هذا الجمع بالألف
والتاء «الغُرُفَاتِ» ونحوه للتكثير ، ومنه قول حسان :
لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا (١)

(١) البيت من قصيدة في الفخر ، بدأها حسان بقوله : «أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبِّعَ الْجَدِيدَ
التَّكَلُّمًا» . والجفنة : القصعة ، وجمعها : جفانٌ وجفِنٌ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَجِفَّانَ =

فلم يُرد إلا كثرة جفان ، وتأمل نقد الأعشى في هذا البيت .
 وقرأ الأعمش ، والحسن ، وعاصم - بخلاف - : (في الغُرَفَاتِ)
 بسكون الراء .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (٣٨)
 قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمَنْشُورُونَ
 فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

لما ذكر تعالى المؤمنين العاملين للصالحات وثوابهم عقب بذكر
 ضدهم وذكر جزائهم ليظهر تباين المنازل ، وقرأت فرقة : [مُعْجِزِينَ] ،
 وفرقة [مُعْجِزِينَ] ، وقد تقدم تفسيرها .

و [مُحْضَرُونَ] من الإحضار والإعداد .
 ثم كرر بسط الرزق وقدره تأكيداً وتبییناً ، وقصد به هنا
 رزق المؤمنين ، وليس سوقه على المعنى الأول الذي جلب للكافرين ،

= كالجَوَابِ ﴿ ٣٨ ﴾ ، وفي أمثال العرب : « ادع إلى طعانك من تدعو إلى جفانك » . ويقطرن :
 ينزل منها الدم قطرة قطرة ، والنجدة : الشجاعة في القتال وسرعة الإغاثة . ونقد الأعشى
 للبيت مشهور وموجود في كتب الأدب .

بل هذا هنا على جهة الوعظ والتزهيد في الدنيا ، والحض على النفقة في الطاعات ، ثم وعد بالخُلف في ذلك وهو بشرط الاقتصاد والنية في الطاعة ودفع المضرات وعد منجز ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة .
 وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 (إن الله قال لي : أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ) (١) ، وفي البخاري : (إِنَّ الْمَلِكَ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ ، اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا ، ويقول ملك آخر : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا) (٢) ، وقال مجاهد : المعنى : إن كان خلف فهو مؤليه وميسره ، وقد لا يكون الخلف .

وأما قوله : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فمن حيث يقال في الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمير جُنده ، لكن ذلك من مال يملك عليهم ، والله تعالى من خزائن لا تفتنى (٢) ، ومن إخراج من عدم إلى وجود . وقرأ الأعمش : [وَيُقَدَّرُ] بضم الياء وشد الدال .

(١) أخرج البخاري ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال الله عز وجل : أَنْفِقْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْفِقْ عَلَيْكَ) . (الدر المنثور) .
 (٢) أخرج البخاري ، ومسلم في الزكاة ، وأخرجه أحمد في مسنده (٥-١٩٧) ، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما طلعت شمس قط إلا بعث بـجَنَبَتَيْنِهَا ملكان يتاديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يأبها الناس ، هلموا إلى ربكم . فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمس قط إلا بعث بـجَنَبَتَيْنِهَا ملكان يتاديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا ، وَأَعْطِ مُمْسِكًا مَالًا تَلْفًا) .

(٢) يعني : يرزق من خزائن لا تفتنى ... الخ .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَذَا الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِذَا نُثِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذه آية وعيد للكفار ، والمعنى : واذكر يوم . وقرأ الجمهور : [نَحْشَرُهُمْ] ، (ثُمَّ نَقُولُ) بالنون فيهما ، ورواها أبو بكر عن عاصم ، وقرأ حفص عن عاصم بالياء فيهما ، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو . والقول للملائكة هو توقيف تقوم منه الحجة على الكفار عبديتهم ، نحو قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ (١) ،

(١) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

وإذ قال الله تعالى للملائكة هذه المقالة قالت الملائكة : [سُبْحَانَكَ] ،
 أي : تنزيهاً لك عما فعل هؤلاء الكفرة ، ثم برَّعُوا أنفسهم بقولهم :
 (أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ) يريدون البراءة من أن يكون لهم علم
 أو رضى أو مشاركة في أن يعبدهم البشر ، ثم قرروا أن البشر إنما
 عبدوا الجنَّ برضى الجنِّ وبإغوائها للبشر ، فلم تنف الملائكة عبادة
 البشر إياها ، وإنما قررت أنها لم تكن لها في ذلك مشاركة ، ثم ذنبت
 الجن . وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن : طاعتهم إياهم ،
 وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم ، فهذا نوع من العبادة ، وقد يجوز
 أن كان في الأمم الكافرة من عبد الجنَّ ، وفي القرآن آياتٌ يظهر
 منها ذلك في الأنعام وغيرها .

ثم قال سبحانه : [فَالْيَوْمَ] ، وفي الكلام حذف ، تقديره :
 « فيقال لهم » ، أي : لمن عبدَ ولمن عبدَ : ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
 نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ . ذكر في هذه الآية
 أقوالهم وأنواع كلامهم عندما يُقرأ عليهم القرآن ، ويسمعون حكمه
 وبراهينه البينة ، فقائلٌ طعن على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه
 يقادح في الأوثان ودين الآباء ، وقائلٌ طعن عليه بأن هذا القرآن

مفتري ، أي : مصنوع من قِبَلِ محمد ويُدَّعي أنه من عند الله ، وقائل طعن عليه بأن ما عنده من الرقة واستجلاب النفوس واستمالة الأسماع إنما هو سحرٌ يجلب به ويستدعي ، تعالى الله عن أقوالهم ، وتقدّست الشريعة عن طعنهم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾
 وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ
 كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى
 ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِحِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ
 شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

معنى هذه الآية أنهم يقولون بأرائهم في كتاب الله تبارك وتعالى ، فيقول بعضهم : سحرٌ ، وبعضهم : افتراءٌ ، وهو منهم تجرؤٌ لا يستندون فيه إلى أثارة علم^(١) ، ولا إلى خبر من يُقبل خبره ، فإننا ما آتيناهم

(١) الأثارة : العلامة ، وبقية الشيء ، وفي الكتاب العزيز : ﴿ إِنْتَرِينِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، (٤) (الأحقاف) .

كتباً يدرسونها ، ولا أرسلنا إليهم نذيراً فيمكنهم أن يدعوا أن أقوالهم تستند إلى أمره .

وقرأ جمهور الناس : [يَدْرُسُونَهَا] بسكون الدال ، وقرأ أبو حيوه : [يَدْرُسُونَهَا] بفتح الدال وشدها وكسر الراء ، والمعنى : ما أرسلنا من نذير يشافهم بشيء ، ولا يباشر أهل عصرهم ولا من قُرب من آبائهم ، وإلا فقد كانت النذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وصالح وهود ، ودعوة الله وتوحيده أمر قديم ، ولم تخل الأرض من داع إليه ، فإنما المعنى : من نذير يختص بهؤلاء الذين بعثناك إليهم ، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (١) ، ولكن لم يتجرّد للنذارة ولا قاتل عليها إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ثم مثل لهم بالأئمة المكذبة قبلهم ، وقوله : ﴿ وَهَذَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها أن يعود الضمير في [بَلَّغُوا] على قريش ، وفي [آتَيْنَاهُمْ] على الأئمة الذين من قبلهم ، والمعنى : من القوة والنعم والظهور في الدنيا ، قاله ابن عباس ، وقتادة ،

(١) من الآية (٥٤) من سورة (مريم) .

وابن زيد رضي الله عنهم . والثاني بالعكس ، والمعنى : من الآيات والبيان والنور الذي جئتهم به ، والثالث أن يعود الضمير على الأئمة المتقدمة ، والمعنى : من شكر النعمة وجزاء المنّة . و «المِعْشَارُ» : العُشْر ، ولم يأت هذا البناء إلا في العشرة والأربعة ، فقالوا : مِرْبَاعٌ وَمِعْشَارٌ ، وقال قوم : المِعْشَارُ : عَشْرُ العُشْرِ ، وهذا ليس بشيء . و «النَّكِيرُ» مصدر كالإنكار في المعنى ، وكالعيرين في الوزن ، وسقطت الياء منه تخفيفاً لأنها آخر آية ، و «كَيْفَ» تعظيم للأمر ، وليست استفهاماً مجرداً ، وفي هذا تهديد لقريش ، أي : إنهم مُعْرَضُونَ لنكير مثله .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم لعبادة الله ، والنظر في حقيقة نُبُوَّتِهِ هو ، ويعظهم بأمر يقرب للأفهام ، فقوله : [بِوَاحِدَةٍ] معناه : بقضية واحدة إيجازاً لكم وتقريباً عليكم ، وقوله : [أَنْ] مفسرة ، ويجوز أن تكون بدلاً من [وَاحِدَةٍ] . وقوله : ﴿تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى﴾ يحتمل أن يريد بالطاعة والإخلاص والعبادة ، فتكرن الواحدة التي وعظ بها هذه ، ثم عطف عليها أن تَتَفَكَّرُوا في أمره هو ، هل به جنة أو هو بريء من ذلك ؟ والوقف عند أبي حاتم [تَتَفَكَّرُوا] ، فيجزي ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ نفياً مُسْتَأْنَفاً ، وهو عند سيبويه جواب

ما تنزل منزلة القَسَم ؛ لأنَّ (تَفَكَّرَ) من الأفعال التي تعطي التحقيق كَتَبَيْنَ ، وتكون الفكرة - على هذا - في آيات الله والإيمان به ، ويحتمل أن يريد بقيامهم أن يكون لوجه الله في معنى التفكير في محمد عليه الصلاة والسلام ، فتكون الواحدة التي وعظ بها (أن تَقُومُوا) ، والمعنى : أن تقوموا للفكرة في أمر حاجتهم ، وكأن المعنى أن يفكر الواحد بينه وبين نفسه ، وتتناظم الآيتان على جهة طلب التحقيق ، هل بمحمد - صلى الله عليه وسلم - جنة أم لا ؟ وعلى هذا لا يوقف على الفكرة . وقدم المثني لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدٍ ، فإذا انقده الحَقُّ بين الاثنين فكَرَّ كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة ، وقد قال الشاعر :

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ فَيَزِدَادُ بَعْضُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْضِهِمْ عِلْمًا (١)

وقرأ يعقوب : ﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا﴾ بتاء واحدة ، وقال مجاهد : [بِوَأَحَدَةٍ] معناه : لا إله إلا الله ، وقيل غير هذا مما لا تعطيه الآية .

وقوله : ﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾ يترتب على أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء في الزمان من قبل العذاب الشديد الذي تَوَعَّدُوا به .

(١) يريد أن لقاء الأفكار ، وتجمع الآراء نتيجة للحوار والمناقشة يأتي بكل نادر وغريب ، والإنسان يتعلم من غيره إذا التقي معه في نقاش موضوعي هادئ .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْضِلُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾

أمر الله تعالى في هذه الآية بالتبرّي من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة ، وتسليم كل دنيا إلى أربابها ، والتوكل على الله في الأجر وجزاء الحدّ ، والإقرار بأنه شهيد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَفْضِلُ بِالْحَقِّ ﴾ ، يريد : بالوحي وآيات القرآن ، واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه ، وقرأ الجمهور : [عَلَامٌ] بالرفع ، أي : هو عَلَامٌ ، ونصبها عيسى بن عمر ، وابن أبي إسحق ، إما على البدل من اسم [إِنَّ] ، أو على المدح ، وقرأ الأعمش : « وهو عَلَامُ الْغُيُوبِ » ، وقرأ عاصم : [الْغُيُوبِ] بكسر الغين .

قوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ يريد الشرع وأمر الله ونهيه ، وقال قوم :
يعني السيف . وقوله : ﴿ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ ، قالت فرقة :
الباطلُ غيرُ الحق ، من الكذب والكفر ونحوه ، استعار له الإبداء
والإعادة ونفاهما عنه ، كأنه قال : وما يصنع الباطل شيئاً . وقالت
فرقة : الباطلُ : الشيطان ، والمعنى : وما يفعل الباطل شيئاً مفيداً ،
أي : ليس يخلق ولا يرزق . وقالت فرقة : [ما] استفهام ، كأنه
قال : وأي شيء يصنع الباطل ؟

وقرأ الجمهور : [ضَلَلْتُ] بفتح اللام ، ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ ﴾ بكسر
الضاد ، وقرأ الحسن ، وابن وثاب : [ضَلَلْتُ] بكسر اللام [أَضِلُّ]
بفتح اللام ، وهي لغة تميم .

وقوله : [فَبِمَا] يحتمل أن يكون بمعنى الذي ، ويحتمل أن تكون
[ما] مصدرية ، و [قَرِيبٌ] معناه : بإحاطته وإجابته وقدرته .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ الآية - فقال
ابن عباس ، والضحاك : هذا في عذاب الدنيا ، ورؤي أن ابن أبزي (١)
قال : ذلك في جيش يغزو الكعبة فيخسف بهم في بيدااء من الأرض ،

(١) في الأصل : « وروي أن أبزي » ، والصواب ما ذكرناه .

ولا ينجو إلا رجلٌ من جهينة ، فيخبر الناس بما نال الجيش ، وقالوا :
وبسببه قيل :

..... وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ (١)

وهذا قول بعيد ، وروي في هذا المعنى حديث مطوّل عن حذيفة ،
وروى الطبري أنه ضعيف السند مكذوب فيه على ابن رواد بن الجراح (٢)
وقال قتادة : ذلك في الكفار في بدر ونحوها . وقال الحسن بن أبي الحسن :

(١) هذا عجز بيت من الوافر ، وقد صار مثلاً يضرب في معرفة حقيقة الشيء ، وقد
ذكر الميداني قصة المثل في « مجمع الأمثال » في خبر طويل خلاصته أن رجلاً من جهينة اسمه
الأخنس بن كعب أحدث في قومه أمراً ثم فرّ هارباً ، فلقي حصين بن عمرو الكلابي ، وكان
قد خرج من قومه أيضاً لأمر قد أحدثه ، وتعارفا ، ثم صحب كل منهما صاحبه على حذر ،
ومضيا يقطعان الطريق على الناس ، حتى التقيا برجل من لخم يتناول الطعام ومعه أمال كثيرة ،
فدعاهما لطعامه فأكلا وشربا وتحدثا ، ثم ابتعد حصين لبعض أمره ، فقتل الجهيني اللخمي ،
فلما عاد حصين فوجئ بذلك ، فلام صاحبه على فعلته ، وقال : ويحك ، فتكت برجل قد حرّمنا
بطعامه وشرا به ، ثم غافل الجهيني حصيناً وقتله ، وأخذ متاعه ومتاع اللخمي وعاد إلى قومه ،
وفي الطريق التقى بامرأة حصين تسأل عنه فأخبرها أنه قتل زوجها ، ثم وقف في القوم يقول
أبياتاً منها :

تُسَائِلُ عَنْ حُصَيْنٍ كُلَّ رَكْبٍ وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ
جُهَيْنَةُ مَعْشَرِي وَهُمْ مُلُوكٌ إِذَا طَلَبُوا الْمَعَالِي لَمْ يَهُسُونُوا

وقال الأصمعي ، وابن الأعرابي : اسمه جُهَيْنَةُ بالفاء ، وكان عنده خبر رجل مقتول ،
وفيه يقول الشاعر :

تُسَائِلُ عَنْ أَبِيهَا كُلَّ رَكْبٍ وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ

(٢) في الأصل : « علّى رواد بن الجراح » ، والتصويب عن الطبري وفيه ، حدّثنا
عصام بن رواد بن الجراح ... الخ » ، والخبر بطوله هناك .

ذلك في الكفار عند خروجهم من القبور للقيامة . وهذا أرجح الأقوال عندي .
وأما معنى الآية فهو التعجب من حالهم إذا فزعوا من أخذ الله
إياهم ، ولم يتمكن لهم أن يفوت منهم أحد ، وقوله : ﴿ مِنْ مَّكَانٍ
قَرِيبٍ ﴾ معناه : أنهم للقدره قريبٌ حيث كانوا ، قيل : من تحت
الأقدام ، وهذا يتوجه على بعض الأقوال ، والذي يُعمُّ جميعها أن يقال :
إنَّ الأخذ يجيئهم من قرب في طمأنينتهم ، بينا الكافر يُؤمِّل ويظنُّ
ويترجى إذ غشيه الأخذ ، ومن غشيه أخذ من قريب فلا حيلة له
ولا روية ، وقرأ الجمهور : [أَخَذُوا] ، وقرأ طلحة بن مصرف :
﴿ فَلَا فَوْتَ وَأَخَذُ ﴾ ، كأنه قال : وحالهم أخذٌ (١) .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّنَابُشٍ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۗ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ۗ
مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۗ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۗ ﴾

الضمير عائد على الله تعالى في قوله : [بِهِ] ، وقيل : على محمد
صلى الله عليه وسلم وشرعه والقرآن . وقرأ ابن كثير ، ونافع ،

(١) قال ابن جني : يجوز أن يكون فاعلا لفعل محذوف ، والتقدير : وأحاط بهم أخذٌ ،
ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير : وهناك أخذٌ لهم .

وعاصم ، وابن عامر ، وعامة القراء : [التَّناوُسُ] بضم الواو دون همز ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم أيضاً بالهمز ، والأولى معناها : التناول ، من قولهم : ناشَ ينوشُ إذا تناول ، وتناوَسَ القومُ في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً بالسلاح ، ومنه قول الشاعر :

فَهِيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشاً مِنْ عَلَا نَوْشاً بِهِ تَقَطُّعُ أَجْوَازِ الْفَلَا (١)

فكأنه قال : وأنى لهم تناول مرادهم وقد بعدوا عن مكان إمكان ذلك . وأما الهمز فيحتمل أن يكون مما تقدم وهُمزت الواو لما كانت مضمومة

(١) هذان البيتان من الرَّجَزِ المشطور ، ذكرهما صاحب التاج ، وصاحب اللسان مرتين ، مرة في (علا) شاهداً على أن قوله : (مِنْ عَلَا) معناه : من أعلى ، ومرة في (نَوْشَ) شاهداً على أن التَّناوُسُ معناه : التناول ، وقال في التاج : هو لأبي السَّجَمِ الراجز ، أو لِغَيْثَانَ ابن حريث ، أما في اللسان فقد نسبه إلى أبي النجم في (علا) ، وإلى غَيْثَانَ في (نوش) . وذكرهما الجوهري في الصحاح ولكنه لم ينسبهما ، وقال : المعنى أنها تناول ماء الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً ، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماءٍ آخر . وذكرهما كذلك القراء في (معاني القرآن) ، وأبو عبيدة في (مجاز القرآن) .

هذا والضمير في (فَهِيَ) يعود على الإبل ، وتناول الحوض : تناول منه الماء ، مِنْ عَلَا : من فوق ، وأجواز : جمع جَوْزٍ وهو الوسط ، أي : وسط الصحراء الواسعة ، يصف الإبل بأنها عالية الأجسام طويلة الأعناق ، ولذلك فهي تناول الماء من الحوض من فوق وتشرب كثيراً ، فيساعدتها ذلك على قطع الفلاة بدون أن تحتاج إلى ماءٍ آخر .

بضمة لازمة ، كما قالوا : أُقْتَتَ وغير ذلك (١) ، ويحتمل أن يكون من الطلب ، تقول : «تَنَاعَشْتُ الشيءَ» (٢) إذا طلبته من بعيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تَنَاوَشَ الشيءَ : رُجِعَ ، حكاه عنه ابن الأنباري ، وأنشد :

تَمَنَّى أَنْ تَتُوبَ إِلَيْكَ مَيِّ لَيْسَ إِلَى تَنَاوَشِهَا سَبِيلُ (٣)
وكأنه قال في الآية : وأنى لهم طلب مرادهم وقد بُعد؟ وقال مجاهد : المعنى : من الآخرة إلى الدنيا .

وقرأ الجمهور : [وَيَقْدِفُونَ] بفتح الياء وكسر الذال ، على إسناد الفعل إليهم ، أي : يرحمون بظنونهم ، ويرمون بها الرسول وكتاب الله ، وذلك غَيْبٌ عنهم ، في قولهم : سحرٌ وافتراءٌ وغير ذلك ، قاله مجاهد ،

(١) قال أبو حيان الأندلسي تعقياً على ذلك : « ليس على إطلاقه ، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغمة فيها » .

(٢) في الأصل : « اتناشت الشر » ، وهو خطأ ، والصواب ما ذكرناه ، ونعتقد أن هذا الخطأ نشأ عن تحريف من النسخ .

(٣) هذا شاهد على أن التناوش يكون بمعنى الرجوع ، ويروي البيت : « تَمَنَّى أَنْ تَتُوبَ إِلَيَّ » ، وآب معناها : رجع ، وفي الكتاب العزيز : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَكُرْسِيًّا وَحُسْنِ مَآبٍ ﴾ ، وفي الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أقبل من سفر قال : (آيُونَ تَائِبُونَ ، لَرَبَّنَا حَامِدُونَ) ، وعلى هذا يكون معنى البيت : يتمنى رجوع مَيِّ ولكن ليس إلى رجوعها من سبيل ، ويكون المعنى في الآية : يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيئات لهم ذلك .

وقال قتادة : قذفهم بالغيب هو قولهم : لا بعث ولا جنة ولا نار .
 وقرأ مجاهد بضم الياء وفتح الذال ، على معنى : ويرجمهم الوحي
 بما يكرهون من السماء .

قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية . قال الحسن : معناه : من الإيمان
 والتوبة والرجوع إلى الأمانة والعمل الصالح ، وذلك أنهم اشتبهوه
 في وقت لا تنفع فيه التوبة ، وقاله أيضاً قتادة ، وقال مجاهد :
 معناه : حيل بينهم وبين نعيم الدنيا ولذاتها ، وقيل : معناه : حيل
 بينهم وبين الجنة ونعيمها ، وهذا يتمكن جداً على القول بأن الأخذ
 والفرع المذكور هو يوم القيامة (١) .

قوله : ﴿ كَمَا فَعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ﴾ أي الفِرَق المشابهة لهم من كل
 أمة ، وهو جمع شِيعَة (٢) ، وقوله : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يصلح في بعض

(١) قال الحوفي : الظرف قائم مقام اسم ما لم يُسَمَّ فاعله في قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ
 بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقد عارضه أبوحيان ، وبيان بطلان ذلك في البحر المحيط « ٧-٢٩٤ » . ثم
 قال : « وإنما يُخَرَّج ما ورد من مثل هذا على أن القائم مقام الفاعل هو ضمير المصدر الدال
 عليه (وحيل) ، أي : هو ، وهو الحَوَل ، ولكونه أضم لم يكن مصدراً مؤكداً فجاز
 أن يُقَام مقام الفاعل ، وعليه يُخَرَّج قول الشاعر :

وقالت : متى يُبْخَلْ عَلَيْكَ وَيُعْتَلَلْ بِسُوءِ وَإِنْ يُكْشَفْ غَرَامُكَ تَدْرِبْ

أي : وَيُعْتَلَلْ هو ، أي الاعتلال .

(٢) في رأي أكثر اللغويين أن (أشباع) جمع (شبيع) ، و (شبيع) : جمع (شبيعة) .

الأقوال المتقدمة تعلقه بـ [فُعِلَ] ، ويصلح - على قول من قال : إن الفرع يوم القيامة - تعلقه بـ [أَشْيَاعِهِمْ] ، أي : بمن اتصف بصفاتهم من قبل في الزمان الأول ، لأن ما يُفعل بجمعهم إنما هو في وقت واحد ، لا يقال فيه : من قبل .

و «الشُّكُّ المُرِيبُ» : أقوى ما يكون من الشُّكِّ وأشدُّه إظلاماً (١) ، والله أعلم .

كامل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين

(١) نسبة الإرابة إلى الشُّكِّ مجاز ، قال الزمخشري : إلا أن بينهما فرقاً ، وهو أن (المُرِيبَ) من المُتَعَدِّي منقولٌ ممن يصح أن يكون مُرِيباً من الأعيان إلى المعنى ، ومن اللازم منقول من صاحب الشُّكِّ إلى الشُّكِّ ، كما تقول : شعرتُ شاعِراً .

قيل : ويجوز أن يكون قد أُرْدِفَ (المُرِيبَ) على (الشُّكِّ) وهما بمعنى واحد لتناسق آخر الآية والتي قبلها من مكان قريب ، كما تقول : عجب عجيب ، وشئاً شاتٍ ، وليلةٌ ليلاءً ، أي : هو نوع من التأكيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكّية (١) .

قوله عز وجل :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ
مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٥﴾
مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ

(١) أخرج البخاري ، وابن الضريس ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : أنزلت سورة فاطر بمكة : قال القرطبي : في قول الجميع . وهي خمس وأربعون آية .

غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٠﴾ وَإِن
يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١﴾ يَتَأَيَّهَا
النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبَنَّ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبَنَّ بِاللَّهِ
الْغُرُورُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ، الألف واللام في [الْحَمْدُ] لاستغراق
الجنس على أتم عموم ؛ لأن الحمد بالإطلاق على الأفعال الشريفة
بالكمال هو لله ، والشكر مستغرق فيه ؛ لأنه فضل من فضوله .
و [فَاطِرٌ] معناه : خالق ، لكن يزيد في المعنى الانفراد بالابتداء لخلقها ،
ومنه قول الأعرابي : «أنا فطرْتُهَا» ، أراد : ابتدأت حفرها ، قال
ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أفهم معنى [فَاطِرٌ] حتى سمعت
قول الأعرابي (١) . وقرأ الزهري ؛ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَطَرَ﴾ ، وقرأ جمهور

(١) جاء أعرابيان إلى ابن عباس رضي الله عنهما يختصمان في بئر . فقال أحدهما :
«أنا فطرْتُهَا» أي : أنا ابتدأت حفرها ، والفطر في اللغة : الشقُّ عن الشيء ، يقال : فطرته
فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير ، أي طلع ؛ وسيُف فطار ، أي : فيه تشقُّق ، قال عنزة :
وسيُني كالعقيقة فهو كِمعني سِلَاحي لا أَفَلَّ ولا فُطَارَا
أي : هو كشعاع الشمس ، وهو ضجيجي ، ليس فيه شقوق ولا ثلوم .

الناس : [جَاعِلٍ] بالخفض ، وقرأت فرقة : [جَاعِلٌ] بالرفع ، على قطع الصفة ، وقرأ خالد بن نشيط : [جَعَل] على صيغة الماضي [الْمَلَائِكَةَ] نصباً ، فأما على هذه القراءة الأخيرة فنصب قوله : [رُسُلًا] على المفعول الثاني ، وأما على القراءتين المتقدمتين فقييل : أراد بـ [جَاعِلٍ] الاستقبال ؛ لأن القضاء في الأزل ، وحذف التنوين منه تخفيفاً ، وعَمِلَ عَمَلِ المستقبل في [رُسُلًا] . وقالت فرقة : [جَاعِلٍ] بمعنى الماضي ، و [رُسُلًا] نصب بإضمار فعل ، و [رُسُلًا] معناه : بالوحي وغير ذلك من أوامر ، فـجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل رُسُلٌ . والملائكة المتعاقبون رُسُلٌ ، والمُسَدِّدُونَ لحكام العدل رُسُلٌ . وغير ذلك . وقرأ الحسن : [رُسُلًا] بسكون السين .

و [أُولِي] جمعٌ واحِدُهُ (ذو) ، ومنه : التَّقِيُّ ذُو نُهْيَةٍ ، والقوم أولوا نُهْيٍ ، وحُكي عن الحسن أنه قال في تفسير قول مريم عليها السلام : ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (١) : علمتُ أن التَّقِيَّ ذُو نُهْيَةٍ .

وقوله تعالى : ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة ، فعدلت في حالة التنكير فتعرفت بالعدل ، فهي

(١) من قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة (مريم) : ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ .

لا تنصرف للعدل والتعريف ، وقيل : للعدل والصفة ، وفائدة العدل
الدلالة على التكرار ؛ لأن « مثنى » بمنزلة قولك : اثنين اثنين . وقال
قتادة : إن أنواع الملائكة هي هكذا ، منها ما له جناحان ، ومنها
ما له ثلاثة ، ومنها ما له أربعة ، وشدَّ منها ما له أكثر من ذلك ،
ورُوي أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح فيها اثنان يبلغان من
المشرق إلى المغرب . وقالت فرقة : المعنى : إن في كل جانب من الملك
جناحين ، ولبعضهم أربعة ، وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت
في معتاد ما رأينا نحن من الأجنحة ، وقيل : بل هي ثلاثة لواحد
كالحوث ، والله أعلم بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ تقرير لما يقع في النفوس
من التعجب والاستغراب عند الخبر بالملائكة أُولي الأجنحة ، أي :
ليس هذا ببدع في قدرة الله تبارك وتعالى ؛ فإنه يزيد في خلقه ما يشاء ،
ورُوي عن الحسن ، وابن شهاب أنهما قالا : المزيد هو حسن الصوت ،
قال الهيثم الفارسي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال
لي : « أنت الهيثم الذي تزيّن القرآن بصوتك ، جزاك الله خيراً » ،
وقيل : الزيادة : الخطُّ الحسن ، وقال عليه الصلاة والسلام : (الخطُّ

الحسن يزيد الحق وضوحاً) (١) ، وقال قتادة : الزيادة : ملاحظة العينين .
وقيل غير هذا ، وإنما ذكر هذه الأشياء من ذكرها على جهة المثال ،
لا أن المقصود هي فقط ، وإنما مثلوا بأشياء هي زيادات خارجة عن
الغالب المعتاد الموجود كثيراً ، وباقي الآية بين .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ ﴾ ، [مَا] شرط ، و [يَفْتَحِ] جزم
بالشرط ، و ﴿ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ عام في كل خير يعطيه الله لعباده جماعتهم
وأفرادهم ، وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فيه حذف مضاف ، أي : من بعد
إمساكه ، ومن هذه الآية سمّت الصوفية ما يُعطاه (الصوفي) من الأموال
والمطاعم وغير ذلك : الفتوحات ، ومنها كان أبو هريرة رضي الله عنه
يقول : «مُطَرْنَا بِنَوْءِ الْفَتْحِ» ، ويقرأ الآية (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا ﴾ الآية ... خطابٌ لقريش .
وهو متّجه لكل كافر ، لا سيّما لعباد غير الله ، وذكّرهم تعالى بنعمته
عليهم في خلقتهم وإيجادهم ، ثم استفهمهم على جهة التقرير والتوقيف

(١) أخرجه الديلميّ في مسند الفردوس . عن أم سلمة رضي الله عنها . ورمز له الإمام
السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف . وفي القرطبي : « وقال مهاجر الكلاعي : قال النبي
صلى الله عليه وسلم : (الخط الحسن ... الحديث) .
(٢) الخبر في موطأ الإمام مالك رحمه الله .

بقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ ؟ أي : فليس الإله إلا الخالق ، لا ما تعبدون أنتم من الأصنام ، وقرأ حمزة : [غَيْرِ] بالخفض نعت على اللفظ ، وخبر الابتداء [يَرْزُقُكُمْ] ، وبها قرأ أبو جعفر ، وشقيق ، وابن وثاب ، وقرأ الباقر بالرفع ، وهي قراءة شيبة بن نصاح ، وعيسى ، والحسن بن أبي الحسن ، وذلك يحتمل ثلاثة أوجه : النعتُ على الموضع والخبر مضمَر ، تقديره : في الوجود ، أو في العالم . وأن يكون [غَيْرُ] خبر الابتداء الذي هو في المجرور ، والرفع على الاستثناء : كأنه قال : هل خالقٌ إلا اللهُ ؟ فجرت [غَيْرُ] مجرى الفاعل الذي بعد إلا (١) . وقوله : ﴿ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ يريد : بالمطر . ومن [الأَرْضِ] يريد : بالنبات ، وقوله : ﴿ فَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ ﴾ أي : فلا وجه تصرفون (فيه) عن الحق .

ثم سأل نبيه صلى الله عليه وسلم بما سلف من حال الرسل مع الأمم ، و [الأُمُور] تعم جميع الموجودات المخلوقات ، إلى الله مصير جميع

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : « وفي هذا نظر ، وهو أن اسم الفاعل أو ما جرى مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجري مجرى الفعل فرفع ما بعده ، هل يجوز أن تدخل عليه (من) التي للاستغراق ، فتقول : هل من قائم الزيدون ؟ كما تقول : هل قائم الزيدون ؟ والظاهر أنه لا يجوز ، ألا ترى أنه إذا أجزى مجرى الفعل لا يكون فيه عموم خلافة إذا أدخلت عليه (من) . ولا أحفظ مثله في لسان العرب ، وينبغي ألا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلام العرب » .

ذلك على اختلاف أحوالها ، وفي هذا وعيد للكفار ووعد للنبي صلى الله عليه وسلم .

ثم وعظ جميع العالم وحذرهم غرور الدنيا بنعيمها وزخرفها ، الشاغلة عن المعاد الذي له يقول الإنسان : يا ليتني قدمتُ لحياتي ، ولا ينفعه «لَيْتٌ» يومئذ ، وحذر غرور الشيطان . وقوله : (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) عبارة عن جميع خبره عز وجل في خير وتنعيم أو عذاب وعقاب . وقرأ الجمهور : [الْغُرُورُ] بفتح الغين ، وهو الشيطان ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأ سماك العبدي ، وأبو حنيفة : [الْغُرُورُ] بضم الغين ، وذلك يحتمل أن يكون جمع غار كجالس وجلوس ، ويحتمل أن يكون جمع غر ، وهو مصدر غره يغره غراً ، ويحتمل أن يكون مصدراً وإن كان شاذاً في الأفعال المتعدية أن يجيء مصدراً على «فُعُول» لكنه قد جاء : «لَزِمَهُ لُزُوماً» ، و«نَهَكَهُ المرضُ نُهوكاً» ، فهذا مثله ، وكذلك هو مصدر في قوله تعالى : (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) (١) .

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأعراف) .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُدٍ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ ﴾ الآية ... يُقَوِّي قراءة من قرأ :
[الغُرُورَ] بفتح الغين ، وقوله : ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي : بالمباينة
والمقاطعة والمخالفة له باتِّباع الشرع . و « الحزب » : الحاشية والصاغية (١) ،
واللام في [لِيَكُونُوا] لام الصيرورة : لأنه لم يدعهم إلى السعير ،
وإنما اتفق أن صار أمرهم عن دعائه إلى ذلك ، و [السَّعِيرُ] طبقة من
طبقات جهنم ، وهي سبع طبقات .
وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في موضع رفع بالابتداء ، وهذا هو
الحسن لعطف ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عليه بعد ذلك ، فهما جملتان تعادلتا ،

(١) صاغية الرجل : خاصته الميألون لاتباعه .

وجوزَّ بعض الناس أن يكون [الَّذِينَ] بدلاً من الضمير في [يَكُونُوا] ،
وجوزَّ غيره أن يكون في موضع خفض بدلاً من [أَصْحَابِ] ، وهذا
محتمل ، غير أن الابتداء أرجح .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ ﴾ الآية ... توقيف ، وجوابه محذوف ،
تقديره عند الكسائي : تذهب نفسك حسرات عليه ، ويمكن أن يتقدر :
كمن اهتدى ، ونحو هذا من التقدير ، وأحسنها ما دلَّ اللفظ بعدُ
عليه ، وقرأ طلحة : [أَمَّنْ] بغير فاءٍ ، وهذه الآية تسلية للنبي عليه
الصلاة والسلام عن كفر قومه ، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال
من شاء وهداية من شاء ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض
عن أمرهم ، وألاً يبخع نفسه أسفاً عليهم . وقرأ الحسن : [تَذْهَبَ]
بفتح التاء والهاء [نَفْسُكَ] بالرفع ، وقرأ أبو جعفر ، وقتادة ، وعيسى ،
والأشهب : [تَذْهَبُ] بضم التاء وكسر الهاء [نَفْسُكَ] نصباً ، ورويت
عن نافع . و «الحسرة» : همُّ النفس على فوات أمر ، واستشهد ابن
زيد لذلك بقوله : ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ (١) ،
ثم توعد الكفرة بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

(١) من الآية (٥٦) من سورة (الزمر) .

قوله عز وجل :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ السَّحَابَ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿١١﴾ ﴾

هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث من القبور ،
فدلهم على المثال الذي يعاينوه وهو سوائه مع إحياء الموتى . و «البلدُ
الميتة» هو الذي لا نبت فيه ، قد اغبر من القحط ، فإذا أصابه
الماء من السحاب اخضر وأنبت ، فتلك حياته ، و [النشور] مصدر :
نشر الميت إذا حيي ، ومنه قول الأعشى :

يا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ (١)

(١) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو بها علقمة بن علاثة ويمدح عامر
ابن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، وهو بتمامه مع بيت قبله :

لَوْ أُسْتَدَّتْ مَيِّتًا إِلَى تَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ
واستعماله (مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ) يدلُّ على أنهما بمعنى واحد ، وقد جمع بينهما عدي بن
الرعلاء حين قال :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَّاحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتٌ الْأَحْيَاءُ -

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ : أخذها أن يريد : من كان يريد العزة بمغالبةٍ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ، أي : ليست لغيره ، ولا تَتَمُّ إِلَّا لَهُ ، وهذا المُغَالِبُ مغلوب ، ونحا إليه مجاهد ، وقال : من كان يريد العزة بعبادة الأوثان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تمسك بقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ (١)

والمعنى الثاني : من كان يريد العزة وطريقها القويم ، ويُحِبُّ نَيْلَهَا على وجهها ، فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ، أي : بهِ وعن أمره ، لا تُنال عزته إِلَّا بطاعته (١) ، ونحا إليه قتادة .

= إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعْيشُ كَثِيْبًا كاسِفًا بِأَلْهِ قَلِيلٍ الرَّجَاءِ
 وإلى هذا يميل أكثر اللغويين ، وإن كان الجوهري قد حكى عن الفراء قوله : « يقال لمن لم يميت : إنه مائتٌ عن قليل ، وميئتٌ ، ولا يقولون لمن مات : هذا مائتٌ » . قال صاحب اللسان : وهذا خطأ ، وإنما (ميئتٌ) يصلح لما قد مات ولما سيموت ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، والآية هنا أكبر دليل على أن (الميئت) بالشديد تكون للميت بالفعل ، وغيرها يدل على أن الميئت بالتخفيف هو الميئت أيضاً بالفعل ، وأن كلا من المخففة والمثقلة بمعنى واحد .

(١) من الآية (٨١) من سورة (مريم) .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم مُفَسَّرًا لقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ : (مَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارِيْنَ فَلْيَطْعِ الْعَزِيْزَ) ، ولقد أحسن من قال :

والمعنى الثالث - وقاله الفراء - : من كان يريد علم العزة فَلِلَّهِ

العزة ، أي : هو المتصف بها . و [جَمِيعاً] حال .

وقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي التوحيد والتمجيد

وذكر الله ونحوه . وقرأ الضحاك : [يُصْعَدُ] بضم الياء ، وقرأ الجمهور :

[الْكَلِمُ] وهو جمع كلمة ، وقرأ أبو عبد الرحمن : [الْكَلامُ] . و [الطَّيِّبُ] :

الذي يُسْتَحْسَن سماعه الاستحسان الشرعي . وقال كعب الأحبار :

إِنْ لِي «سَبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» لدويًّا

حول العرش كدوي النحل ، تذكر بصاحبها .

قوله : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ، اختلف الناس في الضمير ،

على من يعود ؟ فقالت فرقة : يعود على [الْعَمَلِ] . ثم اختلفت هذه

الفرقة - فقال قوم : الفاعل بـ [يَرْفَعُ] هو [الْكَلِمُ] ، أي : والعمل

يرفعه الْكَلِمُ ، وهو قول : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ؛ لأنه لا يُرْفَعُ عَمَلٌ إِلَّا

بتوحيد . وقال بعضهم : الفعل مسند إلى الله تعالى ، أي : والعمل الصالح

يرفعه هو ، وهذا أرجح الأقوال .

= وَإِذَا تَذَكَّرْتِ الرَّقَابُ تَوَاضَعُوا مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ومن اعتزَّ بالله أعزَّه الله ، ومن اعتزَّ بالبعد أذلَّه الله .

وقال ابن عباس ، وشهر بن حوشب ، ومجاهد ، وقتادة : الضمير في [يَرْفَعُهُ] عائد على [الْكَلِمِ] ، أي : إِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ هُوَ يَرْفَعُ الْكَلِمَ ، واختلفت عبارات أهل هذه المقالة - فقال بعضها : رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى ، وَقَالَ كَلَامًا طَيِّبًا ، وَأَدَّى فَرَائِضَهُ ، ارْتَفَعَ قَوْلُهُ مَعَ عَمَلِهِ ، وَإِذَا قَالَ - وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ - رُدَّ قَوْلُهُ عَلَى عَمَلِهِ وَقِيلَ : عَمَلُهُ أَوْلَى بِهِ . وَهَذَا قَوْلٌ يَرُدُّهُ مَعْتَقِدُ أَهْلِ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا يَصِحُّ (١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَاصِيَ التَّارِكِ لِلْفَرَائِضِ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى ، وَقَالَ كَلَامًا طَيِّبًا فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ لَهُ ، مُتَقَبَّلٌ مِنْهُ ، وَلَهُ حَسَنَاتُهُ ، وَعَلَيْهِ سَيِّئَاتُهُ ، وَاللَّهُ يَتَقَبَّلُ مِنْ كُلِّ مَنْ اتَّقَى الشُّرْكَ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ عَمَلٌ صَالِحٌ ، وَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ مَنْ يَقُولُ : «إِنَّ الْعَمَلَ هُوَ الرَّافِعُ لِلْكَلِمِ» بِأَنَّ يُتَأَوَّلَ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي رَفْعِهِ وَحُسْنِ مَوْقِعِهِ إِذَا تَعَاوَدَ مَعَهُ ، كَمَا أَنَّ صَاحِبَ الْأَعْمَالِ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ - إِذَا تَخَلَّلَ أَعْمَالَهُ كَلِمًا طَيِّبًا ، وَذَكَرَ اللَّهَ - كَانَتْ الْأَعْمَالُ أَشْرَفَ ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ مَوْعِظَةً وَتَذَكُّرَةً وَحِضًّا عَلَى الْأَعْمَالِ (٢).

(١) الذي في الأصول : «والأصحُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والصواب ما ذكرناه ، وقد نقله القرطبي في تفسيره هكذا .

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا ، وفيما نقله زيادة على ما هنا ، وهي : «وأما الأقوال التي هي أعمالٌ في نفوسها ، كالتوحيد والتسييح فمقبولة» . (القرطبي ١٤-٣٣٠) .

وذكر الثعلبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، ولا عملاً إلا بنية) (١) . ومعناه : قولاً يتضمن أن قائله عمل عملاً ، أو يعمل في الآنف ، وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها - كالتوحيد والتسبيح - فمقبولة على ما قدمناه .

وقرأت فرقة : (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ) بالنصب فيهما ، وعلى هذه القراءة ف [يَرْفَعُهُ] مُسْنَدٌ إِذَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا إِلَى [الْكَلِمِ] . والضمير في [يَرْفَعُهُ] عائد على العمل لا غير .

وقوله تعالى : (يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ) إِذَا أَنَّهُ عَدَى [يَمْكُرُونَ] لِمَا أَحَلَّهُ مَجَل « يَكْسِبُونَ » ، وَإِنَّمَا أَنَّهُ حَذَفَ الْمَفْعُولَ وَأَقَامَ صِفَتَهُ مَقَامَهُ ، وَتَقْدِيرُهُ : يَمْكُرُونَ الْمَكْرَاتِ السَّيِّئَاتِ ، وَ [يَمْكُرُونَ] مَعْنَاهُ : يَتَخَابَثُونَ وَيُخَدَعُونَ وَهُمْ يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ .

و [يَبُورُ] مَعْنَاهُ : يَفْسُدُ وَيَبْقَى لَا نَفْعَ فِيهِ . وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ : يَدْخُلُ فِي الْآيَةِ أَهْلُ الرِّيَاءِ .

(١) ذكر القرطبي الحديث كاملاً ، ونصه : (لا يقبل الله قولاً إلا بعمل . ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنية ، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة) ، ووجدت في الجامع الصغير حديثاً أخرجه الطبراني في الكبير ، ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن . ولفظه : (لا يقبل إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان) ، وليس فيه ذكر للأقوال ، وإنما هو بيان لقيمة العمل في الإسلام إلى جانب العقيدة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونزول الآية أولاً في المشركين .

قوله عز وجل :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ
وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذه الآية آية تذكير بصفات الله تعالى على نحو ما تقدم .
وهذه المحاورة إنما هي في أمر الأصنام وفي بعث الأجساد من القبور .
والله تعالى خلقكم من تراب من حيث خلق آدم أبانا منه عليه السلام .
(ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) أي بالتناسل من مني الرجال . و [أَزْوَاجًا] قيل :
معناه : أنواعاً ، وقيل : أراد تزوج الرجال النساء .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ الآية ... اختلف الناس في
عود الضمير في قوله : ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ - فقال ابن عباس
رضي الله عنهما : وغيره ما مقتضاه أنه عائد على [مُعَمَّرٍ] الذي هو
اسم جنس ، والمراد غير الذي يُعَمَّرُ ، أي أن القول تضمن شخصين ،

يُعَمَّرُ أَحَدُهُمَا مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ نَحْوَهَا ، وَيُنْقَصُ مِنَ الْآخِرِ بَأَنَّ يَكُونُ عَاماً وَاحِداً أَوْ نَحْوَهُ ، وَهَذَا قَوْلُ الضَّحَّاكِ ، وَابْنُ زَيْدٍ ، لَكِنَّهُ أَعَادَ الضَّمِيرَ إِيجَازاً وَاجْتِصَاراً ، وَالْبَيَانُ التَّامُّ أَنَّ يَقُولُ : وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عَمْرٍ مُعَمَّرٌ ؛ لِأَنَّ لَفْظَ «مُعَمَّرٌ» هِيَ بِمَنْزِلَةِ : ذِي عُمُرٍ ، كَأَنَّهُ قَالَ : وَلَا يُعَمَّرُ مِنْ ذِي عُمُرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ ذِي عُمُرٍ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضاً ، وَأَبُو مَالِكٍ ، وَابْنُ جَبْرِ : الْمُرَادُ شَخْصٌ وَاحِدٌ ، وَعَلَيْهِ يَعُودُ الضَّمِيرُ ، أَيُّ : مَا يُعَمَّرُ إِنْسَانٌ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ، بَأَنَّ يُحْصَى مَا مَضَى مِنْهُ ، إِذَا مَرَّ حَوْلُ كَتَبَ ذَلِكَ ، ثُمَّ حَوْلُ ، فَهَذَا هُوَ النِّقْصُ ، قَالَ ابْنُ جَبْرِ : مَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ فَهُوَ النِّقْصُ ، وَمَا يُسْتَقْبَلُ فَهُوَ الَّذِي يُعَمَّرُهُ ، وَرُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَنَّهُ قَالَ : الْمَعْنَى : وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ، أَيُّ : لَا يَخْتَرَمُ بِسَبَبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَوْ شَاءَ لِأَخْرِ ذَلِكَ السَّبَبِ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ حِينَ طَعِنَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : «لَوْ دَعَا اللَّهُ لَزَادَ فِي أَجَلِهِ» ، فَانْكَرَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ ، وَقَالُوا : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ (١) ، فَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ مُرَدُّدٌ ، يَقْتَضِي الْقَوْلَ بِالْأَجَلَيْنِ ، وَبِنَحْوِهِ تَمَسَّكَ الْمُعْتَزَلَةُ .

(١) مِنَ الْآيَةِ (٣٤) مِنْ سُورَةِ (الْأَعْرَافِ) ، وَتَكَرَّرَ فِي الْآيَةِ (٦١) مِنْ سُورَةِ (النَّحْلِ) .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، وابن سيرين : [يَنْقُصُ] على بناء الفعل للفاعل ، أي : يَنْقُصُ اللهُ ، وقرأ : ﴿مِنْ عُمْرِهِ﴾ بسكون الميم الحسن ، وداود . والكتاب المذكور في الآية : اللُّوحُ المحفوظ . وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى تحصيل هذه الأعمار واختصار دقائقها وساعاتها .

قوله عز وجل :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ
مَوَاحِرَ لَتَبْتَنُّوْا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

هذه آية أخرى يستدل بها كل عاقل ، ويقطع أنها مما لا مدخل لصنم فيه ، و [الْبَحْرَانِ] يريد بهما جميع الماء المالح وجميع الماء العذب حيث كان ، فهو يعني به جملة هذا وجملة هذا ، و «الْفُرَاتُ» : الشديد العذوبة ، و «الْأُجَاجُ» : الشديد الملوحة التي تميل إلى المرارة من ملوحته . قال الرماني : هو من : أَجَجْتُ النَّارَ ، كأنه يحرق من حرارته . وقرأ عيسى الثقفي : ﴿سَيْغٌ شَرَابُهُ﴾ بغير ألف وبشد الياء ، وقرأ طلحة : [مِلْحٌ] بفتح الميم وكسر اللام .

و «اللحم الطريُّ» : الحوت ، وهو موجود في البحرين ، وكذلك
 القلْك تجري في البحرين ، وبقيت الحليَّة وهي اللؤلؤ والمرجان ،
 فقال الزجاج وغيره : هذه عبارة تقتضي أن الحليَّة تخرج منهما وهي
 إنما تخرج من الملح ، وذلك يجوز ، كما قال في آية أخرى : ﴿يَخْرُجُ
 مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (١) ، وكما قال : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
 أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ (٢) ، والرسول إنما هي من الإنس .

وقال بعض الناس : بل الحليَّة تخرج من البحرين ؛ وذلك أن
 صدف اللؤلؤ إنما يلحقه - فيما يزعمون - ماء السماء ، فمنه ما يخرج
 ويوجد الجوهر فيه ، ومنه ما ينشق في البحر عند موته ويقطعه فيخرج
 جوهره بالعطش وغير ذلك من الحيل ، فهذا هو من الماء الفُرات ،
 فنسب إليه الإخراج لما كان من الحليَّة بسبب ، وأيضاً فإن البحر
 الفرات كله ينصب في البحر فيجيء الإخراج منهما جميعاً ، وقد
 خطَّ أبو ذؤيب في قوله في صفة الجوهر :

فَجَاءَ بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ لَطْمِيَّةٍ عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفُرَاتِ يَمْوجُ (٣)

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن) .

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (الأنعام) .

(٣) البيت من قصيدة تطرق فيها أبو ذؤيب الهللي إلى وصف ابنة السهمي ، وشبهها بأنها
 دُرَّةٌ عثر عليها غواصٌ بعد أن اجتاز إليها لُجَّةً بعد لُجَّةً ، وبعد أن أصابه التعب والإعياء . =

وليس ذلك بخطأ على ما ذكرنا من تأويل هذه الفرقة .

و [أَفْلُكُ] في هذا الموضع جمع بدليل صفته بجمع .

و [مَوَاحِرُ] جمع مَاحِرَةٍ ، وهي التي تمخر الماء ، أي تَشُقُّه ، وقيل :

المَاحِرَةُ : التي تشق الرياح ، وحينئذ يحدث الصوت ، والمَخرُ :

الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالرياح ، وعبر المفسرون عن

هذه عبارات لا تختص باللفظة ، فقال بعضهم : المَواخر هي التي

تجيء وتذهب بريح واحدة ، وقال مجاهد : الريح تمخر السفن ،

ولا تمخر الريح من السفن إلا الفلك العظام ، هكذا وقع لفظه في البخاري ،

والصواب أن تكون الفُلك هي المَاحِرَةُ لا المَخورَةُ .

وقوله تعالى : [لَتَبْتَغُوا] يريد بالتجارة والحج والغزو وكل سفر

له وجه شرعي .

= فالضمير في (بها) يعود على الدُّرَّة . ورواية البيت في الديوان : (تدوم البحار فوقها وتموج) .

وقال شارحه : ويروى : (يدوم الفرات) ، يقول : إن هذه الدُّرَّة قد جاء بها التاجر في

اللِّطَائِمِ ، واللِّطِيمَةِ : غير تحمل التجارة والعطر . فإن لم يكن فيها عطر فليست بلطيمة .

ومعنى (تدوم البحار) : تَسْكُنُ فوقها ، وتموج : تتحرك . أي : تذهب وتجيء . قال الأصمعي :

«الفرات : العذب ، ولا يجيء منه الدرُّ ، إلا أنه غاط ، وظن أن الدُّرَّة إذا كانت في الماء

العذب فليس لها شبيهة» . ولم يعلم أنها لا تكون في العذب . وابن عطية هنا يدفع ما قيل من

خطئه على التأويل الذي ذكره .

قوله عز وجل :

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَتَلَوَّ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۗ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

[يُولِجُ] معناه : يُدْخِلُ ، وهذه عبارة عن أن ما نقص من الليل زاد في النهار ، فكأنه دخل فيه ، وكذلك ما نقص من النهار يدخل في الليل . والألف واللام في (الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) هي للعهد ، وقيل : هي زائدة لا معنى لها ولا تعريف (١) . وهذا هو الصواب . و «الأجل» المُسَمًّى هو قيام الساعة ، وقيل : آماذ الليل وآماذ النهار ، ف «أَجَلٌ» - على هذا - اسم جنس . وقرأ جمهور القراء : [تَدْعُونَ] بالتاء ، وقرأ يعقوب والحسن بالياء . و «الْقِطْمِيرُ» : القشرة الرفيعة التي على

(١) أعاد الضمير على «الألف واللام» مفرداً باعتبارهما بعد التركيب حرفاً واحداً

هو «أل» .

نوى التمرة ، هذا قول الناس الحجة ، وقال جُوَيْبِرُ (١) عن رجاله :
الْقَطْمِيرُ : القمع الذي في رأس التمرة ، وقال الضحاك : والأول
أشهر وأصوب .

ثم بين تعالى أمر الأصنام بثلاثة أشياء ، كلها تعطي بطلانها :
أولها أنها لا تسمع إن دُعيت ، والثاني أنها لا تُجيب إن لو سمعت ،
وإنما جاء بهذا لأن لقائل متعسف أن يقول : عساها تسمع ، والثالث
أنها تنبراً يوم القيامة من الكفار .

و ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي : بأن جعلوهم شركاء لله ، فأضاف
الشُّرك إليهم من حيث هم قرروه ، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ،
وقوله : [يَكْفُرُونَ] يحتمل أن يكون بكلام وعبرة يقدر الله الأصنام
عليها ، ويخلق لها إدراكاً يقتضيها ، ويحتمل أن يكون بما يظهر
هنالك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق ، ومدافعة كل محتج ،
فيجيء هذا على طريق التجوز ، كقول ذي الرمة :

(١) تصغير جابر ، يقال : اسمه جابر ، وجُوَيْبِرُ لقبه ، ابن سعيد الأزدي ، أبو القاسم
البلخي ، نزيل الكوفة ، راوي التفسير ، قال عنه في «تقريب التهذيب» : ضعيف جداً ، من
الخامسة ، مات سنة الأربعين . وهناك جابر أو جُوَيْبِرُ العبدي ، قال عنه في «التقريب» .
مقبول من الثالثة ، ولا نعرف من المقصود منهما هنا .

وَقَفْتُ عَلَى رُبْعٍ لِمِيَّةٍ نَاطِقٍ تُخَاطِبُنِي آثَارُهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبْثُثُهُ تَكَلَّمَنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَأَعِبُهُ (١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ، قال المفسرون - قتادة وغيره - : الْخَبِيرُ : أراد به تعالى نفسه ، فهو الخبير الصادق الخبر ، نبأً بهذا فلا شك في وقوعه . ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ من تمام ذكر الأصنام ، كأنه قال : ولا يُخْبِرُكَ مِثْلُ مَنْ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ ، وهي قد أخبرت عن أنفسها بالكفر بهؤلاء .
قوله عز وجل :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١٥)

إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٨﴾
إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(١) الرُّبْعُ : الموضع يُسْتَزَلُّ فِيهِ زَمَنُ الرَّبِيعِ ، أَوِ الدَّارُ وَمَا حَوْلَهَا ، أَوِ الْحَيُّ ، وَآثَارُهُ : بقاياها وما ترك فيه السكان بعد الرحيل ، أَبْثُثُ فُلَانًا : أَطْلَعُهُ عَلَى سِرِّي وَأَسْجَانِي . يقول : أوقفْت نَاقِي على منزل مِيَّةٍ ، وإنه لمنزل ناطق ، حادثته وشكوت إليه أخباري وأسراري ، وكادت أحجاره وآثاره تجاوبني وتناجيني ، فقد أنطق ذو الرمة آثار الديار ، وجعلها تتكلم على طريق التجوز ، وهذا هو الشاهد هنا .

هذه آية موعظة وتذكير ، والإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلالها ، لا يستغني عنه طرفة عين ، وهو مُسْتَغْنٍ عن كل أحد ، والله تعالى غني عن الناس ، وعن كل شيءٍ من مخلوقاته ، غني على الإطلاق ، و [أَلْحَمِيدُ] : المحمود بالإطلاق . وقوله : [بِعَزِيْزٍ] أي : بممتنع .

و [تَزْرُ] معناه : تحمل الوزر الثقيل ، وهذه الآية في الذنوب والآثام والجرائم ، قاله قتادة ، وابن عباس ، ومجاهد ، وسببها أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد وعليٍّ وزرُكم ، فحكّم الله بأنّها لا يحملها أحد عن أحد ، ومن تطرّق من الحكام إلى أخذ قريب بقريب في جريمة - كفعل زياد ونجود - فإن ذلك لأنّ المأخوذ ربّما أعان المجرم بمؤازرة ومواصلة ، أو اطلاع على حالةٍ وتقرير لها ، فهو قد أخذ من الجرم بنصيب^(١) ، وهذا هو المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾^(٢) ؛ لأنهم أغوؤهم ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئَةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده ، ومن سنَّ سُنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر من

(١) قال أبو حيّان تعقيماً على كلام ابن عطية هذا : « وكان ابن عطية تأوّل أفعال زياد وما فعل في الإسلام ، وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجاج » .
(٢) من الآية (١٣) من سورة (العنكبوت) .

عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ (١) ، وَأَنْثَتْ [وَأَزْرَةَ] لِأَنَّهُ ذَهَبَ بِهَا مَذْهَبَ النَّفْسِ ، وَعَلَى ذَلِكَ أُجْرِيَتْ [مُثْقَلَةٌ] . وَالْحِمْلُ : مَا كَانَ عَلَى الظَّهْرِ فِي الْأَجْرَامِ ، وَيُسْتَعَارُ لِلْمَعَانِي كَالذُّنُوبِ وَنَحْوِهَا ، فَيَجْعَلُ كُلَّ مَحْمُولٍ مُتَّصِلًا بِالظَّهْرِ ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ اِكْتِسَابٍ مَنْسُوبًا إِلَى الْيَدِ (٢) . وَاسْمُ [كَانَ] مَضْمَرٌ ، تَقْدِيرُهُ : وَلَوْ كَانَ الدَّاعِي .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْذِرُ أَهْلَ الْخَشْيَةِ ، وَهُمْ الَّذِينَ يُمْنَحُونَ الْعِلْمَ ، أَيُّ : إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْإِنْذَارِ هُمْ ، وَإِلَّا فَلْيَنْذِرُوا جَمِيعَ الْعَالَمِ بَعَثَهُ .

وَقَوْلُهُ : [بِالْغَيْبِ] أَيُّ : وَهُوَ بِحَالِ غَيْبَةِ عَنْهُمْ ، إِنَّمَا هِيَ رِسَالَةٌ ، ثُمَّ خَصَّصَ مِنَ الْأَعْمَالِ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ تَنْبِيهًا عَلَيْهَا وَتَشْرِيفًا لَهَا .

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْعِلْمِ ، وَفِي الزَّكَاةِ ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الزَّكَاةِ ، وَأَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ (٤-٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١) ، وَلَفْظُهُ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَيْهِمُ الصُّوفُ ، فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ ، فَقَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُؤِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرَقٍ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرَ ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السَّرُورُ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مِنْ سَنِّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةٌ حَسَنَةٌ فَعُمِّلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أُجْرٍ مِنْ عَمَلِ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمِنْ سَنِّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةٌ سَيِّئَةٌ فَعُمِّلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مِنْ عَمَلِ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُوزَارِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) .

(٢) فَيُقَالُ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ وَلَوْ بِغَيْرِ يَدِهِ : « كَسَبَتْ يَدَاهُ كَذَا وَكَذَا » ، أَوْ يُقَالُ عَلَى مَا فَعَلَ إِنْ كَانَ سَيِّئًا فَيُقَالُ لَهُ : « هَذَا نَتِيجَةُ مَا كَسَبَتْ يَدَاكَ » .

ثم حُضَّ سبحانه وتعالى على التَّزَكِّي؛ بَأَنَّ رَجِيَّ عَلَيْهِ غَايَةَ التَّرْجِيَةِ ،
 وَقَرَأَ طَلْحَةَ : « وَمَنْ أَرْزَقِي فَإِنَّمَا يَزْكِي لِنَفْسِهِ » . ثم تَوَعَّدَ تَعَالَى بَعْدَ
 ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
 وكل عبارة مُقَصِّرَةٌ عن تَبْيِينِ فَصَاحَةِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَكَذَلِكَ كِتَابُ
 اللَّهِ كُلُّهُ ، وَلَكِنْ يَظْهَرُ الْأَمْرُ لَنَا نَحْنُ فِي مَوَاضِعَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي مَوَاضِعَ
 بِحَسَبِ تَقْصِيرِنَا .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ
 وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ
 يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا
 أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ
 فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ
 الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

مضمون هذه الآية طعن على الكفرة ، وتمثيل لهم بالعمي والظلمات ،
 وتمثيل المؤمنين - بإزائهم - بالبصراء والأنوار ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا

«النُّور» ودخول [لَا] فيها وفيما بعدها إنما هو على نية التكرار ،
 كآثمه . قال : «ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات» ، فاستغنى
 بذكر الأوائل عن الثواني ، ودلّ مذكور الكلام على متروكه (١) .
 و [الْحُرُورُ] شدة حرّ الشمس ، قال روبة بن العجاج : الْحُرُورُ
 بالليل والسَّمُومُ بالنهار ، وليس كما قال ، وإنما الأمر كما حكى الفراء
 وغيره : إن السَّمُومُ تختص بالنهار ، والحرور يقال في حرّ الليل وفي
 حرّ النهار (٢) ، وتأول قوم الظلّ في هذه الآية : الجنة ، والحرور : جهنم .
 وشبهه المؤمنین بالأحياء ، والكفرة بالأموات ، من حيث لا يفهمون
 الذكر ولا يُقبلون عليه ، ثم ردّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى بقوله :

(١) عقّب أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقاه
 بقوله : «وما ذكر غير محتاج إلى تقديره ؛ لأنه إذا نفى استواء الظلمات والنور فأبى فائدة في
 تقدير نفي استوائهما ثانياً وادعاء محذوفين ؟ وأنت تقول : ما قام زيد ولا عمرو ، فتؤكد به (لا)
 معنى النفي فكذلك هنا» . وكان هذا الاعتراض منصب على التقدير ، لأن أبا حيان عاد بعد قليل
 فقال : «وكرر (لا) لتأكيد المنافاة ، فالظلمات تنافي النور وتضاده ، والظل والحرور كذلك .
 والأعمى والبصير ليسا كذلك ؛ لأن الشخص الواحد قد يكون بصيراً ثم يعرض له العمى ،
 فلا منافاة إلا من حيث الوصف ، والمنافاة بين الظل والحرور دائمة ، ولهذا أكدها بالتكرار .
 وكذلك المنافاة بين الأحياء والأموات أتمّ ، من حيث أن الجسم الواحد يكون محلاً للحياة
 ثم يصير محلاً للموت ، أما الأعمى والبصير فقد يشتركان في إدراك شيء ما ، ومعنى هذا أن
 أبا حيان يعلل تكرار (لا) بتأكيد المنافاة .

(٢) يرى أبو حيان أن هذا الاعتراض على كلام روبة مرفوض ، قال : «لأنه تؤخذ منه
 اللغّة ، فأخبر عن لغة قومه» .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ . وهذا تمثيل بما يحسه البشر ويشاهدونه ، فهم يرون أن الميت الذي في القبر لا يسمع ، وأما الأرواح فلا تردُّ ؛ إذ تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين في شجر عند العرش في قناديل وغير ذلك (١) ، وأن أرواح الكفرة في سجين ونحوه ، وفي بعض الأخبار أن الأرواح عند القبور ، فرما سمعت ، وكذلك أهل قليب بدر إنما سمعت أرواحهم ، وكذلك سماع الميت خفق النعال ، إنما هو بردُّ روحه عليه عند لقاء الملكين (٢) ؛

(١) من هذه الأحاديث ما رواه الدارمي في سننه ، عن مسروق قال : سألتنا عبد الله عن أرواح الشهداء - ولولا عبد الله لم يحدثنا أحد - قال : أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح في أي الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيشرف عليهم ربهم فيقول : ألكم حاجة ؟ تريدون شيئاً ؟ فيقولون : لا ، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى .

(٢) حديث أن الميت يسمع خفق النعال أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، عن أنس رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (العبد إذا وضع في قبره ، وتولَّى وذهب أصحابه ، حتى ليسمعه قرع نعالهم ، أتاه ما كان فأقعدها ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعاً ، وأما الكافر والمنافق فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تلتيت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصبح صيحة يسمعا من يليه - إلا الثقلين) .

فهذه الآية لا تعارض حديث القلب ؛ لأن الله تبارك وتعالى ردَّ على أولئك أرواحهم في القلب ليؤبِّخهم ، وهذا على قول عُمَرُ وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما - وهو الصحيح - : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما أنتم بأسمع منهم) ، وأما عائشة رضي الله عنها فمذهبها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُسمعهم ، وإنما قصد توبيخ الأحياء من الكفرة ، وجعلت هذه الآية أصلاً ، واحتجت بها ، فمثل الله تعالى في هذه الآية الكفرة بالأشخاص التي في القبور (١) - وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿ بِمُسْمِعٍ مَنْ ﴾ على الإضافة .

ثم سألني نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ ، أي : ليس عليك غير ذلك ، والهداية والإضلال إلى الله تعالى .

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٦-٢٧٦) ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل أن يطرحوا في القلب ، فطرحوا فيه . إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتنخ في درعه فملأها ، فذهبوا يحركوه فيتزابل فأقروه ، وألقوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة ، فلما ألقاهم في القلب وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا أهل القلب ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً) ، قال : فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتكلم قوماً موتى ؟ قال : فقال لهم : (لقد علموا أن ما وعدهم حق) . قالت عائشة : والناس يقولون : لقد سمعوا ما قلت لهم ، وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد علموا) . وهذه الرواية عن عائشة نلتقي مع هذه الآية كما ذكر ابن عطية .

و [بشيراً] معناه : بالنعيم الدائم لمن آمن ، [ونذيراً] معناه : من العذاب الأليم لمن كفر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ معناه : إن دعوة الله قد عمّت جميع المخلّقة ، وإن كان فيهم من لم تباشره النذارة فهو ممن بلغته ؛ لأن آدم عليه السلام بُعث إلى بنيهِ ، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد صلى الله عليه وسلم ، والآيات التي تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذيرٌ معناه (١) : نذيرٌ مباشر ، وما ذكره المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم فإنما ذلك بالفرض لا أنه يوجد أمة لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله تعالى .

ثم سأل نبيّه صلى الله عليه وسلم بما سلف من الأمم لأنبيائهم ، و [الْبَيِّنَات] و [الزُّبُر] و [الْكِتَابَ الْمُنِير] شيء واحد ، لكنه أكد أوصافه بعضها ببعض ، وذكره بجهاته (٢) . و «الزُّبُر» من : زيرتُ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبْتَهُ . ثم توعّد قريشاً بذكره أخذ الأمم الكافرة .

(١) يريد : معنى ما ورد من الآيات ، أو معنى ما تضمنته الآيات .

(٢) وقيل : (البَيِّنَات) : الآيات والعلامات . وأما (الزُّبُر) و (الْكِتَابَ الْمُنِير)

فهما بمعنى واحد .

قوله عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا
وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۗ وَمِنَ
النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا يَحْشَى اللَّهُ مِنَ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٧٨﴾ ۞

الرؤية في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ رؤية القلب ، وكل توقيف في القرآن على رؤية فهي رؤية القلب ؛ لأن الحجة بها تقوم ، ولكن رؤية القلب لا تتركب البتة إلا على حاسة ، فأحياناً تكون بحاسة البصر ، وقد تكون عبرة ، وهذا يعرف بحسب الشيء المتكلم فيه . و [أَنَّ] سادة مسد المفعولين اللذين للرؤية ، هذا مذهب سيبويه ؛ لأن [أَنَّ] مع ما دخلت عليه جملة ، ولا يلزم ذلك في قولك : رأيت أو ظننت ذلك ؛ لأن قولك ذلك ليس بجملة كما هي [أَنَّ] ، ومذهب الزجاج أن المفعول الثاني محذوف ، تقديره : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً حقاً ؟ ورجع من خطاب بذكر الغائب إلى المتكلم بنون العظمة لأنه أهيب في العبارة .

قوله تعالى : [أَلْوَانُهَا] يحتمل أن يريد الصفرة والحُمْرة والبياض والسواد وغير ذلك ، ويؤيد هذا اطّراد ذكر هذه الألوان فيما بعد ، ويحتمل أن يريد الأنواع ، والمعتبر فيه - على هذا التأويل - أكثر عدداً .

و [جُدْدٌ] جمع جُدَّة ، وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طويلاً ، ومنه قول امرئ القيس :

كَأَنَّ سَرَاتَهُ وَجُدَّةَ ظَهْرِهِ كَنَائِنُ يَجْرِي بَيْنَهُنَّ دَلِيصٌ (١)

وحكى أبو عبيدة في بعض كتبه أنه يقال : « جُدْدٌ » في معنى « جديد » ، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية ، وقرأ الزهري : [جُدْدٌ] بفتح الجيم .

(١) هذا البيت من قصيدة رواها أبو عَمر الشيباني ، وفيها أبيات يصف فيها جمَلَه ، ويشبهه بحمار الوحش الذي يطارد أتنأ - جمع أتان وهي الحمارة - حَمَلَنَ فَرَبَّتْ من حملهن البطون . وهذا الحمار ضامر البطن ، كأن سَرَاتَهُ ... الخ البيت . وسَرَاتُهُ : ظَهْرُهُ ، وَجُدَّةُ ظَهْرِهِ هي الخطة في ظهر الحمار تخالف لونه ، والكناين : جمع كنانة . وهي جعبة السهام تصنع من الجلد أو الخشب . والدليص : ماء الذهب ، يشبه ظهر الحمار وما فيه من خُطَّة تختلف في اللون عن بقية لونه كله بجعاب السهام التي وشيت بالذهب . والشاهد هنا هو كلمة جُدَّة وما تحمل من المعنى . وقد ورد أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رضي الله عنهما : أخبرني عن قوله تعالى : (جُدْدٌ) ، فقال : طرائق ، طريقة بيضاء وطريقة خضراء . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

قد غَادَرَ السَّيْعُ فِي صَفْحَاتِهَا جُدَادًا كَأَنَّهَا طَرُقٌ لَاحَتْ عَلَيَّ أُكُومُ

وقوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ لَفُظَانٍ لِمَعْنَى وَاحِدٍ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الْغَرِيبَ) (١) ، أَي الَّذِي يَخْضِبُ بِالسُّوَادِ ، وَقَدْ مِ الوَصْفِ الْأَبْلَغُ وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَتَأَخَّرَ ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الْمَعْنَى ، لَكِنْ كَلَامُ الْعَرَبِ الْفَصِيحِ يَأْتِي كَثِيرًا عَلَى هَذَا النَّحْوِ .

وقوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ قَبْلَهُ مَحذُوفٌ إِلَيْهِ يَعُودُ الضَّمِيرُ ، تَقْدِيرُهُ : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَ مُخْتَلِفٍ أَلْوَانُهُ » ، وَالذُّوَابُ نَعَمَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ ذُكِرَ تَنْبِيهًا مِنْهُمَا . وَقَوْلُهُ : [كَذَلِكَ] يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ فَيَجِيءُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ حَسَنًا ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَلَامِ الثَّانِي ، يَخْرُجُ مَخْرَجَ السَّبَبِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : كَمَا جَاءَتْ الْقُدْرَةُ فِي هَذَا كَلِمَةً إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، أَيِ الْمُحْصِلُونَ لِهَذِهِ الْعِبَرِ ، النَّاضِرُونَ فِيهَا . وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ : الْخَشْيَةُ رَأْسُ الْعِلْمِ ، وَهَذِهِ عِبَارَةٌ وَعِظِيَّةٌ لَا تَثْبُتُ عِنْدَ النَّقْدِ ، بَلِ الصَّحِيحُ الْمَطْرُودُ أَنْ يَقَالَ : الْعِلْمُ رَأْسُ الْخَشْيَةِ وَسَبَبُهَا ، وَالَّذِي وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (خَشْيَةُ اللَّهِ رَأْسُ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِي فِي الْكَامِلِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَرَمَزَ لَهُ الْإِمَامُ السِّيُوطِيُّ فِي (الْجَامِعِ الصَّغِيرِ) بِأَنَّهُ ضَعِيفٌ .

كلُّ حكمة (١) ، وقال : (رأسُ الحكمة مخافة الله) (٢) ، فهذا هو الكلام المنير ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « كفى بالزهد علماً » ، وقال مسروق : « كفى بالمرءِ علماً أن يخشى الله » ، وقال تعالى : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ (٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَشَدَّكُمْ لَهُ خَشِيَةً) (٤) ، وقال الربيع بن أنس : « من لم يخش الله فليس بعالم » ، ويقال : إن فاتحة الزبور : رأس الحكمة خشية الله ، وقال ابن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار به جهلاً » ، وقال مجاهد والشعبي : « إنما العالم من يخشى الله » ، و [إِنَّمَا] في هذه الآية لتخصيص العلماء لا للحضر ، وهي لفظة تصلح للحضر ، وتأتي أيضاً دونه ، وإنما يُعلم ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه ، فإذا قلتَ : إِنَّمَا الشُّجَاعُ

(١) أخرجه القضاعي عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه كما جاء في (الجامع الصغير) : (خشية الله رأس كل حكمة ، والورع سيد العمل) .

(٢) أخرجه الحكيم ، وابن لال ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح .

(٣) الآية (١٠) من سورة (الأعلى) . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وقال عز من قائل : ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ . وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْا اللَّهَ ﴾ .

(٤) أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن صالح أبي الخليل رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال : (أعلمهم بالله أشدهم له خشية) ، هكذا ذكره في (الدر المنثور) .

عنتره ، وقلت : إنما الله إلهٌ واحدٌ ، بان لك الفرقُ بينهما فتأمله .
وهذه الآية بجملتها دليل على الوحدانية والقدرة ، والقصد بها
إقامة الحججة على كفار قريش .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن
فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ
الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

قال مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير : « هذه آية القراء » ، وهذا
على أن [يَتْلُونَ] بمعنى : يقرءون ، وإن جعلناها بمعنى : يتبعون : صحَّ
معني الآية (١) . وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف
الآية ، و « كِتَابُ اللَّهِ » هو القرآن ، و « إِقَامَةُ الصَّلَاةِ » إقامتها بجميع
شروطها ، و « النَّفَقَةُ » هي الصدقات ووجوه البرِّ ، فالسرُّ من ذلك
هو التطوع ، والعلانية هو المفروض ، و [يَرْجُونَ] جملة في موضع

(١) في بعض النسخ : « صحَّ معنى القراءة » .

رفع خبر [إِنَّ] ، و [تَبُور] معناها : تكسد ويتعدَّر رِبْحُهَا ، ويقال : «نعوذ بالله من بوار الأيِّم» (١) .

واللام في [لِيُؤَفِّيَهُمْ] متعلِّقة بفعل مضمَر يقتضيه لفظ الآية ، تقديره : وعدهم بالألَّا تبور إن فعلوا ذلك كلَّه وأطاعوه ، ونحو هذا من التقدير . وقوله : [وَيَزِيدَهُمْ] قالت فرقة : هو تضعيف الحسنات من العشر إلى السبعمئة ، وتوفية الأُجور - على هذا - هي المجازاة مقابلة . وقالت فرقة : إن التضعيف داخل في توفية الأُجور ، وأما الزيادة من فضله فهي : إما النَّظْرُ إلى وجهه الكريم وإمَّا الشفاعة في غيرهم ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٢) ، و [عَفُورٌ] معناه : متجاوز عن الذنوب ساتر لها ، و [شَكُورٌ] معناه : مُجَازٍ على اليسير من الطاعة ، مُقَرَّبٌ لعبده به .

(١) الأيِّم : المرأة التي لا زوج لها وهي مع ذلك لا يرغب فيها أحد ، وببوارها : كسادها . بمعنى أن تبقى في بيتها لا يخطبها خاطب ، من قولهم : بارت السُّوق إذا كسدت . والبُور : الأرض التي لم تزرع والمعامي المجهولة والأغفال ونحوها ، وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لأُكَيْدِرٍ دومة : (ولكنم البُور والمعامي وأغفال الأرض) . وهو بالفتح مصدر وُصف به . ويروى بالضم وهو البوار : أي الأرض الخراب .

(٢) من الآية (٢٦) من سورة (يونس) .

ثم ثبت تعالى أمر نبيه بقوله : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية ،
و [مُصَدِّقًا] حال مؤكدة ، والذي بين يدي القرآن هو التوراة والإنجيل ،
وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ وعيد .

قوله عز وجل :

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ
مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾
جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ
﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

[أَوْرَثْنَا] معناه : أعطيناه فرقة بعد موت فرقة ، والميراث -
حقيقةً ومجازاً - إنما يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر ، والمراد
بالكتاب هنا معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده ، فكأن الله
تعالى لما أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن - وهو قد تضمن
معاني الكتب المنزلة قبله - فكأنه ورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم
الكتاب الذي كان في الأمم قبلهم .

و ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ يريد بهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام ،
قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وكان اللفظ يحتمل أن يريد

جميع المؤمنين من كل أمة إِلَّا أَنْ عِبَارَةَ تَوْرِيثِ الْكِتَابِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْأَوَّلُ لَمْ يُورَثُوهُ . وَ [أَصْطَفَيْنَا] : اخْتَرْنَا وَفَضَلْنَا ، وَ «الْعِبَادُ» عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ . وَ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : [فَمِنْهُمْ] - فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا مُقْتَضَاهُ أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى [الَّذِينَ] ، وَالْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ هِيَ كُلُّهَا فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، «فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ» : الْعَاصِي الْمُسْرِفُ . وَ «الْمُقْتَصِدُ» : الْمُتَّقِي الْكِبَائِرِ ، وَهُوَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْأُمَّةِ ، وَ «السَّابِقُ» : الْمُتَّقِي عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَقَالَتْ هَذِهِ الْفِرْقَةُ : الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ فِي الْجَنَّةِ ، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَالضَّمِيرُ فِي [يَدْخُلُونَهَا] عَائِدٌ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا : دَخَلُوا الْجَنَّةَ كُلَّهُمْ ، وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ : اسْتَوَتْ مَسَاكِنُهُمْ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ وَتَفَاضَلُوا بِأَعْمَالِهِمْ ، وَفِي رِوَايَةٍ : تَحَاكَّتْ مَنَاكِبُهُمْ ، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبْعِيِّ (١) : أَمَا الَّذِي سَمِعْتِ مِنْذُ سِتِّينَ سَنَةً ، فَكُلُّهُمْ نَاجٍ .

(١) هُوَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . مِنْ بَنِي ذِي يَمْدَانَ بْنِ السَّبْعِيِّ الْهَمْدَانِيِّ الْكُوفِيِّ ، أَبُو إِسْحَاقَ . مِنْ أَعْلَامِ التَّابِعِينَ ، كَانَ شَيْخَ الْكُوفَةِ فِي عَصْرِهِ ، أَدْرَكَ الْإِمَامَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَرَأَاهُ يَخْطُبُ . قَالَ : رَأَيْتُهُ أَبْيَضَ الرَّأْسَ وَاللَّحْيَةَ ، قِيلَ : سَمِعَ مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَثَلَاثِينَ صَحَابِيًّا ، وَكَانَ مِنَ الْغَزَاةِ الْمَشَارِكِينَ فِي الْفَتْوحِ ، وَغَزَا الرُّومَ فِي زَمَنِ زِيَادِ سِتِّ غَزَوَاتٍ . وَعَمِيَ فِي كِبَرِهِ . (تَارِيخُ التَّهْذِيبِ ، تَارِيخُ الْإِسْلَامِ الذَّهَبِيِّ ، الْأَعْلَامُ) .

وقال ابن مسعود : هذه الأُمة يوم القيامة أثلث : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يجيئون بذنوب عظام ، فيقول الله : من هؤلاء ؟ - وهو أعلم بهم - فتقول الملائكة : هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا ، فيقول عز وجل : أدخلوهم في سعة رحمتي ، وقالت عائشة رضي الله عنها في كتاب الثعلبي : السابق من أسلم قبل الهجرة ، والمقتصد من أسلم بعدها ، والظالم نحن . وقال الحسن : السابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت بسيئاته ، والظالم من خفت موازينه ، وقال سهل بن عبد الله (١) : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل . وقال ذو النون (٢) : الظالم الذَّاكِرُ اللهُ بلسانه فقط ، والمقتصد الذَّاكِرُ بقلبه ، والسابق الذي لا ينساه . وقال الأنطاكي : الظالم صاحبُ

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري ، أبو محمد ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم ، له كتاب مختصر في تفسير القرآن (طبقات الصوفية) .

(٢) هو ذو النون المصري ، ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري ، أبو الفياض ، أحد الزهاد العبَّاد المشهورين ، من أهل مصر ، نوبى الأصل ، كانت له فصاحة وحكمة ، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، توفي بالجزيرة . (الأعلام) . وقد حدَّد القرطبي أنه ذو النون المصري هذا ، وإلا فهناك آخرون يحملون نفس اللقب ولكنهم غير مقصودين .

الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال ،
وروى أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ
هذه الآية وقال : (كلُّهم في الجنة) (١) ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله
عنه هذه الآية ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سابقنا
سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفورٌ له) (٢) ، وقال عليه الصلاة
والسلام : (أنا سابق العرب ، وسلمان سابق الفرس ، وصُهيب سابق
الروم ، وبلال سابق الحبشة) (٣) ، أراد عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء
رؤوس السابقين ، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « سابقنا أهل

(١) أخرجه الطبراني ، والبيهقي في البعث ، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ، وأخرج
مثلَه الطيالسي ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ،
وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفي لفظه
زيادة ، حيث قال : (كلُّهم بمنزلة واحدة ، وكلُّهم في الجنة) . (الدر المنثور) . وقال ابن
كثير عن حديث أبي سعيد الخدري : « هذا حديث غريب ، وفي إسناده من لم يُسمَّ » ،
ثم قال : « ومعنى قوله : (بمنزلة واحدة) أي : في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة
وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة » .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث ، عن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه ، عن أنس رضي الله عنه ، قال ذلك الإمام السيوطي
في « الجامع الصغير » ، ورمز بأنه حديث حسن .

جهاد ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وظالمنا أهل بدونا ، لا يشهدون جماعة ولا جمعة» (١) .

وقال عكرمة ، وقتادة ، والحسن ما مقتضاه أن الضمير في [منهم] عائد على «العباد» ، والظالم لنفسه : الكافر والمنافق ، والمقتصد : المؤمن الغاصي ، والسابق : التقي على الإطلاق ، قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ (٢) ، والضمير في قوله تعالى : [يَدْخُلُونَهَا] - على هذا القول - خاص على الفرقتين : المقتصد والسابق ، والفرقة الظالمة في النار ، قالوا : وبعيد أن يكون ممن اضطفي ظالمٌ كما يقتضي التأويل الأول ، ورُوي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال بعض العلماء : قُدِّمَ الظَّالِمُ لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، والمقتصد هو المعتدل في أموره ، لا يُسْرِفُ فِي جِهَةِ مِنَ الْجِهَاتِ ، بل

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه . ذكر ذلك في (الدر المنثور) الإمام السيوطي .
(٢) الآية (٧) من سورة (الواقعة) ، قال مجاهد موضحاً أن آية فاطر نظير آية الواقعة : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أصحاب المشأمة ، ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ أصحاب الميمنة ، ﴿ وَهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ السابقون من الناس كلهم .

يلزم الوسط . وقال عليه الصلاة والسلام : (خير الأُمور أوسطها) (١) .
وقالت فرقة - لا معنى لقولها - : إن قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا﴾
هم الأنبياء ، والظالم لنفسه منهم من وقع في صغيرة ، وهذا قول
مردود من غير ما وجه .

وقرأ الجمهور : ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ، وقرأ أبو عمران الجوني :
«سَبَاقٌ» .

وقوله تعالى : ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه : بأمره ومشئته فيمن أحب
من عباده ، وقوله : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى الاصطفاء
وما يكون من الرحمة .

وقال الطبري : السُّبُوقُ بالخيرات هو الفضل الكبير ، قال في
كتاب الثعلبي : جمعهم في دخول الجنة لأنه ميراثٌ ، والبَّارُ والعاقُ

(١) وقيل : إن التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً ، وهو كقوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي
أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ، وقوله : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ
لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ، وقيل : قدّم الظالم لتأكيد الرجاء في حقّه ، إذ ليس له شيء
يتكل عليه إلا رحمة ربه ، واتكل المقتصد على حسن ظنه ، والسابق على طاعته ، وقيل : قدم
الظالم ليخبر أنه لا يَتَّقَرَّبُ إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية
إذا كانت ثمَّ عناية ، ثم نسي بالمقتصد لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لئلا
يأمن أحد مكر الله ، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

سواء في الميراث مع صحة النسب ، فكذلك هؤلاء مع صحة الإيمان .
 وقرأ الجمهور : [جَنَاتُ] بالرفع على البدل من [أَلْفَضْلُ] ،
 وقرأ الجحدري : [جَنَاتِ] بالنصب بفعل مضمر يُفَسِّرُهُ [يَدْخُلُونَهَا] ،
 وقرأ زرُّ بن حُبَيْش : ﴿جَنَّةٌ عَدْنٍ﴾ على الأفراد ، وقرأ أبو عمرو :
 [يَدْخُلُونَهَا] على بناء الفعل للمجهول ، ورويت عن ابن كثير ، وقرأ
 الباقون بفتح الياء وضم الخاء .

و «الأساورُ» جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، بضم السين
 وكسرها ، وفي حرف أبي «أساوير» ، وهو جمع أسوار ، وقد يقال
 ذلك في الحلبي ، ومشهور أسوار أنه الجيد الرمي من جند الفرس ،
 و[يُحَلُّونَ] معناه : نساءً ورجالاً . وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر (١) - :
 [وَلَوْلُؤُأُ] بالنصب عطفاً على موضع [أساور] ، وكان عاصم - في
 رواية أبي بكر - يقرأ : [وَلَوْلُؤُأُ] بسكون الواو الأولى دون همزٍ
 ويهمز الثانية ، ورؤي عنه ضد هذا ، وقرأ الباقون : [وَلَوْلُؤُأُ] بالهمز
 والخفض عطفاً على [أساور] .

و [أَلْحَزَنُ] في هذه الآية عام في جميع الأحزان ، وخصص
 المفسرون ها هنا ، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : حزن أهوال يوم
 القيامة وما يُصيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن ، وقال

(١) وكذلك في قراءة حفص .

ابن عباس رضي الله عنهما : حزن جهنم ، وقال عطية : حزن الموت ، وقال قتادة : حزن الدنيا في الخوف ألا تُتقبل أعمالهم ، وقيل غير هذا مما هو جزء من الحزن ، ولا معنى لتخصيص شيء من هذه الأحران ؛ لأن الحزن أجمع قد ذهب عنهم ، وقولهم : ﴿لَغُفُورٌ شُكُورٌ﴾ وصفوه بأنه تبارك وتعالى يغفر الذنوب ، ويجازي على القليل من الأعمال الصالحة بالكثير من الثواب ، وهذا هو شكره لا رب سواه .

قوله عز وجل :

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٤٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيموتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٤٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أُولَٰئِكَ نَعْمَلُ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ۖ وَجَاءَ كُلُّ النَّاصِرِ ۖ فَذُوقُوا ۖ فَلِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٤٧﴾

[الْمُقَامَةُ] : الإقامة ، من : أقام ، والمُقَامَةُ - بفتح الميم - : القيام ، وهي من : قام ، و «دَارُ الْمُقَامَةِ» : الجنة . و «النُّصَبُ» : تعب البدن ، و «اللُّغُوبُ» : تعب النفس اللازم من تعب البدن ،

وقال قتادة : اللُّغُوبُ : الوجل ، وقراءة الجمهور [لُغُوبٌ] بضم اللّام ،
 وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والسُّلَمي : [لَعُوبٌ] بفتح
 اللام ، أي : شيءٌ يُعَيِّننا ، ويحتمل أن تكون مصدراً كالولُوغ
 والوضوء (١) .

ثم أخبر تعالى عن حال الذين كفروا معادلاً بذلك الإخبار قبلُ
 عن الذين اصطفى ، وهو يؤيد تأويل من قال : إن الثلاثة الأصناف
 هي كلّها في الجنة ؛ لأن ذكر الكافرين إنما جاء ها هنا . وقوله تعالى :
 ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ معناه : لا يُجْهَزُ ؛ لأنهم لو ماتوا لبطلت حواسهم
 فاستراحوا . وقرأ الحسن البصري ، والثقفى : «فَيَمُوتُونَ» ، ووجهها
 العطف على [يُقْضَى] ، وهي قراءة ضعيفة (٢) .

(١) الوضوء - بالفتح - الماء الذي يتوضأ به - كالقَطُورِ والسَّحُورِ لما يُفْطَرُ عليه وَيُتَسَحَّرُ
 به ، والوضوء - بالفتح أيضاً ، المصدر من توضأت للصلاة ، والوضوء - بالضم - المصدر .
 (جاء ذلك في اللسان - وصلاً) ، واللغويون مختلفون ، ولكن أكثرهم يرون أن صيغة الفتح
 تدل على الشيء الذي يتم به الفعل ، وصيغة الضم تدل على نفس الفعل . (راجع اللسان والتاج) .
 (٢) أما قراءة الجمهور (فَيَمُوتُونَ) فهي بحذف النون نصباً في جواب النفي في قوله
 سبحانه : ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ، وهو على أحد معنَيي النصب . فالمعنى : انتفى القضاء
 عليهم فانتفى المُسَبَّبُ عنه ، أي : لا يُقْضَى عليهم ولا يموتون ، كقولك : ما تأتينا فتحدّثنا ،
 أي : ما يكون حديث ، انتفى الإتيان فانتفى الحديث ، ولا يصح أن يكون النصب على المعنى
 الثاني للنصب ، أي : ما تأتينا مُحدّثاً ، إنما تأتي ولا تحدّث ، وكذلك في الآية ليس المعنى :
 لا يُقْضَى عليهم مَيِّتِينَ ، إنما يقضى عليهم ولا يموتون . (راجع البحر المحيط) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ لا يعارضه قوله :
﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (١) ؛ لأن المعنى : لا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ نَوْعُ
عَذَابِهِمْ ، والنوع في نفسه يدخله أن تخبو وأن تسعر ، ونحو ذلك .
وقرأ الجمهور : [نَجْرِي] بنون [كُلٌّ] بالنصب ، وقرأ أبو عمرو -
بخلاف - : [يُجْزِي] بياء مضمومة على الفعل المجهول [كُلٌّ] رفعاً .
و [يَصْطَرِخُونَ] يفتعلون ، من الصراخ ، أصله « يَصْتَرِخُونَ »
فأبدلت التاء طاءً لقرب مخرج الطاء من الصاد ، وفي الكلام محذوف
تقديره : فيقال لهم : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ ﴾ ؟ على جهة التوقيف والتوبيخ .
و [ما] في قوله سبحانه : ﴿ مَا يَتَذَكَّرُ ﴾ ظرفية ، واختلف الناس
في المدة التي هي للتذكير (٢) - فقال الحسن بن أبي الحسن : « البلوغ » ،
يريد أنه أول حال التذكير ، وقال قتادة : ثمان عشرة سنة ، وقالت
فرقة : عشرون سنة ، وحكى الزجاج سبع عشرة سنة ، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما : أربعون سنة ، وهذا قول حسن ورويت فيه آثارٌ ،
وروي أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه ،

(١) من الآية (٩٧) من سورة (الإسراء) .

(٢) في بعض النسخ : التي هي حدٌ للتذكير ، وهذا يتفق مع تعبير ابن عطية بعد ذلك

في نقله عن العلماء : « الحدُّ هو كذا » .

وقال : وجه لا يُفْلح ، وقال مسروق بن الأجدع : من بلغ أربعين سنة
فليأخذ حذره من الله ، ومنه قول القائل :

إِذَا الْمَرْءُ وَفَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءً وَلَا سِتْرُ
فَدَعُهُ وَلَا تَنْفَسَ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ (١)

وقال قومٌ : الحدُّ خمسون ، ومنه قول القائل :

أَخُو الْخَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أَشَدِّي وَنَجْدٌ فِي مُدَاوَرَةِ الشُّونِ (٢)

وقال آخر :

وَإِنْ أَمْرًا قَدْ عَاشَ خَمْسِينَ حِجَّةً إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبُ (٣)
وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : الحدُّ في ذلك ستون ، وهي

(١) وفى الأربعين : أكملها وأتممها . لا تنفس عليه : لا تحسده عليه ، وارتأى :

اعتقد في الأمر رأياً ، يقول : إذا بلغ الإنسان الأربعين ولم يخجل من الأعمال القبيحة التي يتركها فأتركه وشأنه ، ولا تحسده على ما يراه ويعتقده وإن مدَّ له الدهر في أسباب الغنى والجاه .

(٢) الأشدُّ : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة ، قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ .

قال أبو عبيدة : واحدها شدُّ في القياس ، وقال سيبويه : واحدها شِدَّةٌ كنعمةٍ وأنعم .
وقيل : هو جمع لا واحد له . والنجدُّ : الشجاع يعين المحتاج ويساعده . والمراد هنا أنه
إذا بلغ الخمسين فقد بلغ مبلغ المعرفة والحنكة ، ووصل إلى الخبرة التي تساعده على حسن التصرف
في مواجهة المشكلات .

(٣) الحِجَّةُ : السنَّةُ ، والمنهل في الأصل : المورِد ، أي : الموضع الذي فيه المشرب .

والمراد بالورد هنا نهاية الأجل . يقول : إذا عاش المرء خمسين سنة فقد صار قريباً من النهاية .
وسيشرب من كأسها سريعاً .

سُنُّ الإِعْدَارِ ، وَهَذَا أَيْضاً قَوْلُ حَسَنٍ مُتَّجِهٍ ، وَرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُودِي : أَيْنَ ابْنُ السِّتِّينِ ؟ وَهُوَ الْعَمْرُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ . (١) ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْدَرَ إِلَيْهِ فِي الْعَمْرِ) (٢) . وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : ﴿ مَا يَتَذَكَّرُ ﴾ ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : ﴿ مَا يَذَكَّرُ ﴾ ، (مِنْ أَدَّكَرَ) (٣) .

(١) أَخْرَجَهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي « نَوَادِرِ الْأُصُولِ » ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ الْمُنْدَرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ ، وَابْنُ بَيْهَقِيٍّ فِي شَعْبِ الْإِيمَانِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَلَفْظُهُ كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ السِّيُوطِيُّ فِي (الدَّرِّ الْمُنْثُورِ) : (قِيلَ : أَيْنَ أَبْنَاءُ السِّتِّينِ ؟) بِدَلَا مِنْ : (نُودِي : أَيْنَ ابْنُ السِّتِّينِ) .

هَذَا وَقَدْ اخْتَارَ الْقُرْطُبِيُّ الْقَوْلَ الَّذِي يُجْعَلُ الْأَرْبَعِينَ حَدِّ التَّذَكِيرِ ، قَالَ : « لِأَنَّ فِي الْأَرْبَعِينَ يَتَنَاهَى عَقْلَ الْإِنْسَانِ وَفَهْمَهُ ، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ وَمَا بَعْدَهُ مُنْتَقَصٌ عَنْ كَمَالِهِ فِي حَالِ الْأَرْبَعِينَ » . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : « وَلِهَذَا الْقَوْلُ وَجْهٌ » ، وَهُوَ صَحِيحٌ ؛ وَالْحُجَّةُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ، « وَقَالَ مَالِكٌ : « أَدْرَكَتْ أَهْلَ الْعِلْمِ بِلِدْنَانَا وَهُمْ يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا وَالْعِلْمَ وَيَخَالِطُونَ النَّاسَ ، حَتَّى يَأْتِي لِأَحَدِهِمْ أَرْبَعُونَ سَنَةً ، فَإِذَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ اعْتَرَلُوا النَّاسَ وَاشْتَغَلُوا بِالْقِيَامَةِ حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ » .

(٢) أَخْرَجَهُ الرَّامَهُرْمُزِيُّ فِي الْأَمْثَالِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَدْ ذَكَرَ السِّيُوطِيُّ فِي آخِرِهِ فِي الدَّرِّ الْمُنْثُورِ تَكْمِلَةً تَقُولُ : (يَرِيدُ ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾) ، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَى أَمْرِي أَخْرَجَ عَمْرَهُ حَتَّى بَلَغَ السِّتِّينَ) . ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الدَّرِّ الْمُنْثُورِ . قَالَ الْخَطَّابِيُّ : « أَعْدَرَ إِلَيْهِ » أَي بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْعَدْرِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مِنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ سِتِّينَ سَنَةً لَمْ يَبْقَ لَهُ عَدْرٌ ، لِأَنَّ السِّتِّينَ سَنَةٌ الْإِنَابَةُ وَالْحُشُوعُ . (٣) أَي : بِالْإِدْغَامِ وَاجْتِلَابِ هَمْزَةِ الْوَصْلِ مَلْفُوظًا بِهَا فِي الدَّرَجِ . قَالَهُ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ .

و [النذيرُ] في قول الجمهور : الأنبياء ، كل نبي نذير أمته
ومعاصريه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نذير العالم في غابر الزمن ،
قال الطبري : «وقيل : النذيرُ الشيبُ» ، وهو قول حسن إلا أن الحجة
إنما تقوم بالنذارة الشرعية ، وباقي الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾
هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا
خَسَارًا ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا
مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ
مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ
إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

هذا ابتداء تذكير بالله تعالى ، ودلائل على وحدانيته وصفاته
التي لا تبغى الألوهية إلا معها ، و «الغيبُ» ما غاب عن البشر ،

و «ذاتُ الصدور» ما فيها من المعتقدات والمعاني ، ومثله قول أبي بكر رضي الله عنه : «ذو بطن بنت خارجة» ، ومنه قول العرب : «الذئب مغبوط بذئ بطنه» (١) ، أي بالنفخ الذي فيه ، فمن رآه ظنّه رآه سابقاً (٢) قريب عهد بأكل .

و [خَلَائِف] جمع خليفة ، كسفينة وسفائن ومدينة ومدائن ، وقوله تعالى : ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : فعليه وبال كفره وضرره ، و «الْمَقْتُ» احتقار الإنسان من أجل معصية ، أو بغضه لدينه الذي يأتيه ، فإن كان الاحتقار تعسفاً منك فلا يُسمى مقتاً ، و «الْخَسَارُ» مصدر : خسر الرجل يخسر ، أي : خسروا آخرتهم ومعادهم بأن صاروا إلى النار والعذاب .

(١) هذا مثل عن العرب ، ويروى : «الذئب يُغبط بغير بطنه» ، قال أبو عبيدة : وذلك أنه ليس يُظن به أبداً الجوع ، إنما يُظنُّ به البطنة ؛ لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طِحَالَهُ وَيُغْبَطُ مَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعٌ

وقال غيره : إنما قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الحفرة أبداً ، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، قال الشاعر :

لَكَالذَّئْبِ مَغْبُوطُ الْحَشَا وَهُوَ جَائِعٌ

(٢) يقال : سبغ بمعنى تَمَّ واتَّسَع وطال .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ الآية ، احتجاج على الكفار في بطلان أمر أصنامهم ، وقفهم النبي صلى الله عليه وسلم - بأمر ربهم - على حجتهم التي يزعمون أنها حق ، ثم وقفهم - مع اتضاح عجزهم عن خلق شيء - على السموات ، هل لهم فيها شرك ؟ وظاهرٌ بُعدُ هذا أيضاً ، ثم وقفهم هل عندهم كتاب من الله تعالى يُبين لهم فيه ما قالوه ؟ أي : ليس ذلك كله عندهم ، ثم أضرب بعد هذا الجحد المقدّر فقال : إنما يعدون أنفسهم غروراً .

و [أَرَأَيْتُمْ] تنزل عند سيبويه منزلة «أخبروني» ، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين ، وأضاف الشركاء إليهم من حيث هم جعلوهم شركاء لله ، أي : ليس للأصنام شركة بوجه إلا بقولكم ، فالواجب إضافتها إليكم ، و [تَدْعُونَ] معناه : تعبدون . و «الرؤية» في قوله تعالى : [أَرُونِي] رؤية بصر ، و «الشرك» : الشركة ، مصدر أيضاً ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : [بَيْنَاتٍ] بالجمع ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والأعمش ، وابن وثاب ، ونافع - بخلاف عنه - : [بَيْنَةٍ] بالإفراد ، والمراد به الجمع (١) ، ويحتمل أن يراد به الأفراد . كما تقول : أنا من هذا الأمر على واضحة ، أو على جلية . و «الغرور» الذي كانوا يتعاطونه قولهم : الأصنام تُقَرَّبُ من الله زُلْفَى ، ونحوه مما يغيبهم .

(١) وهي أيضاً قراءة عاصم في رواية حفص عنه .

ولمَّا ذكر الله تعالى ما يُبَيِّنُ فساد أمر الأصنام ، ووقف على الحُجَّةِ على بُطْلانها ، عَقَّبَ ذلك بذكر عظمته وقدرته ، ليتبيَّنَ الشيءُ بضده ، وتتأكد حقارة الأصنام بذكر الله تعالى ، فَأَخْبَرَ عن إمساكه السموات والأرض بالقدرة ، وقوله : ﴿ أَنْ تَزُولَا ﴾ معناه : كراهة أَنْ تَزُولَا ، ولثلا تَزُولَا ، ومعنى الزوال هنا التَّنْقُلُ من مكانها ، والسقوط من علُوِّهَا ، وقال بعض المفسرين : معناه : أَنْ تَزُولَا عن الدوران ، ويظهر من قول ابن مسعود أَنَّ السماءَ لا تدور وإنما تجري فيها الكواكب ، وذلك أَنَّ الطبري أسند أَنَّ جُنْدَباً البَجَلِيَّ رحل إلى كعب الأحبار ثم رجع ، فقال له ابن مسعود : حَدَّثْنَا ما حَدَّثَكَ ، فقال : حَدَّثَنِي أَنَّ السماءَ في قطب كقطب الرِّحَى ، وهو عمود على منكب ملك ، فقال ابن مسعود : لوددت أَنَّك افتديت رحلتك بمثل راحلتك ورَحْلِكَ ، ما تَنَّتَكِ اليهودية في قلب عبد فكادت أَنْ تفارقه ، ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ ، وكفى بها زوالاً أَنْ تدور ، ولو دارت لكانت قد زالت . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا ﴾ قيل : يوم القيامة عند طيِّ السموات ونسف الجبال ، فكأنه قال : ولئن جاء وقت زوالهما ، وقيل : بل ذلك على جهة التوهُّم والفرض ، ولئن فرضنا زوالهما ، وكأنه قال : ولو زالتا ، وقال بعضهم : [لَئِنْ]

في هذا الموضع بمعنى (لو) ، وهذا قريب من الذي قبله ، وكذا قرأ ابن أبي عبلة : «وَلَوْ زَالَتَا» . وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : من بعد تركه الإمساك . وقالت فرقة : اتصافه تعالى بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماء كادت تزول والأرض كذلك لإشراك الكفرة ، فيمسكهما الله تعالى حلماً منه عن المشركين ، وتربصاً ليغفر لمن آمن منهم ، كما قال : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ الآية (١) .

قوله عز وجل :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٩٠﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٩١﴾ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٩٢﴾﴾

(١) من الآية (٩٠) من سورة (مريم) ، وقد حكى القرطبي عن الكلبي قال : لما قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكتهما ، فمنعهما الله ، وأنزل هذه الآية : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ، تكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا .

الضمير في قوله تعالى : [وَأَقْسَمُوا] لكفار قريش ، كانت قبل الإسلام تأخذ على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً ، وتقول : لو جاءنا نحن رسول لكنا أهدي من هؤلاء وهؤلاء . و ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ منصوب على المصدر ، أي : بغاية اجتهادهم ، و ﴿إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ يريدون اليهود والنصارى ، و «النُّفُورُ» : البُعدُ عن الشيء والفِرْع منه والاستبشاع له .

و [أَسْتَكْبَارًا] قيل فيه : بدل من النُّفُور ، وقيل : مفعول من أَجَلَهُ ، أي : نَفَرُوا من أَجَلِ الاستكبار ، وأضاف «المكر» إلى «السِّيءِ» وهو صفة ، كما قيل : «دار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وجانب الغربي» ، وقرأ الجمهور بكسر الهمزة من [السِّيءِ] ، وأسكنها حمزة وحده (١) ، وهو في الثانية يرفع الهمزة كالجماعة ، ولحن هذه القراءة الزَّجَاجُ ، ووجَّهها أبو عليُّ الفارسي بوجه ، منها أن يكون قد أسكن لتوالي الحركات (٢) ، كما قال :

..... قُلْتُ صَاحِبُ قَوْمٍ (٣)

- (١) وقرأ بها الأعمش أيضاً كما قال أبو حيان في البحر المحيط ، أما قول ابن عطية : «وأسكنها حمزة وحده» فإن مقصده : وحده من السبعة .
- (٢) ومنها أنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، ومنها أنه أجرى المنفصل مجرى المتصل .
- (٣) هذا جزء من بيت قاله أبو نُحَيْلَةَ الراجز ، والبيت بتمامه :
- إذا اعوججتن قلتُ صاحبُ قَوْمٍ بالدَّوِّ أمثالَ السَّفينِ العُـمـومِ =

على أن المبرّد روى هذا : « قلتُ صاحِ قَوْمٍ » . وكما قال امرؤ القيس :
 فاليومَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ (١)
 على أن المبرّد قد رواه : « فاليومَ فاشْرَبُ » ، وكما قال جرير :
 سِيرُوا بَنِي الْعَمِّ فَأَلْهَوَا زُ مَنْزِلِكُمْ وَنَهْرُ تَيْرِي فَلَنْ تَعْرِفَكُمُ الْعَرَبُ (٢)

= وأبو نُحَيْلَةَ اسمه يَعْمَرُ ، وكُنِّي « أبا نُحَيْلَةَ » لأن أمّه ولدته إلى جانب نخلة ، وهو من بني كعب بن سعد ، والبيت في اللسان (عَوَمَ) ، وفي شرح السيرافي (باب ما يحتمل الشعر) ، وانظر الخصائص لابن جني . وقد استشهد به سيبويه في الكتاب ، (باب الإشباع في الجرّ والرفع وغير الإشباع والحركة كما هي) ، قال : « ومما يسكن في الشعر وهو بمنزلة الجرّة ، إلا أنّ من قال (فخذ) لم يسكن ذلك ، قال الراجز : إذا اعوججت قلنت البيت ، فسألت من ينشد هذا البيت من العرب فزعم أنه يريد : صاحبي » . والدوّ : الصحراء ، وأمثال السّفين : الرواحل المحملة التي تقطع الصحراء كما تقطع السفين البحر ، والعوم : العائمة . وقد قيل ردأ على أبي عليّ في استشهاده بهذا البيت بأن سيبويه لم يجرّه وإنما حكاه ، والمبرّد رواه بحذف الباء فلا شاهد فيه .

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت حينما أدرك ثأر أبيه فتحلّل من نذره ألا يشرب الخمر حتى يثار له . واستحقب : اكتسب ، وأصل الاستحقب حمل الشيء على الحقيقة ، والواغل : الداخِل على القوم في شرايهم ولم يُدْع إليه ، والشاهد تسكين الباء من (أشْرَبُ) في حال الرفع والوصل ، وقد روي البيت : « فاليوم أسقني » ، و « فاليوم فاشْرَبُ » ، وعلى هاتين الروايتين لا شاهد فيه ، وقد ذكر ابن عطية الرواية الثانية وهي رواية أبي العباس المبرّد .
 (٢) قال جرير هذا البيت من ثلاثة أبيات قالها يهجو بني العمّ وأعانوا عليه الفرزدق ، وقبله يقول :

مَا لِلْفَرَزْدَقِ مِنْ عِزٍّ يَلُودُ بِهِ إِلَّا بَنُو الْعَمِّ فِي أَيْدِيهِمُ الْخُشْبُ

ونهر تيرى : بلد من نواحي الأهواز ، والشاهد فيه تسكين الفاء من (تَعْرِفُ) بعد (لن) ، على أن البيت قد روي بالميم ، أي : (فَلَمْ تَعْرِفَكُمُ الْعَرَبُ) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .
 هذا والزجاج يقول : إن هذه القراءة نوع من اللحن ، لأن القارئ بها قد حذف الإعراب =

وقرأ ابن مسعود : « وَمَكْرًا سَيِّئًا » ، قال أبو الفتح : يعضده تنكير ما قبله من قوله : [أَسْتِكْبَارًا] (١) . و [يَحِيقُ] معناه : يُحِيطُ وَيَحِلُّ وينزل ، ولا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الْمَكْرُوهِ ، وقوله : ﴿ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ معناه أنه لا بُدَّ أَنْ يَحِيقَ بِهِمْ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِلَّا فِي الْآخِرَةِ ، فعاقبته الفاسدة لهم ، وإن حاق في الدنيا بغيرهم أحياناً فعاقبة ذلك على أهله ، وقال كعب الأحبار لابن عباس رضي الله عنهما : إن في التوراة : « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها » ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : « أَنَا أَوْجِدُكَ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ . » (٢)

= وقال المبرد : إن هذا لا يجوز في كلام ولا في شعر ، لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها ، لأنها دخلت للفرق بين المعنى . وقد أعظم بعض النحويين (وهو أبو جعفر النحاس) أن يكون الأعمش على جلالته ومجمله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه ، فغلط من سمع منه ، والدليل على هذا أنه تمام الكلام ، وأن الثاني لما لم يكن من تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة في الذاتي أثقل منها في الأول لأنها ضمة بين كسرتين .

(١) قال أبو الفتح في المحتسب : « يشهد لتنكيره تنكير ما قبله من قول الله سبحانه : ﴿ أَسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وقراءة العامة أقوى معنى ؛ وذلك أن (الْمَكْرُ) فيها معرفة لإضافته إلى المعرفة ، وحسن تنكير الاستكبار لأنه أدنى إلى « نفور » مما بعده ، وقد يحسن مع القرب فيه مالا يحسن مع العبد ، واعتُمد ذلك لقوة معناه بتعريفه ، والإخبار عنه بأن مثله لا يخفى لعظمه وشناعته . »

(٢) روى الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تمكر ، ولا تعين ماكرًا ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ولا تبغ ، ولا تعين باغياً ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ .

و [يَنْظُرُونَ] معناه : ينتظرون . و «السنة» : الطريقة والعادة . وقوله تعالى : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي : لتعذيبه الكفرة المكذبين ، وفي هذا وعيدٌ بين .

قوله عز وجل :

﴿ أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ دَابَّةً وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

لما توعدهم تعالى في الآية قبلها بسنة الأولين ، وأنه لا يُبدلها ولا يُحوّلها في الكفرة ، وقضهم في هذه الآية على رؤيتهم لما رأوا من ذلك في طريق الشام وغيره ، كديار ثمود ونحوها ، و «يُعجزه» معناه يفوته ويفلته ، و [مِنْ] في قوله : ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ زائدة مؤكدة ، و ﴿ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ صفتان لائقتان بهذا الوضع ؛ لأنه معهما لا يتعذر شيء .

ثم بين الوجه في إمهاله من أمهل من عباده ، إن ذلك إنما هو لأن الآخرة من وراء الجميع ، وفيها يُستوفى جزاء كلِّ أحد ، ولو كان عزَّ وجلَّ يجازي على الذنوب في الدنيا لأهلك الجميع . وقوله : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ مبالغة ، والمراد بنو آدم لأنهم المجازون ، وقيل : المراد معهم الجن ، وقيل : كل ما دبَّ من الحيوان إذ أكثره إنما هو لمنفعة بني آدم وبسببهم . والضمير في [ظَهَرِهَا] عائِدٌ على الأرض المتقدم ذكرها ، ولو لم يتقدم لها ذكر لأمكن في هذا الموضع لبيان الأمر ، ولكانت كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (١) ونحوه ، و «الْأَجَلُ الْمُسَمَّى» يوم القيامة ، وباقي الآية توعدُّ ، وفيه وعدُّ للمؤمنين .

كامل تفسير سورة فاطر والحمد لله رب العالمين

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المخلوقين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكيةٌ بإجماع ، إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى :
(وَنَكْتَبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) نزلت في بني سلمة من الأنصار حين
أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فقال لهم : (دياركم تُكْتَبُ آثَارُكُمْ) ، وكره عليه الصلاة
والسلام أن يُعرِّوا المدينة^(١) ، فعلى هذا فهي مدنية ، وليس الأمر كذلك ،
وإنما نزلت الآية بمكة ، ولكنه احتج عليهم في المدينة ، ووافقها قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعنى ، فمن هنا قيل ذلك^(٢) ، وروى

(١) أي أن يتركوها خالية عارية .

(٢) في الترمذي عن أبي سعيد الخدري ، قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا
النقْلَةَ إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتَبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن آثارك تُكْتَبُ)
فلم ينتقلوا ، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب =

أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 (إن لكل شيء قلباً ، وإن قلب القرآن يس) (١) ، وروت عائشة رضي الله
 عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال : (إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها ،
 ويُغفر لمستمعها ، وهي يس) (٢) ، وقال يحيى بن أبي كثير : « بلغني
 أن من قرأ سورة يس ليلاً لم يزل في فرح حتى يصبح ، وكذا في
 النهار » (٣) ، ويصدق ذلك التجربة .

= المسجد ، قال : والبقاع خالية ، قال : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا بني
 سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم) ، وابن عطية يرى أن
 الآية مكية ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم احتج عليهم في المدينة ، واتفق قوله صلى الله
 عليه وسلم مع الآية في المعنى ، وهذا هو السبب في أن بعض الناس قالوا : الآية مدنية . والمراد
 بالآثار الحطى إلى المساجد .

(١) أخرجه الدارمي ، والترمذي ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أنس ، وفي آخره (ومن
 قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات) ، وأخرج مثله البزار عن أبي هريرة ،
 (الدر المنثور) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قال : (لكل شيء قلب ، وقلب القرآن يس) ، ومن قرأ يس فكأنما قرأ القرآن
 عشر مرات) .

(٢) أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة وحسنه ، عن عائشة رضي الله عنها ، ولفظه
 كما جاء في الدر المنثور : قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن في القرآن لسورة
 تُدعى العظيمة عند الله ، يُدعى صاحبها الشريف عند الله ، يشفع صاحبها يوم القيامة في
 أكثر من ربيعة ومضر ، وهي سورة يس) . (الدر المنثور) .

(٣) هو يحيى بن أبي كثير الطائي ، مولاهم ، أبو نصر اليماني ، ثقة ، ثبت ، قال عنه
 خاتمة الحفاظ أحمد بن حجر العسقلاني : « لكنّه يُدلس ويرسل » ، من الخامسة ، مات سنة
 اثنتين وثلاثين ، وقيل قبل ذلك . وزاد القرطبي في آخر العبارة التي نقلها عن يحيى بن أبي
 كثير قوله : « وقد حدثني من جربها » ، وابن عطية يؤيد ذلك ويقول : « ويصدق ذلك
 التجربة » .

قوله عز وجل :

﴿ يَس ١ ﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ
ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴿

أمال حمزة والكسائي الياء في ﴿يَسِّن﴾ غير مفرطين ، والجمهور يفتحونها ، ونافع يتوسط في ذلك ، وقوله تعالى [يَسِّن] يدخله من الأقوال ما تقدم في الحروف المقطعة في أوائل السور ، ويختص هذا بأقوال : منها أن سعيد بن جبير قال : إنه اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم ، ودليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وقال السيد الحميري (١) :

(١) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري ، شاعر إمامي متقدم . قال أبو عبيدة : أشعر المحدثين السيد الحميري وبشار ، ولكن أحمل ذكر الحميري وصرف الناس عن رواية شعره إفراطه في التَّيْل من بعض الصحابة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ولد في (نعمان) وهو واد قريب من الفرات على أرض الشام ، ونشأ بالبصرة ، ومات ببغداد ، وكان يُشار إليه في التصوف والورع ، وقد جمع الكثير من أخباره المستشرق الفرنسي (باريبي دي مينار) ، ولأبي بكر الصولي كتاب (أخبار السيد الحميري) ، وكتب عنه كثيرون غيرهما كابن الحاشر ، وابن أبان والجلودي . (الأغاني ، وضوء المشكاة ، والأعلام) .

يا نَفْسُ لَا تَمَحْضِي بِالنُّصْحِ مُجْتَهِدًا عَلَى الْمَسْوَدَةِ إِلَّا آلَ يَاسِينَا (١)
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : «يا إنسان» بالحبشية ،
وقال أيضاً في الثعلبي : هو بِلُغَةِ طَبِئٍ ، يقولون : «إيسان» بمعنى إنسان ،
ويجمعونه على «أياسين» ، فهذا منه . وقالت فرقة : الياء حرف نداء ،
والسِّينُ أقيمت مقام «إنسان» انتزع منه حرف فاقُقيم مقامه . ومن
قال «هو اسم من أسماء السورة أو القرآن» فذلك مُشترك في جميع السور .
وقرأ الجمهور : [يَسِنٌ] بسكون النون وإظهارها ، وإن كانت النون
الساكنة تخفى مع حروف الفم فإنما هذا على الانفصال وأن حق
هذه الحروف المقطعة في الأوائل أن تظهر . وقرأ عاصم ، وابن عامر -
بخلاف عنهما - بإدغام النون في الواو على عُرف الاتصال ، وقرأ
ابن أبي إسحق - بخلاف - بنصب النون ، وهي قراءة عيسى بن
عمر ، ورواها عن الغنوي . وقال قتادة : [يَسِنٌ] قَسَمٌ ، وقال أبو حاتم :
قياسُ هذا القول نصب النون ، كما تقول : اللهُ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا ، وقرأ
الكلبي بضمها وقال : هي بلغة طَبِئٍ : يا إنسان ، وقرأ أبو السَّمَاك ،
عن ابن أبي إسحق (٢) - بخلاف - بكسرها ، وهذه الوجوه الثلاثة هي

(١) ويروي : «لا تمحضي بالنصح جاهدة» ، ومَحْضٌ فلاناً النَّصْحُ أو الودَّ : أخلصه
إياه ، وأمحصه النَّصْحُ أيضاً مثل مَحْضَه ، والمَحْضُ من كلِّ شَيْءٍ : الخالص ، وفي حديث
الوسوسة : (ذلك محض الإيمان) . وآل ياسين هم آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو
الشاهد في البيت .

(٢) في بعض النسخ : « وقرأ أبو السَّمَاك ، وابن أبي إسحق » .

للالتقاء ، قال أبو الفتح : ويحتمل الرفعُ أن يكون اجتزاءً بالسين من :
يا إنسان (١) ، وقال الزجاج : النصب كأنه قال : اتلُ يسنَ ، وهذا
مذهب سيبويه على أنه اسمٌ للسورة . و [يسن] تُشبه الجملة من الكلام
فلذلك عُدَّت آيةً ، بخلاف [طسن] (٢) ، فلم تنصرف [يسن]
للعجمة والتعريف .

و [أَلْحَكِيمِ] : الْمُحَكَّمُ ، فيكون بمعنى : مفعول ، أي أَحْكَمَ
في مواعظه وأوامره ونواهيهِ ، ويحتمل أن يكون بناءً فاعِلٍ ، أي
ذو الحكمة .

وقوله تعالى : (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يجوز أن يكون جملة
في موضع رفع على أنها خبر بعد خبر ، ويجوز أن يكون في موضع

(١) معنى أن الوجوه الثلاثة للالتقاء ، أنها حُرِّكَتْ لالتقاء الساكنين ، وذلك أن الكلام
مبني على الإدراج ، لا على وقف حروف المعجم ، فحرَّكْ لذلك ، فمن فَتَحَ هربَ إلى
خِيفَةَ الفتحِ ، ومن كسر جاء على الأصل في الحركة عند التقاء الساكنين ، ومن ضمَّ احتمل
أن يكون لالتقاء الساكنين أيضاً ، واحتمل أن يكون اجتزاءً بالسين ، قال أبو الفتح : « أراد
يا إنسان ، إلا أنه اكتفى من جميع الاسم بالسين ، فقال : ياسينُ ، ف (يا) فيه - على هذا -
حرف نداءٍ ، كقولك : يا رجلُ ، ونظير حذف بعض الاسم قول النبي صلى الله عليه وسلم :
(كفى بالسيف شا) ، أي : شاهداً ، فحذف العين واللام ، وكذلك حُذِفَ من (إنسان)
الفاء والعين » ، وهناك احتمال ثالث في حالة الرفع . قال عنه أبو الفتح : « أن يكون على ما ذهب
إليه الكلبي ، وروينا فيه عن قطرب :

فَيَا لَيْتِي مِينَ بَعْدِ مَا طَافَ أَهْلُهَا هَا كُنْتُ لَمْ أَسْمَعُ بِهَا صَوْتِ إِيْسَانَ
ومعناه : صوت إنسان . وكذلك أن (الإيسان) لغة في الإنسان ، وهي لغة طائية ، هذا
والبيت لعامر بن جرير ، وهو في اللسان (أنس) .

(٢) من الآية (١) من سورة (النمل) .

نصب على أنها في موضع الحال من [الْمُرْسَلِينَ] ، و «الصِّرَاطُ» : الطريق ، والمعنى : على طريق هدى ومهيح (١) رشاد .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [تَنْزِيلُ] بالرفع على خبر الابتداء ، وهي قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، والحسن ، والأعرج ، والأعمش . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [تَنْزِيلَ] بالنصب على المصدر ، واختلف عن عاصم ، وهي قراءة طلحة ، والأشهب ، وعيسى بن عمر ، والأعمش ، بخلاف عنهما .

قوله تعالى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ، اختلف المفسرون في [مَا] - فقال عكرمة : [مَا] بمعنى الذي ، والتقدير : الشيء الذي أُنذِرَهُ الآبَاءُ من النار والعذاب ، ويحتمل أن تكون [مَا] مصدرية ، أي : ما أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ (٢) ، والآباء - على هذا - هم الأقدمون على مرّ الدهر (٣) ، وقوله : [فَهُمْ] - مع هذا التأويل - بمعنى : فَإِنَّهُمْ ، دخلت الفاء لقطع الجملة من الجملة . وقال قتادة : [مَا] نافية ، أي إن آباءهم لم يُنذروا ، فالآباء - على هذا - هم القريبون منهم ،

(١) المهيح من الطرق : البين ، والجمع : مهائج ، والمعنى : طريق واضح للرشاد .

(٢) المراد أن [ما] مع الفعل مصدر ، والمعنى : لِتُنذِرَ قَوْمًا إِنْذَارَ آبَائِهِمْ .

(٣) نقل صاحب (البحر المحيط) كلام ابن عطية هنا ، وفيه زيادة عن الأصول التي

معنا حيث قال : «هم الأقدمون من ولد إسماعيل عليه السلام ، وكانت النذارة فيهم ،

و [فَهُمْ] - على هذا التأويل - بمعنى : فَإِنَّهُمْ ، دخلت الفاء لقطع الجملة من الجملة الواقعة

صلة ، فتعلق بقوله : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، كما تقول : أرسلتك إلى فلان لِتُنذِرَ

فإنه غافل ، أو فهو غافل .

وهذه الآية كقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ (١) ،
وهذه النذارة المنفية هي نذارة المباشرة والأمر والنهي ، وإلا فدعوة
الله تعالى لم تنقطع من الأرض قط ، وقوله : [فَهَمُّ] - على هذا -
الفاء واصلة بين الجملتين ورابطة الثانية بالأولى (٢) .
و ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ ﴾ معناه : وجب العذابُ وسبق القضاء به ، وهذا
فيمن لم يؤمن من قريش ، كمن قُتل ببدرٍ وغيرهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قال مكِّي : هي حقيقية في أحوال الآخرة إذا دخلوا النار ، وقوله
تعالى : [فَأَغْشَيْنَاهُمْ] الآية - يُضعف هذا القول ؛ لأن بصر الكافر
بعد القيامة إنما هو حديد ، يرى قُبْحَ حاله (٣) . وقال الضحاك :

(١) من الآية (٤٤) من سورة (سأ) .

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : « وقوله تعالى : ﴿ مَا أَنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾
في موضع الصفة ، وقوله : ﴿ فَهَمُّ غَافِلُونَ ﴾ متعلق بالنفي ، أي : لم يُسندروا فهم غافلون ،
على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم ، وباعتبار الآباء في القِدَم والقُرْب يزول التعارض
بين الإنذار ونفيه . »

(٣) علّق أبو حيان على رأي ابن عطية في ضعف هذا القول بما يأتي : « ولا يضعف
هذا ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَتَحَشَّرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيَّ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا ﴾ ، =

معناه : منعناهم من النفقة في سبيل الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ (١). وقال ابن عباس ، وابن إسحق : هي استعارة لحال الكفرة الذين أرادوا محمداً صلى الله عليه وسلم بسوء ، فجعل الله تعالى هذه مثلاً لهم في كف أذاهم عنه حين بيتوه . وقال عكرمة : نزلت حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم فمنعه الله منه ، وفي غير ذلك من المواطن . وقالت فرقة : الآية مستعارة المعنى من منع الله إياهم وحوله بينه وبينهم . وهذا أرجح الأقوال ؛ لأنه لما ذكر أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل عقب ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالهم معه حال المغلوبين .

و «الغُلُّ» ما أحاط بالعُنُق على معنى التضييق والتثبيت والتعذيب والأسر ، ومع العُنُق اليدان أو اليد الواحدة ، هذا معنى التَّغْلِيل ، وقوله : [فَهِيَ] [يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْأَغْلَالِ ، أَي : هِيَ عَرِيضَةٌ تَبْلُغُ بِحَرْفِهَا الْأَذْقَانَ ، وَالذَّقْنَ مَجْتَمِعَ اللَّحْيَيْنِ (٢) ، فَيضْطَرُّ الْمَغْلُولُ إِلَى رَفْعِ وَجْهِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْإِقْمَاحُ ، وَهُوَ نَحْوُ الْإِقْنَاعِ فِي الْهَيْئَةِ ، وَنَحْوُهُ مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ عِنْدَ شَرَبِ الْمَاءِ الْبَارِدِ

= وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴾ ، وأما قوله : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ فكناية عن إدراكه ما يؤول إليه حتى كأنه يبصره .

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الإسراء) .

(٢) اللَّحْيُ : منبت اللحية من الإنسان وغيره ، وهما لَحْيَان ، وهما أيضاً العظامان

اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحْيٍ .

وعند الملوحات والحموضة القوية ونحوه . ويحتمل - وهو قول الطبري - أن تعود [هي] على الأيدي - ولم يتقدم لها ذكر - لوضوح مكانها في المعنى ، وذلك أن الغلَّ يكون في العنق مع اليدين . ورُوي في مصحف ابن مسعود وأبي : «إنا جعلنا في أيمنهم» ، وفي بعضها «في أيديهم» ، وقد ذكرنا معنى الإقماح .

وقال قتادة : المُقَمَّحُ الرَّافِعُ رَأْسُهُ ، وقال أيضاً : [مُقَمَّحُونَ] : مُغَدَّلُونَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَأَرَى عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ الْإِقْمَاحَ ، فَجَعَلَ يَدَيْهِ تَحْتَ لَحْيَيْهِ وَأَلْصَقَهُمَا وَرَفَعَ رَأْسَهُ (١) .

وقرأ الجمهور : [سُدًّا] برفع السين فيهما . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وابن مسعود ، وطلحة ، وابن وثاب ، وعكرمة ، والنخعي ، وابن كثير بفتحها فيهما . قال أبو علي : قال قوم : هما بمعنى واحد ، أي : حائلاً يسدُّ طريقتهما ، وقال عكرمة : ما كان مما يفعله البشر فهو بالضم ، وما كان خِلْقَةً فهو بالفتح ، و «السَّدُّ» ما سدَّ وحالاً ، ومنه قول الأعرابي في صفة سحاب : «طَلَعَ سُدٌّ مَعَ

(١) قال الأصمعي : يقال : أَقْمَحْتُ الدَّابَّةَ إِذَا جَذِبْتَ لِحَامَهَا لِتَرْفَعُ رَأْسَهَا ، قَالَ النَّحَّاسُ : وَالْقَافُ مَبْدَلَةٌ مِنَ الْكَافِ لِقُرْبَاهَا مِنْهَا ، كَمَا يُقَالُ : قَهَرْتُهُ وَكَهَرْتُهُ ، وَعَلَى هَذَا جَاءَ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ :

تَمُوجُ ذِرَاعَاهَا وَتَرْمِي بِجَوَازِهَا حِذَاراً مِنَ الْإِبْعَادِ وَالرَّأْسُ مُكْسَحٌ

انتشار الطفل» (١) ، أي : سحابٌ سدَّ الأفق ، ومنه قولهم : «جرادٌ سُدٌّ» (٢) ، ومعنى الآية أن طريق الهدى سُدَّ دونهم .

وقرأ جمهور الناس : (فَأَغْشَيْنَاهُمْ) منقوطة ، أي : جعلنا على أعينهم غشاوة . وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وعمر ابن عبد العزيز ، والنخعي ، وابن سيرين بالعين مهملة ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي من العشاء أي : أضعفنا أبصارهم (٣) ، والمعنى : فهم لا يبصرون رشداً ولا هدىً . وقرأ يزيد اليزيدي : «فَأَغْشَيْتُهُمْ» بياءٍ دون ألف وبالغين منقوطة .

(١) جاء في اللسان (سَدَدَ) : «أبو زيد : السُدُّ من السحاب : النَّشْءُ الأسود ، من أيِّ أقطار السماء نشأ ، والسُدُّ واحد السُّدود ، وهي السحاب السوداء . ابن سيده : والسُدُّ : السحابُ المرتفع السَّادُّ الأفق ، والجمع سُدُود ، قال :

قَعَدَتْ لَهُ وَشَيْعَتِي رَجَعَالٌ وَقَدْ كَثُرَ الْمَخَايِلُ وَالسُّدُودُ

وفيه أيضاً (طفل) : «طَفَلُ العشيِّ : آخره عند غروب الشمس واصفرارها ، يقال : أتيتُه طَفَلاً ، وطَفَلت الشمسُ : دنت للغروب .»

(٢) قال في اللسان (سَدَدَ) : «والسُدُّ : القطعة من الجراد تَسُدُّ الأفق ، قال الراجز :

سَيْلُ الْجِرَادِ السُّدُّ يَرْتَادُ الْخُضْرَ

ويقال : جاءنا سُدٌّ من جراد ، وجاءنا جرادٌ سُدٌّ إذا سدَّ الأفق من كثرتِه .»

(٣) ومن هذا المعنى قال الحطيئة :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مَوْقِدِ

قوله عز وجل :

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ
الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءِثْرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

هذه مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، مُضْمِنًا تسليته عنهم ،
أي : إنهم قد حتم عليهم بالكفر ، فسواء إنذارك وتركه ، والألف
في قوله تعالى [أَنْذَرْتَهُمْ] أَلِفٌ التَّسْوِيَةُ ؛ لأنها ليست باستفهامٍ ،
بل الْمُسْتَفْهِمِ وَالْمُسْتَفْهِمِ مستويان في علم ذلك .
وقراءة الجمهور : [أَنْذَرْتَهُمْ] بالمدِّ ، وقرأ ابن محيصن ، والزهري :
[أَنْذَرْتَهُمْ] بهمزة واحدة على الخبر (١) ، و [سَوَاءٌ] رفع بالابتداء ،
وقوله : ﴿أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة من فعلين متعادلين يُقَدَّرَانِ

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في (المحتسب) : « الذي ينبغي أن يعتقد في ذلك أن
يكون أراد الاستفهام كقراءة العامة [أَنْذَرْتَهُمْ] إلا أنه حذف الهمزة تخفيفاً وهو يريد بها ،
كما قال الكمي :

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ وَلَا لَعِباً مِثِّي ، وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ ؟
قالوا : معناه : أو ذو الشيب يلعب ؟ تناكراً لذلك وتَعْجِيباً ، وكبيت الكتاب :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيَا شُعَيْثُ ابْنُ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثُ ابْنُ مِثْقَرٍ ؟
يريد : أشعيث ابن سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثُ ابْنُ مِثْقَرٍ ؟ . ويدل على إرادة الهمزة بقاء (أَمْ) (بعدها ، ولو أراد الخبر لقال : « أَوْ لَمْ تُنذِرْهُمْ » ، (راجع المحتسب ٢-٢٠٥) .

تقدير فعل واحد هو خبر الابتداء ، كأنه قال : وسواءٌ عليهم جميعُ فِعْلِكَ ، ففسّر هذا الجميع بـ «أُنذرت أُمَّ لَمْ تُنذِر» ، ومثله قولك : سواءٌ عندي قمتَ أُمَّ قعدتَ ، هكذا ذكر أبو علي في تحقيق الخبر ، والخبر هو الابتداء . وقوله ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ ليس على جهة الحصر بِنَمَّا ، بل على جهة تخصيص من ينفعه الإنذار . و «اتَّبَاعُ الذُّكْرِ» هو العملُ بما في كتاب الله تبارك وتعالى والافتداءُ به ، قال قتادة : الذِّكْرُ الْقُرْآنُ . وقوله [بِالْغَيْبِ] أَي : بالخلوات عند مغيب الإنسان عن عيون البشر ، ثم قال : [فَبَشِّرُهُ] فوحد الضمير مراعاةً لِلْفِعْلِ [مَنْ] . و «الأجر الكريم» كل ما يأخذه الأجير مقترناً بحمدٍ على الإحسان وتكرمة ، وكذلك هي الجنة للمؤمنين .

ثم أخبر تعالى بإحيائه الموتى رداً على الكفرة ، ثم توعدّهم بذكره كتب الآثار وإحصاء كلِّ شيءٍ . وكلُّ ما يصنعه الإنسان فداخل فيما قدم ويدخل في آثاره ، ولكنه تبارك وتعالى ذكر الأمر من الجهتين ، ولينبه على الآثار التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خيرٍ أو شرٍّ ، وإلّا فذلك كله داخل فيما يقدم ابن آدم . وقال قتادة : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ معناه : من عمل ، وقاله ابن زيد ، ومجاهد . وقد يبقى للمرء أن يُسْتَنَّ به بعد موته فيؤجر أو يائثم ، ونظير هذه الآية : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (١) . وقرأت فرقة : [وَأَثَارَهُمْ] بالنصب ، وقرأ مسروق بالرفع .

(١) الآية (٥) من سورة (الانفطار) .

وقال ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري :
 إن هذه الآية نزلت في بني سلمة حين أرادوا النقلة إلى جانب المسجد ،
 وقد بينا ذلك في أول السورة . وقال ثابت البناني (١) : مشيتُ مع
 أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعتُ فحبسني ، فلما انقضت الصلاة
 قال لي : مشيت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة فأسرعت
 فحبسني ، فلما انقضت الصلاة قال : (أما علمت أن الآثار
 تُكتب) ؟ فهذا احتجاج بالآية ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والحسن :
 الآثار في هذه الآية الخطأ ، وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال : الخطأ
 إلى الجمعة (٢) .

وقوله [وَكُلٌّ] نصب بفعل مضمر يدل عليه [أَحْصَيْنَاهُ] ،
 كأنه قال : أحصينا كل شيءٍ أحصيناه ، و «الإمام» : الكتاب المقتدى
 به الذي هو حجة ، وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أراد اللوح
 المحفوظ ، وقالت فرقة : أراد صحف الأعمال .

(١) هو ثابت بن أسلم البناني - بضم الموحدة وبنونين مُحَخَفَتَيْنِ ، أبو محمد البصري ،
 ثقة ، عابد ، من الرابعة ، مات سنة بضع وعشرين ، وله ستٌ وثمانون . (تقريب التهذيب) .
 (٢) روى الترمذي في (جامعه) عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من غسل يوم الجمعة واغتسل ، وبكَّرَ وابتكر ، ومشى
 ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغُ ، كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة ، أجر
 صيامها وقيامها) ، وقال : حديث حسن ، ورواه النسائي ، وابن ماجه ، وأبو داود ، والحاكم
 وصحَّحه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، وهو حديث صحيح ، وقال الإمام
 السيوطي في (الدر المنثور) : «أخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى
 ﴿وَتَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ قال : هذا في الخطو يوم الجمعة .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ
 اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
 مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
 إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾

ضرب المثل مأخوذ من الضرب أي المشبه في النوع ، كما تقول :
 هذا ضرب هذا ، واختلف ، هل يتعدى فعل ضرب المثل إلى مفعولين
 أو إلى واحد ؟ فمن قال إنه يتعدى إلى مفعولين جعل في هذه الآية
 [مَثَلًا] و [أَصْحَابَ] مفعولين لقوله : [أَضْرِبْ] ، ومن قال إنه يتعدى
 إلى مفعول واحد جعله [مَثَلًا] ، وجعل [أَصْحَابَ] بدلاً منه . ويجوز
 أن يكون المفعول [أَصْحَابَ] ، ويكون قوله [مَثَلًا] نصباً على الحال ،
 أي : في حال تمثيل منك .

و [الْقَرْيَةِ] - على ما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما ،
 والزهري - أنطاكية . واختلف في المرسلين - فقال قتادة وغيره :
 كانوا من الحواريين الذين بعثهم عيسى عليه السلام حين رُفِعَ وصُلب
 الذي أُلقي عليه شبهه ، فافترق الحواريون في الآفاق ، فقَصَّ الله
 هنا قصة الذين نهضوا إلى أنطاكية . وقالت فرقة : بل هؤلاء أنبياء

مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَهَذَا يَرْجِّحُهُ قَوْلُ الْكُفْرَةِ : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بِشَرِّ مِثْلُنَا ﴾ ، فَإِنَّهَا مَحَاوِرَةٌ إِنَّمَا تَقَالُ لِمَنْ أَدَّى الرِّسَالَةَ مِنَ اللَّهِ ، وَالْآخِرُ مُحْتَمَلٌ . وَذَكَرَ النِّقَاشُ فِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ شَيْئاً يَطُولُ ، وَصَحَّتْهُ غَيْرُ مُتَيَقِّنَةٍ فَاخْتَصَرْتَهُ .

وَاللَّازِمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولَيْنِ فَدَعَا أَهْلَ الْقَرْيَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَإِلَى الْهُدَى وَالْإِيمَانِ فَكَذَّبُوهُمَا ، فَشَدَّدَ اللَّهُ أَمْرَهُمَا بِثَالِثٍ ، وَقَامَتِ الْحِجَّةُ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ ، وَآمَنَ مِنْهُمْ الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ يَسْعَى ، وَقَتَلُوهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ وَكَفَرُوا ، فَأَصَابَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَخَمِدُوا .

وَقَرَأَ جَمِيعُ الْقُرَاءِ : [فَعَزَّزْنَا] بِتَشْدِيدِ الزَّايِ الْأَوَّلِيِّ ، عَلَى مَعْنَى : قَوَيْنَا وَشَدَّدْنَا ، وَبِهَذَا فَسَّرَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ - فِي رِوَايَةِ الْمَفْضَلِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ - بِالتَّخْفِيفِ لِلزَّايِ ، عَلَى مَعْنَى : غَلَبْنَاهُمْ أَمْرَهُمْ (١) وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ : « بِالثَّالِثِ » بِأَلْفٍ وَوَلَامٍ .

(١) قِيلَ : الْقُرَاءَةُ تَانٍ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، وَقَدْ جَاءَ فِي اللِّسَانِ (عَزَزَ) : « وَعَزَّزْتُ الْقَوْمَ وَأَعَزَّزْتُهُمْ وَعَزَّزْتُهُمْ : قَوَيْتُهُمْ وَشَدَّدْتُهُمْ ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزُ ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أَي : قَوَيْنَا وَشَدَّدْنَا ، وَقَدْ قُرِئَتْ (فَعَزَّزْنَا) بِالتَّخْفِيفِ ، كَقَوْلِكَ : شَدَّدْنَا » . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : « أَنْشَدَنِي أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ لِلْمَتَلَمَّسِ : أَجْدُ إِذَا ضَمَّرْتَ تَعَزَّزَ لِحَمُهَا وَإِذَا تُشَدُّ بِنِسْعِهَا لَا تَنْبِيسُ أَي : لَا تَرْغُو » . وَقِيلَ : التَّخْفِيفُ بِمَعْنَى : غَلَبْنَا وَقَهَرْنَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَزَّزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ .

وهذه الأمة أنكرت النبوات بقولها : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، وراجعتهم الرسل بأن ردوا العلم إلى الله ، وقنعوا بعلمه ، وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط ، وما عليهم من هداهم وضلالهم ، وفي هذا وعيد لهم .

قوله عز وجل :

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَلْتَمِئُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
 قَالُوا طَيَّرْنَا بِكُمْ مَلَكُومٌ أَن ذِكْرُنَا لَكُمْ قَدْ نَسِيَ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ
 رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا
 وَهُمْ مَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قال بعض المتأولين : إن أهل القرية أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم المرسلين ، فلذلك قالوا : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ ، وقال مقاتل : احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه ، ومعناه : تشاءنا بكم ، مأخوذ من الحكم بالطير ، وهو معنى متداول في الأمم ، وقلما يستعمل « تَطَيَّرْتُ » إلا في الشؤم ، وأما حكم الطير عند مستعمليه ففي التيمُّن والشؤم ، والأظهر أن تطير هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس ، وهذا على نحو تطير قريش

بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى نحو ما خوطب به موسى عليه السلام .
وقال قتادة : قالوا : إن أصابنا شرٌّ فإنما هو من أجلكم ، و [لَنَرَجُمَنَّكُمْ] .
معناه : بالحجارة . قاله قتادة رضي الله عنه . وقولهم عليهم السلام :
(طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ) معناه : حظكم وما صار لكم من شرٍّ أو خيرٍ معكم ،
أي : من أفعالكم وبكسباتكم ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا ، بل
ببغيتكم وكفركم ، وبهذا فسّر النَّاسُ . وسُمِّيَ الحظ والنصيب طائراً
استعارة ، أي هو مما يحصل عن النظر في الطائر ، وكثرت استعمال
هذا المعنى حتى قالت المرأة الأنصارية : « طار لنا حين اقتسّم المهاجرون
عثمان بن مظعون » (١) ، ويقول الفقهاء : طار لفلان في المحاصة كذا .

وقرأ ابن هُرْمَز ، والحسن ، وعمرو بن عبيد : [طَيْرُكُمْ] ،
وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وابن عامر : [أَتْن] بهمزيين
الثانية مكسورة ، على معنى : أَتْنٌ ذُكِّرْتُمْ تَتَطَيَّرُونَ ؟ وقرأ نافع وأبو

(١) حديث المرأة الأنصارية أخرجه البخاري في الجنايز والتعبير ، وأحمد في مسنده
(٤٣٦-٦) ، ولفظه كما في البخاري ، عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء امرأة من
الأنصار بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، أخبرته أنه اقتسّم المهاجرون قرعة ، فطار لنا
عثمان بن مظعون ، فأنزله في أبياتنا ، فَوَجَّعَ وَجَعَهُ الَّذِي تَوَفِّي فِيهِ ، فلما توفي وغُسل
وكُفِّنَ في أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ،
فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يُدريك أن الله أكرمك ؟
فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يُكْرِمُهُ الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أما هو فقد
جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير ، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفْعَلُ بي ،
قالت : فوالله لا أذكِّي أحداً بعده أبداً .

عمرو ، وابن كثير بتسهيل هذه الهمزة الثانية وردّها ياءً ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ ،
 وقرأ الماجشون (١) : [أَنْ] بفتح الألف (٢) ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن :
 ﴿إِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بكسر الألف ، وقرأ أبو عمرو - في بعض ما روي عنه -
 وزر بن حبيش أيضاً : [أَنَّ] بهمزتين مفتوحتين ، وشاهده قول الشاعر :
 أَأَنْ كُنْتَ ذَا بُرْدَيْنِ أَحْوَى مُرَجَّلاً فَلَسْتَ بِرَاعِ لَابِنِ عَمِّكَ مَحْرَمًا (٣)
 وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، والأعمش : [أَيْنَ] بسكون الياء
 [ذُكِّرْتُمْ] بتخفيف الكاف ، فهي (أَيْنَ) المنقولة في الظرف ، وهذه
 قراءة خالد ، وطلحة ، وقتادة ، والحسن في تخفيف الكاف فقط (٤) .
 ثم وصفهم تعالى بالإسراف والتعدي .

(١) هو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة المدني ، قال عنه في (تقريب
 التهذيب) : ثقة ، من الثامنة ، مات سنة خمس وثمانين ، وقيل قبل ذلك .
 (٢) وعلى هذا تكون ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ منصوبة الموضع بقوله تعالى : ﴿طَائِرُكُمْ
 مَعَكُمْ﴾ ، وذلك أنهم لما قالوا : ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي : تشاءمنا ، قالوا لهم جواباً
 عن ذلك : بل ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ ، أي : بل شؤمكم معكم ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ ،
 أي : هو معكم لأن ذُكِّرْتُمْ فلم تذكروا ولم تنتهوا ، فاكتفي بالسبب وهو التذكير عن المسبب
 الذي هو الانتهاء .

(٣) البرُد : كساءٌ مُخَطَّطٌ يلتحف به ، وجمعه أبرادٌ وأبرُدٌ وبرُودٌ ، والأحْوَى :
 ما خالط حمرة سوادٍ أو خضرة سوادٍ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ،
 ورجل الشعْر : سواه وزينه وسرجه ، والشاهد أن الهمزتين مفتوحتين في قوله : (أَأَنْ كُنْتَ) .
 (٤) ومعنى ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ : أينَ حللتم وكنتم ووجدتم فدُكِّرْتُمْ ،
 فاكتفي بالمسبب الذي هو الذكر من السبب الذي هو الوجود ، و [أَيْنَ] هنا شرطٌ ، وجوابها
 محذوف للدلالة قوله : ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ عليه ، فكأنه قال : أينَ ذُكِّرْتُمْ أو أين
 ووجدتم ووجد شؤمكم معكم ، وهذا كقولك : سيفك معك أين حللت .

وأخبر تبارك وتعالى ذكره عن حال رجل جاء من أقصى المدينة ،
سمع المرسلين وفهم عن الله فجاء يسعي على قدميه وسمع قولهم ،
فلما فهمه روي أنه تعقب أمرهم وسبَّره (١) بأن قال لهم : أتطلبون
أجرًا على دعوتكم هذه ؟ قالوا : لا ، فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم
والإيمان بهم إذ هو الحق ، ثم احتجَّ عليهم بقوله : ﴿ أَتَبِعُوا مَنْ
لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ، أي : وهم على هدى من الله .
وهذه الآية حاكمة بنقص من يأخذ أجرًا على شيء من أفعال الشرع
التي هي لازمة له كالصلاة ونحوها ، فإنها كالتبليغ لمن بعث ، بخلاف
ما لا يلزمه كالإمارة والقضاء ، وقد ارتزق أبو بكر الصديق رضي
الله تعالى عنه .

وروي عن أبي مجاز ، وكعب الأحبار ، وابن عباس أن اسم
هذا الرجل حبيب ، وكان نجارًا ، وكان - فيما قال وهب بن منبه -
قد تجدد ، وقيل : كان في غار يعبد ربه ، وقال ابن أبي ليلى : « سُبَّاق
الأئمة ثلاثة لم يكفروا قطُّ طرفة عين : علي بن أبي طالب رضي الله
عنه ، وصاحب يسن ، ومؤمن آل فرعون » ، وذكر الناس في أسماء
الرسل : صادق ومصدق وشلوم ، وغير هذا ، والصَّحَّة معدومة
فاختصرتُ .

(١) أي : اختبَّره ، يقال : سبَّرتُ فلانًا بمعنى : اختبرته لأعرف ما عنده .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً
 إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُوهُمْ ﴿٢٣﴾ إِنِّي
 إِذْ أَنفَىٰ ضَلَالِي مُبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قَبِيلَ أَدْخِلِ
 الْجَنَّةَ ٱلَّتِي قَالَتْ يَلْتَبِتْ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرْتُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ وَمَا لِي ﴾ بفتح الياء ، وقرأ الأعمش ، وحمزة
 بسكون الياء ، وقد تقدم مثل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لِي ﴾ تقرير لهم - على جهة التوبيخ - في
 هذا الأمر الذي يشهد العقل بصحته ، إن من فطر و اخترع وأخرج
 من العدم إلى الوجود فهو الذي يستحق أن يُعبد ، ثم أخبرهم بأنهم
 محشورون إليه يوم القيامة . ثم وقفهم أيضاً - على جهة التوبيخ -
 على اتخاذ الآلهة من دون الله ، وهي لا ترد عنهم المقادير التي يريدتها
 الله بهم ، لا بقوة منها ولا بشفاعه . وقرأ طلحة السمان ، وعيسى
 الهمداني (١) : [يُرِدْنِي] بياء مفتوحة ، ورويت عن عاصم ، ونافع ،
 وأبي عمرو .

(١) هو عيسى بن عمر الأسدي ، الهمداني - بسكون الميم - أبو عمرو ، الكوفي ،
 القارئ ، ثقة ، من السابعة ، مات سنة ست وخمسين ، (تقريب التهذيب) .

ثم صدع بإيمانه وأعلن فقال : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ ،
واختلف المفسرون - فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وكعب ،
ووهب : خاطب بها قومه على جهة المبالغة والتنبيه ، وقيل : خاطب
بها الرسل على جهة الإشهاد بهم^(١) ، والاستحفاظ للأمر عندهم .
وقرأ الجمهور بكسر النون على نية الياء بعدها ، وروى أبو بكر عن
عاصم فتحها ، قال أبو حاتم : هذا خطأ لا يجوز ؛ لأنه أمرٌ ، فإما
حذف النون أو كسرها على نية الياء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهنا محذوف تواترت به الأحاديث والروايات ، وهو أنهم قتلوه ،
واختلف ، كيف ؟ قال قتادة وغيره : رجموه بالحجارة ، وقال ابن
مسعود : مشوا عليه بأقدامهم حتى خرج قُصْبُهُ^(٢) من دُبْرِهِ ، فقيل
له عند موته : ﴿ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، وذلك - والله أعلم - بأن عرض
عليه مقعده منها ، وتحقق أنه من سكانها برويته ما أقر عينه ،
فلما تحصل له ذلك تمنى أن يعلم قومه بذلك ، فقيل : أراد بذلك
الإشفاق والنصح لهم ، أي : لو علموا ذلك لآمنوا بالله ، وقيل :

(١) يقول لهم : اشهدوا لي ، أو كونوا شهودي بالإيمان .

(٢) القُصْبُ - بضم القاف وسكون الصاد - المعى ، والجمع : أقصاب .

أراد أن يندموا على فعلهم به ويحزنهم ذلك ، وهذا موجود في جِبِلَّةَ
البشر ، إذ انال خيراً في أرض غربة ودَّ أن يعلم ذلك جيرانه وأترابه
الذين نشأ فيهم ؛ ولا سيما في الكرامات ، ونحو من ذلك قول الشاعر :

والعزُّ مَطْلُوبٌ ومُلْتَمَسٌ وَأَحْبُهُ مَا كَانَ فِي الْوَطَنِ

والتأويل الأول أشبه بهذا العبد الصالح ، وفي ذلك قال النبي صلى الله
عليه وسلم : (نصح قومه حياً وميتاً) (١) ، وقال قتادة بن دعامة :
نصحهم على حالة الغضب والرضى ، وكذلك المؤمن لا تجده إلا
ناصحاً للناس .

و [مَا] في قوله تعالى : ﴿بِمَا غَفَرَ﴾ يجوز أن تكون مصدرية ،
أي : بغفران ربِّي لي ، ويجوز أن تكون بمعنى الذي ، وفي [غَفَرَ]
ضمير عائد ، قال الزهري : ويجوز أن تكون استفهاماً ، ثم ضعَّفه (٢) .

(١) الذي رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو القشيري ، قال ذلك القرطبي .

(٢) لعلَّ هذا التضعيف كان بما قاله الكسائي : « لو صحَّ هذا لكان (بِمَ) من غير
ألف » . وقال الفراء : ولو جعلت (ما) في معنى (أي) كان صواباً ، ويكون المعنى : ليتهم
يعلمون بأيِّ شيء غفر لي ربِّي ، ولو كان كذلك لجاز له فيه ، ﴿بِمَ غَفَرَ لي ربِّي﴾
بنقصان الألف ، كما تقول : سلَّ عمَّ شئتَ ، وكما قال : ﴿فَتَنَظِيرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾
وقد أتمَّها الشاعر وهي استفهام فقال :

إِنَّا قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا سَرَاتَكُمْ
أَهْلَ اللَّوَاءِ فَفِيْمَا يُكْثِرُ الْقَبِيلُ

راجع (معاني القرآن) للفراء .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ ٢٨
 إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَلِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ
 مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ كَرِهُوا كَرِهْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ
 أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿

هذه مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيها توعد لقريش ،
 إذ هو المروع لهم من المثال أن ينزل بهم من عذاب الله
 ما نزل بقوم حبيب النجار ، فنفى عز وجل أنه أنزل على قوم هذا
 الرجل جنداً من السماء ، قال مجاهد : أراد أنه لم يرسل رسولا
 ولا استعذبهم ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أراد أنه لم يحتج
 في تعذيبهم إلى جند من جند الله كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك ،
 بل كانت صيحة واحدة ؛ لأنهم كانوا أيسر وأهون من ذلك ، قال
 قتادة : والله ما عاتب الله قومه بعد قتله حتى أهلكتهم .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ - فقالت
 فرقة : [ما] نافية ، وهذا يجري مع التأويل الثاني في قوله سبحانه :
 ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ ﴾ . وقالت فرقة : [ما] عطف

على [جُنْدٍ] ، أَي : «مِن جُنْدٍ وَمِنَ الَّذِي كُنَّا مِنْزِلِينَ عَلَى الْأُمَمِ مِثْلَهُمْ
قبل ذلك» (١)

وقرأ الجمهور : ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ بالنصب على خبر (كان) ، أَي :
ما كان عذابهم إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ، وقرأ أبو جعفر ، ومعاذ بن الحارث (٢) :
﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بالرفع ، وضعفها أبو حاتم (٣) ، والوجه فيها

(١) نقل أبو حيان هذا التقدير في (البحر المحيط) ، ثم علّق عليه بقوله : «وهو تقدير لا يصح ؛ لأن [مِن] في ﴿مِن جُنْدٍ﴾ زائدة ، ومذهب البصريين - غير الأخفش - أن لزيادتها شرطين : أحدهما أن يكون قبلها نفي أو نهي أو استفهام ، والثاني أن يكون بعدها نكرة ، وإن كان كذلك فلا يجوز أن يعطف معرفة على النكرة ، لا يجوز مثلا : ما ضربتُ من رجل ولا زيد ، ولا يجوز : ولا من زيد ، وهو - يعني ابن عطية - قدر المعطوف بـ (الذي) ، وهو معرفة ، فلا يصح أن يعطف على النكرة المحرورة بمن الزائدة .

(٢) هو معاذ بن الحارث الأنصاري ، النجاري ، القاري ، قيل : هو أبو حليلة أحد من أقامه عمّ رضي الله عنه بمصلى التراويح ، ويقال : هو آخر يكنى أبا الحارث ، صحابي صغير ، استشهد بالحرة سنة ثلاث وستين . (تقريب التهذيب) .

(٣) ضعفها أبو حاتم لوجود التاء في [كانت] ؛ إذ الأصل ألا تلحق التاء الفعل في مثل هذا التركيب ، فلا تقول مثلا : ما قامت إلا هند ، وإنما المختار في اللغة أن تقول : ما قام إلا هند ، وذلك أن الكلام محمول على معناه ، والمعنى : ما قام أحد إلا هند ، وقد جوز بعضهم مجيء التاء هنا ، وقال : هي جائزة في الشعر ، وفي الكلام أيضاً ، أما في الشعر فقد جاءت في قول ذي الرمة :

بَرَى النَّحْزُ وَالْأَجْرَالُ مَا فِي غُرُوضِهَا وَمَا بِقَيْتِ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِيعُ
وقال غيره :

مَا بَرَيْتُ مِنْ رِيَّةٍ وَذَمٌّ فِي حَرَبِنَا إِلَّا بَنَاتُ الْعَمِّ

وقد قرأ الحسن ، والجاحدري ، ومالك بن دينار ، وقتادة ، وأبو حيوه ، وأبو رجاء ، وابن أبي عمير ، قوله تعالى : ﴿لَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾ بالتاء ، والقراءة المشهورة بالياء ، وقراءة =

أنها ليست (كان) التي تطلب الاسم والخبر ، وإنما التقدير : ما وقعت أو حدثت إلا صيحة واحدة . وقرأ ابن مسعود ، وعبد الرحمن بن الأسود (١) : «إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً» ، وهي الصيحة من الديك ونحوه من الطير (٢) . و [خَامِدُونَ] : ساكتون موتى لاطون بالأرض (٣) ، شُبِّهُوا بالرماد الذي خمدت ناره وطفئت .

وقوله تعالى : (يَا حَسْرَةً) نداء لها على معنى : هذا وقت حضورك وظهورك ، هذا تقدير نداء مثل هذا عند سيبويه ، وهو معنى قويم

= التاء تؤيد جواز التأنيث . وقد أجاز أبو الفتح قراءة التاء ، وقال : «ولكن لما كان محصول الكلام - في آيتنا هذه - «قد كانت صيحة واحدة» جيء بالتأنيث إخلاداً إليه ، وحملنا لظاهر اللفظ عليه» ، وابن عطية يوافق أبا عثمان بن جني في اتجاهه حين يقول : إن (كان) هنا ليست هي الناقصة التي تحتاج إلى اسم وخبر ، بل هي التامة ، والمعنى : «ما وقعت إلا صيحة واحدة» .

(١) عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهري ، ولد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومات أبوه في ذلك الزمان ، ولذلك عُدد في الصحابة ، وقال العجلي : «هو من كبار التابعين» . (تقريب التهذيب) .

(٢) ضعف العلماء هذه القراءة لسبيين : أولهما أنها مخالفة للمصحف ، وثانيهما أن الفعل (زَقَا) واوي ، يقال : زقا يزقو ، ومنه المثل «أثقل من الزواقي» ، فكان يجب أن تكون هذه القراءة : (زقوة) لا (زقبة) . قال ذلك النحاس ، ونقله عنه القرطبي ، ولكن القراءة قال : إن (زقبة) بالياء صحيحة ، واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

تَلِدُ غُلَامًا عَارِمًا بُودِيكَ وَلَوْ زَقَيْتِ كَزُقَاءِ الدِّيكِ

وقال : يقال : زقوت وزقيت .

(٣) لاط بالأرض : لصق بها ، يقال : لاط الشيء بقلبي ، أي : لصق به وأحبيته ، فالمعنى هنا أنهم ساكتون موتى لاصقون بالأرض .

في نفسه ، وهو منادى منكور على هذه القراءة (١) . وقال الطبري :
 المعنى : يا حسرة العباد على أنفسهم ، وذكر أنها في بعض القراءات
 كذلك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : يا ويلاً للعباد .
 وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وعلي بن الحسين ، ومجاهد ، وأبي
 ابن كعب : ﴿ يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ ﴾ بالإضافة (٢) . وقول ابن عباس
 حسن مع قراءته ، وتأويل الطبري ذلك في القراءة الأولى ليس بالبين ،
 وإنما يتجه أن يكون المعنى تلهفاً على العباد كان الحال يقتضيه ،
 وطباع كل بشر توجب عند سماعه حالهم وعذابهم على الكفر وتضييعهم
 أمر الله تعالى أن يُشفق ويتحسر على العباد . وقال أبو العالية : المراد
 بالعباد الرسل الثلاثة ، فكأن هذا التحسر من الكفار ، حين رأوا عذاب
 الله تلهفوا على ما فاتهم ، وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾
 الآية ، يدافع هذا التأويل .

والحسرة : التلهفات التي تترك صاحبها حسيراً ، وقرأ الأعرج ،
 ومسلم بن جندب (٣) ، وأبو الزناد (٤) : [يَا حَسْرَةَ] بالوقف على الهاء ،

(١) يريد أنه منادى نكرة .

(٢) وعلى هذه القراءة يجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم ، وتكون كلمة [الْعِبَادِ]
 فاعلا في المعنى ، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم لِمَا فاتهم من اتباع الرسل ،
 وتكون كلمة [الْعِبَادِ] مفعولا في المعنى .

(٣) مسلم بن جندب الهذلي ، المدني ، القاص ، ثقة فصيح قارئ ، من الثالثة ، مات
 سنة ست ومائة . (التقريب) .

(٤) عبد الله بن ذكوان القرشي ، أبو عبد الرحمن ، المدني ، المعروف بأبي الزناد ،
 ثقة ، فقيه ، من الخامسة ، مات سنة ثلاثين ، وقيل : بعدها ، (التقريب) .

وذلك على الحرص على بيان معنى الحسرة وتقريره للنفس ، والنطقُ
بالهاء في مثل هذا أبلغ في التشفيق وهز النفس ، كقولهم : أَوْهٌ ونحوه (١) .
وقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ الآية ، تمثيل لفعل قريش .

ثم عناهم بقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ ، و [كَمْ] هنا خبرية ،
و [أَنَّهُمْ] بدلٌ منها ، و «الرؤية» رؤية البصر ، وفي قراءة ابن مسعود :
«أولم يروا من أهلكنا» ، وقرأ الجمهور [أَنَّهُمْ] بفتح الألف ،
وكسرها الحسن البصري . وقرأ الجمهور : [لَمَّا] بتخفيف الميم ،
وذلك على زيادة (ما) للتأكيد ، والمعنى : «لجميع» ، وشددها الحسن ،
وابن جبير ، وعاصم ، وقالوا : هي بمنزلة (إِلَّا) (٢) ، وقيل : المراد :
(لَمَّا) حذفت إحداهما ، وفيه ضعف ، وفي حرف أبي : «وَأَنَّ
منهم إِلَّا جميعٌ لدينا محضرون» ، قال قتادة : محشورون يوم القيامة .

(١) قال أبو الفتح : في هذه القراءة نظر ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْعِبَادِ ﴾
متعلق بالحسرة ، أو صفة لها ، وعلى كلا الأمرين لا يحسن الوقوف عليها دونه . ثم وجه
الوقوف في كلام طويل يمكن الرجوع إليه في المحتسب ٢-٢٠٨ وما بعدها .

(٢) ذكر أبو عبد الله الرازي تعليلاً مناسباً في كون (لَمَّا) بمعنى (إِلَّا) ، قال : «إنَّ
(لَمَّا) كأنها حرفا نفي جميعاً ، وهما (لَمْ) و (مَا) ، فتأكد النفي ، وكذلك (إِلَّا) كأنها
حرفا نفي ، وهما (إِنْ) و (لَا) ، فاستعمل أحدهما مكان الآخر» ، وقد أخذ هذا من
قول الفراء في (إِلَّا) في الاستثناء ، وأنها مركبة من (إِنْ) و (لَا) .

قوله عز وجل :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ يَا كُلُونَ ﴿٣٣﴾
 وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ
 ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَمَا عَلَّمْتَهُ أُيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا
 مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

[آية] معناه : علامة على الحشر وبعث الأجساد ، والضمير في [لَهُمْ] يراد به كفار قريش ، وقرأ نافع ، وشيبة ، وأبو جعفر : [الْمَيِّتَةُ] بكسر الياء وشدها ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم بسكون الياء خفيفة ، وإحيائها بالمطر .

وقرأ الجمهور : [ثَمَرِهِ] بفتح الثاء والميم ، وقرأ طلحة ، وابن وثاب ، وحمزة ، والكسائي بضمهما ، وقرأ الأعمش بضم الثاء وسكون الميم ، والضمير فيه قالت فرقة : هو عائد على الماء الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿ مِنْ الْعُيُونِ ﴾ ؛ لأن التقدير : (ما) ، وقالت فرقة : هو عائد على جميع ما تقدم مُجْمَلًا ، كأنه قال : « من ثَمَرِ ما ذكرنا » ، وقال أبو عبيدة : هو من باب أن يذكر الإنسان شيئين أو ثلاثة ثم يعيد الضمير على واحد ويكني عنه ، كما قال الأزرق

ابن طرفة بن العمرّد الفراسي الباهلي :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئاً ، وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي (١)
وهذا الوجه في الآية ضعيف .

و [مَا] في قوله تعالى : (وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ) ، قال الطبري :
هي اسم معطوف على « الثمر » ، أي : ويقع الأكل من الثمر ومما
عملته الأيدي بالغرس والزراعة ونحوه . وقالت فرقة : هي مصدرية ،
وقيل : هي نافية ، والتقدير : إنهم يأكلون من ثمره وهو شيء لم
تعمله أيديهم ، بل هي نعمة من الله تبارك وتعالى عليهم . وقرأ جمهور
القراء : [عَمِلَتْهُ] بالهاء الضمير ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم -
في رواية أبي بكر - ، وطلحة ، وعيسى : [عَمِلْتُ] بغير ضمير .

(١) البيت في (الكتاب) لسيبويه ، وفي اللسان (جول) ، وقد نُسب فيهما إلى ابن
أحمر ، وقد ذكر في اللسان نسبته للأزرق ، وقد كان بين الشاعر وبين خصم له حكومة في
بئر ، فقال خصمه : إنه لص ابن لص ، فقال الشاعر قصيدته ، وبعد البيت يقول :

دَعَانِي لِيَصَّأً فِي لُصُوصٍ وَمَا دَعَا بِيهَا وَالْيَدِي فِيمَا مَضَى رَجْسَلَانِ
ورماني معناها : قذفني بأمر كرهه ، والطَّوِيُّ : البئر التي طُوِيَتْ بالحجارة ، قال في اللسان :
« وهي مُدَكَّرٌ ، فَإِنْ أَنْتَ فَعَلَى الْمَعْنَى » ، وفي حديث قتلى بدر : (فَقُذِفُوا فِي طَوِيِّ مِنْ أَطْوَاءِ
بَدْرٍ) ، وعلى هذا فجمع طوي : أطواء . ويروى البيت كما في اللسان (جول) : « وَمِنْ
جَوْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي » ، والجول : جدار البئر أو كل ناحية من نواحي البئر . والشاهد أنه
ذكر نفسه ووالده ثم أعاد الضمير مفرداً في قوله : (بريئاً) ، قال سيبويه في الكتاب : « فوضع
في موضع الخبر لفظ الواحد ؛ لأنه قد علم أن المخاطب سيستدلُّ به على أن الآخر في هذه
الصفة » . وانظر شرح المرزوقي للحماسة .

ثم نزه تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يُلحد به ملحد ،
أو يشرك به مشرك . و «الْأَزْوَاجُ» : الأنواع من كل شيء ، وقوله :
(وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) نظيره قوله : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١) .

قوله عز وجل :

﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ آيِلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ مَّا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ
حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ
وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾﴾

هذه الآيات جعلها الله تعالى أدلة على القدرة ووجوب الألوهية له ،
و [نَسْلَخُ] معناه : نكشطُ ونقشر ، فهي استعارة ، و [مُظْلِمُونَ] :
داخلون في الظلام ، واستدل قوم من هذه الآية على أن الليل أصل
والنهار فرع طارى عليه ، وفي ذلك نظر .

و «مُسْتَقَرُّ الشَّمْسِ» - على ما روي في الحديث عن النبي عليه
الصلاة والسلام من طريق أبي ذر رضي الله تعالى عنه - بين يدي العرش ،
تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها (٢) ، وفي حديث آخر أنها تسجد

(١) من الآية (٨) من سورة (النحل) .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ
في (العظمة) ، وابن مردويه ، والبيهقي في (الأسماء والصفات) ، عن أبي ذر رضي الله عنه ، =

في عين حمئة ولها وجبة عظيمة . وقالت فرقة : مُسْتَقَرُّهَا هو في يوم
القيامة حين تُكْوَرُ ، فهي تجري لذلك المُسْتَقَرُّ . وقالت فرقة : مُسْتَقَرُّهَا
كناية عن غيوبها ؛ لأنها تجري كل وقت إلى حدٍّ محدود تَغْرُبُ فيه .
وقيل : مُسْتَقَرُّهَا آخر مطالعها في المنقلبَيْن لأنها نهايتا مطالعها ،
فإذا استقر وصولها كرت راجعة ، وإلا فهي لا تستقر عن حركتها
طرفة عين ، ونحا إلى هذا ابن قُتَيْبَةَ . وقالت فرقة : مُسْتَقَرُّهَا وقوفها
عند الزوال في كل يوم ، ودليل استقرارها وقوف ظلال الأشياء حينئذ .
وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود ، وعكرمة ، وعطاء بن أبي
رباح ، وأبو جعفر محمد بن علي ، وجعفر بن محمد عليهم السلام :
(لَا مُسْتَقَرُّ لَهَا) .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والحسن ، والأعرج :
[وَأَلْقَمَرُ] بالرفع عطفاً على [أَلَلَّيْلُ] ، عطف جملة على جملة ، ويصح
وجه آخر ، وهو أن يكون ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ ابتداءً وخبره محذوف ،
كأنه قال : في الوجود والمشاهدة ، ثم فسّر ذلك بجملتين من ابتداء

= قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس ، فقال : يا أبا ذرٍّ ،
أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت
العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ ، قال : مُسْتَقَرُّهَا
تحت العرش ، والحديث أيضاً في مسلم ، وقد قال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ، وقال
الإمام النووي في شرح مسلم : « اختلف المفسرون في سجودها ، فقال جماعة بظاهر الحديث » ،
وقال ابن العربي : « أنكروا قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأولوه قوم على ما هي عليه
من التسخير الدائم » .

وخبر وابتداءً وخبر ، الليلُ واحدة ، والقمر ثانية . وقرأ الباقون
بنصب « القمر » على إضمار فعل يُفسره [قَدَرْنَاهُ] ، وهي قراءة
أبي جعفر ، وابن محيصة ، والحسن - بخلاف عنه - . و [مَنَازِلَ]
نصب على الظرف ، وهذه المنازل هي المعروفة عند العرب ، وهي
ثمانية وعشرون منزلة ، يقطع القمر منها كل ليلة أقل من واحدة
فيما يزعمون ، وعودته هي استهلاله رقيقاً ، وحينئذ يُشبه العرجون ،
وهو الغصن من النخلة الذي فيه شماريح الثمر ، فإنه ينحني ويصفر
إذا قدم ، ويجيء أشبه شيءٍ بالهلال ، قاله الحسن بن أبي الحسن ،
والوجود يشهد به ، وقرأ سليمان التيمي : [كَالْعِرْجُونِ] بكسر العين ،
و [أَلْقَدِيمِ] معناه : العتيق الذي قد مرَّ عليه زمن طويل .

و [يَنْبَغِي] هنا مستعملة فيما لا يمكن خلافه ؛ لأنها لا قدرة
لها على غير ذلك . وقرأ الجمهور : ﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بالإضافة ، وقرأ
عبادة : ﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بدون تنوين في القاف وبنصب [النَّهَارَ] ،
ذكره الزهراوي وقال : حذف التنوين تخفيفاً . و «أَلْفَلَكُ» - فيما
روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - متحركٌ مستدير كفلكة المنزل ،
فيه جميع الكواكب . و [يَسْبَحُونَ] معناه : يجرون ويعومون ، قال
مكي : لما أسند إليها فعلٌ من يعقل جُمعت بالواو والنون .

قوله عز وجل :

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

[وَأَيَّةٌ] معناه : وعلامةٌ ودليلٌ ، ورفعها بالابتداء ، وخبرها في قوله : [لَهُمْ] ، و [أَنَا] بدلٌ من [آيَةٍ] ، وفيه نظر ، ويجوز أن تكون (أَنْ) مفسرة لا موضع لها من الإعراب . و «الْحَمَلُ» : منع الشيء أن يذهب سفلاً ، وذكر الذرية لضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أمكن .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والأعمش : [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع ، وقرأ الباقر بالإفراد ، وهي قراءة طلحة ، وعيسى ، والضمير المتصل بالذريات هو ضمير الجنس ، كأنه قال : ذريات جنسهم أو نوعهم ، هذا أصح ما يتجه في هذا ، وخلط بعض الناس في هذا حتى قالوا : الذرية تقع على الآباء ، وهذا لا يُعرف لغةً .

وأما معنى الآية فيحتمل تأويلين : أحدهما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - وجماعة ، وهو أن يريد بالذريات المحمولين أصحاب

نوح عليه السلام في السفينة ، ويريد بقوله : ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ السفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة ، وإياها أراد بقوله : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ . والتأويل الثاني قاله مجاهد ، والسدي ، وروي عن ابن عباس أيضاً ، وهو أن يريد بقوله : ﴿ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية ، السفن الموجودة في بني آدم إلى يوم القيامة ، ويريد بقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ الآية ، الإبل وسائر ما يُركب ، فتكون المماثلة في أنه مركوب مُبلِّغ إلى الأقطار فقط ، ويعود قوله : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ على السفن الموجودة في الناس ، وأما من خلط القولين فجعل الذرية في الفلك قوم نوح عليه السلام في سفينته ، وجعل ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ في الإبل ، فإن هذا نظر فاسد يقطع به قوله : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ ، فتأمله . و « الفلُّكُ » جمعٌ ، والإفراد على وزنه ، ولكن ليست حركات الجمع حركات الإفراد . و [أَلْمَشْحُونُ] : الموقر ، و [مِنْ] في قوله : ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ يتجه على أحد التأويلين أن تكون للتبعيض ، وعلى التأويل الآخر أن تكون لبيان الجنس ، فانظره ، ويقال : الإبل مراكب البر .

و « الصَّريخُ » هنا بناءُ الفاعل ، بمعنى : المُصْرِخُ ، وذلك أنك تقول : صارخ بمعنى مستغيث ، ومُصْرِخٌ بمعنى مُغيث ، ويَجِيءُ صريخ مرةً بمعنى هذا ومرةً بمعنى هذا ؛ لأنَّ فِعْلاً من أبنية اسم الفاعل ، فمرة : يَجِيءُ من صَرَخَ إذا استغاث ، ومرة : يَجِيءُ من أَصْرَخَ إذا أغاث .

وقوله : ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ ، قال الكسائي : نصب على الاستثناء ، كأنه قال : إلا أن نرحمهم ، وقال الزجاج : نصب على المفعول من أجله ، كأنه قال : إلا لأجل رحمتنا إياهم . وقوله : [مَتَاعاً] عطف على قوله : [رَحْمَةً] ، و﴿إِلَى حِينٍ﴾ يريد آجالهم المضروبة لهم . والكلام تام في قوله : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ استئناف إخبار عن السائرين في البحر ، ناجين كانوا أم مغرقين ، فهم بهذه الحال لا نجاة لهم إلا برحمة الله . وليس قوله : ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ مربوطاً بالمُغْرَقِينَ ، وقد يصح ربطه به ، والأول أحسن فتأمل .

ثم ابتدأ الإخبار عن عتو قريش بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الآية . و «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» قال مقاتل ، وقتادة : هو عذاب الأمم التي سبقتهم في الزمن ، و «ما خلفهم» هو عذاب الآخرة التي تأتي بعدهم في الزمن ، وهذا هو النظر ، وقال الحسن : خوفوا بما مضى من ذنوبهم وبما يأتي منها ، وهذا نحو الأول في المعنى ؛ لأن التخويف بالذنب إنما هو من عقابه والمجازاة عليه . وقال مجاهد : «ما بين أيديهم» هو الآخرة ، و «ما خلفهم» عذاب الأمم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فجعل الترتيب كأنهم يسرون من شيء إلى شيء ، ولم يعتبر وجود الأشياء في الزمن ، وهذا النظر يكره عليه قوله تعالى : ﴿وَمُصَدِّقًا

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿١﴾ ، وإنما المُطْرَدُ أَنْ يَقَاسَ مَا بَيْنَ الْيَدِ
والخلف بما يسوقه الزمن ، فتأمله . وجواب [إذا] في هذه الآية محذوف ،
تقديره : أَعْرَضُوا ، ويفسره قوله سبحانه : ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ،
و «الآيات» : العلاماتُ والدلائل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا
الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ
يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [لَهُمْ] لِقُرَيْشٍ . وسبب هذه الآية أن
الكفار لما أسلم حواشيهم من الموالي وغيرهم من المستضعفين ، قطعوا
عنهم نفقاتهم وجميع صلواتهم ، وكان الأمر بمكة أولاً فيه بعض
الاتصال في وقت نزول آيات المَوَادعة ، فندب أولئك المؤمنون
قرباتهم من الكفار أن يصلوهم ، وأن ينفقوا عليهم مما رزقهم الله ،

(١) من الآية (٤٦) من سورة (المائدة) .

فقالوا عند ذلك : ﴿ أَنْطِعُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ ﴾ . قال الرماني :
ونسوا ما يجب من التعاطف وتآلف الجنس .

وقالت فرقة : سببها أن قريشاً شحّت - بسبب أزمة - على المساكين
جميعاً من مؤمن وغيره ، فندبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النفقة
على المساكين ، فقالوا هذا القول .

وقولهم يحتمل معنيين من التأويل : أحدهما يخرج على اختبارات
لجهال العرب ، فقد رُوي أن أعرابياً كان يرعى إبله ، فيجعل السمان
في الخصب والمهازيل في المكان الجذب ، ف قيل له في ذلك فقال :
أكرم ما أكرم الله وأهين ما أهان الله ، فيخرج قول قريش على هذا
المعنى ، كأنهم رأوا الإمساك عن أمسك الله عنه رزقه ، ومن أمثالهم :
« كن مع الله على المدبر » . والتأويل الثاني أن يكون كلامهم بمعنى
الاستهزاء بقول محمد صلى الله عليه وسلم : إن ثمّ إلهاً هو الرزاق ،
فكأنهم قالوا : لم لا يرزقهم إلهك الذي تزعم ؟ أي : نحن لا نطعم
من لو يشاء هذا الإله الذي زعمت لأطعمه ، وهذا كما يدعي الإنسان
أنه غنيّ ثم يحتاج إلى معونتك في مال فتقول له - على جهة الاحتجاج
والهُزء به - : أتطلب معونتي وأنت غنيّ ؟ أي : على قولك .

وقوله : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يحتمل أن يكون من
قول الكفرة للمؤمنين ، أي : في أمركم لنا بنفقة أموالنا ، وفي غير

ذلك من دينكم ، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى للكفرة ، استأنف زجرهم بهذا .

ثم حكى عنهم - على جهة التقرير عليهم - قولهم : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أي يوم القيامة الذي تزعم ، وقيل : أرادوا : متى هذا العذاب الذي تنهّدنا به ؟ وسموا ذلك وعداً من حيث تفيد قرائن الكلام أنه في شرٍّ ، والوعد متى وَرَدَ مطلقاً فهو في خير ، وإذا قِيدَ بقريئة الشرِّ استعمل فيه ، والوعيد دائماً هو في الشرِّ .

و [يَنْظُرُونَ] معناه : ينتظرون ، و [مَا] نافية ، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة والنفخة الأولى في الصور ، روي ذلك عن عبد الله ابن عمر ، وأبي هريرة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) ،

(١) حديث ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، قال : « لَيْسُنْفَخَنَّ فِي الصُّورِ وَالنَّاسِ فِي طَرَقِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ ، حَتَّىٰ أَنْ الثُّوبَ لِيَكُونَ بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ يَتَسَاوَمَانِ فَمَا يَرْسَلُهُ أَحَدُهُمَا مِنْ يَدِهِ حَتَّىٰ يُنْفَخَ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ بِهِ ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهَمُّ يَعْصِمُونَ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، » . وحديث أبي هريرة أخرجه سعيد بن منصور ، والبخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجْلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتْبَاعَانَهُ وَلَا يَطْوِيَانَهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلْبَنٍ لَقَحْتَهُ فَلَا يَطْعَمُهُ - وَاللَّقَحَةُ : النَّاقَةُ الْحُلُوبُ الْغَزِيرَةُ اللَّبَنُ - وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَىٰ فَمِهِ فَلَا يَطْعَمُهَا) ، =

وفي حديثه أن بعدها نفخة الصَّعق ، ثم نفخة الحشر ، وهي التي تدوم فما لها من فواق .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والأعرج ، وشبل ، وابن قسطنطين المكي : [يَخْصِمُونَ] بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد المكسورة ، وأصلها يَخْتَصِمُونَ ، نقلت حركة التاء إلى الخاء وأدغمت التاء الساكنة في الصاد . وقرأ نافع ، وأبو عمرو أيضاً بفتح الياء وسكون الخاء وشدَّ الصاد المكسورة ، وفي هذه القراءة جمع بين ساكنين ولكنه ليس بجمع مخض ، ووجهها أبو علي ، وأصلها : يَخْتَصِمُونَ ، حذف حركة التاء دون نقل وأدغمت في الصاد . وقرأ عاصم ، والكسائي ، وابن عامر ، ونافع أيضاً ، والحسن ، وأبو عمرو - بخلاف عنه - بفتح الياء وكسر الخاء وشدَّ الصاد المكسورة ، أصلها : يَخْتَصِمُونَ ، أُعِلَّت كالتالي قبلها ثم كسرت للالتقاء . وقرأت فرقة بكسر الياء والخاء وشدَّ الصاد المكسورة كالتالي قبلها ثم أتبعته كسرة الخاء بكسرة الياء ، وفي مصحف أبي بن كعب «يَخْتَصِمُونَ» .

= هكذا ذكرهما السيوطي في (الدر المنثور) ، الأول غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني مرفوع ، وذكر السيوطي أيضاً أن عبد الرزاق ، والفريري ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه أخرجوا عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية قال : « تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويدرعون الثياب ويحلبون اللقاح ، وفي حوائجهم ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » . دون أن يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ومعنى هذه القراءات كلها أنهم يتحاورون ويتراجعون الأقوال بينهم ويتدافعون في شئونهم . وقرأ حمزة : «يَخْصُمُونَ» ، وهي تحمل معنيين : أحدهما ما في القراءات قبلها ، أي : يخضم بعضهم بعضاً ، والثاني أنهم يخضمون أهل الحق في زعمهم ، كأنه قال : تأخذهم الصيحة وهم يظنون بأنفسهم أنهم خَصَمُوا أو غَلَبُوا ؛ لأنك تقول : خاصمت فلاناً فخصمته ، إذا غلبته .

وقوله : ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ عبارة عن إعجال الحال ، و «التَّوْصِيَةُ» مصدر من : وصى ، وقوله : ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يحتمل تأويلات : أحدها : ولا يرجع أحدٌ إلى منزله وأهله لإعجال الأمر ، بل تقبض نفسه حيثما أخذته الصيحة ، والثاني معناه : ولا إلى أهلهم يرجعون قولاً ، وهذا أبلغ من الاستعجال ، وخص بالذكر الأهل لأن القول معهم في ذلك الوقت أهم على الإنسان من الأجنبيين وأؤكد في نفوس البشر ، والثالث تقديره : ولا إلى أهلهم يرجعون أبداً ، فخرج هذا عن معنى وصف الاستعجال إلى معنى ذكر انقطاعهم وانبتارهم من دنياهم .

وقرأ الجمهور : [يَرْجِعُونَ] بفتح الياء وكسر الجيم ، وقرأ ابن محيصن بضم الياء وفتح الجيم .

قوله عز وجل :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا
يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۚ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالِیَوْمَ
لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه نفخة البعث ، و «الصور» : القرون في قول جماعة المفسرين ،
وبذلك تواردت الأحاديث (١) ، وذهب أبو عبيدة إلى أنه جمع صورة ،
خرج مخرج بسر و بسرة ، وكذلك سورة البناء جمعها سور (٢) ،
والمعنى عنده وعند من قال بقوله : نفخ في صور بني آدم فعادوا

(١) من ذلك ما رواه المبارك بن فضالة عن الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بين النفختين أربعون سنة : الأولى يميت الله بها كل حي ، والأخرى يحيي الله بها كل ميت) . ومنها حديث متفق عليه ، رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما في مسلم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بين النفختين أربعون) ، قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، (ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل) قال : (وليس من الإنسان شيء لا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) ، ومعنى قول أبي هريرة : «أبيت» : امتنعت عن الكلام لأنني لا أدري ما هو الصواب .

(٢) وفي ذلك استشهدوا بقول العجاج :

وربّ ذي سرّادقٍ محجّجٍ سورٍ سيرتُ إليه في أعالي السورِ

أحياء . و «الأجداثُ» : القبور^(١) ، وقرأ الأعرج : « في الصورِ »
بفتح الواو ، جمع صورَة . و [يَنسِلُونَ] : يمشون مشية الذئب بسرعة ،
ومنه قول الشاعر :

عَسَلَانَ الذُّئْبِ أَمْسَى قَارِباً بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلَ^(٢)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [يَنسِلُونَ] : يخرجون ، وقرأ الجمهور
بكسر السين ، وضمها ابن أبي إسحق ، وأبو عمرو .

ونداؤهم بالويل هو بمعنى : هذا وقتك وأوان حضورك ، وهو
منادى مضاف ، ويحتمل أن يكون نصبه على المصدر والمنادى محذوف ،
كأنهم قالوا : «يا قومنا ويَلْنَا» ، وقرأ ابن أبي ليلى : «يَا وَيَلْتَنَا»
بتاء التانيث^(٣) . وقرأ الجمهور : «مَنْ بَعَثْنَا» ؟ على معنى الاستفهام ،
وروي عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قرآ : «مِنْ بَعَثْنَا»
بكسر الميم مِنْ [مِنْ] وبسكون العين وكسر الثاء في [بَعَثْنَا] نصباً
على المصدر ، وفي قراءة ابن مسعود : «مَنْ أَهْبَنَّا مِنْ مَرَقَدِنَا» ، وفي

(١) الحدثُ - بالثاء - : القبر ، والجمع أجداث ، وقد وردت بالفاء ، يقال : جدفُ
وأجدافُ ، وقد ذكر الزمخشري أنه قرئ بها ، قال المتنخل الهذلي :

عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فَنِعَافٍ عِزْقٍ عِلَامَاتٍ كَتَّحْبِيرِ النَّمَاطِ

(٢) قيل : هذا البيت للبيد ، وقيل : للناطقة الجعدي ، وهو في اللسان (نَسَلَ) غير
منسوب ، وفيه أيضاً (عَسَلَ) منسوب إلى لبيد ، وعَسَلَ الذئبُ والثعلبُ يَعْسِلُ يَعْسَلُ
وعَسَلَانًا : مضى مسرعاً واضطرب في عَدُوهُ وهَزَّ رَأْسَهُ . والقاربُ : هو الذي يطلب
الماء ، وقد حدده الخليل بمن يطلب الماء لَيْلًا فقط ، ونَسَلَ : أَسْرَعَ ، وهي موضع الشاهد هنا .
(٣) ومثل ذلك قوله تعالى : «يَا وَيَلْتَنَا أَلِيدُ وَأَنَا عَجُوزٌ» ؟ أصله : يا ويلتي ،

أبدلت الياء ألفاً لأنه نداء ، فهو في موضع تخفيف .

قراءة أُبَيٍّ : « مَنْ هَبْنَا » . قال أبو الفتح : لم أر لها في اللغة أصلاً ، ولا مرَّ بنا « مَهْبُوبٌ » (١) ، ونسبها أبو حاتم إلى ابن مسعود ، وقولهم : ﴿ مِنْ مَرَقِدِنَا ﴾ يحتمل أنهم يريدون موضع الرقاد حقيقة ، ويروى عن أُبَيِّ بن كعب ، وقتادة ، ومجاهد أن جميع البشر ينامون نومةً قبل الحشر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير صحيح الإسناد ، وإنما الوجه في قولهم : ﴿ مِنْ مَرَقِدِنَا ﴾ أنها استعارة وتشبيه ، كما تقول في قتل : هذا مرقده إلى يوم القيامة ، وفي الشعبي أنهم قالوا : ﴿ مِنْ مَرَقِدِنَا ﴾ لأنَّ عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم . وقال الزجاج : يجوز أن يكون [هَذَا] إشارة إلى المرقد ، ثم استأنف بقوله : ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ ، ويُضمر الخبر : « حَقٌّ » أو نحوه ، وقال الجمهور : ابتداء الكلام : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ ﴾ .

واختلف في هذه المقالة ، من قالها ؟ فقال ابن زيد : هي من قول الكفار لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ،

(٢) ومن تنمة كلامه : ما مرَّ بنا مَهْبُوبٌ بمعنى مَوْقَظٌ ، وهي - مع حسن الظن بأبي - مقبولة . أمَّا (أَهْبَيْنَا) بالهمزة فهي أَقْيَسُ القراءتين ، يقال : هبَّ من نومه ، أي : انتبَهَ ، وَأَهْبَيْتُهُ أَنَا ، أي : أُنْبَهَيْتُهُ ، قال الشاعر :

أَلَا أَيُّهَا النَّوَامُ وَيَحْكُمُ هَيْشُوا أَسَانِدِكُمْ : هَلْ يَمْتَلُ الرَّجُلُ الْحُبُّ ؟

وهذا البيت الذي استشهد به أبو الفتح في المحتسب هو واحد من سبعة أبيات قالها جميل ، وتجدها في (سمط اللآلي) ، وانظر أيضاً الأمامي لأبي علي القالي .

وقالت فرقة : ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف ، وقال الفراء : هو من قول الملائكة ، وقال قتادة ومجاهد : هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقريع .

ثم أخبر تعالى أن أمر القيامة والبعث من القبور ما هو إلا صيحة واحدة فإذا الجميع حاضر محشور ، وقرأت فرقة : ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ بالنصب ، وفرقة بالرفع ، وقد تقدم إعراب نظيرها .

وقوله : [فَالْيَوْمَ] نصب على الظرف ، يريد يوم الحشر المذكور ، وهذه مخاطبة يحتمل أن تكون لجميع العالم .

قوله عز وجل :

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكِعُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطٰنَ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن حال أهل الجنة بعد ذكره أهوال القيامة وحالة الكفار . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وطلحة ، وخالد بن إلياس :

(في شُغْلٍ) بضم الشين وسكون الغين ، وقرأ الباقون : (في شُغْلٍ) بالضم فيهما ، وهي قراءة أهل المدينة والكوفة ، وقرأ مجاهد ، وأبو عمرو أيضاً بالفتح فيهما ، وقرأ ابن هُبَيْرَةَ على المنبر بفتح الشين وسكون الغين ، وهي كلها بمعنى واحد .

واختلف الناسُ في تعيين هذا الشغل ، فقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن المسيب : افتضاضُ الأَبكار ، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما : سماع الأوتار ، وقال مجاهد : معناه نعيم قد شغلهم ، وهذا هو القول الصحيح ، وتعيين شيءٍ دون شيءٍ لا قياس له ، ولما كان النعيم كله نوعاً واحداً من حيث هو نعيم وَحْدَهُ فقال : (في شُغْلٍ) ، ولو اختلف لقال : في أشغال ، وحكى الثعلبي عن طاوس أنه قال : لو علم أهل الجنة عمَّن شغلوا ما هناهم ما شغلوا به ، قال الثعلبي : وسئل بعض العلماء عن قوله عليه الصلاة والسلام : (أكثر أهل الجنة البُلَّةُ) (١) ، فقال : لأنهم شغلوا بالنعيم عن المُنعَم . وقرأ جمهور الناس : [فَاكِهُون] ، ومعناه : أصحابُ فاكهة ، كما يقال : نامرُّ ولابنٌ وشاحمٌ ولاحمٌ ، وقرأ أبو رجاء ، ومجاهد ، ونافع أيضاً ، وأبو جعفر : [فَكِهُون] ، ومعناه : فرحون طربون ، مأخوذ من : الفكاهة ، أي : لاهمَّ لهم ، وقرأ طلحة ، والأعمش ، وفرقة : [فَاكِهِين] ، جعلت الخبر في الظرف الذي هو قوله : (في شُغْلٍ) ، ونصبت [فَاكِهِين] على الحال .

(١) أخرجه البزارُ عن أنس ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالضعف .

قوله تعالى : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ﴾ ، [هُمْ] ابتداءً ،
 [وَأَزْوَاجُهُمْ] معطوف عليه ، (في ظلالٍ) خبره ، ويحتمل أن يكون
 [هُمْ] بدلاً من قوله : [فَاكِهِونَ] ، ويكون قوله : (في ظلالٍ) في
 موضع الحال ، كأنه قال : مُسْتَظِّلِينَ . وقرأ الجمهور : [ظلالٍ] ،
 وهو جمع (ظلٌّ) ؛ إذ الجنة لا شمس فيها ، وإنما هوؤها سَجَسَجٌ (١)
 كوقت الإسفار قبل طلوع الشمس ، ويحتمل أن يكون جمع (ظلةٌ) ،
 قال أبو علي : كَبْرَمَة وِبِرَام ، وغير ذلك ، وقال منذر بن سعيد :
 ظَلَالٌ : جمع ظلةٌ بكسر الظاء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهي لغة في ظلةٌ . وقرأ حمزة ، والكسائي : (في ظلِّ) ، وهي
 جمع ظلةٌ ، وهي قراءة عبد الله ، وطلحة ، وأبي عبد الرحمن ،
 وهذه عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها من
 الأشياء التي تُظَلُّ وهي زينة .

و « الأرائكُ » : السُرُرُ المفروشة ، قال بعض الناس : من شروطها
 أن تكون عليها حَجَلَةٌ (٢) وإلا فليست بأريكة ، وبذلك قيدها ابن عباس ،
 ومجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، وقال بعضهم : الأريكة : السَّرِيرُ
 كان عليه حَجَلَةٌ أو لم تكن .

(١) يقال : يومٌ سَجَسَجٌ ، أي : لا حرَّ فيه ولا برد ، وهواءٌ سَجَسَجٌ : معتدلٌ
 طيب ، وكلام ابن عطية بعد الكلمة يفسر معناها .

(٢) الحَجَلَةُ : ساتر كالقبة يزِين بالثياب والستور للعروس .

وقوله : (مَا يَدْعُونَ) بمنزلة : ما يتمنون ، قال أبو عبيدة :
العرب تقول : « ادع علي ما شئت » ، بمعنى : تمن علي ، وتقول : « فلان
فيما ادعى » ، أي : فيما دعا به ؛ لأنه افتعل ، من دعا يدعو ، وأصل
هذا الفعل : يَدْتَعِيُونَ ، نُقِلت حركة الياء إلى العين قبلها ، وحذفت
الياء لاجتماعها مع الواو الساكنة ، فبقي يَدْتَعُونَ ، قلبت التاء دالاً
وأدغمت في الأخرى ، وخصت الدال بالبقاء دون التاء لأنها حرف
جلد والتاء حرف همس ، قال الرماني : المعنى : إن من ادعى شيئاً
فهو له ؛ لأنه قد هذبت طباعهم فهم لا يدعون إلا ما يحسن منهم .
قوله : [سَلَامٌ] ، قيل : هي صفة لـ [مَا] ، أي : مُسَلَّمٌ لهم وخالص^(١) ،
وقيل : هو ابتداء^(٢) ، وقيل : خبر ابتداء^(٣) ، وقرأ ابن مسعود ،
وعيسى الثقفي ، وأبي بن كعب ، والغنوي : [سَلَاماً] بالنصب على

(١) قال أبو حيان في البحر : « ولا يصح إن كانت (ما) بمعنى الذي ؛ لأنها تكون إذ
ذاك معرفة ، و (سَلَامٌ) نكرة ، ولا تنعت المعرفة بالنكرة ، فإن كانت (ما) نكرة موصوفة
جاز ، إلا أنه لا يكون فيه عموم كحالها بمعنى الذي .

(٢) والخبر فعل مُقَدَّرٌ ناصبٌ لقوله : (قَوْلًا) ، والتقدير : سلامٌ عليكم قولاً من رب رحيم .
أو يكون : عَلَيْكُمْ محذوفاً ، والتقدير : سلامٌ عليكم قولاً من رب رحيم .

(٣) يرى الزمخشري أن : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا ﴾ بدلٌ من ﴿ مَا يَدْعُونَ ﴾ ، كأنه قال
لهم : سلامٌ يقال لهم قولاً من جهة رب رحيم ، والمعنى أن الله تعالى يسلم عليهم بوساطة
الملائكة أو بغير وساطة مبالغة في تعظيمهم ، وذلك متمناهم ، ولهم ذلك لا يُمنعونه .

قال أبو حيان : « وإذا كان [سَلَامٌ] بدلاً من ﴿ مَا يَدْعُونَ ﴾ كان ﴿ مَا يَدْعُونَ ﴾
خصوصاً ، والظاهر أنه عموم في كل ما يدعون ، وإذا كان عموماً لم يكن [سَلَامٌ] بدلاً منه ،
وقيل : [سَلَامٌ] خبرٌ لـ ﴿ مَا يَدْعُونَ ﴾ ، و ﴿ مَا يَدْعُونَ ﴾ مبتدأ ، والمعنى : ولهم
ما يدعون سلامٌ خالص . »

المصدر ، وقرأ محمد بن كعب القرظي : [سَلِمٌ] وهو بمعنى (سلام) .
و [قَوْلًا] نصب على المصدر .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا زُورًا فَزُورًا﴾ الآية ، فيه حذف تقديره :
ويقول للكفرة ، وهذه معادلة لقوله تعالى لأصحاب الجنة : [سَلَامٌ] ،
و [أَمَّا زُورًا] معناها : انفصلوا وانحجزوا ؛ لأن العالم في الموقف إنما
هم مختلطون ، ثم خاطبهم بما يميزوا به توبيخاً لهم وتوقيفاً على عهده
إليهم ومخالفتهم عهده . وقرأ الجمهور : [أَعْهَدٌ] بفتح الهاء ، وقرأ
الهُدَلِيُّ ، وابن وثَّاب : ﴿أَلَمِ اعْهَدْ﴾ بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء ،
وهي على لغة من يكسر أول المضارع سوى الياء ، وروي عن ابن وثَّاب
[أَعْهَدٌ] بكسر الهاء ، ويقال : عَهِدَ وَعَهَدَ . و «عبادة الشيطان» :
طاعته والانقياد لأعدائه ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ،
والكسائي : ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ بضم النون من [أَنْ] ، وَأَتَّبَعُوا بِهَا
ضمة الباء والداد وواو الجماعة أيضاً^(١) . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ،
وحمزة : ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ بكسر النون على أصل الكسر للالتقاء ،
وقوله : ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشرائع ، فمعى هذا أن
الله عهد إلى بني آدم وقت إخراج نسهم من ظهره : ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا

(١) في بعض الأصول : اتباعاً بضممة الباء والداد ، وهي أقرب ، والأصح أن يقال :
لأن الانتقال من الكسرة إلى الضم ثقيل ، فضمت النون ليكون الانتقال منها إلى الضم فيما
بعدها سهلاً .

الشَّيْطَانِ) وَأَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَقِيلَ لَهُمْ : هَذِهِ الشَّرَائِعُ مَوْجُودَةٌ ، وَبَعَثَ
 آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ ، وَلَمْ تَخُلْ الْأَرْضُ مِنْ شَرِيعَةٍ إِلَى خْتَمِ
 الرِّسَالَةِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَ « الصَّرَاطُ » : الطَّرِيقُ ، وَيُقَالُ :
 إِنَّهَا دَخِيلَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَعَرَّبَتْهَا .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ
 الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ
 نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

هذه أيضاً من المخاطبة للكفار على جهة التقرير .

و « الجبل » : الأُمة العظيمة ، قال النقاش عن الضحاك : أقلُّها
 عشرة آلاف ولا حدٌّ لأكثرها ، وقرأ نافع ، وعاصم بكسر الجيم
 والباء وشدُّ اللام ، وهي قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، وأهل المدينة ،
 وأبي رجاء ، والحسن - بخلاف عنه - . وقرأ الأشهب العقيلي
 بكسر الجيم وسكون الباء والتخفيف . وقرأ الحسن ، والزهري ،
 والأعرج بضم الجيم والباء والتشديد ، وهي قراءة ابن أبي إسحاق ،
 وعيسى ، وابن وثاب ، وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، والهديل بن شرحبيل
 بضم الجيم وسكون الباء (١) والتخفيف ، « وقرأ ابن كثير ، وحمزة ،

(١) في الأصول : « بضم الجيم والباء والتخفيف » ، والتصويب عن القرطبي والبحر

المحيط ، وعن كتب القراءات .

والكسائي : [جُبَلًا] بضم الجيم والباء والتخفيف^(١) ، وذكر أبو حاتم عن بعض الخراسانيين بكسر الجيم وبياء بنقطتين ساكنة . وقرأ الجمهور : ﴿ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء ، وقرأ طلحة بالياء .
ثم وقفهم على جهنم التي كانوا يُوعدون فيكذبون ، و [جَهَنَّمَ] أول طبقة من النار ، و [أَصْلَوْهَا] معناه : باشروها .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أخباراً تشاركه فيها أمته بقوله : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، أي : في ذلك اليوم يكون ذلك . وروي في هذا المعنى أن الله يجعل الكفرة يتخاصمون ، فإذا لم يأتوا بشيء تقوم لهم به حجة رجعوا إلى الإنكار فناكروا الملائكة في الأعمال ، فعند ذلك يختم الله على أفواههم فلا ينطقون بحرف ، ويأمر الله جوارحهم بالشهادة فتشهد^(٢) ، وروي

(١) ما بين العلامتين « » سقط في أكثر النسخ .

(٢) أخرج أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في (الأسماء والصفات) ، وابن أبي الدنيا في التوبة ، — واللفظ له — عن أنس رضي الله عنه في قوله : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : أتدرون ممّ ضحكت ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، قال : من مخاطبة العبد ربّه ، فيقول : يا ربّ ، ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إني لا أجزى عليّ إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهدوا ، فيختم على فيه ويقال لأركانها : انطقتي فتنتق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعداً لكنّ وسُحُفاً ، فعنكن كنت أناضل . وأخرج مسلم ، والترمذي ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي سعيد ، وأبي هريرة : قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يلقى العبد ربّه فيقول : أي ربّ ، فيقول : أفظننت أنّك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول مثل ذلك ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : =

عقبة بن عامر أنه عليه الصلاة والسلام قال : (إن أول ما يتكلم من الكافر فخذة اليسرى) (١) ، وقال أبو سعيد الخدري : (اليمنى ثم سائر جوارحه) ، وروي أن بعض الكفرة يقول يومئذ لجوارحه : « تَبًّا لَكَ وَسُحْقًا ، فعنك كنت أماحك » ونحو هذا من المعنى ، وقد اختلفت فيه ألفاظ الرواة ، وروى عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده أنه قرأ : « وَلِتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَلِتَشْهَدَ أَرْجُلُهُمْ » بزيادة لأم (كي) النصب ، وهي مخالفة لخط المصحف .
قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ (٦٦)
﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٧) وَمَنْ
تُعْمِرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۖ
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ جَبًّا وَيُحِقِّ الْقَوْلَ عَلَىٰ

الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

= آمنت بك وبكتابك وبرسولك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول :
ألا نبعث شاهدنا عليك ؟ فيفكر في نفسه : من الذي يشهد علي ؟ فيختم على فيه ، ويقال لخذة :
انطقي ، فتنطق فخذة ولحمه وعظامه بعمله ، ما كان ذلك يعذر من نفسه ، وذلك بسخط الله
عليه ، (الدر المنثور) .

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن
عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وإلفظه كما في الدر المنثور ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : (إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يحتم على الأفواه فخذة من الرجل الشمال) .

الضمير في [أَعْيُنِهِمْ] مُرادٌ به كفار قريش ، ومعنى الآية يُبَيِّنُ أنهم في قبضة القدرة وبروج العذاب إن شاءَ اللهُ لهم ، وقال الحسن وقتادة : أراد الأعين حقيقة ، والمعنى : لأَعْمِينَاهُمْ فلا يَرُونَ كيف يمشون ، ويؤيد هذا محاسبة المسخ الحقيقي ، وقال ابن عباس رضي اللهُ عنهما : أراد أعين البصائر ، والمعنى : ولو شئنا حتمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أحد . و «الطَّمَسُ» إِذْهَابُ الأَثَارِ مِنَ المَشْيِ والهيئات حتى كأنه لم يكن ، أي : جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأن لم يكن فيها أعين قط .

قوله : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ معناه : على الفرض ، والتقدير : فَإِنَّا لو شئنا لأَعْمِينَاهُمْ فاحسبْ أو قدرْ أنهم يستبقون الصِّرَاطَ ، أي : الطريق ، فَأَنَّى لهم بالإبصار وقد أَعْمِينَاهُمْ ؟ و (أَنَّى) لفظة استفهام فيه مبالغة ، قدره سيويه : كيف ؟ ومن أين ؟

و [مَسَخْنَاهُمْ] تقديره : تبديل خَلْقَتِهِمْ لتصير كالقردة والخنازير ونحوه مما تقدم في بني إسرائيل وغيرهم ، وقال الحسن ، وقتادة ، وجماعة من المفسرين : معناه : لجعلناهم مقعدين مبطولين لا يستطيعون تصرفاً ، وقال ابن سلام : هذا التوعُّدُ كُلُّهُ يوم القيامة . وقرأ الجمهور : [مَكَانَتِهِمْ] بالإفراد ، بمعنى المكان ، كما يقال : دارٌ ودارةٌ ، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - [مَكَانَاتِهِمْ] جمعاً ، وهي قراءة الحسن ،

وابن أبي إسحق . وقرأ الجمهور : [مُضِيًّا] بضم الميم ، وفتحها أبو حيوة .

ثم بين تعالى دليلاً في تنكيسه المعمرين ، وأن ذلك ما يفعله إلا الله ، وقرأ الجمهور : [نَنكُسُهُ] بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف خفيفة ، وقرأ عاصم - بخلاف عنه - وحمزة بضم الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مُشَدَّدة على المبالغة ، وأنكرها أبو عمرو على الأعمش . ومعنى الآية : نُحوّل خَلْقَهُ من القوة إلى الضعف ، ومن الفهم إلى البَلَه ، ونحو ذلك . وقرأ نافع ، وأبو عمرو - وفي رواية : عباسٌ - : [تَعْقِلُونَ] بالتاء ، على معنى : قل لهم ، وقرأ الباقون بالياء على ذكر الغائب .

ثم أخبر تعالى عن حال نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وردّ قول من قال من الكفرة : إنه شاعر ، وإن القرآن شعر بقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يرويه ولا يزنيه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه ، وإنما كان يُحرزُ المعاني فقط ، من ذلك أنه أنشد يوماً بيت طرفة :

سُبْدِي لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزُوْدْ بِالْأَخْبَارِ (١)

(١) والبيت في وزنه الصحيح :

سُبْدِي لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُوْدْ

وَأَنْشَدَ يَوْمًا — وقد قيل له : من أشعر الناس ؟ — فقال : الذي يقول :
 أَلَمْ تَرَيَانِي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا وَإِنْ لَمْ تَطِيبْ طِيبًا ؟ (١)

وَأَنْشَدَ يَوْمًا :

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْبَ الْعَبِي — دِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعِيْنَةَ ؟ (٢)

وقد كان عليه الصلاة والسلام ربما أنشد البيت المستقيم في النادر ،
 روي أنه أنشد بيت ابن رواحة :

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمَشْرِكِينَ الْمُضَاجِعُ (٣)

وقال الحسن بن أبي الحسن : أنشد النبي عليه الصلاة والسلام :

كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا
 فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : نشهد أنك رسول الله ، إنما
 قال الشاعر :

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا (٤)

(١) والبيت في وزنه :

أَلَمْ تَرَيَانِي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطِيبْ
 (٢) وصحة البيت :

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْبَ الْعَبِي — دِ بَيْنَ عِيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ؟

(٣) جَفَا الْجَنْبُ عَنْ الْفِرَاشِ : نَبَاً وَبَعُدَ وَلَمْ يَطْمِئِنْ عَلَيْهِ ، وَجَافَيْتُهُ فَتَجَافَى .
 والمعنى أنه يترك فراشه وينهض للعبادة إذا أحب المشركون دفءَ الفراش ولزموا مضاجعهم ،
 والبيت لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه .

(٤) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس ، وهو بتمامه :

هُرَيْرَةٌ وَدَعَّ إِنَّ تَجَهَّرْتَ غَادِيَتَا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا

رواه الثعلبي : وإصابته الوزن أحياناً لا توجب أنه تعلم الشعر ، ورؤي أنه عليه الصلاة والسلام أتى في نشر كلامه أحياناً ما يدخل في وزن ، كقوله يوم حنين :

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» (١)

وكذلك يأتي في آيات القرآن الكريم (٢) وفي كل كلام ، وليس ذلك بشعر ولا في معناه .

وهذه الآية تقتضي - عندي - غضاضة على الشعر ولا بد ، ويؤيد هذا قول عائشة رضي الله عنها : كان الشعر أبغض الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يتمثل بشعر أخي قيس طرفة فيعكسه ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ليس هكذا ، فقال : (ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي) (٣) ، وقد ذهب قوم إلى أن الشعر لا غص عليه ،

(١) قال أبو الحسن الأخصر : « هذا ليس بشعر » ، وقال الخليل في كتاب العين : « إن ما جاء من السجع على جزئين لا يكون شعراً » ، ورؤي عنه أن هذا من منهوك الرجز ، وقد قيل : إنه لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقوف على الباء في (كَذِبٌ) ، و (عبد المطلب) . ولا يعرف أحد كيف نطقه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن رأي ابن العربي أنه نطقه بالباء المرفوعة ، وقال النحاس : قال بعضهم : إنما الرواية بالإعراب . ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم أيضاً :

« هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَّتٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ »

ولا يكون شعراً إلا بكسر التاء من (دَمِيَّتٍ) ومن (لَقِيَّتِ) ، فإن سكنت لا يكون شعراً . (٢) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه ، قال : بلغني أنه قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان =

وإنما منعه من التَّحَلِّيِّ بهذه الحلية الرفيعة ليجيء القرآن من قبله أعرب ، فإنه لو كان له إدراك الشعر لقليل في القرآن : هذا من تلك القوة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس الأمر عندي كذلك ، وقد كان عليه الصلاة والسلام من الفصاحة والبيان في النثر في الرتبة العليا ، ولكن كلام الله تبارك وتعالى يبين بإعجازه ، ويبرز برصفه ، ويُخرجه إحاطة علم الله عن كل كلام ، وإنما منع الله نبيه صلى الله عليه وسلم من الشعر ترفيهاً له عما في قول الشعراء من التخيل وتزويق الكلام ، وأما القرآن فهو ذكر الحقائق والبراهين ، فما هو بقول شاعر ، وهكذا كان أسلوب كلامه عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ، والشعر نازل الرتبة عن هذا كله .

والضمير في [عَدَمْنَاهُ] عائد على محمد صلى الله عليه وسلم قولاً واحداً ، والضمير في [لَهُ] يَحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ يَعُودَ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَذْكَرْ لِدَلَالَةِ الْمَجَاوِرَةِ عَلَيْهِ ، وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ .
وقرأ نافع ، وابن عامر : [لِتُنذِرَ] بالتاء على مخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ الباقر بالباء ، أي : لِيُنذِرَ الْقُرْآنُ ،

= يتمثل بيت أخي بني قيس ، يجعل آخره أوله وأوله آخره ، ويقول : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ليس هكذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني والله ما أنا بشاعر ولا ينسبني لي)

أَوْ لِيُنذِرَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ [مُبِينٌ] ،
 وَقَرَأَ مُحَمَّدُ الْيَمَانِيُّ : [لِيُنذِرَ] عَلَى الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ :
 وَلَوْ قُرِئَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالذَّالِ - أَيِ : لِيَتَحَفَّظَ وَيَأْخُذَ بِحِظِّهِ - لَكَانَ
 جَائِزاً ، وَحَكَاهَا أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ الْيَمَانِيِّ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أَيِ : حَيَّ الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةَ ، وَلَمْ
 يَكُنْ مِيتًا لِكُفْرِهِ ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ ، قَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾
 مَعْنَاهُ : عَاقِلًا ، ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ ﴾ مَعْنَاهُ : يَتَحَتَّمُ الْعَذَابُ وَيَجِبُ الْخُلُودُ ،
 وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ (٢)

قوله عز وجل :

﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧١﴾
 وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ
 أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾
 لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ
 إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) قراءة : (لِيُنذِرَ) بفتح الياء والذال هي قراءة أبي السمال وابن السميّغ أيضاً .
 وهي مضارع (نذِرَ) بكسر الذال إذا علم بالشيء فاستعد له .
 (٢) من الآية (٧١) من سورة (الزمر) .

هذه مخاطبة في أمر قريش وإعراضها عن الشرع وعبادتها الأصنام ،
 فَنَبِّهَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِعْنَامِهِ عَلَيْهِمْ بِبَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .
 وقوله : [أَيَّدِينَا] عبارة عن القدرة ، عبر عنها بـ (يَد) وبـ (يَدَيْنِ)
 و بـ (أَيْدٍ) (١) ، وذلك من حيث كان البشر إنما يفهمون (٢) القدرة
 والبطش باليد ، فعبر لهم بالجهة التي اقتربت من أفهامهم ، والله
 تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عَنِ الْجَارِحَةِ وَالتَّشْبِيهِ كُلِّهِ . وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَهَا
 مَالِكُونَ ﴾ تنبيه على النعمة في أن هذه الأنعام ليست بعاتية ولا مُبْتَزَّةٌ (٣) ،
 بل تُقْتَنَى وتُتَقَرَّبُ منافعها .

وقوله : [ذَلَّلْنَاهَا] معناه : سَخَّرْنَاهَا ذَلِيلَةً ، و «الرَّكُوبُ» :
 المركوب ، وهو فَعُولٌ بِمَعْنَى : مَفْعُولٌ ، وليس إِلَّا فِي أَلْفَاظٍ مَحْصُورَةٍ ،
 كَالرَّكُوبِ ، وَالْحَلُوبِ ، وَالْقَدُوعِ (٤) . وقرأ الجمهور : [رَكُوبُهُمْ]
 بفتح الراء ، وقرأ بضمها الحسن ، والأعمش ، وقرأ أبي بن كعب ،

(١) أما التعبير باليد ففي قوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وأما التعبير
 باليدين ففي قوله سبحانه : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
 بِسَيِّدِي ﴾ ، وأما التعبير بالأيدي ففي آيتنا التي هي موضع التفسير

(٢) في بعض النسخ : (يقيمون) بدلا من (يفهمون) .

(٣) يريد أنها ليست مأخوذة بالقهر والجفاء ، من قولهم : بَزَّ الشَّيْءُ : نَزَعَهُ وَأَخَذَهُ
 بِجَفَاءٍ وَقَهْرٍ .

(٤) الرَّكُوبُ : المركوب ، وَالْحَلُوبُ : المحلوب ، وَالْقَدُوعُ - من النساء - التي
 تَأْنِفُ كُلَّ شَيْءٍ ، ومن الخيل : المحتاج إلى القَدْعِ ليكف عن بعض جريه ، وَالْقَدْعُ : الكَفُّ
 بالقوة عن الشيء ، يقال : قَدَعَ الفَحْلُ - ضربه على أنفه بشيءٍ ليرتد .

وعائشة رضي الله عنها : [رَكُوبَتُهُمْ] (١) . و «الْمَنَافِعُ» إشارة إلى الأصواف والأوبار وغيرها ، و «الْمَشَارِبُ» : الألبان .
ثم عَنَّفَهُمْ في اتخاذ الآلهة طلباً للاستنصار بها والتعاقد ،
ثم أخبر أنهم لا يستطيعون ، ويحتمل أن يكون الضمير فيه للكفار (٢) ،
وفي [نَصْرَهُمْ] للأصنام ، ويحتمل عكس ذلك لأنهما صحيحان في المعنى .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ﴾ يحتمل أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للأصنام ، على معنى : وهؤلاء الكفار مُجَنَّدُونَ مُتَحَزِّبُونَ لهذه الأصنام في الدنيا ، لكنهم لا يستطيعون التناصر مع ذلك ، ويحتمل العكس ، أي : يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب ، على معنى التوبيخ والنقمة (٣) ، وسماهم جُنْدًا في هذا التأويل إذ هم

(١) قراءة (رُكُوبَتُهُمْ) بضم الراء فيها حذف مضاف ، تقديره : «فيها ذُورُ رُكُوبِهِمْ» ، وذو الرُكُوبِ هنا هو المركوب ، فتصبح في المعنى مثل قراءة الفتح في الراء . وأما قراءة : (رُكُوبَتُهُمْ) فمعناها : مركوبتهم ، مثل : القَتُوبَةُ ، والجَزُوزَةُ ، والحَلُوبَةُ ، أي : ما يُقْتَب ، ويُجَزُّ ، ويُحَلَب ، قال ذلك أبو الفتح ابن جني في كتاب المحتسب .
(٢) أي : في قوله تعالى : [يَسْتَطِيعُونَ] ، ويكون المعنى : لا يستطيع الكفار نصر الأصنام . والمعنى في العكس : لا تستطيع الأصنام نصر الكفار . والحقيقة أن كلا منهما عاجز عن نصر الثاني .

(٣) ثبت في صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي الترمذي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم ربُّ العالمين ، فيقول : ألا ليتَّبِعَ كل إنسان ما كان يعبد ، فيمَثَّلُ لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتَّبِعُونَ ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون ..) والحديث طويل . راجعه في صحيح مسلم .

عُدَّةً للنعمة منهم وتوبيخهم ، وجرت ضمائر الأصنام في هذه مجرى من يعقل إذ أنزلت في عبادتها منزلة عقل ، فعولمت في العبارة بذلك .
ثم آنس نبيّه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ،
وتوعّد الكفار بقوله : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ
الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴿

قال ابن جبير : هذه الآيات نزلت بسبب أن العاص بن وائل السهمي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم ، ففتته وقال : يا محمد ، من يحيي هذا ؟ وقال مجاهد وقتادة : إن الذي جاء بالعظم النخر أمية بن خلف ، وقاله الحسن ، وذكره الرماني ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو عبد الله بن أبي بن سلول .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو وهم ممن نسبته إلى ابن عباس رضي الله عنهما ؛ لأن السورة مكية ، والآية مكية بإجماع ، ولأن عبد الله بن أبي لم يجاهر قط

هذه المجاهرة ، واسم (أبي) هو الذي خلط على الرواة ؛ لأن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك ، وقاله ابن إسحق وغيره : إِنَّ أَبِي ابن خلف أَخَا أُمَيَّةَ بن خلف هو الذي جاء بالعظم الرميم بمكة ففتته في وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : من يُحيي هذا يا محمد ؟ ولأبي هذا مع النبي صلى الله عليه وسلم مقامات ومقالات إلى أن قتله بيده يوم أحد بالحربة بجرح في عنقه ، ورُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له حين فتَّ العظم : (الله يُحييك ويُحييه ويدخلك جهنم) (١) . ثم نزلت الآيات مُبيِّنة الحجة في أن الإنسان نطفة ثم يكون بعد ذلك خصيماً مبيناً ، فهل هذا إلا إحياء بعد موت وعدم حياة ؟

وقوله : [وَنَسِيَ] يحتمل أن يكون نسيان الذهول ، ويحتمل أن يكون نسيان الشرك ، و «الرميم» : البالي المُفْتَت ، وهو الرفات .

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث ، عن أبي مالك ، قال : جاء أبا بن خلف بعظم نخرة فجعل يفتته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : من يُحيي العظام وهي رميم ؟ فأنزل الله : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ . وأخرج مثله عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن السدي رضي الله عنه ، وكذلك أخرج عن عكرمة مثله ، وأخرج أيضاً ابن مردويه مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يبعث الله هذا ويُميتك ثم يدخلك جهنم) . (الدر المنثور) .

ثم دَلَّهم تبارك وتعالى على الاعتبار بالنشأة الأولى ، ثم عقب ذلك بدليل ثالث في إيجاد النار في العود الأخضر المرتوي ماءً ، وهذا هو زناد العرب ، والنار موجودة في كل عود غير أنها في المتخلخل المفتوح المسام أَوْجد ، وذلك هو المرخُ والعَفَّار^(١) ، وأعاد الضمير على الشجر مُذَكِّراً من حيث راعى اللفظ فجاء كالتمر والحصى وغيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

هذا تقرير وتوقيف على أمرٍ تدلُّ صحته على جواز بعث الأجساد من القبور وإعادة الموتى .

(١) المرخُ : شجر من العِضاه من الفصيلة العشارية ينفرش ويطول في السماء ، ليس له ورق ولا شوك ، سريع الوري يُقْتدح به . والعَفَّار : شجرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لُبِّيٌّ أحمر ويتخذ منها الزناد فيسرع الوري وفي أمثالهم : « في كل شجر نار ، واستمجد المرخُ والعَفَّار » .

وجَمَعَ الضمير جَمَعَ من يعقل في قوله سبحانه : [مِثْلَهُمْ] من حيث كانتا متضمنتين مَنْ يعقل من الملائكة والثقلين . هذا تأويل جماعة من المفسرين ، وقال الرماني وغيره : الضمير عائد على الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهم مثال للبعث ، وتكون الآية نظير قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (١) ، وقرأ سَلَامُ أَبُو الْمُنْذِرِ ، وابن أبي إسحق ، ويعقوب ، والأعرج : [يَقْدِرُ] على الاستقبال ، وقرأ الجمهور : [بِقَادِرٍ] على اسم الفاعل ، وقرأ الجمهور : [الْخَالِقُ] ، وقرأ الحسن : [الْخَالِقُ] .

ورفع [فَيَكُونُ] على معنى : فهو يكون ، وهي قراءة الجمهور ، وقرأ ابن عباس ، والكسائي : [فَيَكُونُ] بالنصب ، قال أبو علي : لا ينصب الكسائي إذا لم يتقدم (أَنْ) ، ونصب ابن عامر وإن لم تتقدم (أَنْ) ، والنصب هنا قراءة ابن محيصن . وقوله تعالى : [كُنْ] أَمْرٌ لِلشَّيْءِ الْمُخْتَرَعِ عند تعلق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده ،

(١) من الآية (٥٧) من سورة (غافر) .

وإنما يؤمر تأكيداً للقدره وإشارة بها (١) ، وهي أوامر دون حروف وأصوات ، بل من الكلام القائم بالذات .

ثم نزه الله تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً عاماً مطلقاً ، وقرأ الجمهور : [مَلَكُوتُ] (٢) ، وقرأ الأعمش ، والتيمي : [مَلَكَةٌ] (٣) ومعناه : ضَبَطُ كلِّ شيءٍ والقدره عليه .

كامل تفسير سورة يس والحمد لله رب العالمين

(١) هكذا في الأصول ، ولعل الصواب : « وإشادة بها » .

(٢) المَلَكُوتُ فَعَلَّوتٌ من المُلْكِ ، زادوا الواو والتاء للمبالغة بزيادة اللفظ ، ولا يُطلق

الملكوت إلا على الأمر العظيم ، ونظيره : الجَبَرُوتُ ، والرَّغَبُوتُ ، والرَّهَبُوتُ .

(٣) وقرئ أيضاً : « مَمْلَكَةٌ » على وزن مفعلة ، وقرئ : « مُلْكٌ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين



هي مكّية ، وعددها في المدني والشامي والكوفي مائة آية وآيتان
وثمانون آية .

قوله عز وجل :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ
لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيْنًا أَلَسَّمَاءَ
الدُّنْيَا بَرِيَّةٌ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾

أقسم الله تعالى في هذه الآيات بأشياء من مخلوقاته ، واختلف
الناس في معناها - فقال ابن مسعود ، ومسروق ، وقتادة : هي الملائكة
التي تصف في السماء في عبادة الله تعالى وذكره صفوفاً ، وقالت فرقة :
أراد كل من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله ، أو في

صلاة وطاعة ، والتقدير : والجماعات الصافات ، واللفظ يحتمل أن يعم جميع هذه المذكورات .

و « الزَّاجِرَاتِ زَجْرًا » ، قال مجاهد ، والسدي : الملائكة التي تزجر السحاب وغيره من مخلوقات الله ، وقال قتادة : هي آيات القرآن المتضمنة النواهي الشرعية .

وقوله : ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ معناه : القارئ ، وقال مجاهد ، والسدي : أراد الملائكة التي تتلو ذكره ، وقال قتادة : أراد بني آدم الذين يتلون كتبه المنزلة ، وتسبيحه وتكبيره ، ونحو ذلك .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ بالإدغام (١) ، وهي قراءة ابن مسعود ، ومسروق ، والأعمش . وقرأ الباقون وجمهور الناس بالإظهار ، وكذلك في كُلهَا ، قال أبو حاتم : « والإظهار اختيارنا » ، وأما « الْحَامِلَاتِ وِقْرًا » و « الْجَارِيَاتِ يُسْرًا » (٢) فلا يجوز فيهما الإدغام لبعد التاء من الحرفين (٣) .

(١) أي : بإدغام التاء في الصاد من (صَفًّا) ، وكذلك في الزَّاي من (زَجْرًا) ، والذَّال من (ذِكْرًا) ، وقد نذر الإمام أحمد بن حنبل من هذه القراءة حين سمعها ، وقال النحاس : « هي بعيدة عن العربية من ثلاث جهات : أولاها أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاي ، ولا من مخرج الذال ، ولا من أخواتهن ، والثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى ، والثالثة أنك عند الإدغام تجمع بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابة وشابّة » .

(٢) من قوله تعالى في أول سورة النازيات : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ ، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ .

(٣) أي بعد التاء من الواو في (وِقْرًا) ، ومن الياء في (يُسْرًا) .

ثم بين تعالى المَقَسَمَ عليه أنه توحيده ، وأنه واحد ، أي :
 مُتَّحِدٌ من جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر . ثم وصف تعالى نفسه
 بِرُبُوبِيَّتِهِ جميع المخلوقات ، وذكر «المَشَارِقَ» لأنها مطالع الأنوار ،
 والعيون بها أكلف ، وفي ذِكْرهَا غُنْيَةٌ عن ذِكْرِ المَغَارِبِ ؛ إذ مُعَادَلَتُهَا
 لها مفهومة عند كل ذي لُبٍّ ، وأراد تبارك وتعالى مشارق الشمس
 وهي مائة وثمانون في السَّنة فيما يزعمون ، من أطول أيام السَّنة إلى
 أقصرها ، ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب ، وانتظم
 في ذلك التزيين أن جعلها حفظاً وحرزاً من الشياطين المردة ، وهم
 مسترقو السمع .

وقرأ الجمهور بإضافة «الزَّيْنَةَ» إلى «الكواكب» ، وقرأ حمزة ،
 وحفص عن عاصم بتنوين [زَيْنَةٍ] وخَفَضَ [أَلْكَوَاكِبِ] على البدل
 منها ، وهي قراءة ابن مسعود ، ومسروق - بخلاف عنه - وأبي زُرْعَةَ
 ابن عمرو بن جرير^(١) ، وابن وثاب ، وطلحة . وقرأ أبو بكر عن
 عاصم : [بِزَيْنَةٍ] بالتنوين [أَلْكَوَاكِبَ] بالنصب ، وهي قراءة ابن
 وثاب ، وأبي عمرو ، والأعمش ، ومسروق ، وهذا في الإعراب

(١) هو أبو زُرْعَةَ - بضم الزَّاي وسكون الرَّاء - بن عمرو بن جرير بن عبد الله البجلي الكوفي ، قيل : اسمه حرم ، وقيل : عمرو ، وقيل : عبد الله ، وقيل : عبد الرحمن ، وقيل : جرير ، ثقة ، من الثالثة . (تقريب التهذيب) .

نحو قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ﴾ (١) ، وحكى الزهراوي قراءةً بتنوين : [زِينَةٌ] ورفع [الْكَوَاكِبِ] (٢) .
و « الْمَارِدُ » : المتجرّد للشر ، ومنه : شجرة مرداء ، أي : لا ورق عليها ، ومنه : الأَمْرُدُ . وخصّ تعالى السماء الدنيا بالذكر لأنها التي تُبَاشِرُهَا أَبْصَارُنَا ، وأيضاً فالحفظ من الشياطين إنما هو فيها وحدها .
و [حِفْظًا] نصب على المصدر ، وقيل : مفعول من أَجَلَهُ ، والواو زائدة (٣) .

قوله عز وجل :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ ۗ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطِفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

« الْمَلَأُ الْأَعْلَى » : أهل السماء الدنيا فما فوقها ، وسمي الكلّ منهم « أَعْلَى » بالإضافة إلى مَلَأِ الْأَرْضِ الذي هو أسفل ، والضمير

(١) الآية (١٤) ، وجزء من الآية (١٥) من سورة (البلد) .

(٢) هي قراءة زيد بن علي ، وتخرج على أن [الكواكب] خبر مبتدأ ، والتقدير : هي الكواكب ، أو على أن [الكواكب] فاعل بالمصدر الذي هو [زِينَةٌ] ، وإن كان هناك خلاف بين علماء النحو في جواز رفع الفاعل بالمصدر المتون .

(٣) إذا نصبت [حِفْظًا] على المصدر كان التقدير : وحفظناها حِفْظًا ، وإذا نصبت على المفعول من أَجَلِهِ كانت الواو زائدة كما قال ابن عطية ، أو كان ذلك على تأخير العامل والتقدير : ولِحِفْظِهَا زَيْنَاهَا بالكواكب .

في [يَسْمَعُونَ] للشياطين . وقرأ جمهور القراء والناس : [يَسْمَعُونَ] بسكون السين وتخفيف الميم ، وقرأ حمزة ، وعاصم - في رواية حفص - وابن عباس - بخلاف عنه - وابن وثاب ، وعبد الله بن مسلم ، وطلحة ، والأعمش : (لَا يَسْمَعُونَ) بشد السين والميم ، بمعنى : لا يسمعون ، فينتفي على القراءة الأولى سماعهم وإن كانوا يَسْمَعُونَ ، وهو المعنى الصحيح ، ويعضده قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (١) ، وينتفي على القراءة الأخيرة أن يقع منهم استماعٌ أو سماعٌ ، وظاهر الأحاديث أنهم يسمعون حتى الآن لكن لا يسمعون ، وإن سمع أحدٌ منهم شيئاً لم يفلت (٢) قبل أن يلقي ذلك السمع إلى الذي يجيئه ؛ لأن من وقت محمد عليه الصلاة والسلام مُلِئَتِ السَّمَاءُ حَرَساً شَدِيداً وَشُهْباً ، وكان الرجم في الجاهلية أخف ، ورُوي في هذا المعنى أحاديث صحاحٌ مُضَمَّنَهَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَانَتْ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ فَتَقْعُدُ لِلسَّمْعِ وَاحِداً فَوْقَ آخَرَ ، يَتَقَدَّمُ الْأَجْسَرُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، فيقضي الله تعالى الأمر من الأمور في الأرض فيتحدث به أهل السماء ، فيسمعه منهم ذلك الشيطان الأدنى ، فيلقيه إلى الذي تحته ، وربما أحرقه شهاب وقد ألقى الكلام ، وربما لم تحرقه جملة ، فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان فيكذبون معها

(١) من الآية (٢١٢) من سورة (الشعراء) .

(٢) في بعض النسخ : « لم يفلت الشهاب » .

مائة كذبة ، فتصدق تلك الكلمة ، فيصدق الجاهلون الجميع ، فلما جاء الله بالإسلام حُرِسَت السماء بشدة فلا يُفْلَت شيطان سمع بئته (١) ، ويروى أنها لا تسمع الآن شيئاً ، والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تَنْقُضُ ، قال النقاش ، ومكي : وليست بالكواكب الجارية في السماء ، لأن تلك لا تُرى حركتها ، وهذه الراجمة تُرى حركتها لأنها قريبة منا ، وفي هذا نظر . و [يُقَذَّفُونَ] معناه : يُرْجَمُونَ .

و «الدُّحُورُ» : الإصغار والإهانة ؛ لأنَّ الرَّجْرَجَ الدَّفْعُ بعنف ، قال مجاهد : مَطْرُودِينَ . وقرأ الجمهور بضم الدال ، وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ : [دَحُوراً] بفتح الدال (٢) ، و «الْوَأْصِبُ» : الدائم ، قاله

(١) أخرج البخاري في تفسير سورة (الحِجْر) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان ، قال عليٌّ وقال غيره : صفوان يَنْفُذُهُمْ ذلك ، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال رَبُّكُمْ ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العليُّ الكبير ، فيسمعها مُسْتَرْقِو السمع ، ومُسْتَرْقِو السمع هكذا ، واحد فوق آخر - ووَصَفَ سفيان بيده ، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى ، صبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرْمِيَ بها إلى صاحبه فيُحْرِقُهُ ، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه ، إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يُلْقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض ، فتلقى على فم الساحر ، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق ، فيقولون : ألم يُخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء) .

(٢) قال أبو الفتح ابن جنِّي : « في فتح الدال وجهان : إن شئت كان على ما جاء من المصادر على فَعُول . وإن شئت أراد: ويُقَذَّفُونَ من كلِّ جانبٍ بِداحِرٍ ، أو بما يَدْحُرُ ، =

مجاهد ، وقتادة ، وعكرمة . وقال السدي ، وأبو صالح : الواصبُ :
المُوجع ، ومنه : الوصب ، والمعنى : هذه الحال الغالبة على جميع
الشياطين ، إلا من شدَّ فخطف خبيراً أو نبياً فأتبعه شهابٌ فأحرقه .
وقرأ جمهور الناس : [خَطِفَ] بفتح الخاء وكسر الطاء خفيفة ،
وقرأ الحسن ، وقتادة : [خِطَّفَ] بكسر الخاء والطاء وتشديد الطاء ،
قال أبو حاتم : يقال : هي لغة بكر بن وائل ، وتميم بن مرة ، ورؤي
عن ابن عباس رضي الله عنهما بكسر الخاء والطاء مخففة . و «الثاقبُ» :
النافذ بضوئه وشعاعه المنير ، قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد ،
و «حَسَبُ ثاقب» إذا كان شيئاً منيراً .

قوله عز وجل :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾
بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً
يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أءَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا
أءَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوءَا بَاءُنَا آلَؤُلُونِ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

= وهذا كأنه الثاني من الوجهين ؛ لما فيه من حذف حرف الجر وإرادته ، كما قال الشاعر :
نُعَالِي اللَّحْمَ لِلأَضْيَافِ نَيْسًا وَنُرْخِصُهُ إِذَا نَضِجَ الْقَدِيرُ
أي : باللحم ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ،
أي : أَعْلَمُ بِمَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ .

الاستفتاء نوعٌ من أنواع السؤال ، وكأنه سؤال من يُهْتَبَلُ بقوله ويجعل حُجَّةً ، وكذلك هي أقوالهم في هذا الفاصل ، لا يمكنهم أن يقولوا إلا أن خَلَقَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَشَارِقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، هو أَشَدُّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَاطَبِينَ ، وبأنَّ الضمير في [خَلَقْنَا] يُراد به ما تقدم ذكره ، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «أَمْ مَنْ عَدَدْنَا» يريد الصافات وغيرها ، والسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما ، وكذلك قرأ الأعمش ، وقرأ أيضاً : «أَمَّنْ» مُخَفَّفَةَ الْمِيمِ دُونَ (أَمْ) (١) .

ثم أخبر تعالى إخباراً جزماً عن خلقه لآدم الذي هو أبو البشر ، وأضاف الخلق من الطين إلى جميع الناس حيث الأب مخلوق منه ، وقال الطبري : خلق ابن آدم من ترابٍ وماءٍ ونارٍ وهواءٍ ، وهذا كله إذا اختلط صار طيناً لازباً ، وهو اللازم ، أي : يلزم ما جاوره ويلصق به ، وهو الصلصال كالفخار ، وعبر ابن عباس ، وعكرمة عن اللازب بالحر ، أي الكريم الجيد ، وحقيقة المعنى ما ذكرناه ، يقال : ضربة لازبٍ ولازمٍ بمعنى واحد .

وقرأ الجمهور : [عَجِبْتَ] بفتح التاء ، أي يا محمدُ من إعراضهم عن الحقِّ وعمَاهُم عن الهدى ، وأن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به

(١) وتكون (أَمَّنْ) هذه استفهاماً ثانياً للتقرير أيضاً ، فهما جملتان مستقلتان في التقرير .

من عند الله . وقرأ حمزة والكسائي بضمّ التاء ، ورُويت عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن وثاب ، والنخعي ، وطلحة ، وسفيان ، والأعمش ، وذلك على أن يكون تعالى هو المتعجب ، ومعنى ذلك من الله سبحانه أنه صفة فعل ، كقوله عليه الصلاة والسلام : (تعجب الله إلى قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل) (١) ، وقوله : (تعجب الله من الشاب ليست له صبوة) (٢) ، فإنما هي عبارة عما يظهره في جانب المتعجب منه من التعظيم أو التحقير حتى يصير الناس متعجبين منه ، فمعنى هذه الآية : بل عجبُ من ضلالهم وسوء تخيلهم ، وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن معها من شرعي وهداي متعجباً ، ورُوي عن شريح إنكار هذه القراءة ، وقال : إن الله لا يعجب ، قال الأعمش : فذكرت ذلك لإبراهيم فقال : إن شريحاً كان مُعجباً بعلمه ، وإنَّ عبد الله أعلمُ منه (٣) . وقال مكِّي ، وعليُّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢-٣٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٥-٢٤٩) ، وأخرجه البخاري في الجهاد ، وكذلك أبو داود ، واللفظ في المسند ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : (عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل) ، قال البيهقي : قد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يعجب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده ، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل ، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤-١٥١) ، عن عقبه بن عامر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة) . والصبوة : الميل إلى الله ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ .

(٣) عبد الله المقصود هنا هو ابن مسعود رضي الله عنه . قال أبو زكريا الفراء في كتابه (معاني القرآن) : «الرفع أحب إلي ، لأنها قراءة علي ، وابن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، =»

ابن سليمان في كتاب الزهراوي : هو إخبار من النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه ، كأنه قال : « قل لهم : عجبتُ » ، وقوله : [وَيَسْخَرُونَ] أي : وهم يسخرون من نبوتك والحق الذي عندك .

وقوله تعالى : [يَسْتَسْخِرُونَ] يريد : بالآية ، وهي العلامة والدلالة ، وروى أنها نزلت في رُكَّانة ، وهو رجلٌ مكِّيٌّ مشركٌ ، لقي النبي صلى الله عليه وسلم في جبل خال وهو يرعى غنماً له ، وكان أقوى أهل زمانه ، فقال له : يا رُكَّانة ، إن أنا صرعتك أتؤمن بي ؟ قال : نعم ، فصرعه ثلاثاً ، ثم عرض عليه آياتٍ من دعاء شجرة وإقبالها ، ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث ، فلما فرغ من ذلك كله لم يُؤمن ، وجاء إلى مكة فقال : يا بني هاشم ، ساحرُوا بصاحبكم هذا أهل الأرض (١) ، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه . و [يَسْتَسْخِرُونَ] معناه : يطلبون أن يكونوا ممن يسخر ، ويجوز أن تكون بمعنى : يسخر ، كقوله : « واستغنى الله » ، فيكون فعلٌ واستفعلٌ بمعنى ، بهذا فسره مجاهد

= قال شقيق : قرأتُ عند شُريح : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ، فقال : إنَّ الله لا يعجب من شيء ، إنما يعجب من لا يعلم ، قال : فذكرتُ ذلك لإبراهيم النَّخَعِي فقال : إن شُريحاً شاعر يعجبه علمه ، وعبد الله أعلمُ بذلك . ثم قال الفراء : « والعجب وإن أسند إلى الله فليس معناه من الله كعناه من العباد ، ألا ترى أنه قال : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وليس السُّخْرِيُّ من الله كعناه من العباد ، وكذلك قوله : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ليس ذلك من الله كعناه من العباد ، ففي ذا بيانٍ لِكَسْرِ قول شريح وإن كان جائزاً ؛ لأنَّ المُفسِّرِينَ قالوا : بل عجبنا يا محمدُ ويسخرون هم ، فهذا وجه النصب .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي في اللباس .

وقتادة ، وفي بعض القراءات القديمة : « يَسْتَسْحِرُونَ » بالحاء غير منقوطة ، وهذه عبارة عما قال رُكَّانة ؛ لأنه اسْتَسْحَرَ النبي عليه الصلاة والسلام .
 قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ . قرأ بضم الميم أبو جعفر ، وابن أبي إسحق ، وعاصم^(١) ، وأبو عمرو ، والعمامة ، وكسرها الحسن ، والأعرج ، وشيبة ، ونافع . وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع : ﴿ أَوْ آبَاؤُنَا ﴾ بسكون الواو ، وهي التي للقسمة أو التخيير ، وقرأ الجمهور بفتحها ، وهي واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام .
 ثم أمره الله تعالى أن يجيب تقريرهم بـ [نَعَمْ] ويزيدهم في الجواب أنهم - في البعث - في صغار وذلة ، « والذَّخِرُ » : الصغير الذليل ، وقد تقدم غير مرة ذكر القراءات في الاستفهامين .
 قوله عز وجل :

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِءَ تَكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ * أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) يعني في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص عنه فهي بكسر الميم كما هو ثابت في المصحف .

هذا استئناف إخبار جرّه ما قبله ، فأخبر تعالى أن بعثهم من قبورهم إنما هي زجرة واحدة ، هي نفخة البعث في الصور ، وقوله : [يَنْظُرُونَ] يحتمل أن يريد : بالأبصار ، أي : ينظرون ما هم فيه ، وصدق ما كانوا يُكذِّبون به ، ويحتمل أن يكون بمعنى : ينتظرون ما يُفعل بهم ويُؤمرون به .

ثم أخبر عنهم أنهم في تلك الحال يقولون : [يَاوَيْلَنَا] ، يُنادون الويل ، بمعنى : هذا وقت حضورك وأوان حُلُولِكَ . ورأى أبو حاتم الوقف ها هنا ، وجعل قوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ من قول الله أو الملائكة لهم ، ورأى غيره أن باقي الآية من قول الكفرة . و «الدِّينُ» : الجزاء والمقارضة ، كقولهم : « كما تدين تُدان » ، وأجمعوا أن قوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ ليس من قول الكفرة ، وإنما المعنى : يُقال لهم : هذا يوم الفصل .

وقوله تعالى : [وَأَزْوَاجَهُمْ] يعني : أنواعهم وضرباءهم ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن عباس ، وقتادة ، ومنه قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (٢) أي : نُوعَتْ ، رُوي أنه يضم عند هذا الأمر كلُّ شكل إلى شكله ، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه ، ومعهم ما كانوا يعبدون من

(١) الآية (٧) من سورة (الواقعة) .

(٢) الآية (٧) من سورة (التكوير) .

دون الله ، من آدمي رضي بذلك أو صنم أو وثن توبيخاً لهم وإظهاراً لسوء حالهم . قال الحسن : المعنى : وأزواجهم المشركات من النساء ، ورؤي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورجَّحه الرماني .

وقوله تعالى : [فَاهْتَدُوهُمْ] معناه : قوموهم واحملوهم على طريق الجحيم ، و [الْجَحِيم] طبقة من طبقات جهنم يقال إنها الرابعة ، ثم يأمر الله تعالى بوقفهم ، و [وَقَفَ] يتعدى بنفسه ، تقول : « وَقَفْتُ زَيْدًا » ، وأمره بذلك على جهة التوبيخ لهم والسؤال ، واختلف الناس في الشيء الذي يُسألون عنه - فرؤي عن ابن مسعود أنه قال : يُسألون : هل يحبون شرب الماء البارد ؟ وهذا على طريق الهزء بهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يسألون عن لا إله إلا الله ، وقال الجمهور من المفسرين : عن أعمالهم ، ويوقفون على قبْحها ، وهذا قول مُتَّجِه عام في الكفر وغيره ، ورؤي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أَيُّمَا رَجُلٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ لَازِمًا لَهُ ، وَقَرَأَ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (١)) ، ورؤي ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تزول قدمَا عَبْدٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ اللَّهِ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ خَمْسٍ :

(١) أخرجه البخاري في تاريخه، والترمذي ، والدارمي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور) ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما مِن دَاعٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانَ مَوْقُوفًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَازِمًا بِهِ لَا يُفَارِقُهُ ، وَإِنْ دَعَا رَجُلٌ رَجُلًا ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ .

عن شبابه فيم أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله كيف اكتسبه
وفيم أنفقه ، وعمّا عمل فيما علم (١) ، ويحتمل عندي أن يكون
المعنى على ما فسره بقوله : (مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ) ، أي : تُسألون عن
امتناع التناصر . وقرأ بناءً واحدة شيبة ، ونافع ، وقرأ خالد بتاءين ،
وكذلك في حرف عبد الله ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإدغام التاء
في التاء من قراءة ابن مسعود ، وقال الثعلبي : هذا جواب أبي جهل
حين قال في بدر : (نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ) (٢) .

ثم أخبر تعالى بجوابهم في ذلك اليوم في حالة الاستسلام والإلقاء باليد .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ
﴿ ٢٨ ﴾ قَالُوا بَل لَّا تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٩ ﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ
كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿ ٣٠ ﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰٓئِقُونَ ﴿ ٣١ ﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ
﴿ ٣٢ ﴾ إِنَّا كُنَّا غُلُوٓبِينَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿ ٣٤ ﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ
نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿ ٣٥ ﴾ *

هذه الجماعة التي يقبل بعضها على بعض هي جن وإنس ، قال
قتادة : وتساؤلهم هو على معنى التقريع واللوم والسخط ، والقائلون :

(١) أخرجه الترمذي في القيامة . (٢) من الآية (٤٤) من سورة (القمر)

﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ إما أن يكون الإنسُ للشياطين ، وهو قول مجاهد ، وابن زيد ، أو ضَعْفَةُ الإنس للكبراء والقادة . واضطرب المتأولون في معنى قولهم : ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ ، وعبر ابن زيد عنه بطريق الجنة والخير ، ونحو هذا من العبارات التي تُفسر بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة ، وبعضهم نحا في تفسير اللفظة إلى ما يختصها ، والذي يتحصل من ذلك معان : منها أن يريد باليمين : القُوَّة والشِدَّة ، فكأنهم قالوا : إنكم كنتم تغووننا بقوة منكم ، وتحملوننا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدة ، فعبر عن هذه المعاني باليمين ، كقول العرب : «بِيَدَيْنِ مَا أوردَ» (١) ، وكما قالوا : «اليد» - في غير موضع - عن القُوَّة ، وقد ذهب بعض الناس ببیت الشَّماخ هذا المذهب ، وهو قوله :
 إِذَا مَا رَايَةَ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ (٢)

(١) المثل كما ذكره الميداني في (مجمع الأمثال) : «بِيَدَيْنِ مَا أوردَها زائدة» ، والمراد باليد هنا : القُوَّة والجلادة ، يقال : «ما لي به يد ، وما لي به يدان» أي : قُوَّة . و (ما) صلة ، و (زائدة) اسم رجل ، والمعنى : بالقُوَّة والجلادة أوردَ زائدة إليه لا بالعجز ، قال الميداني : «ويجوز أن يريد بقوله : (بِيَدَيْنِ) أنه أضبط يعمل بكلتا يديه ، يضرب في الحث على استعمال الجِدِّ» . وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب) : «(ما) زائدة ، و (زائدة) اسم رجل ، والضمير للإبل ، يضرب لمن يباشر الأمر بقوة» .

(٢) استشهد الفراء بهذا البيت في (معاني القرآن) ، قال : ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ، يقول : كنتم تأتوننا من قبَل الدِّين ، أي تحذعوننا بأقوى الوجوه ، و [الْيَمِينِ] : القدرة والقوة ، كقوله تعالى : ﴿فَرَاخَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي : بالقوة والقدرة ، وقال =

فقالوا : معناه : بقوة وعزيمة ، وإلّا فكلُّ أحدٍ يتلقّاها بيمينه لو كانت الجارحة ، وأيضاً فلما استعار الراية للمجد فكذا لم يرد باليمين الجارحة .
ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا : إنكم كنتم تأتوننا من الجهة التي يُحسّنها تمويهكم وإغواؤكم ، ويظهر فيها أنّها جهة الرشد والصواب ، فتصير عندنا كاليمين الذي نتيمنّ بالسّانح الذي يجيئنا من قبلها ، فكأنهم شبّهوا أقوال هؤلاء المغوين بالسوانح التي هي عندهم محمودة ، كأن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يُحمد به .

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا : إنكم كنتم تأتوننا ، أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمين ، فعبر عنها باليمين ؛ إذ اليمين هي الجهة التي يُتيمنّ بها وبكل ما فيها ومنها (١) .

= الشاعر : إذا ما غاية ... البيت . والبيت للشماخ يمدح به عرّابة الأوسي ، وقبله يقول :

رَأَيْتُ عَرَّابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ

وعرّابة هو ابن أوس بن قيطي ، وقيل : إنه هو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق : ﴿ إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ ، وقد قيل : إن عرّابة الأوسي من الصحابة ، وقيل : بل كان سيّداً ولكن ليس له صحبة ، وقد كان أحد الذين عدّوا من الصغار يوم أحد ولم يُسمَح لهم بالاشتراك في الحرب . هذا والبيت في اللسان أيضاً (يَمَن) .

(١) استعبرت اليمين بجهة الخير لأن اليد اليمنى أشرف العضوين ، وكانوا يباشرون بها أفضل الأشياء كالمصافحة ، ولهذا جعلت لكاتب الحسّنات ، ويأخذ المؤمن بها كتابة .

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا : إنكم كنتم تجيئوننا من جهة الشهوات وعدم النظر ؛ والجهة الثقيلة من الإنسان هي اليمنى لأن كبده فيها ، وجهة شماله فيها قلبه ، وهي أخف ، وهذا معنى قول الشاعر :

تَرَكَنَا لَهُمْ شَقَّ الشَّمَالِ (١)

أي : نزلنا لهم عن موضع الهروب ؛ لأن المنهزم إنما يرجع على شقه الأيسر ، إذ هو أخف شقيه ، وإذ قلب الإنسان في شماله وثم نظره ، فكان هؤلاء كانوا يأتون من جهة الشهوات والثقل ، وأكثر ما يتمكن هذا التأويل مع إغواء الشياطين ، وهو قلبي مع إغواء بني آدم .

وقيل : المعنى : يحلفون لنا ويأتوننا إتيان من إذا حلف لنا صدقناه ، فاليمين - على هذا - : القسم .

وقد ذهب بعض الناس في ذكر إبليس جهات بني آدم في قوله :

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) (٢) إلى ما ذكرناه من جهة الشهوات ، فقال : ما بين يديه هي مغالطته فيما يراه ، وما خلفه هي مسارقتة في الخفاء ، وعن يمينه هو جانب شهواته ، وعن شماله هو نظره بقلبه وتحذيره فقد يغلبه الشيطان فيه ، وهذا فيمن جعله في جهات ابن آدم الحاضرة لديه ، ومنهم من جعلها في جهات أموره وشئونه فيتسع التأويل على هذا .

(١) يقول : تركنا لأعدائنا جانب الشمال ، لأنه جانب الضعفاء الذين يهربون ويتركون المعركة . ولم نقف على بقية البيت ولا على نسبه .

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الأعراف) .

ثم أخبر تعالى عن قول الجنّ المجيبين لهؤلاء : ﴿لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كما ذكرتم ، بل كان لكم اكتسابُ الكفر والبصيرة فيه ، وإنما حملناكم على ما حملنا عليه أنفسنا ، وما كان لنا عليكم حجة ولا قوة إلاّ طغيانكم وإرادتكم الكفر ، فقد حقّ القولُ على جميعنا ، وتعيّن العذابُ لنا ، وإنّا جميعاً لذائقون . والذُّوقُ هنا مستعار ، وينحو هذا فسرّ قتادة وغيره أنه قول الجنّ إلى [غَاوِينَ] .

ثم أخبر الله تعالى أنهم اشتركوا جميعاً في العذاب وحصلوا فيه ، وأن هذا فعله بأهل الجُرْمِ واحتقَابِ (١) الإثم والكفر .

قوله عزّ وجلّ :

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا
 ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
 لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

هؤلاء أهل الجُرْمِ الذين جهلوا الله سبحانه ، وعظّموا أصناماً وأوثاناً ، فإذا قيل : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ - وهي كلمة الحق والعروة الوثقى -

(١) الجُرْمُ : الذنب ، واحتقَابِ الإثم : ارتكبه .

أصابهم كِبْرٌ ، وَعَظُمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتْرَكُوا أَصْنَامَهُمْ وَأَصْنَامَ آبَائِهِمْ ،
 كما قيل عن أبي طالب إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 (أَيُّ عَمٍّ ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ) ، فقال أبو جهل :
 أيرغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال آخر ما قال : أنا على ملة عبد
 المطلب^(١) . وبعرضه عليه الصلاة والسلام قول لا إله إلا الله جرت
 السنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها .
 وأما الطائفة التي قالت : (أَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)
 فهي من قريش ، وإشارتهم بالشاعر المجنون هي لمحمد صلى الله عليه
 وسلم ، فردَّ الله تعالى عليهم ، أي : ليس الأمر كما قالوا من أنه شاعر ،
 بل جاء بالحق من عند الله ، 'وَصَدَّقَ الرِّسَالَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَهُ كَمُوسَى وَعِيسَى
 وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

ثم أخبر تعالى مخاطباً لهم - ويجوز أن يكون التأويل : قل
 لهم يا محمد - : (إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ) ، وقرأ قوم بنصب

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ، وفي تفسير سورة التوبة ، وفي الإيمان ،
 وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٣-٥) ، ولفظه كما في البخاري عن سعيد بن المسيب
 عن أبيه ، قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل
 وعبد الله بن أبي أمية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أي عمٍّ ، قل لا إله إلا الله أحاج
 لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد
 المطلب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ
 لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَى مِنْ بَعْدِ
 مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

[الْعَذَابَ] ، وَوَجَّهَهَا أَنَّهُ أَرَادَ : (لِذَائِقُونَ) ، فَحَذَفَتِ النُّونَ تَخْفِيفاً ،
وهي قراءة قد لحن^(١) ، وقرأ أبو السمال : [لِذَائِقُ] بالتثنية ،
[الْعَذَابَ] بالنصب^(٢) . و [الْأَلِيمَ] : الْمُؤَلِّمَ .

ثم أعلمهم أن ذلك جزاء لهم بأعمالهم واكتسابهم ، ثم استثنى
عباد الله استثناءً منقطعاً ، وهم المؤمنون الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه .
وقرأ الجمهور بفتح اللام من [الْمُخْلِصِينَ] ، وقرأ الحسن ، وقتادة ،
وأبو رجاء ، وأبو عمرو بكسر اللام ، ورويت هذه التي في الصافات
عن الحسن بفتح اللام .

قوله عز وجل :

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَرَكَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ
لِّلشَّرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

(١) يقول النحويون : إن سيويه أجاز النصب في مثل هذا ، وأنشد دليلاً على جوازه :

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَاكِرِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : «ويخرج على أن التقدير جمع ؛ وإلا لم يتطابق

المفرد وضمير الجمع في [إِنَّكُمْ] . . » .

[أَوْلَيْكَ] إشارةٌ إلى العباد المخلصين ، وقوله : [مَعْلُومٌ] معناه : عندهم ، فقد قرَّت عيونهم بعلم ما يستدرُّ عليهم من الرزق ، وبأن شهواتهم تأتيهم لحينها ، وإلَّا فلو كان ذلك معلوماً عند الله فقط لما تخصص أهل الجنة بشيء ، وقوله : ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ تَمِيمٌ بليغٌ للنعم ؛ لأنه رُبٌّ مرزوق غير مُكْرَم ، وذلك أعظم التنكيل .

و «السُّرُّ» : جمع سرير ، وقرأ أبو السَّمال بفتح الراء الأولى ، وفي هذا التأويل حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم في الجنان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض ، ولا محالة أن أعظم أحيانهم هم فيها متحيزون في قصورهم .

و [يُطَافُ] معناه : يطوف الولدان ، حسب ما فسّرت آية أخرى ، و «الكَّاسُ» قال الزجاج ، والطبري ، وغيرهما : هو الإناء الذي فيه خمر وما يجري مجراه من الأنبذة ونحوها ، ولا يُسَمَّى كأساً حتى يكون فيه هذا المشروب المذكور ، وقال الضحاك : كلُّ كأس في القرآن هو خمر ، رذهب بعض الناس إلى أن الكأس بنيةٌ مخصوصةٌ في الأواني ، وهو كلُّ ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض ، ولا يُراعى في ذلك كونه بخمر أم لا . وقوله : ﴿ مِنْ مَعِينٍ ﴾ يريد : من جارٍ مطرد ، فالميم فيه أصلية ؛ لأنه من الماء المعين ، ويحتمل أن يكون من العين فتكون الميم زائدة ، أي : ممَّا يُعِين بالعين غير مستور ولا في حرز ، وخمر الدنيا إنما هي معصورة مختزنة ، وخمر الآخرة جارية أنهاراً .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا فِيهَا ﴾ يحتمل أن يعود على الكأس أو على الخمر ، وهو الأظهر ، قال الحسن بن أبي الحسن : خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وفي قراءة ابن مسعود : « صَفْرَاءٌ » ، فهذا موصوف به الخمر وحدها ، و ﴿ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي : ذات لذة ، فوصفها بالمصدر اتساعاً ، وقد استعمل هذا حتى قيل : لَذَّةٌ بمعنى : لذيدة ، ومنه قول الشاعر :

بِحَدِيثِكَ اللَّذُّ الَّذِي لَوْ كَلَّمْتُ أَسْدُ الْفَلَاةِ بِهِ أَتَيْنَ سِرَاعاً (١)

وقوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ لم تعمل (لَا) ؛ لأن الظرف حال بينها وبين ما شأنها أن تعمل فيه . و «الغَوْلُ» : اسم عام في الأذى ، تقول : غاله كذا وكذا إذا ضره في خفاء ، ومنه الغيلة في القتل ، وقال عليه الصلاة والسلام في الرضاع : (لقد هممت أن أنهي عن الغيلة) (٢) ،

(١) اللذُّ هو اللذيد ، قال في اللسان (لذذ) : « واللذُّ واللذيدُ يجريان مجرى واحداً في النعت ، وقوله عز وجل : ﴿ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي : لذيدة ، وشرابٌ لذذٌ ولذيدٌ ، وكأسٌ لذذةٌ ، وفي التنزيل : ﴿ بَيضَاءٌ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ﴾ . ولذذ الشيء صار لذيداً . وهذا هو الشاهد في البيت ؛ لأن الشاعر استعمل اللذذ بمعنى اللذيد ، فهو يصف حديثها بأنه لذيد بحيث يؤثر في أسد الفلاة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن جدامة بنت وهب ، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح ، ولفظه كما ذكره السيوطي : (لقد هممت أن أنهي عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم) . وقد فسّر ابن الأثير معنى الغيلة في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) فقال : « الغيلة بالكسر : الاسم من الغيّل بالفتح ، وهو أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع ، وكذلك إذا حملت وهي مرضع ، واللبن الذي يشربه الولد يقال له الغيّل » .

ومن اللفظة قول الشاعر :

مَضَى أَوْلُونَا نَاعِمِينَ بِعَيْشِهِمْ جميعاً وَغَالَتْنِي بِمَكَّةَ غَوْلٌ (١)

أي : عاقتني عوائق ، فهذا معنى من معاني « الغَوْل » ، ومنه قول العرب في مثل من الأمثال : « ما له عَمَل ما غاله » ، يضرب للرجل الحديد الذي لا يقوم لأمر إلاّ أَعْنَى فيه ، أو للرجل يدعى له بآن يؤدي ما أدّاهُ ، وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد : الغَوْلُ وجع في البطن ، وقال ابن عباس أيضاً ، وقتادة : هو صداع في الرأس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والاسم أعم من هذا كله ، فنفي عن خمر الجنة جميع أنواع الأذى ، إذ هي موجودة في خمر الدنيا ، وقد نحا إلى هذا العموم سعيد ابن جبير ، ومنه قول الشاعر :

وَمَا زَالَتِ الْخَمْرُ تَغْتَالِنَا وتذهب بالأولِ الأولِ (٢)

أي : تؤذينا بذهاب العقل .

(١) يتألم من حياته ، ويقارن ما يلاقه من العوائق بما كان ينعم به أبائهم فيقول : مضوا جميعاً بحياتهم الناعمة وعيشتهم الهادئة ، وبقيت أنا مع العوائق والمصاعب التي أعاني منها .
(٢) البيت في اللسان (غَوْلٌ) غير منسوب ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، والرواية فيه وفي الطبري : (الكأس) بدلا من (الخمر) ، قال أبو عبيدة : « لا فيها غَوْلٌ » ، مجازة : ليس فيها غولٌ ، والغول أن تغتال عقولهم ، وقال الطبري : « وهو أن تغتال عقولهم ، يقول : هذه الحمرة لا تذهب بعقول شاربها ، كما تذهب بها خمور أهل الدنيا ، ثم ذكر البيت » . وشرح البيت في اللسان فقال : « أي : توصل إلينا شرّاً وتعدمنا عقولنا » . فكلهم أجمعوا على أن المعنى هو اغتيال العقل .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [يُنزِفُونَ] بفتح الزاي ، وكذلك في الواقعة (١) ، من قولك : نُزِفَ الرجلُ إذا سَكِرَ ، ونَزَفْتُهُ الخمرُ ، والنَّزيفُ : السكرانُ ، ومنه قول الشاعر :

فَلْتَمْتُ فَأَهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ (٢)

وبإذهاب العقل فسّر ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة [يُنزِفُونَ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي بكسر الزاي ، وكذا في الواقعة ، من : أَنْزَفَ بمعنيين : أحدهما سَكِرَ ، ومنه قول الأبيُّرد الرياحيُّ :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ لَيْئَسَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرَا (٣)

(١) في قوله تعالى في الآية (١٩) : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ .

(٢) البيت مختلف في نسبه ، قيل : هو لعمر بن أبي ربيعة ، وهو من أبيات يقول فيها :

قالتُ : وَعَبَّشُ أَبِي وَحُرْمَةَ إِخْوَتِي لِأَنْبَهَنَّ الْحَيَّ إِنْ لَمْ تُخْرَجِ
فَخَرَجْتُ خِيْفَةَ قَوْلِهَا فَتَبَسَّمَتْ فَعَلِمْتُ أَنَّ بِمِينَهَا لَمْ تُخْرَجِ
فَلْتَمْتُ فَأَهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ

وقال ابن بري : البيت لحميل بن معمر ، وليس لعمر بن أبي ربيعة ، والقَرْنُ : الذُّؤَابَةُ ، وخصَّ بعضهم به ذُّؤَابَةُ الْمَرْأَةِ وَضْفِيرَتَا ، والجمع : قُرُونٌ ، والنَّزِيفُ : السَّكَرَانُ ، وقيل : هو المحموم الذي منع من الماء ، والحشرج : الكؤز الرقيق النقي ، وقيل : هو الماء العذب من ماء الحسيني . ولتَمْتُ فَأَهَا : قَبَلْتُهُ ، ونصَّبَ الشاعرُ (شُرْبَ) على المصدر المشبَّه به ، فكأنه قال : شربتُ ريقَهَا كَشُرْبِ النَّزِيفِ لِلْمَاءِ الْعَذْبِ الْبَارِدِ .

(٣) البيت في اللسان (نَزَفَ) ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، وقد نسبة الجوهري

للأبيرد ، وبعده يقول مخاطباً آل أبيجر :

شَرِبْتُمْ وَمَدَرْتُمْ وَكَانَ أَبُوكُمْ كَذَا كُمْ إِذَا مَا يَشْرَبُ الْكَأْسَ مَدَرًا =

والثاني بَعْدَ شَرَابِهِ (١) ، يقال : أَنْزَفَ الرَّجُلُ إِذَا بَتَّمَ شَرَابَهُ ، فهذا كله منفيٌّ عن أهل الجنة ، وقرأ عاصم هنا بفتح الزاي ، وفي الواقعة بكسر الزاي ، وقرأ ابن أبي إسحق بفتح الياء وكسر الزاي ، قوله تعالى : ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ ، قال ابن غيلان ، ومجاهد ، وابن زيد ، وقتادة : معناه : على أزواجهن ، لا ينتظرن إلى غيرهم ، ولا يمتد طرف إحداهن إلى أجنبي ، فهذا هو قَصْرُ الطَّرْفِ . و [عَيْنٌ] : جمعُ عَيْنَاءَ ، وهي الكبيرة العين في جَمَالٍ . وأما قوله تعالى : ﴿ كَانَهُنَّ بَيَاضٌ مُكْنُونٌ ﴾ فقد اختلف الناس - ما هو ؟ فقال السدي ، وابن جبير : شبه ألوانهن بلون قشر البيضة الداخلي ، وهو الغِرْقِيُّ (٢) ، وهو المكنون ، أي : المصون في كِنٍّ ، ورجحه الطبري ، قال : وأما خارجُ قِشْرِ البيضة فليس بمكنون ، وقال الجمهور : شبه ألوانهن بلون قِشْرِ بَيْضِ النِّعَامِ ، وهو بياض قد خالط صفرةً حسنةً ، قالوا : والبَيَاضُ نفسه في الأغلب هو المكنون

= وهو أَبَجْرُ بن جابر العجلي ، وكان نصرانياً ، وأنزَفَ : سَكِرَ وَذَهَبَ عَقْلُهُ ، وَمَنْدَرٌ : سَلَحَ عَنْ نَفْسِهِ ، يَقُولُ : إِنَّكُمْ يَا آلَ أَبَجْرِ بَشَرٌ النَّدَامَى سَلَحُوا إِذَا شَرَبْتُمْ حَتَّى ذَهَبَ عَقْلُكُمْ أَوْ كُنْتُمْ فِي حَالِ الْإِفَاقَةِ وَالصَّحْوَةِ ، وَشَأْنُكُمْ كَأَيْكُمْ إِذَا مَا شَرَبْتُمْ سَلَحْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ . وقد استشهد القرطبي في تفسيره بالبيت ونسبه للحطيئة . (١) لعله يريد : فني شرابه ولم يجد غيره قريباً منه ، وقد قال الفراء : « وَأَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ يَقْرَأُونَ : (يُنْزِفُونَ) ، وله معنيان : يقال : قد أنزف الرجل إذا فنيك لخمزه ، وأنزف : إذا ذهب عقله ، فهذان وجهان » .

(٢) الغِرْقِيُّ : القشرة الرقيقة المتترقة بياض البيضة .

بالريش ، ومتى شدت به حال فلم يكن مكنوناً خرج عن أن يُشبهه

به ، وهذا قول الحسن ، وابن زيد ، ومنه قول امرئ القيس :

كَبِكَرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ غَدَاها نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ (١)

وهذا المعنى كثير في أشعار العرب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما -

فيما حكى الطبري : البيض المكنون أراد به الجوهر المصون .

(١) البيت من مُعلِّقة امرئ القيس ، وفيه يواصل الحديث عن محبوبته التي وصفها بأنها بيضة خدي ، وبأنها مُهَيَّجَةٌ بِيَضَاءٍ غَيْرِ مُفَاضَةٍ ، وهنا يقول : إنها بَكَرُ مُقَانَاةٍ ، والبَكَرُ من كل صنف : ما لم يسبقه مثله ، والمُقَانَاةُ : الخَلْطُ ، يقال : قَانَيْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِذَا خَلَطْتَ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ ، والمُقَانَاةُ في البيت مصوغة للمفعول دون المصدر ، والسَّمِيرُ : الماء النَّامِي في الجسد ، والمُحَلَّلُ : ذُكِرَ أَنَّهُ من الخلول وذُكِرَ أَنَّهُ من الخلل ، وللعلماء في توضيح معنى البيت ثلاثة آراء : الأول أن المعنى : مثلُ بَكَرِ الْبَيْضِ التي قَبُونِي بِياضُها بِصُفْرَةٍ ، أي : خَلَطَ بِصُفْرَةٍ بَسِيرَةٍ ، شبه لون الحبيبة بلون بيض النعام في أن في كلٍّ منهما بِياضاً خالطته صفرة خفيفة ، يقول : إنها بِيَضَاءٍ تُلَوِّنُ بِياضُها صُفْرَةً خَفِيفَةً ، وقد غَدَاها ماءً صَافٍ عَذْبٍ ، والمعنى الثاني أنها مثل بَكَرِ الصَّدَقَةِ ، أي دُرَّتْها التي ليس لها مثيل ، وقد غَدَى هذه الدُرَّةُ ماءً نَمِيرٌ ، وهي غير محللة لمن أرادها ؛ لأنها في قاع البحر لا تصل إليها الأيدي . والمعنى الثالث أنها مثل بَكَرِ البردي التي شابَ بِياضُها صُفْرَةً ، وقد غَدَى هذا البردي بماءٍ نَمِيرٍ لم يَكُرْ حُلُولُ الناس عليه ، ولهذا فهو صافٍ خالٍ من الكدر ، وإذا كان كذلك لم يتغير لون البردي . وكل معنى من المعاني الثلاثة قائم على تشبيه الحبيبة في لونها بشيء أبيض اختلطت به صفرة بسيرة ، وهذا اللون هو أحسن ألوان النساء عند العرب . وعلى المعنى الأول يكون البيت شاهداً هنا .

ويروى البيت بنصب كلمة (البياض) وخفضها ، وهما واردان ، الخفض على الإضافة ، والنصب على التشبيه ، ومن دلائل الدقة في التعبير أن الشاعر جعل الماء الذي يغذيها - على أي فهم فهمنا - ماءً غير محلل لغيرها ، فهو ماءٌ خاصٌ ، ولهذا فهو ماءٌ صافٍ لم يتغير ولم يتأثر بالأمم الآخرين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ لأنه ترده اللفظة من الآية .

وقالت فرقة : إنما شبههن بالبيض المكنون تشبيهاً عاماً ، جملة المرأة بجملة البيضة ، وأراد بذلك : تناسبت أجزاء المرأة ، وكل جزء منها نسبته في الجودة إلى نوعه نسبة الآخر من أجزائها إلى نوعه ، فنسبة شعرها إلى عينها مستوية إذ هما غاية في نوعيهما ، والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء ؛ لأنك من حيث جثتها فالنظر واحد .

قوله عز وجل :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٧﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٨﴾ أَوْ دَامِنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ﴿٥٩﴾ أءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

هذا التساؤل الذي بين أهل الجنة هو تساؤل راحة وتنعم ، يتذكرون أمورهم في الجنة وأمر الدنيا وحال الطاعة والإيمان فيها ، فأخبر تعالى عن قول قائل منهم في قصته ، فهو مثال لكل من له قرين سوء ، ويعطي هذا المثال التحفظ من قرناء السوء ، واستشعار

معصيتهم ، وعبر عن قول هذا الرجل بالمضي من حيث كان أمراً متيقناً حاصلًا لا محالة . فقال ابن عباس وغيره : كان هذا من البشر مؤمن وكافر ، وقالت فرقة : هما اللذان ذكر الله في قوله : ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ (١) ، وقال مجاهد : كانا إنسيًا وجنيًا من الشياطين الكفرة ، والأول أصوب . وقرأ الجمهور : ﴿ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ بتخفيف الصاد ، من التصديق ، وقرأت فرقة بالتشديد للصاد ، من التصدق . وقال فراتُ بن ثعلبة البهراني في قصص هذين : إنهما كانا شريكين بثمانية آلاف دينار ، فكان أحدهما يعبد الله ويقصر من التجارة والنظر ، وكان الآخر كافرًا مُقبلًا على ماله ، فحلَّ الشركة مع المؤمن وبقي وحده لتقصير المؤمن ، ثم إنه جعل كلما اشترى شيئاً - من دارٍ وجاريةٍ وبستانٍ ونحوه - عرَّضه على المؤمن وفخرَ عليه ، فيمضي المؤمن عند ذلك ويتصدق بنحو ذلك الثمن ليشتري به من الله في الجنة ، فكان من أمرهما في الآخرة ما تضمنته هذه الآية . قال الطبريُّ : وهذا الحديث يؤيد قراءة التشديد . و [مَدِينُونَ] معناه : مجازون محاسبون ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي . والذين : الجزاء ، وقد تقدم .

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الفرقان) .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ
 إِنْ كِدْتَ لِتَرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَأَنْتُمْ
 تَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيَمِثِلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

في الكلام حذف تقديره : فقال لهذا الرجل حاضروه من الملائكة :
 ترينك هذا في جهنم يُعَذَّب ، فقال عند ذلك : ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ .
 ويحتمل أن يخاطب بـ [أَنْتُمْ] الملائكة ، ويحتمل أن يخاطب رفقاءه
 في الجنة ، ويحتمل أن يخاطب خَدَمَتَهُ ، وكل هذا حكى المهدي ،
 وقرأ الجمهور : [مُطَّلِعُونَ] بفتح الطاء مشددة ، وقرأ أبو عمرو -
 في رواية حسين - بسكونها مع فتح النون ، وقرأ أبو البرهسم بسكونها
 وكسر النون على أنها ضمير المتكلم ، وردَّ هذه القراءة أبو حاتم
 وغيره ولَحَنُوها ؛ وذلك أنها جمعت بين نون الإضافة ونون المتكلم ،
 والوجه أن تقول : « مُطَّلِعِي » ، ووجه القراءة أبو الفتح ابن جنِّي
 وقال : أنزل الفاعل منزلة الفعل المضارع ، وأنشد الطبريُّ على هذا :

وَمَا أَذْرِي وَظَنِّي كُلُّ ظَنٍّ أَمْسَلْمَنِي إِلَى قَوْمِي شَرَّاحِي؟ (١)

قال الفراء : يريد : شراحيل .

(١) استشهد الفراء بهذا البيت وبغيره في (معاني القرآن) على ورود الجمع بين النون والضمير ، قال : « وقرأ بعض القراء : ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴾ فكسر النون ، وهو شاذٌ ؛ لأن العرب لا تختار على الإضافة إذا أسندوا فاعلاً مجموعاً أو موحداً إلى اسم مكني عنه ، فمن ذلك أن يقولوا : أنت ضاربي ، وأنتم ضارباي ، وأنتم ضاربي ، ولا يقولون : أنتم ضاربانني ، ولا أنتم ضاربونني ، وإنما تكون هذه النون في فَعَلَّ وِثْقَلٌ ، مثل ضربوني ويضربني وضربني ، وربما غلط الشاعر فيذهب إلى المعنى ، فيقول : أنت ضاربي ، يتوهم أنه أراد : هل تضربني ، فيكون ذلك على غير صحة ، قال الشاعر : « وما أذري ... البيت » . وذكر أحياناً أخرى ثم قال : « وإنما اختاروا الإضافة في الاسم المكني لأنه يختلط بما قبله ، فيصير الحرفان كالحرف الواحد ، فلذلك استحبوا الإضافة في المكني فقالوا : هما ضاربان زيداً ، وضاربا زيداً » . وقال سيويه في الكتاب : « واعلم أن حذف النون والتنوين لازم مع علامة المضمر غير المنفصل ؛ لأنه لا يتكلم به مفرداً حتى يكون متصلًا بفعل قبله أو باسم فيه ضمير ، فصار كأنه النون والتنوين في الاسم ؛ لأنهما لا يكونان إلا زوائد ، ولا يكونان إلا في أواخر الحروف » . وبعد أن ذكر الفرق بين المضمر والاسم الظاهر قال عن المضمر : « وقد جاء في الشعر ، وزعموا أنه مصنوع ، ومنه :

هُمُ الْقَائِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُونَ إِذَا مَا خَشَوْا مِنْ مُحَدَّثِ الْأَمْرِ مُعْظَمًا

وقال :

وَلَمْ يَرْتَفِقْ وَالنَّاسُ مُحْتَضِرُونَهُ جَمِيعًا وَأَيْدِي الْمُعْتَمِينَ رَوَاهِقُهُ

وقد أنكر أبو حاتم هذه القراءة ، وقال النحاس : « هو لحن لا يجوز » لأنه جمع بين النون والإضافة ، وقال غيرهما : هذا شاذٌ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هذا لم يحتج به في كتاب الله عز وجل ، والذي دافع عن هذه القراءة هو أبو الفتح عثمان بن جني في كتاب المحتسب ، وهو ما ذكره ابن عطية هنا ، ومعنى تنزيل الفاعل منزلة الفعل المضارع أن يجري (مُطْلِعُونَ) مجرى (يُطْلِعُونَ) ، كما قال بعضهم :

أَرَيْتَ إِنْ جِئْتُ بِهِ أَمْلَسُودًا مَرَجَلًا وَيَلْبَسُ الْبُرُودًا

أَقَائِلُنْ أَحْضِرِ الشُّهُودَا

فقد أكد اسم الفاعل بالنون ، وإنما يأتي ذلك في الفعل .

وقرأ الجمهور : [فَاطَّلَعَ] موصولة الألف مشددة الطاء المفتوحة ،
 وقرأ أبو عمرو في رواية الحسين بضم الألف وسكون الطاء خفيفة
 وكسر اللام ، وهي قراءة أبي البرهسم . قال الزجاج : هي قراءة
 من قرأ : [مُطَّلِعُونَ] بكسر النون ، ورُوي أن لأهل الجنة كوى وطاقات
 يشرفون منها على أهل النار إذا شاءوا على جهة النعمة والعبرة ؛ لأن
 لهم في عذاب أهل النار وتوبيخهم سروراً وراحةً ، حكاه الرماني
 عن أبي علي .

و «سَوَاءُ الْجَحِيمِ» وَسَطُهُ ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والناس ،
 وُسْمِي بسواء الجحيم لاستواء المسافة منه إلى الجوانب ، والجحيمُ
 متراكمُ جمر النار ، ورُوي عن مطرف بن عبد الله ، وخُلَيْدِ الْعَصْرِيِّ (١)
 أَنَّهُ رَأَاهُ قَدْ تَغَيَّرَ حَبْرُهُ وَسَبْرَهُ (٢) ، أَي : تَبَدَّلَتْ حَالُهُ ، وَلَوْلَا مَا عَرَّفَهُ
 اللَّهُ إِيَّاهُ لَمْ يَمَيِّزُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ ذَلِكَ : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ ،
 أَي : تَهْلِكُنِي بِإِغْوَائِكَ ، وَالرَّدَى : الْهَلَاكُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْشَى :
 أَفِي الطَّوْفِ خِفْتُ عَلَى الرَّدَى وَكَمْ مِنْ رَدٍ أَهْلُهُ لَمْ يَرِمْ (٣)

(١) خُلَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَصْرِيُّ ، بَفَتْحِ الْعَيْنِ وَالصَّادِ ، أَبُو سَلِيمَانَ الْبَصْرِيُّ ، يُقَالُ :
 إِنَّهُ مَوْلَى لِأَبِي الدَّرْدَاءِ ، صَدُوقٌ ، يَرْسُلُ ، مِنْ الرَّابِعَةِ . (تَقْرِيْبُ التَّهْذِيبِ) .
 (٢) سَبْرُهُ : أَصْلُهُ وَهَيْئَتُهُ وَلَوْنُهُ ، وَأَمَّا حَبْرُهُ فَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِهَا هَيْئَتَهُ وَزَيْتَتَهُ وَمَا هُوَ
 فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ .

(٣) الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ قَالَهَا الْأَعْشَى يَمْدَحُ قَيْسَ بْنَ مَعْدِيكَرِبَ ، وَالشَّاعِرُ يُخَاطِبُ ابْنَتَهُ
 فِي الْبَيْتِ ، وَقَدْ كَانَتْ تَخْشَى عَلَيْهِ الْهَلَاكَ لِطَوْلِ تَطَوُّفِهِ وَكَثْرَةِ أَسْفَارِهِ ، فَيَقُولُ لَهَا : أَتَخَافِينَ =

وفي مصحف ابن مسعود : « إِنْ كَدَّتْ لَتُغْوِينَ » بالواو ، من الغيِّ ، وذكرها أبو عمرو الداني بالراء ، من الإغراء ، والتاء في هذا كله مضمومة .

ورفع ﴿ نِعْمَةٌ رَبِّي ﴾ بالابتداء ، وهو إعراب ما كان بعد (لولا) عند سيبويه ، والخبر محذوف تقديره : تداركته ونحوه ، و [أَلْمُحْضَرِينَ] معناه : في العذاب (١) .

وقول المؤمن : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لرفقائه ، لَمَّا رَأَى مَا نَزَلَ بِقَرِينِهِ ونظر حاله في الجنة وحال رفقائه قدرَّ النعمة قدرها ، فقال لهم - على جهة التوقيف - ما قال ، ويجيء - على هذا التأويل - قوله : ﴿ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وما بعده متصلاً بكلامه ، خطاباً لرفقائه . ويحتمل أن تكون ﴿ أَفَمَا نَحْنُ ﴾ إلى قوله [بِمُعَذَّبِينَ] مخاطبة لقرينه على جهة التوبيخ ، كأنه يقول : أين الذي كنت تقول من أنا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب ؟ ويكون قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَا

= عليّ الموت لذلك ؟ فانظري كم إنسان يناله الردى فيموت وهو مقيم لا يبرح ديار أهله ، إنهم كثيرون . والطَّوْفُ : التَّطَوُّفُ والسفر الكثير ، والرَّدى : الهلاك ، وهو موضع الشاهد . قال أبو عبيدة : « يقال : أرديته : أهلكته ، وردِّي هو : هلك » .

(١) قال الفراء : معناه : لكنت معك في النار مُحْضَرًا ، وقال الماوردي : « أَحْضَرَ لا تستعمل مطلقاً إلا في الشر » ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لِمَا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ شَرِبِ مُحْتَضِرًا ﴾ وهذا يؤيد كلام الماوردي .

لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) إلى قوله : ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقريته ، وإليه ذهب قتادة ، ويحتمل أن يكون من خطاب الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته ، ويقوى هذا لأن قول المؤمن ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ والآخرة ليست بدار عمل - يقلق إلا على تجوز ، كأنه يقول : لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل العاملون .

قوله عز وجل :

﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۗ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۗ﴾
 ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۗ﴾ ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّ رُءُوسَ الشَّيَاطِينِ ۗ فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَأَكَلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۗ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ۗ﴾
 ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِآلِ الْجَحِيمِ ۗ﴾ ﴿إِنَّهُمْ الْفَوَاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۗ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ ۗ﴾

الألف من قوله تعالى : [أَذَلِكْ] للتقرير ، والمراد تقرير قريش والكفار ، وجاء ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ بلفظ التخيير بين شيئين لا اشتراك بينهما من حيث كان الكلام تقريراً ، والاحتجاج يقتضي أن يوقف المتكلم خصمه على قسمين أحدهما فاسد ، ويحملة بالتقرير على اختيار

أحدهما ، ولو كان الكلام خبراً لم يَجُزُّ ولا أفاد أن يقول : الجِنَّةُ خَيْرٌ من شجر الزقوم . وأما قوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ (١) فهذا على اعتقادهم في أن لهم مُسْتَقَرًّا خيراً ، وقد تقدم إيعابُ (٢) هذا المعنى . وفي بعض البلاد الجذبة المجاورة للصحاري شجرةٌ مُرَّةٌ مسمومة لها لبنٌ إن مسَّ جسم أحد تورم ومات منه في أغلب الأمر ، تُسمَّى شجرة الزُّقُوم ، والتزقُم في كلام العرب : البلع على شدة وجهد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ ، قال قتادة ، ومجاهد ، والسدي : يريد أبا جهل ونظرائه ، وذلك أنه لما نزلت الآية قال الكفار : وكيف يخبر محمد عن النار أنها تُنبت الأشجار وهي تأكلها وتذهبها ؟ ففتنوا بذلك أنفسهم وجهلة أتباعهم ، وقال أبو جهل : إنما الزُّقُوم التمر بالزبد ، ونحن نتزقمه . وقوله : ﴿ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ يعني ملاصق أساسها الذي لها كالجدران ، وفي قراءة ابن مسعود : «إنها شجرة نابتة في أصل الجحيم» .

قوله : ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ اختلف الناس في معناه - فقالت فرقة : شبه بثمر شجرة معروفة يقال لها : رُءُوس الشياطين ، وهي

(١) من الآية (٢٤) من سورة (الفرقان) .

(٢) وَعَبَّ وَأَوْعَبَ وَاسْتَوْعَبَ الشيء : أخذه أجمع ولم يدع منه شيئاً ، والمراد هنا : تَقَدَّمَ استيفاء كل جوانب المعنى .

بناحية اليمن ، يقال لها : **أَسْتَن** ، وهي التي ذكر النابغة في قوله :
 من **أَسْتَنٍ سُوْدٍ أَسَافِلُهُ** (١)
 ويقال : إنه الشجر الذي يقال له : **الصَّوْم** ، وهو الذي يعني ساعدة
 ابن جُوَيَّة في قوله :

مَوْكَلٌ بِشُدُوفِ الصَّوْمِ يَرْقُبُهَا **مِنَ الْمَعَازِبِ مَخْطُوفِ الْحَشَا زَرِمٌ** (٢)

(١) هذا جزء من بيت قاله النابغة في ميمية مطلعها :

بَانَتْ سَعَادٌ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْجَدَمَا وَاحْتَلَّت الشَّرْعَ فَلَاجِرَاعَ مِنْ إِضْمَا

والبيت بتمامه :

تَحِيدُ مِنْ أَسْتَنِ سُوْدٍ أَسَافِلُهُ مَشَى الْإِمَاءُ الْغَوَادِي تَحْمِيلُ الْحُرْمَا

وهو في وصف أتان ، و (تَحِيدُ) معناه : تَتَجَنَّب ، وَأَسْتَن : شَجَرِي سَمَى كَذَلِكَ ،
 واحدها : **أَسْتَنَة** بفتح التاء ، وهو شجر قبيح الشكل ، وقبيح منظر الثمرة ، ويقال لثمره :
 رُؤُوس الشياطين ، وقد شبه هذا الشجر الذي تَتَجَنَّبُه الأتان بالإماء السود يمشين وهن يحملن
 أحزمة الخطب الذي جمعته من الصحراء ، وجملة (مَشَى الْإِمَاءُ ...) حالٌ من (أَسْتَنِ)
 وقد روي البيت : (أَسَافِلُهَا مِثْلُ الْإِمَاءِ) ، وقد وقع هذا البيت في هذا الموضع من القصيدة
 في ديوان النابغة من رواية الأصمعي ، وفي شرح البطليوسي ، فيكون (تحيد) بالثاء راجعاً
 لكلمة (الخرقاء) في قوله قبل هذا البيت : (وَأَقْطَعُ الْخَرَقَ بِالْخَرَقَاءِ) ، ولكنه في رواية
 أخرى جاء بعد موضعه هذا بثلاثة أبيات ، وعلى ذلك يكون (يحيد) بالياء لأن الكلام يعود
 على مذكَّر .

(٢) البيت في اللسان (صَوْم) ، قال : « **الصَّوْم** : شَجَرٌ عَلَى شَكْلِ شَخْصِ الْإِنْسَانِ ،
 كَرِيهِ الْمَنْظَرِ جَدًّا ، يقال لثمره : رُؤُوس الشياطين ، ويعني بالشياطين الحيات ، وليس له
 ورق ، وقال أبو حنيفة : للصوم هَدَبٌ ، وَلَا تَنْتَشِرُ أَفْنَانُهُ ، يَنْبِتُ نَبَاتِ الْأَثَلِ وَلَا يَطْوُلُ
 طَوْلُهُ ، وَأَكْثَرُ مَنَابِتِهِ بِلَادُ بَنِي شَبَانَةَ ، قال ساعدة بن جُوَيَّة : **مَوْكَلٌ ... الْبَيْتِ** . والشُدُوفُ :
 الشخوص ، فهو **مَوْكَلٌ** بها ، يرقبها من الرعب يحسبها ناساً . **وَمِنَ الْمَعَازِبِ** : من حيث
 يعزب عنه الشيء ، أي : يتباعد . **وَمَخْطُوفِ الْحَشَا** : ضامره ، **وَزَرِمٌ** : لا يثبت في مكان .

وقالت فرقة : شبه برعوس صنف من الحيات يقال له : الشياطين ، وهي ذات أعراف ، ومنه قول الشاعر :

عَنْجَرِدُ تَحْلِفُ حِينَ أَحْلِفُ كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحَمَاطِ أَعْرَفُ (١)

وقالت فرقة : شبه بما استقر في النفوس من كراهة رعوس الشياطين وقبحها وإن كانت لم تُر ، وهذا كما تقول للأشعث المنتفش الشعر الكريه المنظر : هذا وجه شيطان ، ونحو هذا قول امرئ القيس الكندي :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ؟ (٢)
فإنما شبه بما استقر في النفوس من هيئتها .

(١) هذان البيتان من مشطور الرجز ، وهما في اللسان (عَنْجَرِد) ، واستشهد بهما الفراء في (معاني القرآن) ، والعَنْجَرِد : المرأة الخبيثة سيئة الخلق ، وقيل : السليطة ، وَالْحَمَاطُ : جنس من الحيات تسميه العرب : شيطان الحَمَاط ، يقال : شيطان حَمَاطٌ ، كما يقال : ذئبٌ غضبي ، وتيسٌ حلب ، وأَعْرَفٌ : له عُرْفٌ . والشاعر يشبه هذه المرأة الخبيثة بحية لها عرفٌ .

(٢) البيت من لاميته التي يتغزل فيها ويصف مغامراته وصيداه وسعيه إلى المجد ، والحديث في البيت عن بعل المعشوقة التي أحبته وهجرت زوجها ، فقال عنها وعنه : « فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلها عليه القتام ... » ، وهو في البيت يستنكر أن يستطيع هذا الزوج قتله ؛ لأنه يجيد استعمال السيف والنبال ، أما هذا الزوج فكما قال امرؤ القيس بعد ذلك : « ولتيس بذي رُمح ، وليس بذي سيف . وليس بنبال » . والمشرفي هو السيف ، والمسنونة الزرق : النبال ، وقد شبهها بأنياب الأغوال ، والغول غير معروفة ، وهذا النوع من التشبيه يسمي التشبيه الوهمي ؛ لأن الشاعر يتوهم شيئاً في نفسه ، أو يتصور له صورة وإن كان غير مرئي ، وتصبح هذه الصورة المتوهمة مرسومة في النفوس ، ومن ذلك أن العرب يتصورون كل قبيح في صورة الشيطان ، ويتصورون كل حسن في صورة الملك ، وقد أخبر سبحانه وتعالى عن صواحب يوسف بقوله : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وقد يسمي هذا التشبيه التشبيه التخيلي ؛ لأن صورة المشبه به متخيلة . والبيت في اللسان (غول) ، و (مجمع البيان) ، و (مختار الشعر الجاهلي) ، و (روح المعاني) ، والديوان .

و «الشَّوْبُ» : المزج والخلط ، قاله ابن عباس ، وقتادة . وقرأ
 شيبان النحوي (١) بضم الشين ، قال الزجاج : فَتَحُّهَا الْمَصْدَرُ وَضَمُّهَا
 الْأَسْمُ . و «الحميم» : السخن جداً من الماء ونحوه ، وقد يريد به ها هنا
 شرابهم الذي هو طينة الخبال وما ينماع منهم ، هذا قول جماعة
 من المفسرين .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون لهم انتقال
 أجساد في وقت الأكل والشرب ويرجعون إلى معظم الجحيم ، ذكره
 الرماني ، وشبهه بقوله تعالى : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنِ﴾ (٢) ،
 ويحتمل أن يكون الرجوع إنما هو من حال ذلك الأكل المعذب إلى
 حال الاحتراق دون أكل ، وبكل احتمال قيل . وفي مصحف ابن مسعود :
 «وَأَنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لِأَيِّ الْجَحِيمِ» ، وفي كتاب أبي حاتم عنه : «مَقِيلُهُمْ» ،
 من القائلة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَفْقَا﴾ إلى آخر الآية تمثيل لقريش ،
 و [يُهْرَعُونَ] ، قال قتادة ، والسدي ، وابن زيد : معناه : يسرعون
 كأنهم يساقون بعجلة ، وهذا تكسبهم للكفر وحرصهم عليه ،

(١) هو شيبان بن عبد الرحمن التميمي ، مولاهم ، النحوي ، أبو معاوية ، البصري ،
 نزيل الكوفة ، وقد نُسب إلى نحو بن شمس الأزدي ، ثقة ، صاحب كتاب ، ويقال إنه منسوب
 إلى «نحو» بطن من الأزدي ، وليس إلى علم النحو ، من السابعة ، مات سنة ٥٦٤هـ . (تقريب
 التهذيب ، واللباب ، والاشتقاق) .

(٢) الآية (٤٤) من سورة (الرحمن) .

والإهراعُ : سيرٌ شديد ، قال مجاهد ، كهيئة الهرولة وفيه شبه رعدة ،
وكانه أيضاً سير الفارغ .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٧﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ
نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٨٠﴾ وَجَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٨١﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٨٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٣﴾ سَلَامٌ
عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

مثل تعالى لقريش في هذه الآية بالأئمة التي ضلَّت قديماً ،
وجاءها الإنذارُ ، وأهلكها الله تعالى بعدله ، وقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴾ يقتضي الإخبارُ بأنه عذبهم ، ولذلك حُسِنَ
الاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ ﴾ .

ونداءُ نوح عليه السلام قد تضمن أشياء : منها الدعاءُ على قومه ،
وسؤال النجاة ، وطلب النصرة ، وفي جميعها وقعت الإجابة . وقوله
تعالى : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ يقتضي الخبر بأن الإجابة كانت على
أكمل ما أراد نوح عليه السلام . و « الْكَرْبُ الْعَظِيمُ » ، قال السُّدي :

هو الغرق ، ومن الكرب تكذيب الكفرة ، وركوب الماء وهوله ، قال الرُّماني : الكربُ : الخبير الثقيل على القلب .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة : أهل الأرض كلهم من ذرية نوح ، وقال الطبري : العربُ من أولاد سام ، والسودانُ من أولاد حام ، والتُّرك والصَّقْلِب وغيرهم من آل يافث . ورُوي عن سَمُرَةَ بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : (سام وحام ويافث) (١) ، وقالت فرقة : إن الله أبقى من ذرية نوح ، ومدَّ نسله ، وبارك في ضِئْضِئِهِ (٢) ، وليس الأمر أن أهل الدنيا انحصروا إلى نسله ، بل

(١) أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن سَمُرَةَ بن جندب رضي الله عنه . وأخرج ابن سعد ، وأحمد ، والترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، عن سَمُرَةَ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم) . (الدر المنثور) .

(٢) الضِّئْضِئِيُّ : الأصل والمعدن ، وفي الحديث الشريف أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُقَسِّمُ الغنائم ، فقال له : اعدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تعدل ، فقال : (يخرج من ضِئْضِئِي هذا قومٌ يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ) ، أي : من أصله ونسله ، وقال الكمي :

وَجَدْتُكَ فِي الضَّنِّ مِنْ ضِئْضِئِي أَحْسَلَّ الْأَكَابِيرُ مِنْهُ الصَّغَارَا

وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال : أعطيتُ ناقة في سبيل الله ، فأردتُ أن أشتري من نسلها - أو قال : من ضِئْضِئِهَا - فسألتُ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (دعها حتى تجيء يوم القيامة هي وأولادها في ميزانك) .

في الأمم من لا يرجع إليه ، والأول أشهر عن علماء الأمة ، وقالوا :
نوح هو آدم الأصغر .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ معناه : ثناءً حسناً
جميلاً باقياً آخر الدهر ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والسدي ،
وقوله : [سَلَامٌ] - على هذا التأويل - رفع بالابتداء مستأنف ، سلم الله
به عليه ليقتدي بذلك البشر ، قاله الطبري : هذه أمانة لنوح في
العالمين أن يذكره أحد بسوء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة .

وقال الفراء وغيره من الكوفيين : قوله : [سَلَامٌ] الآية ، جملة
في موضع نصب بـ [تَرَكْنَا] ، وهذا هو المتروك عليه ، فكأنه قال :
وتركنا على نوح تسليماً ، يُسَلِّمُ عليه إلى يوم القيامة ، وفي قراءة
عبد الله (١) : [سَلَاماً] نصباً بـ [تَرَكْنَا] ، صَلَّى اللهُ عَلَى نوح وَعَلَى
آله وَسَلِّمُ تَسْلِيماً ، وشرف وكرم ، وعلى جميع أنبيائه .

و (في الْآخِرِينَ) معناه : في الباقيين غابر الدهر ، والقراءة بكسر
الخاء ، وما كان من إهلاكٍ فهو بفتحها .

(١) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُرُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا
الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ * وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّكَاءِ الْهَيْةِ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾
فَاظُنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ
﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

قوله تعالى: [كَذَلِكَ] إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح ،
وأثنى تعالى على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم ،
وغير ذلك من عبادته وأفعاله صلى الله عليه وسلم .
وقوله تعالى : (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) يقتضي أنه أغرق قوم
نوح وأُمَّته ومكذَّبيه ، وليس في ذلك نصُّ على أن الغرق عمُّ جميع
أهل الأرض ، لكن قد قال به جماعة من العلماء ، وأُسندت به أحاديث
أنه لم يبق إلا من كان معه في السفينة ، وعلى هذا يترتب القول
بأن الناس اليوم من ذريته ، وقالوا : لم يكن الناس يومئذ بهذه
الكثرة ؛ لأن عهد آدم عليه السلام كان قريباً ، وكانت دعوة نوح عليه
السلام ونبوته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللُّبث فيهم ، وكان الجميع
كفرة عبدة أوثان لم ينسبهم الحقُّ إلى نفسه ، فلذلك أغرق جميعهم .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ،
والسدي : الضمير عائد على نوح عليه السلام ، والمعنى : في الدين
والتوحيد ، وقال الطبري وغيره عن الفراء : الضمير عائد على
محمد صلى الله عليه وسلم ، والإشارة إليه . وذلك كله محتمل ؛
لأن « الشيعة » معناها : الصنف الشائع الذي يُشبهه بعضه بعضاً ،
والشَّيْعُ : الفِرْقُ ، وإن كان الأعراف أن المتأخر في الزَّمن هو شيعة
للمتقدم ، ولكن قد يجيء في الكلام عكس ذلك ، قال الشاعر :
وَمَالِي إِلَّا آلَ أَحْمَدَ شِيعَةً وَمَالِي إِلَّا مَشْعَبُ الْحَقِّ مَشْعَبٌ (١)
فجعلهم شيعةً لنفسه ، وقوله : ﴿ بِقَلْبِ سَلِيمٍ ﴾ ، قال المفسرون :
يريد : من الشكِّ والشركِّ وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم
كالغلِّ والحسد والكِبْر ونحوه ، قال عروة بن الزبير : لم يلعن شيئاً قطُّ .
قوله تعالى : ﴿ أَتِفْكَآ آلهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ، [أَتِفْكَآ] استفهامٌ
بمعنى التقرير ، أي : أكذباً ومُحالاً آلهةً دون الله تريدون ؟ ونصب

(١) البيت للكُمَيْتِ ، وهو من قصيدته المشهورة : « طرَبْتُ وما شَوْقاً إلى البيضِ
أَطْرَبْتُ » ، وأحمد هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والشيعة : جماعة الرجل وأهله وأنصاره
وأتباعه ، والكميت جعل آل أحمد شيعة له وهم متقدمون عليه ، فعكس المعنى المتعارف عليه
من أن يكون المتأخر شيعةً للمتقدم ، والمتأخر هنا هو الشاعر ، والمَشْعَبُ : الطريق ، ومشعب
الحق : طريقه المفرق بينه وبين الباطل ، وقد استشهد صاحب اللسان بهذا البيت على معنى
المَشْعَبِ في (شَعَبَ) .

[آلِهَةً] على البدل من [إِفْكَاً] ، وسهلت الهمزة الأصلية من الإِفْكَ .
 ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ توبيخٌ وتحذيرٌ وتوعُدٌ .

ثم أخبر تعالى عن نظرة إبراهيم عليه السلام في النجوم ، رُوي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه ، فدعوا إبراهيم عليه السلام للخروج معهم ، فنظر حينئذ واعتذر بالسقم ، وأراد البقاء خلفهم إلى الأصنام ، وقال ابن زيد ، عن أبيه : أرسل إليه ملكهم أن غداً عيدٌ فاحضر معنا ، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمي ، فقالت فرقة : معنى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي : فيما نَجَمَ إليه من أمر قومه وحاله معهم ، وقال الجمهور : نظر في نجوم السماء ، ورُوي أن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مُستعملاً ، فأوهمهم هو من تلك الجهة ، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم .

واختلف في قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - فقالت فرقة : هي كذبة في ذات الله ، أخبرهم عن نفسه أنه مريض ، وأن الكوكب أعطاه ذلك ، قال ابن عباس وغيره : أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون ، ولذلك تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، أي : فارّين منه . وقال بعضهم : بل تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ لكفرهم به واحتقارهم لأمره ، وعلى هذا التأويل - في أنها كذبة - يجيء الحديث : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث

كذبات : قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (١) ،
وقوله في سارة : هي أُخْتِي (٢) .

وقالت فرقة : ليست بكذبة ، ولا يجوز الكذب عليه ، ولكنها
من المعاريض ، أخبرهم بأنه سقيم في المال ، أو على عرف ابن آدم ؛
لأن ابن آدم لا بُدُّ أن يسقم ضرورة . وقيل - على هذا - : أراد :
إني سقيم النفس من أموركم وكفركم ، فظهر لهم من كلامه أنه

(١) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء) .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء والنكاح ، ومسلم في الفضائل ، وأبو داود في الطلاق ،
والترمذي في تفسير سورة الأنبياء ، وأحمد ٢-٤٠٣ ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام
قطُّ إلا ثلاث كذبات ، ثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ ، وواحدة في شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت أحسن
الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك
أختي ، فإنك أختي في الإسلام ، فإني لا أعلم أحداً في الأرض مسلماً غيري وغيرك ، فلما
دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ، أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون
إلا لك ، فأرسل إليها ، فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه
لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقُبِضت يده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي
ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد فقُبِضت أشدَّ من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد
فقُبِضت أشدَّ من القبضتين الأوليتين ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي ، فلذلك الله ألاَّ أضرك ،
ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان ،
فأخرجها من أرضي وأعطتها هاجرًا ، قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم عليه السلام
انصرف فقال لها : مَهَيْمٌ ؟ قالت : خيرٌ ، كَفَّ اللهُ يدَ الفاجر ، وأخذم خادماً . قال أبو
هريرة : فتنك أمكم يا بني ماء السماء) هـ . وقوله : (مَهَيْمٌ) معناه : ما شأنك وما خبرك ؟
وقولها : (وأخذمَ خادماً) معناه : وهبني خادماً ، وهي هاجر . و (بني ماء السماء) هم
العرب ، قيل لهم ذلك للصوص نسبهم وصفائهم .

أراد سقماً بالجسم حاضراً ، وهكذا هي المعاريض . وهذا التأويل لا يردّه الحديث وذكر الكذبات ؛ لأنه قد يقال لهذا كذبٌ على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر والكذبُ الذي هو قصد قول الباطل والإخبارُ بضدِّ ما في النَّفس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَرَاعَ إِلَىٰ آهَاتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاعَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا أَبْنَاؤُهُ بُنِينًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

« رَاعٍ » معناه : مالٌ ، ومنه قول عدي بن زيد :

حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الرَّيَاغُ وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا الْمُصَادِقُ النَّحْرِيرُ (١)

(١) البيت من قصيدته المعروفة باسم « عبرة الدهر » ، والتي قالها وهو في السجن ، وتحدث فيها عن صروف الدهر والموت الذي لا تؤجله قوة ، والتي بدأها بقوله : « أرواحٌ مُودِعٌ أمْ بَكُورٌ لَكَ... » ، ويروى البيت : « يوم لا ينفع الرواغُ » بالواو ، وهي الأصلُ ، وفي اللسان (رَوَّغَ) أنه يقال : رَوَّغَةً ، وريَاغَةً ، وأصلها رِوَاغَةٌ صارت الواو ياءً للكسرة قبلها ، ومعنى الرِّياغُ : المَيْلُ ، وهي موضع الشاهد ، والنَّحْرِيرُ : الحاذق الماهر العاقل المجربُ ، =

وقوله : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ هو على جهة الاستهزاء بِعِبَادَةِ تِلْكَ الْأَصْنَامِ ، وَرُوي أَنَّ عِبَادَتَهُمْ كَانَتْ تَرْكُ الطَّعَامِ فِي بِيُوتِ الْأَصْنَامِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تُصِيبُ مِنْهُ شَمِيمًا ، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْمَعْتَقَدَاتِ الْبَاطِلَةِ ، ثُمَّ كَانَ خِدْمَةُ الْبَيْتِ يَأْكُلُونَهُ . فَلَمَّا دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَفَ عَلَى الْأَكْلِ وَالنُّطْقِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِلْأَصْنَامِ بِقَصْدِ الْاسْتِهْزَاءِ بِعِبَادِيهَا ، ثُمَّ مَالَ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى ضَرْبِ تِلْكَ الْأَصْنَامِ بِفَأْسٍ حَتَّى جَعَلَهَا جُذَاذًا .

واختلف في قوله : [بِالْيَمِينِ] - فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يُمْنَى يَدَيْهِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ : بِقُوَّتِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ يَدَيْهِ بِالْفَأْسِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ بِيَمِينِ الْقِسْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ (١) ، وَ [ضَرْبًا] نَصَبَ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ مِنْ لَفْظِهِ ، وَفِي مَصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ : « صَفَقًا بِالْيَمِينِ » .

والضمير في قوله : [فَأَقْبَلُوا] لكفار قومه ، وقرأ الجمهور : [يَزِفُونَ] بفتح الياء ، من : زَفَّ إِذَا أَسْرَعَ ، وَزَفَّتِ الْإِبِلُ إِذَا أَسْرَعَتْ ،

= وَقِيلَ : هُوَ الرَّجُلُ الْفَطْنُ الْمُشْفِقُ الْبَصِيرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَيُرْوَى الْبَيْتُ : « وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا الْمُسَبِّحُ النَّحْرِيرُ » بَدَلًا مِنْ « وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا الْمَصَادِقُ النَّحْرِيرُ » . وَمَعْنَى الْبَيْتِ : فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبُ ، يَوْمَ يَأْتِينِي الْمَوْتُ وَالْهَلَاكُ لَا تَنْجِعُ الْحِيلَةَ وَالْمَرَاوِغَةَ ، وَلَا يَصْمُدُ إِلَّا الشُّجَاعُ الْفَطْنُ الصَّادِقُ ، فِي حِينٍ يَتَخَاذَلُ الْجَبَانَ الْفَاقِدَ لِلْعِزْمِ .
(١) مِنَ الْآيَةِ (٥٧) مِنْ سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ) .

ومنه قول الفرزدق :

فَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ قَبْلَ إِفَالِهَا يَزِفُّ وَجَاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ زُفْفٌ (١)

ومنه قول الهذلي :

وَزَفَّتِ الشَّوْلُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ كَمَا زَفَّ النَّعَامُ إِلَى حَفَانِهِ الرُّوحُ (٢)

وقرأ حمزة وحده : [يُزِفُون] بضم الياء ، من : أَزَفَّ إِذَا دَخَلَ

فِي الزَّرْفِيفِ ، وليست بهمزة تعدية ، هذا قول ، وقال أبو علي : معناها :

(١) هذا البيت من قصيدة الفرزدق التي مطلعها : « عَزَفَتْ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كَدَتْ تَعْرِفُ » ، وهو في الديوان ، وفي اللسان (قَرَعَ) ، والقَرِيعُ من الإبل : الفَحْلُ الذي تصوَّى للضراب ، وقيل : الذي يأخذ بذراع الناقة فيُنِيخُهَا ، وسُمِّيَ قَرِيعاً لأنه يقرع الناقة ، والشَّوْلُ : الناقة التي قلَّ لبنها وخفت بطنها من الأولاد ، والإفَالُ : جمع أفِيلٍ وأفَيْلَةٍ ، وهو الفَصِيلُ ، وقال أبو عبيدة : الإفَالُ : نباتُ المخاض ، والزَّرْفِيفُ : سرُّعة المشي مع تقارب وسكون ، وقيل : هو أوَّلُ عَدْوِ النِّعَامِ ، والبيتُ يصف قطعاً من الإبل ، في أوله الفحل الذي أقبل مُسْرِعاً قبل الإفَالِ ، وجاءت هي بعده تُسْرِعُ في المشي مثل سرعته .

(٢) البيت من قصيدة له يقول في مطلعها مصوراً الهموم التي جاءتته بالليل ، وجعلت أشجار الصَّابِ كأنها مشقوقةٌ في عينه :

نَامَ الْحَلِيُّ وَبِتُ اللَّيْلِ مُشْتَجِرًا كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مَدْبُوحُ

والزرفيف : مشيٌ سريعٌ في تقارب خطوٍ ، والشَّوْلُ : الإبل التي شالَ لبنها ، أي : خَفَّ أو قلَّ ، وخفَّتْ بطنها من الأولاد ، وحفَّانُ النِّعَامِ : فراخه ، وكلمة (الرُّوحُ) صفة للنِّعَامِ ، وتقدير الكلام : كما زَفَّ النِّعَامُ الرُّوحُ إلى فراخه ، يقال : في النِّعَامَةِ رَوْحٌ ، وهو سَعَةٌ بين الرجلين وميِّلٌ إلى الخارج ، وكل نعامة رَوْحَاءٌ . يقول : إن الناقة الشَّوْلُ أسرعُ من برد العَشِيِّ إلى مكان تستدفئ فيه ، وإنها في سرعتها كالنِّعَامِ الرُّوحِ الذي يُسْرِعُ إلى فراخه ، وخصَّ الشَّوْلُ بقلَّةِ الصبر على البرد لخفَّةِ بطنها من أولادها ، ولو كانت بطنها ممتلئة بالحمل لكانت أصبر ، وقال الأَخْفَشُ : « الرُّوحُ : ميِّلٌ إلى الجانب الوحشيِّ ، حُكِيَ عن عمر رضي الله عنه أنه كان أَرْوَحَ ، يُحَسِبُ رَاكِباً وَالرَّجَالُ يَمْشُونَ ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ بَنِي سَدُوسٍ » . والشاهد في البيت أن (زَفَّ) بمعنى : أُسْرِعَ .

يحملون غيرهم على الزَّيف ، وحكاه عن الأصمعي ، وهي قراءة مجاهد ، وابن وثَّاب ، والأعمش . وقرأ مجاهد ، وعبد الله بن زيد : [يَزِفُونَ] بفتح الياء وتخفيف الفاء من : وَزَفَ يَزِفُ ، وهي لغة منكرة ، قال الكسائي : والفراء لا يعرفها بمعنى : زَفَ . وقال مجاهد : الوزيفُ : السيلانُ .

وذهبت فرقة إلى أن [يَزِفُونَ] معناه : يَتَمَهَّلُونَ في مشيهم كزفاف العروس ، والمعنى أنهم كانوا على طمأنينةٍ من أن ينالَ أحدُ آلِهِمْ بسوءٍ لِعِزَّتِهِمْ ، فكانوا لذلك مُتَمَهِّلِينَ . وَزَفٌ بمعنى أَسْرَعٌ هو المعروف . ثم إن إبراهيم عليه السلام قال لهم في محاوراة طويلة قد تضمنتها الآية : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ ﴾ ، أي : أتجعلون إلهاً مُعَظَماً شيئاً صنعتموه من عود وحجر ، وعملتموه بأيديكم ؟ وأخبرهم بخبر لا يمكنهم إنكاره وهو قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ ، واختلف المتأولون في قوله : ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ - فذهب جماعة من المفسرين إلى أن [ما] مصدرية ، والمعنى : وأعمالكم ، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد ، وذلك موافق لمذهب أهل السنة في ذلك (١) . وقالت

(١) ومذهبهم أن الأفعال خلقتُ الله عزَّ وجلَّ واكتسابُ للعباد ، وفي هذا إبطال مذاهب الجبترية والقدرية ، وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله خالق كل صانع وصنعه) ، ذكر ذلك الثعلبي ، وخرجه البيهقي من حديث حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عزَّ وجلَّ صنع كلَّ صانع وصنعه ، فهو الخالق ، وهو الصانع سبحانه) .

فرقة : هي بمعنى الذي ، وقالت فرقة : [ما] استفهام ، وقالت فرقة : هي نفي ، بمعنى : وأنتم لا تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا قبله ، ولا تقدرون على شيء ، والمعتزلة مضطرة إلى الزوال عن أن تجعل [ما] مصدرية .

و «البُنيانُ» قيل : كان في موضع إيقاد النار ، وقيل : بل كان للمنجنيق الذي رمي عنه ، وقد تقدم قصص نار إبراهيم عليه السلام ، وجعلهم الله الأسفلين بأن غلبوا وذلوا ونالتهم العقوبات .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿١١١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٠﴾
فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤِي إِنِّي أُرِي فِي الْمَنَامِ
أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١١٣﴾ قَالَ يَتَّبِعِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴿١١٥﴾

قالت فرقة : إن قول إبراهيم ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ كان بعد خروجه من النار ، وأنه أشار بذهابه إلى هجرته من أرض بابل حيث كانت مملكة نمرود ، فخرج إلى الشام ، ويروى : إلى بلاد مصر . وقالت فرقة : إن قوله : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ ﴾ ليس مراده به الهجرة كما في آية أخرى ، وإنما مراده لقاء الله بعد الاحتراق ؛ لكنه ظن أن النار

سيموت فيها ، فقال هذه المقالة قبل أن يُطرح في النار ، فكأنه قال :
 إني سائر بهذا العمل إلى ربي ، وهو سيهديني إلى الجنة ، نحا إلى
 هذا المعنى قتادة ، وللعارفين بهذا الذهاب تمثيل واحتجاج في الصفاء ،
 وهو مَحْمَلٌ حسن في ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ وحده ، والأول أظهر في نط الآية
 عما بعده ؛ لأن الهداية معه تترتب ، والدعاء في الولد كذلك ، ولا يصح
 مع ذهاب الفناء .

قوله تعالى : ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ، [مِنْ] للتبويض ، أي : ولداً
 يكون في عداد الصالحين ، وقوله : ﴿فَبَشِّرْنَاهُ﴾ ، قال كثير من العلماء ،
 منهم العباس بن عبد المطلب - وقد رفعه - وعلي ، وابن عباس ،
 وابن مسعود ، وكعب ، وعبيد بن عميرة : هي البشارة المعروفة بإسحق ،
 وهو الذبيح ، وكان أمر ذبحه بالشام ، وقال عطاء ، ومقاتل : كان
 ببית المقدس ، وقال بعضهم : بل بالحجاز ، جاء مع ابنه علي البراق ،
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما : والبشارة التي بعد هذه في هذه الآية
 هي بشارة نُبُوَّتِهِ ، كما قال في موسى عليه السلام : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ
 رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (١) ، وهو كان قد وهبه له قبل ذلك ،
 وإنما أراد النبوة ، فكذلك هذه . وقالت هذه الفرقة في قول الأعرابي :
 «يابن الذبيحين» : أراد إسحق ، والعمُّ أبٌ ، وقيل : إنه أمر بذبحه

(١) الآية (٥٣) من سورة (مريم) .

بعد ما وُلد له يعقوب ، فلم يتعارض الأمر بالذبح مع البشارة بولده
وَوَلَدٍ وَوَلَدِهِ .

وقالت فرقة : هذه البشارة هي بإسماعيل عليه السلام ، وهو الذبيح ،
وأمرُ ذبحه كان بالحجاز وبمنى ، وثُمَّ رُمى إبراهيم عليه السلام الشيطان
بالجمرات ، وقَبِل الكَبِشَ وَسَنَّ السُّنَنَ ، وهذا قول ابن عباس أيضاً ،
وابن عمر رضي الله عنهما ، وروى عن الشعبي ، والحسن ، ومجاهد ،
ومعاوية بن أبي سفيان - ورفع معاوية إلى النبي صلى الله عليه وسلم -
ومحمد بن كعب ، وبه كان أبي رضي الله عنه يقول ، ويستدل
بقول الأعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم : «يا ابن الذبيحين» ويقول
عائمه الصلاة والسلام : (أنا ابن الذبيحين) ، يعني إسماعيل وعبد الله
أباه ، وَيَسْتَدِلُّ بِأَنَّ البشارة اقترنت من ورائه بيعقوب ، فلو قال له
في صباه : اذبحه ، لَنَاقَضَ ذلك البشارة بيعقوب عليهم السلام ،
وَيَسْتَدِلُّ بظاهر هذه الآية أَنَّهُ بُشِّرَ بِإِسْمَاعِيلِ وانقضى أمرُ
ذبحه ، ثم بُشِّرَ بِإِسْحَاقَ بعد ذلك ، وسمعتُه يقول : كان إبراهيم
يجيء من الشام إلى مكة على البراق زائراً ويعود من يومه . وقد ذكر
ذلك الثعلبي عن سعيد بن جبير ، ولم يذكر أن ذلك على البراق ،
وذكر القصة عن ابن إسحق وفيها ذكر البراق كما سمعت أبي يحكي .
وذكر الطبري أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الذبيح إسماعيل ،
وتزعم اليهود أنه إسحق ، وكذبت اليهود ، وذكر أيضاً أن عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه سأل عن ذلك رجلاً يهودياً كان أسلم وحسن إسلامه فقال : الذبيح إسماعيل عليه السلام ، وإن اليهود تعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكون هذه الآيات والفضل والله في أبيكم .

و «السَّعْيُ» في هذه الآية العمل والعبادة والمعونة ، هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد . وقال قتادة : السَّعْيُ على القدم ، يريد سعيًا متمكنًا ، وهذا في المعنى نحو الأول ، وقرأ الضحاك : «معه السَّعْيُ وأسر في نفسه حزناً» ، قال : وهكذا في حرف ابن مسعود ، وهي قراءة الأعمش ، وقوله : ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أن يكون رأى ذلك بعينه ، وروياً الأنبياء وحي ، وعين له وقت الامتثال ، ويحتمل أن أمر في نومه بذبحه فعبر هو عن ذلك ، أي : إني رأيت في النوم ما يوجب أن أذبحك .

وقرأ جمهور الناس : ﴿مَاذَا تَرَى﴾ بفتح التاء والراء ، وقرأ حمزة والكسائي : ﴿مَاذَا تُرِي﴾ بضم التاء وكسر الراء ، على معنى : ما يظهر منك من جلد أو جزع ، وهي قراءة ابن مسعود ، والأسود ابن يزيد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، ومجاهد . وقرأ الأعمش ، والضحاك بضم الياء وفتح الراء ، على الفعل المجهول . فأما الأولى فهي من رؤية الرأي ، وهي رؤية تتعدى إلى مفعول واحد ، وهو - في هذه الآية - إما [ماذا] تحملهما على أن تجعلهما بمنزلة

اسم واحد ، وإِماً [ذَا] على أن تجعلها بمعنى الذي ، وتكون [مَا] استفهاماً ، وتكون الهاء محذوفة من الصلة (١) . وأما القراءة الثانية فيكون تقدير مفعولها كما مر في هذه ، غير أن الفعل فيها منقول من : رأى زيد الشيء ، وأرَيْتُهُ إِيَّاهُ ، إِلَّا أَنَّهُ من باب أُعْطِيت ، فيجوز أن يقتصر على أحد المفعولين . وأما القراءة الثالثة فقد ضعفها أبو علي ، وتَتَجَّه على تحامل ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : « أَفَعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ » .

قوله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٧﴾ وَنَدَيْنَهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٨﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ءَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ وَتَرَكَآ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٢﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٣﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قرأ جمهور الناس : [أَسْلَمَا] أي : أنفسهما ، واستسلما لله . وقرأ علي ، وعبد الله ، وابن عباس ، ومجاهد ، والثوري : [سَلَّمَا] ، والمعنى : فوضا إليه في قضائه وقدره ، وانحملا على أمره ، فأسلم إبراهيم ابنه ، وأسلم الابن نفسه .

(١) ويكون التقدير : ما الذي تراه ؟

واختلف النحاة في جواب [لَمَّا] - فقال الكوفيون : الجواب [نَادَيْنَاهُ] والواو زائدة . وقالت فرقة : الجواب : [تَلَّه] والواو زائدة كزيادتها في ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ (١) ، وقال البصريون : الجواب محذوف ، تقديره : فَلَمَّا أَسْلَمَا سَلَمًا وَتَلَّه ، هذا قول سيبويه والخليل ، وهو عندهم كقول امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْتِ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلٍ (٢)
والتقدير : فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ أَجْرْنَا وَانْتَحَى . وقال بعض البصريين

(١) من الآية (١٩) من سورة (النبا) . والآية أثبتت هكذا في الأصول ، والصواب أن يكون الاستشهاد بقوله تعالى في الآية (٧٣) من سورة الزمر : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ﴾ فإنها هي التي قيل فيها : إن الجواب هو ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ والواو زائدة ، كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا﴾ ، أي : أَوْحَيْنَا ، وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ﴾ ، أي : اقترب ، ونعتقد أن الخطأ من النسخ .

(٢) البيت من المعلّقة ، وفيه مع ما قبله وبعده من أبيات يصور امرؤ القيس كيف خرج مع محبوبته من الحيّ إلى حيث رتب أن يكونا وحدهما ، وأجزت المكان وجزّته إذا قطعتة ، والسّاحة : المكان الواسع ، أو الذي يقع بين الدّور ، والحيّ : القبيلة ، ولكن المراد هنا الحلّة ، والانتحاء : الاعتماد على شيء ، والبطن : مكان منخفض حوله أماكن مرتفعة ، والخبّ : أرض مطمئنة ، والحِقْف : رملٌ مشرف معوج ، وجمعه أحقاف ، والعقنقَل : الرمل المنعقد المتلبّد . وقد أسند فعل الانتحاء إلى بطن خبّت ، وهو في الحقيقة له ولمحبوبته ، وهذا ضرب من الاتساع في الكلام ، ومعنى البيت : فلماً خرجنا من بين بيوت القبيلة وصرنا إلى هذه الأرض طاب حالنا وراق مجلسنا . وهذا على أن جواب (لَمَّا) محذوف مقدر ، وهو مذهب البصريين ، ولكن الكوفيين يرون أن الواو في (وَأَنْتَحَى) زائدة ، وكلمة (انْتَحَى) هي جواب (لَمَّا) . ولهذا استشهد المؤلف بالبيت .

الجواب محذوف ، وتقديره : فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ أَجْزَلَ أَجْرَهُمَا ،
أو نحو هذا مما يقتضيه المعنى .

وقوله تعالى : [وَتَلَّهُ] معناه : وضعه بقوة ، ومنه الحديث (فَتَلَّهُ
رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده) (١) ، أي : وضعه بقوة ، والتَّلُّ
من الأرض مأخوذ من هذا ، كأنه تَلَّ في ذلك الموضع ، و [لِلْجَبِينِ]
معناه : لتلك الجهة وعليها ، كما يقولون في المثل : لليدين وللنم ،
وكما تقول : سقط لِشِقِّهِ الأيسر ، وقال ساعدة بن جؤيَّة :

فَظَلَّ تَلِيلًا لِلْجَبِينَيْنِ (٢)

وهما ما اكتنف الجبهة من هنا وهنا .

وروي في قصص هذه الآية أن الذبيح قال لأبيه : اشدُّ رباطي
بالجبل لئلا أضطرب ، واصرف بصرك عني لئلا ترحمني ، وردَّ
وجهي نحو الأرض ، قال قتادة : كَبَّهُ لِفِيهِ وَأَخَذَ الشَّفْرَةَ ، والتَّلُّ

(١) الحديث في صحيح مسلم ، عن سهل بن سعد الساعدي ، وقد ذكره ابن الأثير في
(النهاية) ، واستشهد به صاحب اللسان (تَلَّلَ) ، ولفظه كما في مسلم أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ ، فقال لِلْغُلَامِ :
أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ ؟ فقال الغلام : لا والله ، لا أؤثر بنصيبي منك أحداً ، قال : فَتَلَّهُ
رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده ، يريد : جعله في يده .

(٢) التَّلِيلُ كالتَّلْوُلُ : الصريع ، يقال : تَلَّهُ يُتَلَّهُ تَلًّا فهو متلؤلٌ وتَلِيلٌ :
صِرَاعَه ، والجبين : فوق الصدغ ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها ، وقال ابن سيدة :
الجبينان حرفان مُكْتَنِفَا الجبهة من جانبيها فيما بين الحاجبين مُصْعِدًا إلى قصاص الشعر .
والجبين مذكر لا غير .

للجبين ليس يقتضي أن الوجه نحو الأرض ، بل هي هيئة من ذبح للقبلة على جنبه . وقوله : ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ مفسرة ولا موضع لها من الإعراب .

وقوله تعالى : ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ يحتمل أن يريد : بقلبك ، على معنى : كانت عندك رؤيا صادقة حقاً من الله ، فعملت بحسبها حين آمنت بها واعتقدت صدقها ، ويحتمل أن يريد : صدقت بعملك ما حصل عن الرؤيا في نفسك ، كأنه قال : قد وفيتها حقها من العمل . والرؤيا اسم لما يرى من قبل الله في المنام ، والحلم اسم لما يرى من قبل الشيطان ، ومنه الحديث الصحيح (الرؤيا من الله والحلم من الشيطان) (١) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كَذَلِك﴾ إشارة إلى ما عمل إبراهيم ، كأنه يقول : إنا بهذا النوع من الإخلاص والطاعة نجزي المحسنين ، وقوله : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يحتمل أن يشير إلى ما في القصة من امتحان واختبار وستر معتقد ، فيكون [الْبَلَاءُ] - على هذا المعنى - الاختبار بالشدة ، ويحتمل أن يشير إلى ما في القصة من سرور بالفدية وإنقاذ من تلك الشدة في إنقاذ الذبح ، فيكون البلاء بمعنى النعمة ، وإلى كل احتمال

(١) أخرجه البخاري في التعبير وبدء الخلق والطب ، ومسلم في الرؤيا ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي في الرؤيا ، وابن ماجه ، والدارمي ، ومالك في الموطأ ، كلهم في الرؤيا ، والإمام أحمد في المسند (٥-٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٠) . عن أبي قتادة .

قد أشارت فرقة من المفسرين ، وروى في الحديث أن الله تعالى أوحى إلى إسحق أني قد أعطيتك بصبرك لأمرى دعوة أعطيك فيها ما سألت ، فسألني ، فقال : يا رب أيمًا عبد لتيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة (١) .

والضمير في [فَدَيْنَاهُ] عائد على الذبيح ، و «الذَّبْحُ» اسم لما يذبح ، ووصفه بالعظم لأنه مُتَقَبَّلٌ يَقِينًا ، قاله مجاهد ، وقال عمرو بن عبيد : الذَّبْحُ الكَبْشُ ، والعظيم لِحَرْيِ السُّنَّةِ به وكونه ديناً باقياً آخر الدهر ، وقال الحسن بن الفضل : عظيم لأنه من عند الله كان ، وقال أبو بكر الوراق : لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين ، وروى عن ابن عباس ، وابن جُبَيْرٍ أن كونه عظيماً هو أنه من كباش الجنة رعى فيها أربعين خريفاً ، وقال ابن عباس : هو الكبش الذي قَرَّبَ ولد آدم (٢) ، وقال ابن عباس ، والحسن : كان وعلاً أهبط عليه من ثبير (٣) ، وقول الجمهور : إنه كبش أبيض أقرن أعين وجده ورآه

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، عن عطاء بن يسار رضي الله عنه حديثاً طويلاً — لم يرفعه عطاء — وفي آخره أن إبراهيم عليه السلام قال : يا بني ، إن الله قد أعطاك بصبرك اليوم ، فسأل ما شئت تعطى ، قال : فإني أسأل الله ألا يلقاه له عبد مؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا غفر له وأدخله الجنة . (الدر المنثور) . وأخرج ابن جرير مثله ، ولكن اللفظ في آخره يقول : وأوحى الله إلى إسحق : إني قد أعطيتك ... الخ ما ذكره المؤلف هنا .

(٢) يعني الكبش الذي قرَّبه هايل لله وتقبَّله الله منه .

(٣) الوَعْلُ : التيس البرِّي أو تيس الجبَل ، أي : ذكر الأروى ، وهو جنس من المعز الجبلية ، له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدين ، وجمعه : أوعال ووعول ، وثبير : جبل بمكة ، يقال : أشرق ثبير كما نُغير .

مربوطاً بِسْمُرَةَ ، وروى أَنَّهُ انفلت فأتبعه ورماه بحصيات في مواضع الجمرات ، فبذلك مضت السنَّةُ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : رجم الشيطان عند جمرة العقبة وغيرها ، وقد تقدم هذا ، وأهل السنَّةُ على أن هذه القصة نُسخ فيها العزم على الفعل ، والمعتزلة تقول : إنه لا يصح نسخٌ إلا بعد وقوع الفعل ، واختلفت في هذه الآية على فرقتين : فقالت فرقة : وقع الذَّبْح والتَّام بعد ذلك ، وهذا كذبٌ صراحٌ ، وقالت فرقة منهم : بل كان إبراهيم لم ير في منامه إلا إمرار الشَّفْرَةَ فقط فظن أنه ذبح مجهز ، فنفَّذ لذلك ، فلما وقع الذي رآه وقع النسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإذاً لا اختلاف أن إبراهيم أمر الشَّفْرَةَ على حلق ابنه فلم تقطع . وروى أن صفحة نحاس اعترضته بحرفها ، والله أعلم كيف كان ، فقد كثّر الناس في القصص بما صحته معدومة فاختصرته . وقد تقدم تفسير مثل قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ معناه : بمثل هذا الفعل ، وباقي الآية بين .

ومما يستغرب في هذه الآية أن عبّيد بن عمير^(١) قال : ذبح في المقام ، وذكر الطبري عن جماعة لم يُسمَّها أنها قالت : كان الأمر وإراعاة

(١) هو عبّيد بن عمير بن قتادة اللبّي ، أبو عاصم المكي ، وُلد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله مسلم ، وعدّه غيره في كبار التابعين ، وكان قاصّاً أهل مكة ، مُجتمِع على ثقته ، مات قبل ابن عمر . (تقريب التهذيب) .

الذبح والقصة كلها بالشام ، وقال الجمهور : ذُبح بنى ، وقال الشعبي : رأيت قرني كبش إبراهيم معلقين في الكعبة .

قوله عز وجل :

﴿ وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ وَبَرَكَاتًا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٨﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٩﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْفَرُواهُمْ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٠﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾

من قال إن الذبيح هو إسماعيل جعل هذه البشارة بولادة إسحق ، وهي البشارة المترددة في غير ما سورة ، ومن جعل الذبيح إسحق جعل هذه البشارة لنفس النبوة فقط .

والمنة على موسى وهارون هي في النبوة وسائر ما جرى معها من مكانتهما عند الله ، و « الكرب العظيم » هو تعبد القبط لهم ، ثم جيش فرعون حين قالت بنو إسرائيل : « إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » ، ثم البحر بعد ذلك ، والضمير في [وَنَصَرْنَاهُمْ] عائد على الجماعة المتقدم ذكرها ، وهم موسى وهارون وقومهما . وقال قوم : أراد موسى وهارون عليهما السلام

ولكن أخرج ضميرهما مخرج الجمع تفخيماً ، وهذا ما فعله العرب ،
تكني عن تعظم بكناية الجماعة . و «الكتاب المستبين» : التوراة .

قوله عز وجل :

﴿ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينِ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ
مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعَلًّا وَتَذُرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

«الصراط المستقيم» يريد به في هذه الآية طريق الشرع والنبوة
المؤدّي إلى الله تعالى ، وقد تقدم القول في مثل قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا
فِي الْأَخْرِينِ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ .

وإلياس نبيٌّ من أنبياء الله تعالى ، قال قتادة ، وابن مسعود :
هو إدريس عليه السلام ، وقال الطبري : هو إلياس بن ياسين ، بن
فنحاص ، بن العيزار ، بن هارون ، بن عمران . وقالت فرقة : هو
من ولد هارون عليه السلام . وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ ﴾
بهمزة مكسورة ، وهو اسم ، وقرأ ابن عامر ، وابن محيصن ، وعكرمة ،

والحسن ، والأعرج : ﴿وَإِنَّ أَلْيَاسَ﴾ بغير همزٍ وبِصِلَةِ الألف ، وهذا يتجه على أحد وجهين : إما أن يكون حذف الهمزة ، كما حذفها ابن كثير في قوله : ﴿إِنَّهَا لَحَدَى الْكَبْرِ﴾ (١) ، أراد : لِأَحْدَى ، فنزل المنفصل منزلة المتصل ، كما قد ينزل في كثير من الأمور ، وإما أن يجعلها الألف التي تصحب اللام للتعريف ، كالتيسع ، وفي مصحف أبي بن كعب : «وَإِنَّ إِبْلِيسَ» بألف مكسورة وياء ساكنة بعدها وسين مفتوحة ، وكذلك فيه : «سَلَامٌ عَلَى إِبْلِيسَ» ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ ، وقرأ الباقر : ﴿عَلَى إِيَّاسِينَ﴾ بألف مكسورة ولام ساكنة ، وجعلها الحسن ، وأبو رجاء موصولة ، فوجه الأولى أنها - فيما يزعمون - مفصولة في المصحف ، فدل ذلك على أنها بمعنى (أهل) ، و (ياسين) اسم أيضاً لإلياس ، وقيل : هو اسم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووجه الثانية أنه جمع إِيَّاسِيٍّ ، كما قالوا : أَعْجَمِيٌّ وَأَعْجَمِيُونَ ، قال أبو علي : والتقدير : إِيَّاسِيٍّ ، فحذف كما حذف من أَعْجَمِيٍّ ، ومن الأشعريين والنميريين والمهلبيين (٢) ، ونحوه . وحكى أبو عمرو أن منادياً نادى يوم الكلاب : هلك اليزيدون (٣)

(١) الآية (٣٥) من سورة (المدثر) .

(٢) فقيل فيها : الأَعْجَمُونَ والأشعرون والنميريون والمهلبيون .

(٣) يعني يزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن هوبر ، ويزيد بن مسخرمة الحارثيون . حكى

ذلك أبو عمرو بن العلاء .

وَيُرَوَّى قَوْلَ الشَّاعِرِ :

قَدْنِيَّ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِي (١)
بكسر الباءِ الثانية ، نسبة إلى أبي خُبَيْب . ويقال : سُمِّي كل واحد
من آلِ إِيَّاسِينَ إِيَّاسَ ، كما قالوا : شابت مفارقهُ ، فسُمِّي كل جزءٍ
من المَفْرَقِ مَفْرَقًا ، ومنه قولهم : «جَمَلٌ ذُو عَثَانِينَ» (٢) ، وعلى هذا
أنشد ابن جَنِي :

مَرَّتْ بِنَا أَوْلَ مِنْ أُمُوسٍ - تَمِيسُ فِينَا مِشِيَةَ الْعُرُوسِ (٣)

(١) هذا صدر بيت من أرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان ، ويُعرِّض
بعبد الله بن الزبير ، إذ يرميه بالبخل والإلحاد في النحرَم ، وقيل : إن البيت لأبي بجدلة ،
والبيت بتمامه :

قَدْنِيَّ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِي لَيْسَ الْإِمَامُ بِالشَّحِيحِ الْمُتَّحِدِ
وقَدْنِيَّ وَقَدِي بِمَعْنَى : حَسْبِي ، وأراد بالخُبَيْبِينَ عبد الله بن الزبير فجمعه على أن
من كان على مذهبه داخلٌ معه ، وهذا هو الشاهد هنا ، قال الفراء في (معاني القرآن) : « وإن
شئت ذهبت بالياسين إلى أن تجعله جمعاً ، فتجعل أصحابه داخلين في اسمه ، كما تقول للقوم
رئيسهم المهلب : قد جاء تكم المهالبة والمهلبون ، فيكون بمنزلة قولك : الأشعريين والسعديين » ،
ويروى البيت (الخُبَيْبِينَ) بالثنية ، والمراد بهما عبد الله بن الزبير وابنه خُبَيْبًا ، وقيل :
أراد عبد الله وأخاه مُصْعَبًا ، والمراد بالإمام في البيت عبد الملك بن مروان ، نفي عنه الشحَّ
والإلحاد تعريضاً بابن الزبير .

(٢) العَثَانِينَ : جمع عَثُنُون ، وهو شعيرات طوالٌ عند مَدْبِجِ البعير . وتوجد كذلك
في التَّيْسِ وتحت منقار الديك ، ومثل هذا قولهم : « امرأةٌ واضحةُ اللَّبَّاتِ » ، جعلوا
كل جزءٍ يجاور اللَّبَّةَ لَبَّةً ، واللَّبَّةُ موضع القلادة من الصدر .

(٣) البيت في اللسان (أَمْسٍ) غير منسوب . و (أُمُوسٍ) : جمع أَمْسٍ ، ومن المعروف
أنَّ (أَمْسٍ) مبني على الكسر إذا كان معرفة أو بغير الألف واللام ، أو غير مضاف -
على خلاف في ذلك - ، فإذا كان نكرة ، أو عُرِّفَ بالألف واللام أو أُضيفَ أعرب ، وكذلك
إذا جُمِّعَ ، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على إعراب (أَمْسٍ) لأنها مجموعة
على (أُمُوسٍ) ، وتميس : تتبختر وتختال ، ومشية العروس فيها تهادٍ وتبختر .

فسمي كل جزء من أمس أمساً ، ثم جمع . وقال أبو عبيد : لم يسلم على آل أحد من الأنبياء المذكورين قبل ، فلذلك ترجح قراءة من قرأ : [إلياسين] إذ هو اسم واحد له . وقرأ ابن مسعود ، والأعمش : « وإن إدريس لمن المرسلين » و « سلام على إدراسين » ، وهي لغة في (إدريس) كإبراهيم وإبراهيم .

وقوله : [أتدعون] معناه : أتعبدون ؟ و « البعل » : الرب بلغة اليمن ، قاله عكرمة ، وقتادة . وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً ينشد ضالة ، فقال له آخر : أنا بعلها ، فقال ابن عباس : الله أكبر ﴿ أتدعون بعلًا ﴾ . وقال الضحاك ، وابن زيد ، والحسن : البعل اسم صنم كان لهم ، ويقال له : بعل بك ، وإليه نسب الناس ، وذكر ابن إسحق عن فرقة أن [بعلًا] اسم امرأة كانت أمتهم بضلالة . وقوله : ﴿ أحسن الخالقين ﴾ من حيث قيل للإنسان على التجوز : إنه يخلق ، وجب أن يكون تعالى أحسن الخالقين ؛ إذ خلقه اختراع وإيجاد من عدم ، وخلق الإنسان مجاز ، كما قال الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعء ض القوم يخلق ثم لا يفري (١)

(١) قال زهير بن أبي سلمى هذا البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان ، ومطلعها :
 لِمَنْ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرٍ
 وتفري معناها : تقطع ، قال في اللسان بعد أن ذكر البيت في (فري) : « معناه : تنفذ ما تعزم عليه وتقدره ، وهو مثل » ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في عمر بن الخطاب =

قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿١٤٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٤٧﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٤٨﴾ وَتَرَكَآ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٤٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٥٠﴾
إِنَّا كَذَّالِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾
وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
الْغَابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَإِنَّا لَنَتَّمَرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٥٧﴾
وَبِالْبَلِّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم بنصب الجميع على البدل من قوله : [أَحْسَنَ] ، وقرأ الباقر وعاصم أيضاً برفعهم على القطع والاستئناف . والضمير في [فَكَذَّبُوهُ] عائد على قوم إيلياس . و «مُحْضَرُونَ» معناه : مجموعون لعذاب الله ، وقد تقدم تفسير مثل ما بقي من الآية ، وتقدم أيضاً القول في قوله تعالى : ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ .

= رضي الله عنه ، وراه في منامه ينزع عن قلبه بغرب : (فلم أرَ عبقرياً يفري فريته) ، ويقال : فلان يفري الفري إذا كان يأتي بالعجب في عمله . وَخَلَقْتُمْ : قَدَّرْتُمْ وَهَيَّأْتُمْ للقطع ، وفي اللسان (خَلَقْتُمْ) أن الخلق على ضربين في كلام العرب : أحدهما الإنشاء على مثال أبداعه ، والآخر التقدير . وفي حديث أخت أمية بن أبي الصلت قالت : فدخل عليّ وأنا أخلقت أديماً ، أي : أقدّره لأقطعه ، وعلى هذا فالثاني هو المراد هنا ، وفيه الشاهد ، حيث أن الخلق الذي ينسب للناس مجاز ، ومعناه أنهم يقدرون الأديم قبل قطعه ، أما خلق الله تبارك وتعالى فاخترع وإيجاد من عدم ، وحقيقة كبرى ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

ولوطٌ ، قيل : هو ابن أخته ، وقد تقدمت قصته بكمالها ،
وامرأته هي العجوزُ المهلكةُ ، وكانت كافرةً ، فإما كانت مستترَةً
منه وإما كانت مُعلنةً ، وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهن جائزاً ،
و «الغَابِرُونَ» : الباقون ، وغَبَرَ بمعنى : بَقِيَ ، ومعناه ها هنا : بقيت
في الهلاك .

ثم خاطب الله تعالى قريشاً ، أو هو على معنى : قُلْ لَهِمْ يَا مُحَمَّدُ :
وإنكم لتمرُّون عليهم في الصباح وبالليل ، فواجب أن يقع اعتباركم
ونظركم ، ثم وبَّخهم بقوله : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ؟ .
قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٠١) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١٠٢﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٠٣﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٠٥﴾ لَكَبِتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٦﴾ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ
وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٠٧﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٠٨﴾ *

هو يونس بن متى عليه السلام ، وهو من بني إسرائيل ، روي
أنه تنبأ ابن ثمانية وعشرين سنة فتفسخ تحت أعباء النبوة كما يتفسخ
الربع تحت الحمل ، وقد تقدم شرح قصته ، ولكن نذكر منها
ما يُتفهم به هذه الألفاظ .

فَرُوي أَنَّ اللهَ تعالى بعثه إلى قومه ، فدعاهم مرةً فخالقوه فوعدهم بالعذاب ، وأعلمه الله تعالى بيوم العذاب فحدده لهم يونس ، ثم إن قومه لما رأوا مخايل العذاب قبل أن يباشروهم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم وصرف العذاب عنهم ، وكان في هذا تجربة ليونس عليه السلام ، فلاحقت بيونس غضبة ، ويُروى أنه كان في سيرتهم أن يقتلوا الكذاب إذا لم تقم له بيّنة ، فخافهم يونس وغضب مع ذلك ، فأبقي إلى الفلّك ، أي أراد الهروب ودخل في البحر ، وعبر عن هروبه بالإباق من حيث هو عبد لله فرّ عن غير إذن مولاه ، فهذه حقيقة الإباق ، و «الفلّك» في هذا الموضع واحد ، و «المشحون» : الموقر ، وهنا قصص محذوف إيجازاً واختصاراً . ورُوي عن ابن مسعود أنه لما حصل في السفينة وأبعدت وكَدت (١) ولم تجر والسفن تجري يميناً وشمالاً ، فقال أهل السفينة : إن فينا لصاحب ذنب وبه يحبسنا الله ، فقالوا : لنقترع ، فأخذوا لكل واحد سهماً ، ثم قالوا : اللهم ليطف سهم المذنب وليغرق سهم الغير ، فطفا سهم يونس ، ففعلوا نحو هذا ثلاثاً ، وفي كل مرة تقع القرعة عليه ، فأزمعوا معه أن يطرحوه ، فجاء إلى ركن من أركان السفينة ليقع منه فإذا بدابة من دواب البحر ترقبه وترصده ، فدفع إلى الركن الآخر فوجدها كذلك ، حتى استدار بالمركب وهي لا تفارقه ، فعلم أن ذلك من عند الله ، فترامى إليها فالتقمته ، ويروى أنها إنما التقمته بعد أن وقع في الماء ، ورُوي أن الله تعالى أوحى

(١) وكَدت في المكان : أقام فيه ولم يبرحه .

إلى الحوت أني لم أجعل لك يونس رزقاً ، وإنما جعلت بطنك له حرزاً
وسجناً ، فهذا معنى [فَسَاهَمَ] ، أي : قَارَعَ ، وكذلك فسّر ابن عباس ،
والسدي . و «المُدْحَضُ» : الزَّاهِقُ المَغْلُوبُ فِي مُحَاجَّةٍ أَوْ مُسَاهِمَةٍ أَوْ
مُسَابِقَةٍ . ومنه : الحُجَّةُ الدَّاحِضَةُ ، و «المُليِمُ» : الذي أَتَى مَا يُلَامُ
عليه ، يقال : أَلَامَ الرَّجُلُ إِذَا دَخَلَ فِي اللُّومِ ، وبذلك فسّر مجاهد ،
وابن زيد ، ومنه قول الشاعر :

سَفَهَا عَدَلْتِ وَلُمْتِ غَيْرَ مُلِيمٍ وَهَذَاكَ قَبْلَ الْيَوْمِ غَيْرُ حَكِيمٍ (١)

ثم استنقذه الله تبارك وتعالى من بطن الحوت بعد مدة اختلف
الناس فيها - فقالت فرقة : بعد سبع ساعات ، وقال مقاتل بن حيان :
بعد ثلاثة أيام ، وقال عطاء بن أبي رباح : بعد سبعة أيام ، وقالت
فرقة : بعد أربعة عشر يوماً ، وقال أبو مالك ، والسدي : بعد أربعين
يوماً ، وهو قول ابن جريج أنه بلغه . وجعل تعالى علّة استنقاذه

(١) هذا البيت للبيد ، وهو مطلع قصيدة من الكامل ، والرواية في الديوان :
سَفَهَا عَدَلْتِ وَقُلْتِ غَيْرَ مُلِيمٍ وَبُكَأكَ قِدَمًا غَيْرُ جِدِّ حَكِيمٍ
وقال شارح الديوان : ويروى : وَهَذَاكَ قِدَمًا ، وَيُرْوَى : وَهَذَاكَ بَعْدَ النَّوْمِ . ورواية اللسان
(لَوَمَ) مثل رواية ابن عطية هنا ، وقد ضبط المحققون البيت في اللسان بفتح التاء في (عَدَلْتِ ،
وَقُلْتِ) والكاف في (هَذَاكَ) ، وضبطت هذه كلها بالكسر في الديوان وهو أصح ؛ لأنه يخاطب
من أسماها بعد ذلك : «أُمَّ الْوَلِيدِ» ، والبيت في تفسير الطبري مضبوطاً كما في اللسان .
والمُليِمُ : الذي جاء بما يلامُّ عليه ، وقوله : «وَهَذَاكَ بَعْدَ الْيَوْمِ غَيْرُ حَكِيمٍ» دعاءٌ عليها ،
يقول فيه : لازلت يهديك ويرشدك امرؤٌ غير حكيم . وهذا على رواية (بعد اليوم) ، أما على
رواية (قبل اليوم) فالكلام خبر ، يقول لها : لقد أرشدك في هذا اللوم إنسانٌ غير حكيم .

مع القدرة السابقة تسبيحه ، واختلف الناس في ذلك - فقال ابن جبير : هو قوله في بطن الحوت : سبحان الله ، وقالت فرقة : بل التسبيح هو الصلاة التطوع ، واختلفت هذه الفرقة - فقال قتادة ، وابن عباس ، وأبو العالية : صلواته في وقت الرخاء نفعته في وقت الشدة ، وقال هذا جماعة من العلماء ، وقال الضحاك بن قيس (١) على منبره : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، إن يونس كان عبداً لله ذاكراً ، فلما أصابته الشدة نفعه ذلك ، ثم تلا هذه الآية ، وإن فرعون كان طاغياً باغياً ، فلما أدركه الغرق قال : آمنتُ فلم ينفعه ذلك ، فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة . وقال قتادة في الحكمة : إن العمل يرفع صاحبه إذا عثر ، فإذا صُرع وجد مُتَكَاً ، وقال الحسن بن أبي الحسن : كان تسبيحه صلاةً في بطن الحوت ، وروى أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه ويقول : يا ربُّ لأَبْنَيْنِ لَكَ مَسْجِداً حَيْثُ لَمْ يَبْنِهِ أَحَدٌ قَبْلِي ، وَيُصَلِّي ، وروى أنسٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن يونس حين نادى في الظلمات ارتفع نداؤه إلى العرش ، فقالت الملائكة : هذا صوت ضعيف من موضع غربة ، فقال : هذا عبدي يونس ، فأجاب الله دعوته ...)

(١) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب الفهري ، أبو أنيس ، الأمير المشهور ، صحابي صغير ، قُتل في وقعة مرج راهط سنة أربع وستين ، ومرج راهط هذه بنواحي دمشق . (تقريب التهذيب) .

وذكر الحديث (١) . وقال ابن جبير : الإشارة بقوله : (رَمِنَ الْمُسَبِّحِينَ) إلى قوله : (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (٢) . وكتب الناس في القصص بما اختصرناه لعدم الصحة ، ورُوي أن الحوت مشى به البحار كلها حتى قذفه في نصيبين من ناحية الموصل ، فنبذه الله في عراءٍ من الأرض ، وهو الأرض الفيحاء التي لا شجر فيها ولا معلّم ، ومنه قول الشاعر :

وَرَفَعْتُ رَجُلًا لَا أَخَافُ عِثَارَهَا وَنَبَذْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابِي (٣)

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه كما في ابن جرير : (عن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنس بن مالك قال - ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم - إن يونس النبي حين بدآ له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت ، فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة ، قال : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال : ذلك عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل "مُتَقَبَّلٌ" ودعوة "مُسْتَجَابَةٌ" ، قالوا : يا رب أولاً يرحم بما كان يصنع في الرخاء فتُنَجِّيه من البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء) .

(٢) من الآية (٨٧) من سورة (الأنبياء) .

(٣) البيت في اللسان (عَرَاء) غير منسوب ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، وقد نسبته إلى رجل من خزاعة ، وهو أيضاً في تفسير الطبري ، وتفسير القرطبي ، والعراء : الذي لا يواريه شيء من شجر أو غيره ، وقيل : العراء : وجه الأرض الخالي ، ونبذ ثيابه : طرحها وألقاها عنه . ومن المؤلف في كلام العرب أن يقال : (نبذته بالعراء) ، بمعنى : ألقيته في الأرض الفضاء .

وقال السدي ، وابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ :
 إنه كان كالطفل المنفوس ، بَضْعَةٌ لَحْمٍ (١) ، وقال بعضهم : كاللحم
 النَّيِّءِ (٢) إلا أنه لم ينقص من خلقته شيء ، فَأَنعَشَهُ اللهُ تعالى في
 ظلِّ اليقطينة بِلَبَنٍ أُرْوِيَةٍ كانت تغاديه وتراوحه (٣) ، وقيل : بل
 كان يتغذى من اليقطينة ، ويوجد منها ألوان الطعام وأنواع شهواته .
 واختلف الناس في اليقطين - فقالت فرقة : هي شجرة لا نعرفها ،
 سماها الله باليقطين ، وهي لفظة مأخوذة من : قَطَنَ إِذَا أَقَامَ بِالْمَكَانِ .
 وقال سعيد بن جبَّير ، وابن عباس ، والحسن ، ومقاتل : اليقطين :
 كلُّ ما لا يقوم على ساق من عودٍ كالبقول والقرع والحنظل والبطيخ
 ونحوه مما يموت من عامه ، ورُوي نحوه عن مجاهد ، وقال ابن عباس ،
 وأبو هريرة ، وعمرو بن ميمون : اليقطين : القرع خاصة ، وعلى
 هذين القولين فإما أن يكون قوله تعالى : [شَجَرَةٌ] تجوزاً ، وإما أن

(١) البَضْعَةُ - بفتح الباء وكسرها - : القطعة ، ويقال : هو بَضْعَةٌ مِني ، أي :
 هو في قرابته كأنه جزءٌ مِني .

(٢) النَّيِّءُ : كلُّ شيءٍ شأنه أن يعالج بطبخ أو شيءٍ فلم ينضج ، يقال : لحمٌ نِيبٌ ،
 ويقال : لَبَنٌ نِيبٌ بمعنى : متحضٌ .

(٣) الأُرْوِيَةُ : أنثى الوعول ، والجمع أراويٌ . ومعنى تغاديه وتراوحه أنها كانت تأتي
 له في الصباح وفي المساء ليطعم من لبنها .

يكون أنبتها عليه ذات ساقٍ خرقاً للعادة ؛ لأن الشجر في كلام العرب إنما يقال لما كان على ساق من عود ، وحكى بعض الناس أنها كانت قرعة وهي تجمع خصالاً برّد الظلّ والملمس وعظم الورق وأن الذباب لا يقربها ، حكى النقاش أن ماء ورق القرع إذا رُشَّ به مكان لم يقربه ذبابٌ ، ومشهور اللغة أن اليقطينَ : القرعُ ، وقد قال أمية ابن أبي الصلت في قصة يونس عليه السلام :

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ ، لَوْلَا اللَّهُ الْفِي ضَاحِيَا (١)
 فنبت يونس عليه السلام وصحَّ وحسُن جسمه ؛ لأن ورق القرع أنفع شيء لمن تسَلَخَ جسده كيونس . ورُوي أنه كان يوماً نائماً فأبَسَ الله تلك اليقطينة ، وقيل : بعث عليها الأرضة فقطعت عروقها ، فانتبه يونس لِحَرِّ الشمس ، فعزَّ عليه شأنها وجزع له ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يونس ، جزعت ليُبَسَّ اليقطينة ولم تجزع لإهلاك مائة ألف أو يزيدون تابوا فتبت عليهم .

(١) البيت كما قال ابن عطية لأمية بن أبي الصلت ، وهو في الطبري منسوب لأمية أيضاً ، واليقطين - كما قال في اللسان (قَطْنٌ) : كل شجر لا يقوم على ساق ، نحو الدُّبَاءِ والقرع والبَطِيخِ والحِنْظَلِ . وفي التهذيب : اليقطين شجر القرع . وَأَلْفِي : وَجِدَ ، وَضَحِيَّ فُلَانٌ ضَحْوًا : أَصَابَهُ حَرُّ الشَّمْسِ ، وَفِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : ﴿ وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ ، وَقِيلَ : إِنْ ضَاحِيًا تَعْنِي : ظَاهِرًا ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ أَوْ قَرِيبٌ .

قوله عز وجل :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾
فَأَسْتَفْتِيهِمَ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾
أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَآتُوا بِكُتُبِكُمْ إِن كُنتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

قال الجمهور : هذه الرسالة إلى مائة ألف هي الرسالة الأولى التي
أَبَقَ بعدها ، ذكرها الله تعالى في آخر القصص تنبيهاً على رسالته ،
ويدلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَمَّنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ، وتمتبع
هذه الأئمة هو الذي أغضب يونس عليه السلام حتى أَبَقَ ، وقال قتادة ،
وابن عباس أيضاً : هذه الرسالة أُخْرِجِي بعد أن نُبِذَ بالعراء ، وهي إلى
أهل نِينَوَي من ناحية الموصل .

وقرأ جعفر بن محمد رضي الله عنه : ﴿وَيَزِيدُونَ﴾ بالواو ، وقرأ
الجمهور : ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : [أَوْ]
بمعنى (بَلْ) ، وكانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وقال أبي بن كعب ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم : (كانوا مائة وعشرين ألفاً) (١) ، وقال ابن جُبَيْر : كانوا مائة وسبعين ألفاً ، ورُوي عن ابن عباس أنه قرأ : « بَلْ يَزِيدُونَ » ، وقالت فرقة : [أَوْ] هنا بمعنى الواو ، وقالت فرقة : هي للإبهام على المخاطب ، كما تقول : « ما عليك أنت ، أنا أعطي فلاناً ديناراً أو ألف دينار » ، ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ (٢) ، وهذا المعنى قليل التمكن في قوله سبحانه : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ . وقال المُبَرِّد وكثير من البصريين : المعنى على نظر البشر وحذرهم ، أي : من رآهم قال : هم مائة ألف أو يزيدون .

ورُوي في قوله تعالى : ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم ، وفرقوا بينها وبين الأمهات ، وناحوا وضجوا وأخلصوا ، فرفع الله عنهم (٣) ، والتمتع هنا هو بالحياة ، والحين : آجالهم السابقة في الأزل ، قال قتادة ، والسدي ، وقرأ ابن أبي عبلة : « حَتَّىٰ حِينٍ » ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ

(١) الحديث أخرجه الترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، ولفظه كما في (الدر المنثور) : (قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ، قال : يزيدون عشرين ألفاً) .

(٢) من الآية (١٢٨) من سورة (آل عمران) .

(٣) في بعض النسخ : « فدفع الله عنهم » بالدال بدلاً من الراء .

إِلَى حِينٍ) مثال لقريش : أي : إن آمنوا آمنوا كما جرى لهؤلاء ،
ومن هنا حَسُنَ انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله تعالى : [فَاسْتَفْتِهِمْ] ،
فإنما يعود على ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم (١) .

و «الاستفتاء» : السؤال ، وهو هنا بمعنى التوبيخ والتقريع على
قولهم البهتان على الله ، وجعلهم البنات لله تعالى عن ذلك . وأمره
بتوقيفهم على جهة التوبيخ أيضاً - هل شاهدوا أن الملائكة إناثٌ
فيصح لهم القولُ به .

ثم أخبر تعالى عن فرقة منهم بلغ بها الإفك والكذب إلى أن قالت :
وَلَدَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لِأَنَّهُ نَكَحَ فِي سُرَاتِ الْجَنِّ ، وهذه فرقة من بني
مدلج فيما روي .

وقرأ الجمهور : [أَصْطَفَى] بألف قطع هي للاستفهام ، وهذا على
جهة التقرير والتوبيخ على نسبتهم إليه تعالى اختيار الآدمي عندهم ،
وقرأ نافع في رواية إسماعيل : [أَصْطَفَى] بألف وصل على الخبر ،
كأنه سبحانه يحكي شنيع قولهم ، ورواها إسماعيل عن أبي جعفر ، وشيبة .
ثم قرَّرَ ووَبَّخَ وعَرَّضَ للتذكير والنظر واستفهام عن البرهان
والحُجَّةِ على جهة التقرير وضمَّهم إلى الاستظهار بكتاب أو أمر يُظهر
صدقهم . وقرأ الجمهور : [تَذَكَّرُونَ] مشددة الذال والكاف ، وقرأ
طلحة بن مصرف بسكون الذال وضم الكاف خفيفة

(١) يريد : فإنما يعود الضمير في [أَسْتَفْتِهِمْ] عليهم لأنهم المذكورون في المعنى .

قوله عز وجل :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا ۗ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
 سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ
 ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۗ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٢﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ
 مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٣﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِن
 كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٦﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٧﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [وَجَعَلُوا] لفرقة من كفار قريش والعرب ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري : إن بعضهم قال : إن الله وإبليس أخوان ، وقال مجاهد : قال قوم لأبي بكر الصديق : إِنَّ اللَّهَ نَكَحَ سُرَوَاتِ الْجَنِّ (١) ، وقال بعضهم : إن الملائكة بناته ، ف « الجنة » - على هذا القول الأخير تقع على الملائكة ، سميت بذلك لأنها مستجنة ، أي : مُستترة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ . من جعل « الجنة » الشياطين جعل العلامة في [عَلِمَتِ] والضمير في [إِنَّهُمْ] عائد عليهم . أي : جعلوا الشياطين ليست من الله ، والشياطين تعلم

(١) يريد : أشرف الجن ، وسرّوات : جمع سرّي ، وهو الشريف . ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .

ضد ذلك من أنها ستحضر أمر الله وثوابه وعقابه . ومن جعل [الجنة] الملائكة جعل الضمير في [إنهم] للقائلين هذه المقالة ، أي : علمت الملائكة أن هؤلاء الكفرة سيحضرون عذاب الله وعقابه ، وقد يتداخل هذان القولان .

ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما يصفه الناس ولا يليق به ، ومن هذا استثنى العباد المخلصين ؛ لأنهم يصفونه بصفاته العلى ، وقالت فرقة : استثناهم من قوله : [لمحضرون] ، وهذا يصح على قول من رأى [الجنة] الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ بمعنى : قل لهم يا محمد : إنكم وأصنامكم ما أنتم بمضلين أحداً عليها وبسببها ، إلا من سبق عليه القضاء وضمه القدر بأن يضل الجحيم في الآخرة ، وليس إليكم إضلال من هدى الله . وقالت فرقة : [عليه] بمعنى « فيه » ، و« الفاتن » : المضل في هذا الموضع ، وكذلك فسّر ابن عباس ، والحسن بن أبي الحسن ، وقال ابن الزبير على المنبر : « إن الله هو الهادي والفاتن » ، و [من] في موضع نصب بـ [فاتنين] ، وقرأ الجمهور : ﴿ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ بكسر اللام من (صال) ، وحذفت الياء للإضافة . وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿ صَالُ الْجَحِيمِ ﴾ بضم اللام ، وللنحاة في معناه اضطراب أقوال ، وأقواها أنه (صالون) حذفت النون للإضافة ،

ثم حذفت الواو للالتقاء ، وخرج لفظ الجمع بعد لفظ الإفراد ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ (١) ، إِذْ لَمَّا كَانَتْ [مَنْ] وهي من الأسماء التي فيها إبهامٌ ويكنى بها عن أفرادٍ وعن جمع (٢) .

ثم حكى تعالى قول الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ ، وهذا يؤيد أن «الجنة» أراد بها الملائكة ، كأنه قال : ولقد علمتُ كذا ، وإنَّ قولنا لكذا ، وتقدير الكلام : وما مِنَّا مَلَكٌ ، وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إِنَّ السَّمَاءَ مَا فِيهَا مَوْضِعٌ قَدَمٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ جِبْهَةٌ مَلَكٌ أَوْ قَدَمَاهُ) (٣) ، وقرأ ابن مسعود : «وَإِنْ كُنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» .

و [الصَّافُونَ] معناه : الواقفون صفوفاً ، و [المُسَبِّحُونَ] يحتمل أن يريد به الصلاة ، ويحتمل أن يريد قول : «سبحان الله» ، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أُقيمت الصلاة صرف وجهه إلى الناس فقال لهم : عدُّوا صفوفكم وأقيموها ، فإن الله إنما يريد بكم هدى الملائكة ، فإنها تقول : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ، ثم يرى تقويم الصفوف ، وعند ذلك

(١) من الآية (٤٢) من سورة (يونس) .

(٢) في توجيه قراءة الضم لللام في : ﴿صَالٌ أَلْجَحِيمِ﴾ نقل أبو الفتح رأياً عن شيخه أبي علي ، خلاصته أنه يحملها على حذف لام (صال) تخفيفاً ، ثم تعرب اللام بالضم ، وذلك كما حذفت لام (البالة) من قولهم : «ما باليتُّ بالة» ، وهي البالية ، كالعافية والعاقبة ، ولكن التوجيه الذي ذكره ابن عطية أقوى وأسلم ، وهو توجيه قطرب . وقد نقله أبو الفتح أيضاً واعترف بحسنه .

(٣) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه في الزهد .

ينصرف ويكبر ، قال الزهراوي : قيل : إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية ، ولا يصطف أحد من أهل الملل غير المسلمين . ثم ذكر عز وجلّ مقالة بعض الكفار ، قال قتادة ، والسدي ، والضحاك : فإنهم قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : لو كان لنا كتاب أو جاءنا رسول لكننا من أتقى عباد الله وأشدهم إخلاصاً ، فلما جاءهم محمد صلوات الله وسلامه عليه كفروا فاستوجبوا أليم العقاب .

قوله عز وجلّ :

﴿ فَكْفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴿

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيد محض ، لأنهم تمنوا أمراً فلما جاءهم الله به كفروا واستهواهم الحسد ، ثم آنس نبيه صلى الله عليه وسلم وأولياؤه بأن القضاء قد سبق ، والكلمة حقت

في الأزل ، بَأَنَّ رُسُلَ اللَّهِ إِلَى أَرْضِهِ هُمُ الْمَنْصُورُونَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ ، الْمُظْفَرُونَ بِإِرَادَتِهِمْ ، الْمَسْتَوْجِبُونَ الْفَلَاحَ فِي الدَّارَيْنِ . وقرأ الضحاك : [كَلِمَاتُنَا] بِالْألفِ عَلَى الْجَمْعِ . و «جُنْدُ اللَّهِ» هُمُ الْغَزَاةُ لِتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعَلِيَا . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : جُنْدُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ الْمَلَائِكَةُ ، وَفِي الْأَرْضِ الْغَزَاةُ .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وَعَدُّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمْرٌ بِالْمُؤَادَعَةِ ، وَهَذَا مِمَّا نَسَخْتَهُ آيَةُ السَّيْفِ . وَاخْتَلَفَ النَّاسُ بِالْمُرَادِ بِالْحِينِ هُنَا - فَقَالَ السُّدِّيُّ : الْحِينُ الْمَقْصُودُ يَوْمٌ بِدَرٍّ ، وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْحِينُ مَوْتُهُمْ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْحِينُ الْمَقْصُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وَعَدُّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ ، أَيُّ : سَوْفَ يَرَوْنَ عُقُوبِي طَرِيقَتَهُمْ .

ثُمَّ قَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ لَهُمْ - عَلَى اسْتِعْجَالِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ . وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : ﴿ نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أَيُّ الْعَذَابِ . وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ : «نُزِلَ» عَلَى الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ ، وَ«السَّاحَةُ» : الْفِنَاءُ ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمَلُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِيمَا يَرُدُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ . وَ«سُوءُ الصَّبَاحِ» أَيْضاً يَسْتَعْمَلُ فِي وَرُودِ الْغَارَاتِ وَالرِّزَايَا وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الصَّارِخِ : «يَا صَبَاحَاهُ» ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : قَدْ سَأَلَنِي الصَّبَاحُ فَأَعِينُونِي ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ : «فَبَيْسُ صَبَاحٍ» .

ثم أعاد الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالتوحي تحقيقاً لتأنيسه والتهمم به ، وأعاد سبحانه توعدهم أيضاً لذلك ، ثم نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما يمكن أن يصفه به أهل الضلالات .

و «العِزَّة» في قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْعِزَّةِ ﴾ هي العِزَّةُ المخلوقة الكائنة للأنبياء والمؤمنين ، ولذلك قال الفقهاء : مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ ، وقال محمد بن سحُنون : « من حلف بعِزَّةِ الله فإن كان أراد صفته الذاتية فهي يمين ، وإن كان أراد عزَّته التي خلق بين عباده ، وهي التي في قوله : ﴿ رَبُّ الْعِزَّةِ ﴾ فليست بيمين» (١) .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ سَلِّمُوا عَلَيَّ الْمُرْسَلِينَ فَإِنَّمَا أَنَا أَحَدُهُمْ) (٢) ، وبأقي السورة بين .

(١) ولكلام ابن سحنون بقية ذكرها القرطبي ، وفيها يقول : « العِزَّةُ تكون صفة ذات وصفة فِعْلٌ ، فصفة الذات نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَئِنَّ الْعِزَّةَ جَمِيعًا ﴾ ، وصفة الفعل نحو قوله : ﴿ رَبُّ الْعِزَّةِ ﴾ ، والمعنى : ربّ العِزَّةِ التي يتعاضد بها الخلق فيما بينهم ، فهي من خلق الله عزَّ وجلَّ .

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق أبي العوَّام ، عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه ، وذكر في الدر المنثور أن أبا العوَّام رضي الله عنه قال : كان قتادة يذكر هذا الحديث إذا تلا هذه الآية : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وأخرج ابن سعد ، وابن مردويه من طريق سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ الْمُرْسَلِينَ فَسَلِّمُوا عَلَيَّ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِمَّنْ الْمُرْسَلِينَ) .

وذكر أبو حاتم عن صالح بن مينا قال : قرأتُ على عاصم بن أبي النجود ، فلما ختمتُ هذه السورة سكتُ ، فقال : إِيهِ ، اقرأُ ، فقلت : قد ختمتُ ، فقال : كذلك فعلتُ على أبي عبد الرحمن فقال لي كما قلتُ لك ، وقال لي كذلك قال لي عليُّ بن أبي طالب ، وقال : «وقُلْ آذنتكم بإذانة المرسلين ، لتُسألنَّ عن النَّبِيِّ الْعَظِيمِ» ، وفي مصحف عبد الله : «عن هذا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ» (١).

كَمَلْ تَفْسِيرِ سُورَةِ (الصَّافَّاتِ) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرج الطبراني ، عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ قَالَ دُبُرَكَ كُلُّ مَرَلَةٍ : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ثلاث مرات فقد اكننال بالملكياال الأوفى من الأجر) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة كلها مكية بإجماع من المفسرين (١).

قوله عز وجل :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَرِهَ
أَهْلُكَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٤﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ
مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾

قرأ الحسن ، وأبي بن كعب ، وابن أبي إسحق : « صَادٍ » بكسر
الذال ، على أنه أمرٌ من : صَادَى يُصَادِي إِذَا ضَاهَى وَمَآثِلَ ، أَي

(١) ويقال لهذه السورة : سورة داود . وعدد آياتها ٨٨ آية ، وقيل : ٨٦ آية .

صار كالصَدَى الذي يحكي الصياح ، والمعنى : مائل القرآن بعملك ،
 وقارنه بطاعتك ، وهكذا فسره الحسن ، أي : انظر أين عملك منه ؟ (١)
 وقال الجمهور : إنه الحرف المعجم المعروف ، ويدخله ما يدخل
 سائر أوائل السور من الأقوال ، ويختص هذا الموضع بأن قال بعض
 الناس : معناه : صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقال الضحاک :
 معناه : صدق الله ، وقال مجاهد بن كعب القرظي : هو مفتاح أسماء
 الله (صَمَد ، صَادِق الوعد ، صانع المصنوعات) .

وقرأها الجمهور بسكون الدال ، وقرأ ابن أبي إسحق - بخلاف
 عنه - بكسر الدال وتنوينها [صَادٍ] ، على القسم ، كما تقول :
 اللهُ لَأَفْعَلَنَّ ، وحكى الطبري وغيره عن ابن أبي إسحق دون تنوين ،
 وألحقه بقول العرب : حاثِ باثِ ، وخازِ بازِ (٢) ، وقرأت فرقة منها
 عيسى بن عمر : [صَادٍ] بفتح الدال ، وكذلك يفعل في نطقه بكل

(١) المماثلة والمضاهاة فيهما معنى المعارضة ، والمصاداة : المعارضة والمقابلة ، فالمعنى :
 عارض القرآن بعملك وقابله بمثله ، فاعمل بأوامره ، وانته عن نواهيه .
 وهناك مذهب آخر في توجيه هذه القراءة بكسر الصاد بدون تنوين ، وهو أن الدال مكسورة
 لالتقاء الساكنين ، قال القراء في (معاني القرآن) : « جَزَمَهَا القراء إلا الحسن فإنه خَفَضَهَا
 بلا نون لاجتماع الساكنين » .

(٢) من كلام العرب : « تركته حاثِ باثِ ، وخازِ بازِ » ، أما معنى « حاثِ باثِ » فهو :
 تركته مختلط الأمر ، قال ذلك في التاج ، ومن معاني « خازِ بازِ » أنه ذباب يكون في الروض .
 والتعليل الذي ذكره الطبري لهذا الذي حكاه الطبري هو أن الكسر هُتْمًا من أجل أن الذي يلي
 آخر الحروف (ألف) فيخفزون مع الألف ، وينصبون مع غيرها ، فيقولون : حيثَ بيثَ ،
 ولأجعلنك في حيثَ بيثَ ، إذا ضيق عليه .

الحروف ، يقول : قاف ، ونون ، ويجعلها كائناً وليت (١) ، قال الثعلبي : «وقيل معناه : صاد محمد القلوب بأن استمالها للإيمان» . وقوله تعالى : ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ قسم ، وقال السدي ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير : معناه : ذي الشرف الباقي المخلد ، وقال قتادة ، والضحاك : ذي التذكرة للناس والهداية لهم ، وقالت فرقة : معناه : ذي الذكر للأمم والقصاص والغيوب . وأما جواب القسم فاختلف فيه - فقالت فرقة : الجواب في قوله : [ص] ؛ إذ هو بمعنى : صادق محمد ، أو صادق الله ، وقال الكوفيون والزجاج : الجواب قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٢) ، وقال بعض البصريين - ومنهم الأخفش - : الجواب في قوله : ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ (٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان بعيدان .

(١) قال الطبري : «إن عيسى بن عمر كان يوفّق بين جمع ما كان قبل آخر الحروف منه ألف ، وما كان قبل آخره واو أو ياء فيفتح جميع ذلك وينصبه ، فيقول : صاد ، وقاف ، ونون ، ويسن ، ويجعل ذلك مثل الأداة ، كقولهم : ليت وأين ، وما أشبه ذلك» . ونقل القرطبي في توجيه قراءة عيسى بن عمر ثلاثة مذاهب : الأول أن يكون فتحة لالتقاء الساكنين ، واختار الفتح للإتباع ، ولأنه أخف الحركات ، والثاني أن يكون بمعنى : اتل ، والثالث أن يكون منصوباً على القسم بغير حرف قسم ، لقولك : الله لأفعلن ، وعلل بعضهم هذه القراءة بأن النصب فيها على الإغراء .

(٢) وهي الآية (٦٤) من السورة .

(٣) وهي من الآية (١٤) من السورة .

وقال قتادة ، والطبري : الجواب مُقَدَّرٌ قبل [بَلْ] ، وهذا هو الصحيح ، تقديره : «والقرآن ما الأمرُ كما تزعمون» ، ونحو هذا من التقدير ، فتأمله . وحكى الزجاج عن قوم أن الجواب قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ وهذا متكلف جداً .
و «العِزَّةُ» هنا : المُعَازَةُ والمغالبة ، و «الشُّقَاقُ» نحوه ، أي : هُم في شِقِّ والحَقُّ في شِقِّ .

و [كَمْ] للتكثير ، وهي خبرٌ فيه مثالٌ ووعيد ، وهي في موضع نصب بـ [أَهْلَكْنَا] ، و «الْقَرْنُ» : الأُمَّة من الناس يجمعها زمن واحد ، وقد تقدم تحديده مراراً ، وقوله تعالى : [فَنَادَوْا] معناه : مستغيثين ، والمعنى أنهم فعلوا ذلك بعد المعاينة فلم ينفع ذلك ، ولم يكن في وقت نَفْع ، و [لَاتَ] بمعنى : لَيْسَ ، واسمها مقدر عند سيبويه ، وتقديره : ولاتَ الحينُ حين مناصٍ ، وهي (لَا) لحقتها تاءٌ ، كما لحمت «رُبَّتْ وَثُمَّتَ» ، وقال الزجاج : وهي كتاءٌ جَلَسَتْ وَقَامَتْ ، تاءُ الحروف كتاءُ الأفعال دخلت على ما لا يُعرب في الوجهين ، ولا تستعمل (لَا) مع التَّاءِ إِلَّا في الحينِ والزَّمانِ والوقت ونحوه ، ومن ذلك قول الشاعر :

.....
وَلَاتَ سَاعَةَ مَنَدَمٍ (١)

(١) هذا جزءٌ من بيت استشهد به النحويون على أن عَمَلَ (لَاتَ) لا يختص بلفظ الحين ، بل تكون مع الأوقات كلها ، وقد استشهد الفراء بهذا الجزء أيضاً على أن من العرب من يضيف =

وقال الآخر :

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لَاتَ حِينَا وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا (١)
وَأَنشُدُ بَعْضَهُمْ :

= (لات) فيخفف ، ثم قال : ولا أحفظ صدر البيت على أنه لم يرض عن الجرِّ بها ، وإنما قرَّ أن الوجه هو النصب بها لأنها في معنى (ليس) ، وذكر على ذلك الشاهد الذي ذكره ابن عطية بعد ذلك ، وقال البغدادي في خزانة الأدب : « والبيت الذي قال الفراء : لا أحفظ صدره ، رواه مع صدره ابن السكِّيت في كتاب (الأضداد) ، وهو :

وَلَتَعْرِقَنَّ خَلَائِقًا مَشْمُولَسَةً وَكَتَنَدَمَنَّ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنَدَمٍ

والخلائق المشمولة هي : المشؤمة ، وأخلاق السوء ، وقد يقال أيضاً : رجل مشمولُ الخلائق ، أي : كريم الأخلاق ، قال ذلك ابن الأعرابي في تفسير « مشمولة » . وقد روى هذا الشاهد في الأشموني :

* نَدِمَ الْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنَدَمٍ *

وفي كتاب « فرائد القلائد في مختصر الشواهد للعيني » أن هذا جزءٌ من بيت هو بتمامه :

نَدِمَ الْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنَدَمٍ وَالْبَغْيُ مَرْتَعٌ مُبْتَغِيهِ وَخَيْمٌ

وقال في شرحه : « وقائِلُهُ محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله الشَّيْمِي ، وقيل : بل مهلهل بن مالك الكناني » ، وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لات) تستعمل مع الحين والزمان والوقت ونحو ذلك ، لا مع الحين فقط كما يدعي بعض النحويين .

(١) هذا الشاهد هو الذي ذكره الفراء دليلاً على أن (لات) تعمل النصب فيما بعدها ، قال في كتابه (معاني القرآن) : « والكلامُ أن يُنصبَ بها ؛ لأنها في معنى (لَيْسَ) ، أنشدني الفضلُ : تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى ... البيت ، ثم قال : فهذا نصب » . وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لات) تعمل النصب في الحين ، كما تعمله في كل ما يدل على الزمن . والقرين هو الصاحب أو الزوج ، والمراد به هنا لَيْلَى ، يقول : إنه تذكَّرَ حبها في وقت لا ينفع فيه ذلك ؛ إذ علاه الشيب وأبعد عنه الأجابة .

طَلَبُوا صَلْحَنَا وَلَاتَ أَوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنَّ لَيْسَ حِينَ بَقَاءِ (١)
وَأَنْشُدَهُ الزَّجَاجَ بِكسر التاء ، وهذا كثير ، وقراءة الجمهور فتح التاء
من [لات] والنون من [حين] ، ورؤي عن عيسى كسر التاء من [لات]
ونصب النون من [حين] ، ورؤي عنه أيضاً كسر النون منها .

واختلفوا في الوقف على [لات] - فذكر الزجاج أن الوقف بالتاء ،
ووقف الكسائي بالهاء ، ووقف قوم - واختاره أبو عبيد - على [لا]
وجعلوا التاء موصولة بحين ، فقالوا : « لَا تَحِين » ، وذكر أبو عبيد
أنها كذلك في مصحف عثمان ، ويحتج لهذا بقول أبي وجزة :

العَاطِفُونَ تَحِينُ مَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُطْعَمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمٍ (٢)

(١) هذا البيت لأبي زُبَيْد المنذر بن حرمة الطائي (وقيل : بل هو حرمة بن المنذر الطائي) ،
مات على النصرانية وقد أدرك الإسلام ، وكان عثان بن عفان رضي الله عنه يقربُه ويدي مجلسه ،
وهو من قصيدة طويلة من الخفيف ، قال في شرح الشواهد للعيني : « والشاهد في قوله :
(ولات أوان) حيث وقع خبره لفظة أوان كالحين ، وهي جملة حالية ، أي : ليس الأوان
أوان صلح ، فحذف المضاف إليه ، ثم بُني (أوان) كما بُني (قبلُ وبعدُ) عند حذف المضاف
إليه ، ولكنه بُني على الكسر لشبهه ؛ (نزال) في الوزن ، ثم نُونٌ للضرورة ، و (أن) تفسيرية ،
وليس للنفي ، واسمها محذوف ، وقوله : (حين بقاء) هو الخبر ، أي : ليس الحين
حين بقاء الصلح . وفي (معاني القرآن) قال الفراء بعد أن استشهد بقول الشاعر : (تذكر
حُبَّ ليلى ...) : « وأنشدني بعضهم : طلبوا صلحنا . البيت ، فخفض (أوان) » . ولاحظ
أنه لم يقل : بُني على الكسر كما قال صاحب شرح الشواهد .

(٢) البيت من قصيدة لأبي وجزة السعدي يمدح بها آل الزبير بن العوام ، وأبو وجزة
اسمه : يزيد بن عبيد ، شاعر ، محدث ، مقرر ، ولكن البيت مركبٌ من مصراعين بيتين ،
وهكذا وقع في صحاح الجوهري فتبعه الشراح والمحققون ، والذي في الديوان هو :

يمدح آل الزبير . وقرأ بعض الناس : ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ برفع النون على إضمار الخبر .

= وإلى ذرآ آل الزبير بفضليهم ،
 نعم الذرآ في الثآبات لنا هم
 والعاطفون تحين ما من عاطف
 والمُسبغون يدآ إذا ما أنعموا
 واللاحقون جفآنهم قمع الذرى

والذرآ - بالفتح - : كلُّ ما استترت به ، والنآبات : شدائد الدهر وحوادثه ، والعطف : الشفقة والتحنن ، وتحين : ظرف للعطف والتآء فيها زائدة ، أو أنها متصلة بما قبلها على أنها هاء السكت وجملة (ما من عاطف) منفية ، و (من) فيها زائدة ، والمعنى : ما من عاطف موجود . والمُسبغون : من قولهم : أسبغ الله النعمة : أفاضها وأتمها ، واليد : النعمة . واللاحقون معناها : المُتبعون ، والجفآن بالكسر : جمع جفنة بالفتح ، وهي القصة الكبيرة للطعام ، والقمع بفتح القاف والميم : جمع قمعة بالتحريك بالفتح ، وهي رأس السنام من الجممل ، والذرى : جمع ذرورة ، وهي أعلى السنام ، وفيها أطيب لحمه . يمدحهم بأنهم ملجأ أمين يلجأ إليه الناس - ومنهم الشاعر وقومه - عند الحوادث والمصائب ، وأنهم يعطفون على الناس إذا اشتدت الأحوال وأجذب الزمان . وإذا أنعموا وسعوا على الناس إفضالاً وناثلاً ، وأنهم يطعمون الناس في أيام القحط والجذب أفضل اللحم ، يطعمونهم في الزمان الذي يبحث الناس فيه عن المطعنين الطعام ، ورواية المؤلف للبيت فيها إقواء ، والقصيدة كلها بالضم كما رأينا ، والرواية الصحيحة هي التي أثبتناها ، أما رواية ابن عطية فقد نقلها عن أبي عبيد في الغريب المصنف .

وتركيب بيت من بيتين ونحوه في الاستشهاد شائع وكثير عند المصنفين ، يفعلونه قصداً لا خطأ ، إما لأن المعنى يكون متفرقاً في أبيات ، وإما لأن في أحد المصراعين قلقاً في اللغة أو في المعنى ، فيختصرون بأخذ مصراعين .

هذا والبيت في (مجالس ثعلب) و (الإنصاف) و (الأشموني) ، واللسان (لبت - حين) ، وفي (خزائن الأدب) ، وقد نقل كثيراً من أقوال النحويين في تخريجه ، وأحسن التخريجات ما قاله ابن السيرافي في (شرح شواهد الغريب المصنف) ، وأبو علي الفارسي في (المسائل المنثورة) ، ونقله ابن جني عنهما في كتابه (سر صناعة الإعراب) ، ويتلخص هذا التخريج في أن التآء في الأصل هاء السكت ، وأنها في (العاطفون) ، وهي - على هذا - (العاطفون) ، وقد اضطر الشاعر إلى تحريكها فأبدلها تاءً وفتحها ، أراد أن يجريها في الوصل على ما تكون =

و «الْمَنَاصُ» : الْمَفْرُ ، ناصَ يَنُوصُ إِذَا فَاتَ وَفَرَّ (١) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : ليس بِحِينِ نَزْوٍ وَلَا فِرَارٍ ، ضبط القوم . والضمير في [وَعَجَبُوا] لكفار قريش ، واستغربوا أَن نُبِيٌّ بَشَرٌ مِنْهُمْ فَأَنْذَرَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ ، وَأَن وَحَّدَ الْإِلَهَ ، وقالوا : كيف يكون إِلَهُ وَاحِدٌ يَرْزُقُ الْجَمِيعَ وَيَنْظُرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِمْ ؟

و [عُجَابٌ] بناءٌ مبالغَةٌ ، كما قالوا : سريعٌ وَسُرَّاعٌ ، وهذا كثير ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وعيسى بن عمر : [عُجَابٌ] بشد الجيم ، ونحوه قال الراجز :

جَاءُوا بِصَيْدٍ عَجَبٍ مِنَ الْعَجَبِ أَزِيرِقِ الْعَيْنَيْنِ طُوَالِ الذَّنْبِ (٢)
وقد قالوا : رجلٌ كَرَامٌ ، أي كريم .

= عليه في الوقف ، وذلك أنه يقال في الوقف : هؤلاء مسلمونه ، وضاربونه ، فتلحق الهاء لبيان حركة النون ، وشبهه هاء الوقف بهاء التانيث ، فلما احتاج لإقامة الوزن حرك الهاء بقلبها تاءً ، كما تقول في الوقف : هذا طَلْحَةٌ ، فإذا وصلت صارت الهاء تاءً ، فقلت : هذا طَلْحَتْنَا ، وعلى هذا قال : العاطفونّة ، وقال ابن مالك : إن التاء بقية (لات) ، حذفت (لا) وبقيت التاء ، وابن عطية يستشهد بالبيت على هذا الأساس ، (راجع خزانة الأدب للبغدادي - والتسهيل لابن مالك) .

(١) قال الفراء : النَّوْصُ في كلام العرب : التَّأَخَّرُ ، والبَّسْوُصُ : التَّوَقُّعُ ، قال

امرؤ القيس :

أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى إِذْ نَأَتْكَ تَنْوُصٌ فَتَقْصُرُ عَنْهَا خَطْوَةٌ وَتَبْوُصُ

(٢) الْعَجَبُ : إنكارٌ ما يرد عليك لقلّة اعتياده ، وجمعه : أعجَابٌ ، ويقال : أمرٌ

عُجَابٌ وَعُجَابٌ ، نقل صاحب اللسان (عَجَبَ) عن الفراء قوله : « هو مثل قولهم : رجلٌ كَرِيمٌ وَكَرَامٌ ، وَكَبِيرٌ وَكُبَارٌ ، وَعُجَابٌ بالتشديد أكثر من عُجَابٍ » ، =

قوله عز وجل :

﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ وَإِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْأَنْحَرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا آخْتَلَقَ ﴿٦٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٦٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٦٩﴾ ﴾

رُوي في قصص هذه الآية أن أشراف قريش وجماعتهم اجتمعوا عند مرض أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن من القبيح علينا أن يموت أبو طالب ونؤذي محمداً بعده فيقول العرب : تركوه مدة عمه فلما مات آذوه ، ولكن لنذهب إلى أبي طالب فلينصيفنا منه ، وليربط بيننا وبينه ربطاً ، فنهضوا إليه فقالوا : يا أبا طالب ، إن محمداً يسب آلهم ويسفه آراءنا وآراء آبائنا ، ونحن لا نُقارهُ

= وقال صاحب العَيْن : « بين العَجِيبِ والعُجَابِ فرقٌ ، أما العَجِيبُ فالعَجَبُ يكون مثله ، وأما العُجَابُ فالذي تجاوز حدَّ العَجَبِ » . وقال ابن جني في (المحتسب) : « قد كثر عنهم مجيء الصفة على فَعِيلٍ وفُعَالٍ — بالتخفيف — وفُعَالٍ — بالتشديد — ، قالوا : رجلٌ وَضِيءٌ ووُضَاءٌ ، وأنشدوا :

والمَرءُ يُلْحِقُهُ بِفَيْتِيَانِ النَّدَى خَلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بِالْوَضَاءِ

أي : ليس بالوضيء . وهذا البيت لصدقة الدَّبَّيْرِي . وقد استشهد ابن جني أيضاً بالبيت الذي ذكره ابن عطية هنا ، والرواية هناك : (أُرْبِقِ الْعَيْنِ وَطَوَّالِ الذَّنْبِ) .

على ذلك ، ولكن افصل بيننا وبينه في حياتك ، بأن يقيم في منزله
يعبد ربّه الذي يزعم ، ويدع آلهتنا وسبّها ، ولا يعرض لأحد منّا
بشيء من هذا ، فبعث أبو طالب في محمد عليه الصلاة والسلام ،
فقال : يا محمد ، إن قومك قد دعوك إلى النّصفة ، وهي أن تدعهم
وتعبد ربّك وحدك ، فقال : أو غير ذلك يا عم ؟ قال : وما هو ؟
قال : يُعطونني كلمة تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم الجزية
بها العجم ، قالوا : وما هي فإننا نبادر إليها ؟ قال : لا إله إلا الله ،
فنفروا عند ذلك وقالوا : ما يرضيك منا غير هذا ؟ قال : والله لو
أعطيتهموني الأرض ذهباً ومالاً ، وفي رواية : لو جعلتم الشمس في
يمني ، والقمر في شمالي ما أرضاني منكم غيرها ، فقاموا عند ذلك
وبعضهم يقول : «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب» ؟
ويرددون هذا المعنى ، وعقبة بن أبي مُعيط يقول : ﴿أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا
عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ الآية (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجلبت هذا الخبر تامّ المعنى ، وفي بعض رواياته زيادة ونقصان ،
والمعنى متقارب .

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي - وقال : هذا حديث حسن صحيح - ، وأخرجه
الحاكم في (مستدرکه) وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، وكذلك أخرجه الطبري ، والواحدي ،
وذكره السيوطي في (الدر المنثور) وزاد نسبه لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والنسائي ،
وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكما قال ابن
عطية في بعض رواياته زيادةً ونقصان .

ولما ذهبوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، قال : والله لولا أن تكون سبّة في بنيّ بعدي لأقررتُ بها عينك ، ومات وهو يقول : على ملّة عبد المطلب ، فنزلت في ذلك : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) .

فقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ عبارة عن خروجهم عن أبي طالب ، وانطلاقهم من ذلك الجمع ، هذا قول جماعة من المفسرين . وقالت فرقة : هي عبارة عن إذاعتهم لهذه الأقاويل ، فكأنه كما يقول الناس : انطلق الناس بالدعاء للأمير ، ونحوه ، أي : استفاض كلامهم بذلك ، و [الْمَلَأُ] : الأشرافُ والرؤوسُ يسدون مسدّ الجميع في الآراء ، ونحوه .

وقولهم : ﴿ أَنْ أَمْشُوا ﴾ ، [أَنْ] مفسّرة لا موضع لها ، ويجوز أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر ، أي : بأن ، فهي بتقدير المصدر ، كأنه قال : وانطلق الملاء منهم بقولهم : امشوا ، ومعنى الآية أنه قال بعضهم لبعض : امشوا واصبروا على كل أمر آلهتكم . وذهب بعض الناس إلى أن قولهم : [أَمْشُوا] هو دعاءٌ لكسب المشية ، وفي هذا ضعف ؛ لأنه كان يلزم أن تكون الألف مقطوعة ؛ لأنه يقال : « أَمْشَى الرَّجُلُ » إذا صار صاحب مشية ، فهذا المعنى

(١) من الآية (٥٦) من سورة (القصاص) .

غير متمكن في الآية ، وإنما المعنى : سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم ، أو يكون المعنى أمراً من نقل الأقدام قالوه عند انطلاقهم ، وهي في مصحف ابن مسعود : « وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ يَمْشُونَ أَنْ اصْبِرُوا » . وقولهم : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ يريدون ظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - وعُلوّه بالنبوة ، أي : يراد منا الانقياد له .

وقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ يريدون بمثل هذه المقالة من أن الإله واحد . واختلف المتأولون في قولهم : ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ - فقال مجاهد : أرادوا ملّتهم وزيحلتهم التي العرب عليها ، ويقال لكل ما تتبّعه أمة : ملّة . وقال ابن عباس ، والسدي : أرادوا ملّة النصارى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك مُتَّجِهٌ لَأَنَّهَا مِلَّةٌ شَهْرٌ فِيهَا التَّثْلِيثُ وَأَنَّ الْإِلَهَ لَيْسَ بِوَاحِدٍ . وقالت فرقة : معنى قولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا ﴾ أي : ما سمعنا أنه يكون مثل هذا ، ولا أنه يقال في المِلَّةِ الْآخِرَةِ التي كنا نسمع أنها تكون في آخر الزمان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك أنه قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام كان الناس يستشعرون خروج نبيٍّ وحدث ملّة ودين ، ويدل على صحة هذا

ما رُوي من أقوال الأخبار أُولي الصوامع ، وما رُوي عن شقِّ وسطيح ، وما كانت بنو إسرائيل تعتقد من أنه يكون منهم . وقولهم : (إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْتِلَاقٌ) إشارة إلى جميع ما يُخبر به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى .

ثم قالوا على جهة التقرير من بعضهم لبعض ، ومُضَمَّن ذلك الإنكار - (أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا) ؟ بمعنى : نحن الأشراف الأعلام ، فلم خصَّ هو ؟ وكيف يصحُّ هذا ؟ فردَّ الله قولهم بما يقتضيه [بَلْ] ؛ لأنَّ المعنى لَيْسَ تخصيص الله وإنعامه جارياً على شهواتهم ، (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي) ، أي في ريب أن هذا التذكير حق . ثم توعدهم بقوله : (بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ) ، أي : لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق ، أي هم لجهالتهم لا يُبَيِّنُ لهم النظر ، وإنما يُبَيِّنُ لهم مباشرة العذاب . وقرأ ابن مسعود : « أَمْ أُنزِلَ » بيم بين الهمزتين .

ثم وقَّفهم احتجاجاً عليهم ، أعندهم خزائن رحمة الله التي فيها الهدى والنُّبُوَّة وكل فضل ، فيكون لهم تحكُّم في الرسالة وغيرها من نِعَم الله ؟ و [أَمْ] هنا لم تُعادلها ألف ، فهي المقطوعة التي معناها الإضراب عن الكلام الأول واستفهام ، وقدَّرها سيبويه بـ « بَلْ وَالْأَلْفُ » ، كقول العرب : « إِنَّهَا لِإِبِلٌ أَمْ شَاءُ » ، والخزائن للرحمة مستعارة ، كأنَّ المعنى : موضع جمعها وحفظها ، ومن حيث كانت ذخائر البشر

تحتاج إلى ذلك خوطب في الرحمة بما ينحو إلى ذلك ، قال الطبري :
يعني بالخزائن المفاتيح . والله تعالى أعلم .

قوله عز وجل :

﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾
جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَمَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾
إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

[أم] في هذه الآية معادلة للألف المقدره في [أم] الأولى ، وكأنه
تعالى يقول في هذه الآية : أم لهم هذا الملك فتكون الرسالة والنبوة
على اختيارهم ونظرهم ، ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ إن كان الأمر كذلك ،
أي : إلى السماء ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما . و «الأسباب»
كل ما يتوصل به إلى الأشياء ، وهي هنا بمعنى الحبال والسلالم .
وقال قتادة : أراد أبواب السماء .

قوله تعالى : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ ﴾ ، اختلف المتأولون في الإشارة
بـ [هُنَالِكَ] إلى ما هي - فقالت فرقة : أشار إلى الارتقاء في الأسباب ،
أي : هؤلاء القوم إن راموا ذلك جُنْدٌ مهزوم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قوي .

وقالت فرقة : الإشارة بـ [هُنَالِكَ] إلى حماية الأصنام وعضدها ،
 أي : هؤلاء القوم جند مهزوم في هذه السبيل ، وقال مجاهد : الإشارة
 بـ [هُنَالِكَ] إلى يوم بدر ، وكان غيباً أعلم الله به على لسان رسوله
 صلى الله عليه وسلم أَنَّ جنداً مشركين يُهْزَمُونَ ، فخرج في بدر ،
 وقالت فرقة : الإشارة إلى من حضر عام الخندق بالمدينة . وقوله :
 ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ، أي : من جملة الأحزاب والأئمة الذين تعصبوا
 في الباطل وكذبوا الرُّسُلَ فَأَخَذَهُمُ اللهُ تَعَالَى . و [مَا] في قوله تعالى :
 ﴿جُنُودًا مَّا هُنَالِكَ﴾ زائدة مؤكدة ، وفيها تخصيص .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ - فقال ابن عباس ،
 وقتادة : سُمِّيَ بذلك لأنه كانت له أوتاد وخشب يُلعبُ له بها وعليها ،
 وقال السدي : كان يقتل الناس بالأوتاد ويشدهم في الأرض بها ،
 وقال الضحاك : أراد المباني العظام الثابتة . وهذا أظهر الأقوال ،
 كما يقال للجبال أوتاد لثبوتها . ويحتمل أن يقال له : «ذو الأوتاد»
 عبارة عن كثرة أخصبته وعِظَمِ عساكره ، ونحو من هذا قولهم :
 «أهل العمود» . وقرأت فرقة : [لَيْكَةِ] ، وقرأت فرقة : [الْأَيْكَةِ] ،
 وقد تقدم .

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء المذكورين هم الأحزاب ، وضرب بهم
المثل لقريش في أنهم كذبوا ، ثم أخبر أن عقابه حق على جميعهم ،
فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفي
قراءة ابن مسعود : « إِنْ كُلُّ لَمَّا » ، وحكى أبو عمرو الداني أن فيها :
« إِنْ كُلُّهُمْ إِلَّا كَذَبَ » .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِّمَّا مِنْ فَوْقِ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا
قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ
إِنَّهُ وَأَبُوبُ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ وَأَبُوبُ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ
الْحِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

[يَنْظُرُ] بمعنى : ينتظر ، وهذا إخبار من الله تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ
عليه وسلم ، صدقه الوجود ، فالصيحة - على هذا التأويل - عبارة
عن جميع ما نابهم من قتل أو أسر وغلبة ، وهذا كما تقول : صاح
فيهم الدهر ، وقال قتادة : توعدهم الله بصيحة القيامة والنفخ في
الصُّور ، قال الثعلبي : روي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي صلى الله

عليه وسلم (١) . وقالت طائفة : توعدهم تعالى بصيحة يهلكون بها في الدنيا ، وعلى هذين التأويلين فمعنى الكلام أنهم بمدرج عقوبة ، وتحت أمر خطير ما ينتظرون فيه إلا الهلكة ، وليس معناه التوعد بشيء معين ينتظره محمد صلى الله عليه وسلم فيهم كالتأويل الأول .

وقرأ الجمهور : [فَوَاقٍ] بفتح الفاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن وثاب ، والأعمش ، وأبو عبد الرحمن : [فَوَاقٍ] بضم الفاء . قال ابن عباس ، وغيره : هما بمعنى واحد ، أي : ما لها من انقطاع وعودة ، بل هي متصلة حتى مهلكهم ، ومنه : «فَوَاقُ الْحَلْبَةِ» ،

(١) الذي ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور أن عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم أخرجوا عن قتادة رضي الله عنه تفسير هذه الآيات ، ولم يشر إلى أن قتادة قد رفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث : ﴿ وَمَا يَنْتَظِرُ هَوْلَاءُ ﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعني الساعة ، ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ يعني : ما لها من رجوع ولا مثوبة ولا ارتداد . وفي تفسير ابن جرير الطبري ، أخرج عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخصٌ يبصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر) ، قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟ قال : (قَرْنٌ) ، قال : كيف هو ؟ قال : (قَرْنٌ عَظِيمٌ يَنْفُخُ فِيهِ ثَلَاثَ نَفْخَاتٍ : نَفْخَةُ الْفَرْعِ الْأُولَى ، وَالثَّانِيَةِ : نَفْخَةُ الصَّعَقِ ، وَالثَّلَاثَةَ : نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْءَ اللَّهِ إِسْرَافِيلُ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى ، يَقُولُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَرْعِ ، فَيَنْفُخُ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ فَيَدِيمُهَا وَيَطْوِيهَا ، فَلَا يَنْفِرُ ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ وَمَا يَنْتَظِرُ هَوْلَاءُ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ . ففعلٌ هذا هو ما أشار إليه الثعلبي بقوله : « رُوِيَ هَذَا التَّفْسِيرُ مَرْفُوعاً إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

المهلة التي بين الشَّخْبَتَيْنِ (١) ، وجعلوه مثل قَصَاصِ الشَّعْرِ وَقَصَاصِهِ ، وغير ذلك ، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من رابط فُوقَ نَاقَةٍ حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ) (٢). وقال ابن زيد ، وأبو عبيدة ، ومؤرج ، والفراء : المعنى مختلف ، الضَّمُّ كما تقدم من معنى فُوقَ ، والفتح بمعنى الإفاقة ، أي : ما يكون لهم بعد هذه الصيحة من إفاقة ولا استراحة ، ففُوقَ مثل جواب من أجاب .

ثم ذكر عزَّ وجلَّ عنهم أنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَا عَجَّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ، والقِطُّ : الحِطُّ والنصيب ، والقِطُّ أيضاً : الصِّكُّ والكتاب من السلطان بِصِلَّةٍ ونحوه ، ومنه قول الأعشى :
وَلَا الْمَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيَتَهُ
بِغِبْطَتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفِقُ (٣)

(١) في اللسان (فُوقَ) : « فُوقَ النَّاقَةِ وَفُوقَاقِهَا : رجوع اللبن في ضرعها بعد حلبها ، يقال : لا تنتظره فُوقَ نَاقَةٍ ، وَفُوقَاقِ النَّاقَةِ وَفُوقَاقِهَا : ما بين الحلبتين إذا فتحت يدك » . والشَّخْبُ والشُّخْبُ : ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتلب ، وفي المثل : « شُخْبٌ فِي الْإِنَاءِ وَشُخْبٌ فِي الْأَرْضِ » ، والشَّخْبَةُ : الدفعة منه .

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث ضعيف .

(٣) البيت من قصيدة له يمدح الملقب بن خنثم بن شداد بن ربيعة . يقول في مطلعها :

أَرِقْتُ وَمَا هَدَا السُّهَادُ الْمُؤَرَّقُ وَمَا بِي مِنْ سَقَمٍ وَمَا بِي مَعَشَقُ ؛

وقد أراد بالنعمان : النعمان الثالث أبا قابوس ، ويروى البيت (كما في الديوان) — بِأَمْتِهِ — بدلا من (بغبطته) ، والإمَّةُ : النعمة ، أو الدين . أو غضارة العيش ، والقُطُوطُ : جمع قِطٌّ ، وهو الحظ والنصيب والصك بالجائزة ، ويأفقُ ، يُعْطِي بعضاً أكثر من بعض ، والشاهد أن كلمة القُطُوط يراد بها الكتاب من السلطان بالجائزة أو الصلَّة .

وهو من : قَطَطْتُ ، أَي : قَطَعْتُ . واختلف الناس في «القطُّ» هنا ، ما أرادوا به ؟ فقال سعيد بن جبير : أرادوا به : عَجَّلْنَا نَصِيبَنَا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّعِيمِ فِي دُنْيَانَا ، وقال أبو العالية ، والكلبي : أرادوا : عَجَّلْنَا لَنَا صَحْفَنَا بِأَيَّمَانِنَا ، وذلك لَمَا سَمِعُوا فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الصَّحْفَ تُعْطَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِيمَانِ وَالشَّمَائِلِ قَالُوا ذَلِكَ ، وقال ابن عباس ، وغيره : أرادوا ضِدَّ هَذَا مِنَ الْعَذَابِ وَنَحْوِهِ ، فهذا نظير قولهم : ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (١) . وقال السدي : المعنى : أرنا منازلنا في الجنة حتى نبايحك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى كل تأويل فكلامهم خرج على جهة الاستخفاف والهزاء ، ويدل على ذلك ما علم من كفرهم واستمر ، ولفظ الآية يعطي إقراراً بيوم الحساب .

قوله تعالى : ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ، أَي : من هذه الأقاويل التي يريدون بها الاستخفاف ، ولا تلتفت إليها ، ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ في الدين والصدع به ، فتأسَّ به وتأيَّد كما تأيَّد ، و«الأيَّد» : القوة ، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة . و«الأوابُ» : الرجَّاع إلى طاعة الله تعالى ، قاله مجاهد وابن زيد ،

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال) .

وفسره السدي بالمُسَبِّح ، وذكر الثعلبي أن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الزُّرْقَةُ يُمْنٌ) (١) ، وكان داود أزرَق ، وأخبر تبارك وتعالى عما وهب لداود من الكرامة في أن سحرَّ الجبال معه تسبِّح ، وظاهر الآية عموم الجبال ، وقالت فرقة : بل هي الجبال التي كان فيها وعندها ، وتسبِّح الجبال هنا حقيقة . و «الإشراقُ» : وقت ضياء الشمس وارتفاعها ، ومنه قولهم : «أشرقُ ثبيرٌ كيما نُغيرُ» (٢) ، أي : ادخل في الشروق ، وفي هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : صلاة الضحى عندنا هي صلاة الإشراق ، وهي في هذه الآية (٣) .

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه في الضعفاء ، عن عائشة رضي الله عنها ، والحاكم في تاريخه ، والدلمي في مسند «الفردوس» عن أبي هريرة رضي الله عنه . (الجامع الصغير) .
 (٢) ذكر هذا المثل الميداني في كتابه «مجموع الأمثال» ، وقال في شرحه : «أشرق ، أي : ادخلُ يا ثبير في الشروق كي نسرع للنحر ، يقال : أغار الثعلبُ ، أي : أسرع ، قال عمر رضي الله عنه : «إن المشركين كانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نُغير ، وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ، يُضرب في الإسراع والعجلة» . وثبير : جبل بمكة . قال الحدوي في (معجم البلدان) : «كان المشركون إذا أرادوا الإفاضة يقولون : أشرق ثبير كيما نُغير ، وذلك أنهم في الجاهلية كانوا إذا قَضَوْا نُسُكَهُمْ لا يجيزهم إلا قومٌ مخصوصون ، وكان منهم رجل يقال له : أبو سيارة ، كان يتقدم الحاج على حمار له ، ثم يخطب الناس فيقول : «اللهم أصلح بين نساءنا ، وعاد بين رعائنا ، واجعل المال بين سُمَّحائنا ، أوفوا بعهدكم ، وأكرموا جاركم ، وافقروا ضيفكم» ، ثم يقول : «أشرق ثبير كيما نُغير» ، أي نسرع إلى النحر» .

(٣) أخرج ابن جرير ، والحاكم ، عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، كان لا يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ ، فقلنا لها : أخبري ابن عباس رضي الله عنهما بما أخبرتنا به ، فقالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتي فصلى =

وقوله [وَالطَّيْرَ] بالنصب عطف على [الْجِبَالَ] ، أَي : وَسَخَرْنَا الطَّيْرَ ، و [مَحْشُورَةً] نصب على الحال ، ومعناه : مجموعة ، وقرأ ابن أبي عبلة : (وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ) بالرفع فيهما ، والضمير في [لَهُ] قالت فرقة : هو عائد على الله تعالى ، فَ [كُلُّ] - على هذا - يراد به : داوُدُ ، والجبالُ ، والطيْرُ . وقالت فرقة : هو عائد على داود عليه السلام ، و [كُلُّ] : الجبالُ والطيْرُ .

وقوله تعالى : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجُند ونعمة ، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أشياء دون أشياء ، فقال السدي : بالجنود ، وقال آخرون : بهيئة جعلها الله له . وقرأ الجمهور : [وَشَدَدْنَا] بتخفيف الدال الأولى ، ورُوي عن الحسن شدُّها على المبالغة . و [أَلْحِكْمَةَ] : الفهم في الدين وجودة النظر ، هذا قول فرقة ، وقالت فرقة : أراد بالحكمة النُبُوَّةَ ، وقال أبو العالية : الحكمة : العلم الذي لا تردُّه العقول .

= صلاة الضحى ثمان ركعات ، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول : لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما عرفتُ صلاة الإِشْرَاقِ إلا الساعة : ﴿ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ . وأخرج مثله ابن مردويه عن عبد الله بن الحارث ، وأخرج البخاري في تاريخه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والطبراني في الأوسط ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوَّابٌ ، هي صلاة الأوَّابين) . وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما ، قال : «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهنَّ حتى أموت : صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، ونوم على وتر» ، واللفظ للبخاري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هي عقائد البرهان .

واختلف الناس في «فَصْلِ الْخِطَابِ» - فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي : هو فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وشريح ، والشعبي : هو إيجابُ اليمين على المدعى عليه ، والبيّنة على المدعي ، وقال زياد ، والشعبي أيضاً : هو قول : «أما بعد» ، فإنه أول من قالها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلةٍ فصل المعنى وأوضحه ، لا يأخذه في ذلك حَصْرٌ^(١) ولا ضعف ، وهذه صفةٌ قليلٌ من يدركها ، فكان كلامه عليه السلام فضلاً ، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن : (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ)^(٢) ، ويزيد محمد صلى الله عليه وسلم على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة ، وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير ، وهذا هو الذي تَخَصَّصَ هو - عليه الصلاة والسلام - به في قوله : (وَأُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ)^(٣) ،

(١) الحَصْرُ في الكلام : عدمُ القدرة عليه والعجزُ عن الإبانة .

(٢) الآية (١٣) من سورة (الطارق) .

(٣) أخرجه البخاري في التعبير ، ومسلم في الأشربة ، والترمذي في السير ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن =

فإنها في الخلال التي لم يُؤتِها أحدٌ قبله ، وذكر «جوامع الكلم»
معدودٌ ومُسَلَّمٌ له صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل :

﴿ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُسْطِطْ وَاهِدْنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أُنْحَى لَهُ رِثْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً وَاي نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ * ﴾

هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، واستفتحت بالاستفهام
تعجباً من القصة وتفخيماً لها ؛ لأن المعنى : هل أتاك هذا الأمر العجيب
الذي هو عبرة ؟ فكان هذا الاستفهام إنما هو تهيئةً لنفس المخاطب

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ،
وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأُرْسِلَتْ
إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ) .

وإعدادُ لها للتَلَقِّي ، و «الْخَصْمُ» - جارٍ مجرى «عَدْلٍ وَزَوْرٍ» -
يوصفُ به الواحد والاثنان والجمع ، ومنه قول لبيد :
وَخَصْمٍ يَعْدُونَ الذُّحُولَ كَأَنَّهُمْ قُرُومٌ غِيَارَى كُلِّ أَزْهَرَ مُضْعَبٍ (١)
وتحتمل هذه الآية أن يكون التَّسْوَرُ للمحراب من اثنين فقط ؛ لأن
نفس الخصومة إنما كانت بين الاثنين ، فتجيء الضمائر في [تَسَوَّرُوا]
و [دَخَلُوا] و [قَالُوا] على جهة التَّجَوُّزِ في العبارة عن الاثنين بلفظ
الجمع ، وتحتمل أنه جاء مع كل واحد فرقة كالعاضدة أو المؤنسة ،
فيقع على جميعهم «خَصْمٌ» ، وتجيء الضمائر حقيقية .

و [تَسَوَّرُوا] (٢) معناه : عَلَوْا سُورَهُ ، وهو جمع «سُورَةٍ» ، وهي القطعة
من البناء ، وهذا كما تقول : تَسَنَّمْتُ الحائطَ أو البعيرَ إذا علوتَ
سنامه . و «المِحْرَابُ» : الموضع الأرفع من القصر أو المسجد ، وهو

(١) البيت من قصيدة له يذكر أيامه ومفاخره ومقاماته بين أيدي الملوك ، والرواية
في الديوان :

وَخَصْمٍ قِيَامٍ بِالْعَرَاءِ كَأَنَّهُمْ قُرُومٌ غِيَارَى كُلِّ أَزْهَرَ مُضْعَبٍ
والخصم : الخصوم والأعداء ، وهو يقع على الواحد والجمع ، قال ذلك أبو عبيدة في (مجاز
القرآن) واستشهد بهذا البيت ، والذُّحُولُ : جمع ذحل ، وهو الثأرُ ، أما على رواية الديوان
فالأرض العراء هي الأرض الفضاء . والقُرُومُ : جمع قرم ، وهو الفحل العظيم من الإبل ،
وغِيَارَى : جمع غيران ، والأزهرُ : الأبيض ، والمُضْعَبُ : الشديد القوي من الإبل الذي
يبتنع من الركوب ، ولهذا فلم يُذَكَّلْ ، وقد نصب (كل) على تقدير : أَخْصُ . يُشَبَّهُ
الخصومَ الأقوياء بالفحول من الإبل . ثم يقول بعد ذلك : إنه ردَّهم كقطيع من البقر الضعيف
المتهالك من الإعياء وقسيهم مائلة تضطرب مما لقوا من الهزيمة .

(٢) جاء في اللسان : «والسُّورُ جمع سُورَةٍ مثل بُسْرَةٍ وبُسْرٍ .

موضع التَّعَبُد ، والعمل في [إِذْ] الأولى [نَبَأٌ] ، وقيل : [أَتَاكَ] ،
والعامل في الثانية [تَسَوَّرُوا] ، وقيل : هي بدلٌ من الأولى (١) .
وقوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون فزعه من الداخلين
أنفسهم لئلا يؤذوه ، وإنما فزع من حيث دخلوا من غير الباب ودون
استئذان ، وقيل : إن ذلك كان ليلاً ، ذكره الثعلبي . ويحتمل أن
يكون فزعه من أن يكون أهل مُلكه قد استهانوه حتى ترك بعضهم
الاستئذان ، فيكون فزعه من فساد السيرة لا من الداخلين ، ويظهر
من قولهم : [لَا تَخَفْ] أنهم فهموا فزعه .

وهنا قَصَصُ طَوْلِ النَّاسِ فِيهِ ، واختلفت الروايات فيه ، ولا بد
أن نذكر منه ما لا يقوم تفسير الآية إلا به ، ولا خلاف بين أهل
التأويل أن هؤلاء الخصم إنما كانوا ملائكة بعثهم الله تعالى ضرب مثل
لداود عليه السلام ، فاختصموا إليه في نازلة قد وقع هو في نحوها ،

(١) القول بأن العامل في [إِذْ] هو [نَبَأٌ] هو قول أبي البقاء ، قال أبو حيان الأندلسي :
وهو مردود بأن النبا الواقع في عهد داود عليه السلام لا يصح أن يأتي رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وإذا أردنا بالنبا القصة في نفسها لم يكن قوله : [نَبَأٌ] ناصباً للظرف . والقول بأن
العامل في الظرف هو [أَتَاكَ] هو قول الحوفي ، وهو أيضاً مردود ، لأن إتيان النبا رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يقع إلا في عهده ، لا في عهد داود عليه السلام . وقد قال الزمخشري :
إن العامل في الظرف محذوف ، تقديره : وهل أتاك تخاصم الخصم ، وقيل : إنه يجوز أن ينتصب
الظرف بالخصم لما فيه من معنى الفعل . أما [إِذْ] الثانية فهي بدل من [إِذْ] الأولى ، كما
قال ابن عطية ، وقيل : هي منصوبة بقوله : [تَسَوَّرُوا] .

فَأَفْتَى بِفُتْيَا هِيَ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ فِي نَازِلَتِهِ ، وَلَمَّا شَعَرَ وَفَهُمُ الْمَرَادُ خَرًّا وَأَنَابَ
وَاسْتَغْفَرَ ، أَمَّا نَازِلَتُهُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا فَرُوي أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَلَسَ فِي
مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَعْجَبَ بِعَمَلِهِ ، وَظَهَرَ مِنْهُ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَخَافُ
عَلَى نَفْسِهِ الْفِتْنَةَ ، وَيُقَالُ : بَلْ وَقَعَتْ لَهُ فِي نَحْوِ هَذَا مَحَاوِرَةٌ مَعَ الْمَلِكِينَ
الْحَافِظِينَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : جَرَّبَانِي يَوْمًا ، وَإِنْ غَبْتُمَا عَنِّي فَإِنِّي لَا أُوَاقِعُ
مَكْرَهُمَا ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : كَانَ قَدْ قَسَمَ دَهْرَهُ : يَوْمًا يَقْضِي فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ ،
وَيَوْمًا لِلْعِبَادَةِ ، وَيَوْمًا لِشَأْنِ نَفْسِهِ ، فَعُيِّنَ يَوْمٌ خُلُوهُ لِلْعِبَادَةِ لَمَّا تَمَنَّى
أَنْ يُعْطَى مِثْلَ فَضْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَالتَّزَمَ
أَنْ يُمْتَحَنَ كَمَا امْتُحِنُوا ، وَقِيلَ : السَّبَبُ غَيْرُ هَذَا مِمَّا هُوَ تَطْوِيلٌ لَا يَصِحُّ .
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : إِنْ دَاوُدَ أَخَذَ يَوْمًا فِي عِبَادَتِهِ ،
وَانْفَرَدَ فِي مَحْرَابِهِ يَصَلِّي وَيَسْبُحُ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ طَائِرٌ مِنْ كُوَّةٍ فَوْقَ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَرُوي أَنَّهُ كَانَ طَائِرًا حَسَنَ الْهَيْئَةِ ، حَمَامَةً ، فَمَدَّ دَاوُدُ
يَدَهُ إِلَيْهَا لِيَأْخُذَهَا ، فَمَا زَالَتْ تُطْمَعُهُ وَيَتَّبِعُهَا حَتَّى صَعَدَتْ الْكُوَّةَ
الَّتِي دَخَلَتْ مِنْهَا ، فَصَعِدَ لِيَأْخُذَهَا فَتَنَحَّى الطَّائِرُ لَهُ ، فَتَطَلَّعَ دَاوُدُ
فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ تَغْتَسِلُ عَرِيَانَةً ، فَرَأَى مِنْظَرًا جَمِيلًا فَتَنَّهُ ، ثُمَّ إِنَّهَا
شَعَرَتْ بِهِ فَاسْبَلَتْ شَعْرَهَا عَلَى بَدَنِهَا فَتَجَلَّلَتْ بِهِ فَزَادَهُ ذَلِكَ وَلُوعًا بِهَا ،
ثُمَّ إِنَّهُ انصَرَفَ وَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ أَنَّهَا امْرَأَةٌ رَجُلٍ مِنْ جُنْدِهِ يُقَالُ
لَهُ : «أُورِيَا» ، وَأَنَّهُ فِي بَعْثِ كَذَا وَكَذَا ، فَيُرْوَى أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَمِيرِ

تلك الحرب أن قَدَّمَ فلاناً يقاتل عند التابوت ، وهو موضع قَلَمًا يخلص منه أحد ، فقدمه فاستشهد هنالك ، ويروى أن داود كتب أَنَّ يُؤمَّر ذلك الرجل على جملة من الرجال ، وترمى به الغارات والوجوه الصعبة من الحرب حتى قُتِل في الثالثة من نهضاته ، وكان لداود عليه السلام - فيما روي - تسع وتسعون امرأة ، فلما جاءه الكتاب بقتل من قُتِل في حربه ، جعل كلما سُمِّي رجل يسترجع ويتفجع ، فلما جاء اسم الرجل قال : كتب الموت على كل نفس ، ثم إنه خطب المرأة وتزوجها فكانت أم سليمان عليه السلام فيما روي عن قتادة ، فبعث الله تعالى إليه الخصم ليُفتي أن هذا ظلم ، وقالت فرقة : إن هذا كله همٌّ به داود عليه السلام ولم يفعلهُ ، والمعاتبه على الهمِّ ، وقال آخرون : إنما الخطأ في أنه لم يجزع عليه كما جزع على غيره من الجند ، إذ كان عنده أمر المرأة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والرُواةُ على الأول أكثر ، وفي كتب بني إسرائيل في هذه القصة صور لا تليق ، وقد حدّث بها قُصَّاص في صدر هذه الآية ، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من حدّث بما قال هؤلاء القُصَّاص جلدتهُ حدّين لما ارتكب في حُرمة من رفع الله محلّه .

وقوله تعالى: [خَصْمَانِ] تقديره: نحن خصمان ، وهذا كقول الشاعر :

وَقَوْلًا إِذَا جَاوَزْتُمَا أَرْضَ عَامِرٍ وَجَاوَزْتُمَا الْحَيَّيْنِ نَهْدًا وَخَشَعَمَا
نَزِيعَانِ مِنْ جَرْمِ بَنِ زَبَّانَ إِنَّهُمْ أَبَوَا أَنْ يُمِيرُوا فِي الْهَزَاهِزِ مَحْجَمًا (١)

ومثله قول العرب في المثل : «مُحْسِنَةٌ فَهَيْلِي» (٢) ، والتقدير : أنت محسنة ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (آيِبُونَ تَائِبُونَ) (٣) .

(١) استشهد الفراء بهذين البيتين في كتابه (معاني القرآن) على أن (خَصْمَانِ) في الآية الكريمة خبر لمبتدأ محذوف ، وأن التقدير : نحن خصمان ، قال : «والعرب تضمير للمتكلم والمكلم المخاطب ما يرفع فعله ، ولا يكادون يفعلون ذلك بغير المخاطب أو المتكلم ، من ذلك أن تقول للرجل : أذهب ؟ أو أن يقول المتكلم : واصلكم إن شاء الله ومُحْسِنٌ إِلَيْكُمْ ، وذلك أن المتكلم والمكلم حاضران ، فتعرف معنى أسمائهما إذا تركزت ، وأكثره في الاستفهام ، يقولون : أجاد ؟ أمُنْطَلِقُ ؟ وقد يكون في غير الاستفهام ، فقوله : [خَصْمَانِ] من ذلك ، وقال الشاعر : وقولا ... الخ البيتين ، ومثله قول الآخر :

تَقُولُ ابْنَةُ الْكَعْبِيِّ يَوْمَ لَقَيْتُهَا أَمُنْطَلِقُ فِي الْجَيْشِ أَمْ مُتَقَاعِلُ ؟

والشاهد في البيتين قوله : «نَزِيعَانِ» ، أي : نحن نزيعان ، فهو مرفوع على تقدير مضمرة قبله وإن لم يكن معه استفهام ، وكذلك الشاهد في بيت ابنة الكعبي قوله : أمُنْطَلِقُ ، أي : أأنت منطلق ؟ وهذا أكثر لأن في الكلام استفهاماً .

(٢) أصل هذا المثل أن ضيفاً جاء إلى امرأة ومعه جراب دقيق ، فأقبلت المرأة تأخذ من جرابه لنفسها ، فدخل عليها فجأة ، فدهشت وأخذت تفرغ من وعائها في جرابه ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أزيدك من دقيقي ، قال : مُحْسِنَةٌ فَهَيْلِي ، أي : أنت مُحْسِنَةٌ فَهَيْلِي . ويروى : مُحْسِنَةٌ بالنصب على الحال ، أي : هيلي مُحْسِنَةٌ ، ويجوز أن ينصب بفعل محذوف تقديره : أراك مُحْسِنَةً ، يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً . (راجع الأمثال للميداني ، معاني القرآن للفراء) .

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في العمرة والجهاد والمغازي والدعوات ، ومسلم في الحج ، وأبو داود في الجهاد ، والترمذي في الحج والدعوات ، والدارمي في الاستئذان ، =

و [بَغْيٍ] : اعتدى واستطال ، ومنه قول الشاعر :

وَلَكِنَّ الْفَتَى حَمَلَ بَنَ بَدْرٍ بَغْيٍ وَالْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخَيْمٌ (١)

وقوله تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ إغلاظ على الحاكم ، واستدعاءً لعدله ، وليس هذا بارتياب منه ، ومنه قول الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم : (فاحكم بيننا بكتاب الله) ، وقرأ الجمهور : [تُشْطِطُ] بضم التاء وكسر الطاء الأولى ، ومعناه : ولا تبعد في حكمك ، وقرأ أبو رجاء ، وقتادة بفتح التاء وضم الطاء الأولى ، وهي قراءة الحسن ، والجحدري ، والمعنى : ولا تبعد ، يقال : شَطَّ إذا بُعدَ ، وَأَشْطَّ إذا أبعد غيره ، وقرأ زِرُّ بن حُبَيْش : [تُشَاطِطُ] بضم التاء وبألَّفٍ بعد الشين . و «سَوَاءُ الصِّرَاطِ» معناه : وسط الطريق ولا حِبْه (٢)

= ومالك في الموطأ في الحج ، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة ، ولفظه كما في مسند أحمد ٢-٥ : (عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من حجٍّ أو غزو فَعَلَا فَعَدَّ فَعَدَّأ من الأرض أو شرفاً قال : الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيئون تائبون ساجدون عابدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) .

(١) البَغْيُ : الظلم والاستطالة على الناس ، والمرقع : الموضع ترعى فيه الماشية ، والمراد هنا : مَجَالُ الباغِي والدائرة التي يبغِي فيها ، والوَخِيمُ : الثقل والوبئ الرديء غير الصالح ، يقال : أرض وخيمة ، أي : لا ينجع ككَلْوِها ، ويقال : طعام وخيم ، أي : ثقيل غير موافق ، والمعنى في البيت أن العدوان على الناس له نتيجة السيئة الفاسدة التي تضر المعتدي . كالمأشية ترعى في أرض غير صالحة فتصاب بالضرر والمرض .

(٢) الطريق اللاحب : الواضح .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ ، إعرابُ [أخي] عطف بيان ، وذلك أن ما جرى من هذه الأشياء صفة كالخُلُق والخُلُق وسائر الأوصاف فإنه نعتٌ محضٌ ، والعامل فيه هو العامل في الموصوف ، وما كان منها مما ليس ليوصف به البتة فهو بدلٌ ، والعامل فيه مُكْرَرٌ ، تقول : «جاءني أخوك زيد» ، فالتقدير : جاءني أخوك ، جاءني زيد ، فاقتصر على حذف العامل في البديل والمبدل منه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١) ، وما كان منها مما لا يوصف به واحتيج إلى أن يُبين به ويجري مجرى الصفة فهو عطف بيان ، وهو بينٌ في قول الشاعر :

..... يا نَصْرُ نَصْرٌ نَصْرًا (٢)

(١) الآية (٣١) من سورة (يسن) .

(٢) هذا جزءٌ من بيت ، وفيه خلاف كبير بين النحويين ، فبعضهم يقول : إنه من التوكيد اللفظي ، وهذا التوكيد حُكْمُهُ في الأغلب حكم الأول ، لكن يجوز إعرابه رفعاً ونصباً ، وفي هذا البيت شاهد ذلك ، لأن (نَصْرٌ) الثانية رفعت إبتاعاً للفظ الأول ، و (نَصْرًا) الثالثة نصبت إبتاعاً لمحل الأول ، ولا يجوز فيه البديل ولا عطف البيان ، لأنهما يفيدان مالا يفيد الأول من غير معنى التأكيد ، وهذه الألفاظ لا تفيد إلا التأكيد .

وابن عطية يرى أنه من عطف البيان ، ويوافقه أبو حيان وغيره ، وحجتهم في ذلك أن الثاني من الألفاظ مُنَوَّنٌ والأول ليس مُنَوَّنًا ، ولاختلاف اللفظين في التعريف ، فالأول مُعَرَّفٌ بالإقبال عليه ، والثاني معرف بالعلمية ، وهناك جدل كبير بين النحويين تجده موضحاً في كتب النحو .

هذا والبيت لرؤبة ، وهو بتمامه :

إِنِّي وَأَسْطَارِ سَطْرُنَ سَطْرًا لِقَائِلٍ : يا نَصْرُ نَصْرٌ نَصْرًا =

فإن الرواية في الثاني بالتنوين تدل على أن النداء ليس بمكرر عليه ،
فليس ببدل ، ووضح فيه عطف البيان .

وهذه الأُخوة مستعارة ؛ إذ هما ملكان ، ولكن من حيث تصوراً
آدميين تكلماً بالأُخوة التي بينهما في الدين والإيمان ، والله أعلم .

و « النَّعْجَةُ » في هذه الآية عبر بها عن المرأة ، والنعجة في كلام
العرب تقع على أنثى بقر الوحش ، وعلى أنثى الضأن ، وتُعبّر العربُ
بها عن المرأة ، وكذلك بالشاة ، قال الأعشى :

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ فَاصْبَتْ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالِهَا (١)

= وهو من شواهد سيبويه في الكتاب ، وفي العيني ، وابن يعيش ، والخصائص ، وشرح شواهد
المغني للسيوطي ، وجمع الهوامع ، وملحقات ديوان رؤبة ، وخزانة الأدب . ومعني اللبيب
لابن هشام ، ونصرتُ المراد في البيت هو نصر بن سيار أمير خراسان في الدولة الأموية ،
وحى هذا الاسم فيه خلاف ، فبعضهم رواه (نصر) بالضاد المعجمة .

(١) البيت من قصيدة له يمدح قيس بن معديكرب ، وقد بدأها بالحديث عن سُمَيَّة
التي رحلت غَضْبِي . وقبل هذا البيت يقول :

قَدَرْتُ رَائِدَهَا ، وشاةٍ مُحَاذِرٍ حَدَرًا يُقِيلُ بَعَيْنِهِ لِغَفَالِهَا
فَظَلَلْتُ أَرْعَاهَا وَظَلَّ بِحُوطِهَا حَتَّى دَتَوْتُ إِذَا الظَّلَامُ دَنَا لَهَا
فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ فَاصْبَتْ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالِهَا

فقد كنى في البيت الأول عن المرأة بالشاة ، وكذلك في البيت الثالث هنا ، ورائدها : طالبها
والضمير يعود على الأرض المزهرة التي سبق الحديث عنها في البيت السابق ، والمُحَاذِرُ هو
زوج المرأة الذي لا يغفل عنها ، بل يراقبها ، يقول : بت أسعى وراءها وزوجها يحاذر ولا يغفل
عنها أبداً ، وظلَّ حالنا كذلك ، هو يحرسها وأنا أطلبها حتى غفل عنها غفلة رميتها فيها =

أراد : عن امرأته . وفي قراءة ابن مسعود : «وتسعون نعجة أنثى» ،
 وقرأ حفص عن عاصم : [وَلِيَّ] بفتح الياء ، وقرأ الباقون بسكونها ،
 وهما حسنتان ، وقرأ الحسن والأعرج : [نِعْجَةً] بكسر النون ، والجمهور
 على فتحها ، وقرأ الحسن : (تَسْعُ وتَسْعُونَ) بفتح التاء فيهما ،
 وهي لغة (١) . وقوله تعالى : [اَكْفُلْنِيهَا] ، أي : رُدِّهَا في كفالتي ،
 وقال ابن كيسان : المعنى : اجعلها كفلي ، أي : نصيبي .

= فأصبتها في الصميم ، والتكنية عن المرأة بالشاة كثيرة في الشعر العربي ، قال عنترة :
 يَا شَاةَ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرْمَتُ عَلَيَّ وَلَيْسَتْهَا لَمْ تَحْرُمَ
 فَبَعَثْتُ جَارِيَّتِي فَقُلْتُ لَهَا اذْهَبِي فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِيَّ وَاَعْلَمِي
 قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الْأَعَادِي غِرَّةً وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمٍ
 وقال ابن عون :

أَنَا أَبُوهُنَّ ، ثَلَاثُ هُنَّ رَابِعَةٌ فِي الْبَيْتِ صُغْرَاهُنَّ
 وَتَعَجَّبَتِي خَمْسًا تُوْقِيهِنَّ أَلَا فَتَى سَمَّحٌ يُعَدِّيهِنَّ
 طَيُّ النَّقَا فِي الْجُوعِ يَطْوِيهِنَّ وَيَسَلُ الرَّغِيفِ وَيَلَهُ مِنْهُنَّ

ويرى أبو حيان في (البحر المحيط) إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها ، من كونها أنثى الضأن ،
 ولا يكتفى بها عن المرأة ، قال : «ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادراً
 من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرة غير تلبس بشيء منها ؛ فمثلوا
 بالقصة ، وهذا التصوير والتشليل أبلغ في المقصود وأدل على المراد» . (راجع البحر المحيط
 ٣٩٢-٧) .

(١) قال أبو الفتح ابن جنِّي : «قد كثر عنهم مجيء الفعل والفعل على المعنى الواحد ،
 نحو : البزْر والبزْر ، والنَّفْط والنَّفْط ، والسَّكْر والسَّكْر ، والحَبْر والحَبْر ، والسَّبْر
 والسَّبْر» . هذا والسَّكْر هو سدّ النهر ، أما السَّبْر فمن معانيه : الهيئة الحسنة .

قوله تعالى : [وَعَزَّيْنِي] ، أَي : غَلَبَنِي ، ومنه قول العرب : «مَنْ عَزَّ بَزًّا» (١) ، أَي : مَنْ غَلَبَ سَلَبًا . وقرأ أبو حيوة بتخفيف الزاي ، قال أبو الفتح : أراد : عَزَّيْنِي ، فحذف إحداهما تخفيفاً ، كقول أبي زبيد :
 أَحْسَنَ بِهِ فَهِنَّ إِلَيْهِ شُوسٌ (٢)
 قال أبو حاتم : ورويت بتخفيف الزاي عن عاصم ، وقرأ ابن مسعود ، وأبو الضحى ، وعبيد بن عمير : «وَعَازْنِي» ، أَي : غَالَبَنِي . ومعنى قوله : ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ ، أَي : كَانَ أَوْجَهَ مِنِّي وَأَقْوَى ، فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي ، وقوته أعظم من قوتي ، فيروى أن

(١) معناه كما قال ابن عطية : من غلب سلب ، قالت الخنساء :

كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا حِمِيَّ يَتَّقِي إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزًّا
 قال المُفَضَّلُ : أول من قال هذا المثل رجل من طيء اسمه جابر بن رألان ، خرج مع صاحبين له ، حتى كانوا بظهر الحيرة ، وكان للمنذر بن ماء السماء يوم يركب فيه فلا يلقي أحداً إلا قتله ، فلقي في هذا اليوم جابراً وصاحبيه ، فلما أخذتهم الخيل ووقفوا بين يديه قال المنذر : اقترعوا ، فأيتكم قرع خلتيت سبيله ، فاقترعوا فقرعهم جابر ، فخلت المنذر سبيله وقتل صاحبيه ، فلما رأهما يقادان للقتل قال : «من عزَّ بَزًّا» ، فأرسلها مثلاً .

(٢) أبو زيد هو حرمة بن المنذر الطائي الذي سبق الكلام عنه عند تفسير قوله تعالى :

﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في هذه السورة ، وهذا عجز بيت ، وهو بتمامه :

خَلَا أَنَّ الْعِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا أَحْسَنَ بِهِ فَهِنَّ إِلَيْهِ شُوسُ

والعتاق من المطايا : الكريمات السريعات من الإبل أو الخيل ، يقال : عتقت الفرس تعتق : سبقت الخيل فنجت ، وفرس عاتق : سابق ، والشُوسُ : النظر بمؤخر العين كبيراً أو تغيظاً ، والشُوسُ : جمع الأشوس ، وفلان يتشاورس في نظره : إذا نظر نظرة ذي نخوة وكبر .

والشاهد في البيت أنه قال : أَحْسَنَ ، والأصل أَحْسَسَنَ ، قال أبو الفتح ابن جني : «يقال في حسبت : حسنت ، وفي ظلمت : ظلمت ، وذلك كله على تشبيه المضاعف بالمعتل العين» .

داود عليه السلام لما سمع هذه الحجة قال للآخر : ما تقول ؟ فأقرَّ وألَدَّ (١) ، فقال له داود : لكن لم ترجع إلى الحق لأكرن الذي فيه عيناك ، وقال للثاني : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ ، فتبسَّما عند ذلك ، وذهبا ولم يرهما لحيته ، فشعر حينئذ للأمر ، ورُوي أنهما ذهبا نحو السماء بِمَرَأَى منه ، وقيل : بل بيَّنا عليه فعله في تلك المرأة وزوجها ، وقال له : إنما نحن مثال لك . وقال بعض الناس : إن داود قال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ قبل أن يسمع حجة الآخر ، وهذه كانت خطيئته ، ولم تنزل به هذه النازلة المروية قط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف من جهات ؛ لأنه خالف متظاهر الروايات ، وأيضاً فقوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ معناه أن ظهر صدقك بيِّنة أو باعتراف ، وهذا من بلاغة الحاكم التي تُردُّ المعوج إلى الحق ، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة . وقال الثعلبي : كان في النازلة اعتراف من المُدعى عليه حذف اختصاراً ، ومن أجله قال داود عليه السلام : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ . وقوله عليه السلام : ﴿ بِسْؤَالٍ نَعَجْتِكَ ﴾ ، أضاف المصدر إلى المفعول . و « الخُلَطَاءُ » : الأشرار والمتعاقبون في الأملاك والأُمور ، وهذا القول من داود وعُظُّ وبَسْط لقاعدة حق ؛ ليحذر من الوقوع

(١) أي : اشتدَّ في خصومته .

في خلاف الحق ، و [مَا] في قوله : ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائدة مؤكدة .
وقوله : ﴿وَزَنَّ دَاوُدُ﴾ معناه : شعر وعلم ، وقالت فرقة : [ظَنَّ]
هنا بمعنى : أَيَقَنَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظن أبداً في كلام العرب إنما حقيقته توقف بين معتقدين
يغلب أحدهما الآخر ، وتوقعه العرب على العلم الذي ليس عن الحواس ،
ولا له اليقين التام البتة ، ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون :
«ظَنَّ» بمعنى : أَيَقَنَ ، ولسنا نجد في كلام العرب شاهداً يتضمن أن
يقال : رأى زيدٌ كذا وكذا فظنه ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿فَظَنُّوا
أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُهَا﴾ (١) ، وإلى قول دريد بن الصمة :

فَقُلْتُ لَهُمْ ظَنُّوا بِالْفَنِيِّ مُدَجِّجٌ
سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ (٢)

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الكهف) .

(٢) البيت من قصيدة قالها دريد يرثي أخاه عبد الله ، ومطلعها :

أَرَثَ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمَّ مَعْبَدٍ بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَقَتْ كُلَّ مَوْعِدٍ
والقصيدة مذكورة في الأصمعيات ، والجمهرة ، والحماسة ، والحزائنة ، وكثير من أمهات
كتب التراث ، مع زيادات أو نقص في كل كتاب . والرواية في الأصمعيات : (علانيةٌ :
ظنُّوا ...) ، أي : قلت لهم علانية ، (وهم قوم من بني عارض) ، وظنُّوا : أيقنوا ، أو
كونوا على ثقة ، أو معناه : ما ظنكم بالفني مدججٌ؟ والمدججُ : التامُّ السلاح ، وسرَّاتهمُ :
أشرفهم ورؤساؤهم ، وهي جمع سرِّي ، والفارسيُّ : الدرع الذي يصنع بفارس ، والمسرَّدُ :
المحكَّم النَّسج ، وقيل : هو الدقيق الثقب . هذا وكثير من أبيات القصيدة (ومنها بيتنا هنا)
في اللسان (ظنَّ) ، قال بعد أن ذكر البيت : «استيقنوا ، وإنما يخوفُ عدوّه باليقين
لا بالشك» .

وإلى هذه الآية : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ ، فَإِنَّكَ تجد بينها وبين اليقين درجة ، ولو فرضنا أهل النار قد دخلوها وباشروها لم يقل : [فَظَنُّوا] ، ولا استقام ذلك ، ولو أخبر جبريل داود بهذه الفتنة لم يعبر عنها بـ [ظَنَّ] ، وإنما تعبرُ العربُ بها عن العلم الذي يقارب اليقين وليس به ، ولم يخرج بعد إلى الإحساس .

وقرأ جمهور الناس : [فَتَنَاهُ] بفتح التاء وشدُّ النون ، أي : ابتليناه وامتحنناه ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأبو رجاء ، والحسن - بخلاف عنه - : [فَتَنَاهُ] بشدُّ التاء والنون ، على معنى المبالغة ، وقرأ أبو عمرو - في رواية علي بن نصر - : [فَتَنَاهُ] بتخفيف التاء والنون ، على أن الفعل لِلْخُصْمِينَ ، أي : امتحنناه عن أمرنا ، وهي قراءة قتادة ، وقرأ الضحاك : [افتتناه] .

قوله تعالى : ﴿ خَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ، أي : ألقى بنفسه نحو الأرض متظامناً متواضعاً ، والركوعُ والسجود : الانخفاض والترامي نحو الأرض ، وخصَّصَتْهُمَا الشرائع على هيئات معلومة ، وقال قوم : يقال : « خَرَّ ثم ركع » وإن كان لم ينته إلى الأرض ، وقال الحسين بن الفضل : المعنى : خرَّ من ركوعه ، أي : سجَدَ بعد أن كان راکعاً ، وقال أبو سعيد الخدري « رأيتني أكتب سورة ص ، فلما بلغت هذه الآية سجد القلم ، ورأيتني في منامٍ آخر وشجرة تقرأ سورة ص ، فلما بلغت هنا سجدت ، وقالت : اللَّهُمَّ اكتب لي بها أجراً ، واحطط غني

بها وزراً ، وازرقني بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وَسَجَدْتَ أَنْتَ أَنْتَ يَا أَبَا سَعِيدٍ) ؟ فقلت : لا ، فقال : أَنْتَ كُنْتَ أَحَقَّ بِالسَّجْدَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآيَاتِ حَتَّى بَلَغَ [وَأَنَابَ] فَسَجَدَ ، وَقَالَ كَمَا قَالَتِ الشَّجَرَةُ « (١) . و [أَنَابَ] معناه : رجع وتاب . وَيُرْوَى عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَقِيَ فِي رَكَعَتِهِ تِلْكَ لِاصْتِقَاءَ بِالْأَرْضِ يَبْكِي وَيَدْعُو أَرْبَعِينَ صَبَاحاً حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دَمْعِهِ ، وَيُرْوَى غَيْرَ هَذَا مِمَّا لَا تَثْبُتُ صِحَّتُهُ ، وَيُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَ الْمَرْأَةِ قَالَ : يَا رَبِّ ، كَيْفَ لِي بِدَمِ زَوْجِي إِذَا جَاءَ يَطْلُبُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنِّي سَأَسْتَوْهَبُهُ لَكَ يَا دَاوُدَ ، وَأَجْعَلُهُ أَنْ يَهَبَهُ رَاضِياً بِذَلِكَ ، فَحِينَئِذٍ سُرَّ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتَقَرَّتْ نَفْسُهُ ، وَرَوَى عَنْ عَطَاءِ الْخِرْسَانِيِّ ، وَمُجَاهِدٍ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَشَ خَطِيئَتَهُ فِي كَفِّهِ ، فَكَانَ يَرَاهَا دَائِماً وَيَعْرِضُهَا عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ حِينٍ مِنْ خُطْبِهِ وَكَلَامِهِ وَإِشَارَتِهِ وَتَصَرُّفِهِ تَوَاضِعاً لِلَّهِ وَإِقْرَاراً ، وَكَانَ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ وَيَصِيحُ :

(١) أخرجه أبو يعلى ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وأخرج مثله الترمذي ، وابن ماجه ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأنني أصلي عند شجرة ، وكأني قرأت سورة السجدة فسجدت فرأيت الشجرة سجدت بسجودي ... الخ الحديث) ، هذا ولم يُسَمَّ الرجل (الدر المنثور) .

«إلهي ، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روعي ، سبحانك إلهي ، أتيت أطباء الدين ليُداووا علي فكلُّهم عليك دلني» ، وكان يُدخل في صدر خطيئته الاستغفار للخطائين ، وما رفع رأسه إلى السماء بعد خطيئته حياة حتى قبض ، صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَسَلِّمَ

قوله عز وجل :

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿٢٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نُسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ معناه : سترنا ، و [ذلك] إشارة إلى الذنب المتقدم ، و «الزُّلْفَى» : القربى والمكانة الرفيعة . و «المآب» : المرجع في الآخرة ، من : آب يؤوب إذا رجع . وبعد ذلك حذف

يدلُّ عليه ظاهر الكلام ، تقديره : وقلنا له : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ ، واستدل بعض أهل الظاهر من هذه الآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس هذا بلازم من الآية ، بل لزومه من الشرع والإجماع ، ولا يقال : « خليفة الله » إلا لرسوله ، وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله ، وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوزٌ وغلوٌ ، كقول ابن قيس الرقيات :

خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي بَرِّيْتِيهِ جَفَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُبُ (١)
 ألا ترى أن الصحابة رضي الله عنهم حرروا هذا المعنى ، فقالوا لأبي بكر الصديق : خليفة رسول الله ، فبهذا كان يدعى مدته ، فلما ولي عمر بن الخطاب قالوا : يا خليفة خليفة رسول الله ، فطال الأمر ، ورأوا أنه في المستقبل سيطول أكثر فدعوه : أمير المؤمنين ، وقصر هذا الاسم على الخلفاء .

(١) البيت في مدح عبد الملك بن مروان ، وقبله يقول :

إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبُوهُ أَبُو الْعِصْبِ ، عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ
 والرواية في الديوان : (خليفة الله فوق منبره) . والفنَيْقُ : الفحل المكرَّم من الإبل ، الذي لا يركب ولا يُهان ، وأبو العاصي هو جدُّ عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي ، والبرِّيَّةُ : الخلق ، أصلها : البريئة بالهمزة ، وترك الهمزة أولى ، والجمع : برايا ، ومعنى (جفت بذلك الأقلام والكتب) : قضى الله بذلك وكتبه في اللوح والمحفوظ ولا مردَّ له .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ اعتراض بين الكلامين من أمر داود وسليمان ، وهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعِظَةٌ لِأُمَّتِهِ ، ووَعِيدٌ لِلْكَفْرَةِ بِهِ . وقرأ أبو حيوة : [يُضِلُّونَ] بضم الياء ، و [نَسُوا] معناه - في هذه الآية - : تركوا .

وأخبر تبارك وتعالى أن الذين كفروا يظنون أن خلق السموات والأرض وما بينهما إنما هو باطل لا معنى له ، وأن الأمر ليس يؤول إلى ثواب وعقاب ، وأخبر تعالى عن كذب ظنهم ، وتوعدهم بالنار . ثم وَقَفَ على الفرق - عنده - بين المؤمنين العاملين بالصالحات ، وبين المفسدين الكفرة ، وبين المتقين والفجار . وفي هذا التوقيف حُصٌّ على الإيمان وترغيب فيه ، ووعيد للكفرة .

ثم أحال في طلب الإيمان والتقوى على كتابه العزيز بقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، والمعنى : هذا كتاب لمن أراد التمسك بالإيمان والقربة إلينا ، وفي هذه الآية اقتضاب وإيجازٌ بديع ، كإعجاز كل القرآن العزيز . ووصفه بالبركة لأن أجمعها فيه ؛ لأنه يُورث الجنة ، ويُنقذ من النار ، ويحفظ المرء في حال الحياة الدنيا ، ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة الآخرة . وقرأ الجمهور : [لِيَدَّبَّرُوا] بالياء وشدّ الدال والياء ، والضمير للعالم ، وقرأ حفص عن عاصم : [لِتَدَّبَّرُوا]

بالتاء على المخاطبة (١) ، وقرأ أبو بكر عنه بتخفيف الدال ، أصله :
تتدبروا ، وظاهر هذه الآية يقتضي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن ،
فالترتيل إذاً أفضل لهذا ؛ إذ التدبر لا يكون إلا مع الترتيل ، وباقي
الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ
الصَّفِيْنَ تُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ
بِالْجَبَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ
وَالْقَيْنَاعَ عَلَيَّ كُرْسِيِّهٖ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا
لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾

الهبة و العطيّة بمعنى واحد ، فوهب الله تعالى سليمان لداود عليهما
السلام ولداً ، وأثنى عليه بأوصاف من المدح تضمنها قوله تعالى :

(١) الثابت في المصحف المطبوع والمتداول أن قراءة حفص عن عاصم هي قراءة الجمهور :
[لَيْتَدَبَّرُوا] بالياء وشدّ الدال والباء ، وفي القرطبي أن قراءة : [لَيْتَدَبَّرُوا] بالتاء والدال
الخفيفة مع الباء المشددة هي قراءة أبي جعفر وشيبة ، وفي (البحر المحيط) أنها قراءة أبي جعفر ،
ثم قال : « وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما » ، ولم ينص أحد على أن قراءة
التاء مع تشديد الدال والياء هي لحفص عن عاصم غير ما ذكر هنا وفي الطبري .

(نِعْمَ الْعَبْدُ) ، و [أَوَّابٌ] معناه : رجّاع ، ولفظة [أَوَّابٌ] هي العامل في [إِذْ] ؛ لَأَنَّ أَمْرَ الْخَيْلِ مُقْتَضٍ أَوْبَةً عَظِيمَةً .

واختلف المتأولون في قصص هذه الخيل المعروضة - فقال الجمهور : إن سليمان عليه السلام عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أبوه له - وقيل : ألف واحد - فأُجريت بين يديه عشاءً ، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها حتى فاته وقت صلاة العشاء ، - قال قتادة : صلاة العصر ، وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - فأسف لذلك ، وقال : رُدُّوا عَلَيَّ الْخَيْلَ ، قال الحسن : فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف عقراً لها لما كانت سبب فوت الصلاة ، فأبدله الله تعالى أسرعَ منها الريح ، وقال قوم - منهم الثعلبي - : كانت بالناس مجاعة ، ولحوم الخيل لهم حلال ، فإنما عقرها لتؤكل على وجه القربة بها ، كالهدى عندنا ، ونظير هذا ما فعله أبو طلحة الأنصاري بحائطه (١) ؛ إِذْ تَصَدَّقَ بِهِ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ الدُّبْسِيُّ (٢) وهو في الصلاة فشغله .

و «الصَّافِنُ» : الفرس الذي يرفع إحدى يديه ويقف على طرف سُنْبُكِهِ (٣) ، وقد يفعل ذلك برجله ، وهي علامة الفَرَاهَةِ (٤) ، وأنشد الزَّجَّاجَ :

(١) الحائط : البستان ، وجمعه حوائط وحيطان .

(٢) الدُّبْسِيُّ : نوع من الحمام ، والجمع دَبَّاسِيٌّ .

(٣) السُّنْبُكُ : طرف الحافر .

(٤) الفَرَاهَةُ وَالْفَرَاهِيَةُ في الدابة : النشاط والحوية مع الجمال والحسن في المنظر .

أَلِفَ الصُّفُونِ فَلَا يَزَالُ كَانَهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا (١)
 وقال أبو عبيدة : الصَّافِنِ : الذي يجمع يديه ويُسوِّيهِمَا ، وأما الذي
 يقوم على طرف السُّنْبِكِ فهو المخيم ، وفي مصحف ابن مسعود :
 « الصَّوافِنِ الجياد » ، و « الجياد » : جمع جَوْدٍ ، كَثُوبٍ وثياب ،
 وُسْمِيٌّ به لأنه يجود بجريه .

وقال بعض الناس : « الْخَيْرُ » هنا أراد به : الخيل ، والعرب
 تسمي الخيلَ الخَيْرَ ، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام لزيد الخيل :
 (أنتَ زيدُ الخير) (٢) ، و [حُبٌّ] مفعول به نصب لذلك عند فرقة ،
 كَانَ [أَحْبَبْتُ] بمعنى : آثرتُ . وقالت فرقة : المفعول بـ [أَحْبَبْتُ]

(١) البيت في اللسان (صَفَنَ) ، قال : « صَفَنَتِ الدَابَّةُ تَصْفِنُ صُفُونًا : قامت
 على ثلاث وثنت سننك يدها الرابع ، وفي التنزيل العزيز ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ
 الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ ... وأنشد ابن الأعرابي في صفة الفرس : أَلِفَ الصُّفُونِ ... البيت ،
 وقوله : مِمَّا يَقُومُ ، لم يُردْ من قيامه ، وإنما أراد : من الجنس الذي يقوم على الثلاث ،
 وجعلَ (كسيراً) حالا من ذلك النوع الزَّمِينِ ، لا مِنَ الفرس المذكور في أول البيت .
 (٢) هو زيد بن مُهَلِّهْل بن زيد بن مُنْهَبِ الطائِي ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم
 في سنة تسع ، وسمَّاه النبي صلى الله عليه وسلم زيدَ الخير ، روى ابن شاهين من طريق
 بشير مولى بني هاشم ، عن عبد الله ، قال : كنتُ عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل راكب
 حتى أناخ ، فقال : يا رسول الله ، إنِّي أتيتُك من مسيرة تسع ، أسألك عن خصمتين ،
 فقال : ما اسمك ؟ قال : أنا زيد الخيل ، قال : بل أنت زيد الخير ، سل ، قال : أسألك
 عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد ... الحديث ، وأخرجه ابن عدي
 في ترجمة بشير ، وضعفه ، قال أبو عمر : مات زيد الخيل مُنْصَرَفَةً من عند رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن إسحق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد الخيل :
 ما وُصف لي أحد في الجاهلية فرأيتَه في الإسلام إلا رأيتَه دون الصفة ، غيرك ، وسمَّاه زيد الخير .

محذوف ، و [حُبٌّ] نصب على المصدر ، أي : أَحَبَبْتُ هذه الخيل
حُبَّ الخير ، ويكون [الْخَيْرُ] - على هذا التأويل - غير الخيل ،
وفي مصحف ابن مسعود : « حُبُّ الْخَيْلِ » باللام . وقالت فرقة : [أَحَبَبْتُ]
معناه : سقطت إلى الأرض لذني ، مأخوذٌ من : أَحَبَّ البعيرُ إذا أَعْيَا
وَسَقَطَ هُزَالاً (١) ، و [حُبٌّ] - على هذا - مفعول من أَجَلَهُ .

والضمير في [تَوَارَتْ] للشمس وإن كان لم يجر لها ذكرٌ صريح ،
إلا أن المعنى يقتضيها مذكورة ويتضمنها ؛ ولأن العشيَّ يقتضي لها
ذِكْرًا إذ هو مُقَدَّرٌ متوهم بها . وقال بعض المفسرين في هذه الآية :
{ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } يريد به الخيل ، أي : دخلت اصطبلاتها .
وقال ابن عباس ، والزهراوي : إن مَسَحَهُ بالسوق والأعناق لم
يكن بالسيف ، بل بيده تكريماً لها ومحبةً ، ورجحه الطبريُّ ،
وقال بعضهم : بل غسلًا بالماء ، وقد يقال للغسل مسحٌ لأن المسح
بالأيدي يقترب منه . وهذه الأقوال عندي إنما تترتب على نحو من
التفسير في هذه الآية ، ورؤي عن بعض الناس . وذلك أنه رأى

(١) قال في اللسان (حَبَبَ) : « أَحَبَّ البعيرُ بَرَكَ ، وقيل : الإحبابُ في الإبل كالخيران
في الخيل ، وهو أن يَبْرُك فلا يثور ، قال أبو محمد الفقهسيُّ :

حَلَّتْ عَلَيْهِ بِالْقَفِيلِ ضَرْبًا ضَرْبَ بَعِيرِ السَّوِّ إِذْ أَحَبَّ

والقفيلُ : السَّوِّط . وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : { إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ } أي :
لَصِقْتُ بِالْأَرْضِ لِحُبِّ الْخَيْلِ حَتَّى فَاتَنِي الصَّلَاةُ ، وهذا غير معروف في الإنسان بل معروف
في الإبل » اه .

أن هذه القصة لم يكن فيها فوت صلاة ، ولا تَضْمَنَ أمر الخيل
أَوْبَةً ولا رجوعاً . فالعامل في [إِذْ] فعلٌ مضمَرٌ تقديره : اذْكَرْ إِذْ عُرِضَ ،
وقالوا : عُرِضَ على سليمان الخيل وهو في الصلاة ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ ،
أَي : إِنِّي فِي الصَّلَاةِ ، فَأَزَالُهَا عَنْهُ حَتَّى أَدْخُلُهَا الْإِصْطِبَاتِ ، فقال
هو لَمَّا فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ ، أَي الَّذِي عِنْدَ
اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، بِسَبَبِ ذِكْرِ رَبِّي ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : فَشَغَلَنِي ذَلِكَ عَنِ
رُؤْيَةِ الْخَيْلِ ، حَتَّى أَدْخَلْتُ إِصْطِبَاتِهَا ، رَدُّوْهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ يَمْسَحُ
أَعْنَاقَهَا وَسُوقَهَا مَحَبَّةً لَهَا . وَذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ أَنَّ هَذَا الْمَسْحَ إِنَّمَا كَانَ وَسْمًا فِي
السُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ بِوَسْمِ حَبْسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى . وَجَمْهُورُ النَّاسِ عَلَى
أَنَّهَا كَانَتْ خَيْلًا مَوْرُوثَةً . قَالَ بَعْضُهُمْ : قَتَلَهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا أَكْثَرُ
مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ ، فَمِنْ نَسْلِ تِلْكَ الْمِائَةِ كُلِّ مَا يَوْجَدُ الْيَوْمَ مِنَ الْخَيْلِ .
وَهَذَا بَعِيدٌ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَانَتْ خَيْلًا أَخْرَجَهَا الشَّيْطَانُ لَهُ مِنَ الْبَحْرِ ،
وَكَانَتْ ذَوَاتِ أَجْنَحَةٍ ، وَرُوِيَ عَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
أَنَّهَا كَانَتْ عِشْرِينَ فَرَسًا ، وَ [طَفِقَ] مَعْنَاهُ : دَامَ يَفْعَلُ ، كَمَا تَقُولُ :
جَعَلَ يَفْعَلُ .

وَقَرَأَ الْجَمْهُورُ : [بِالسُّوقِ] بِوَاوٍ سَاكِنَةٍ ، وَهُوَ جَمْعُ سَاقٍ ، وَقَرَأَ
ابْنُ كَثِيرٍ وَحْدَهُ بِالْهَمْزِ ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ، وَلَكِنْ وَجْهَهَا

في القياس أن الضمة لما كانت تلي الواو (١) ، قُدِّرَ أَنَّهَا عَلَيْهَا فَهَمَزَتْ
 كَمَا يَفْعَلُونَ بِالْوَاوِ الْمَضْمُومَةِ ، وَهَذَا نَظِيرُ إِمَالَتِهِمْ أَلْفَ «مَقْلَاتٍ» (٢)
 مِنْ حَيْثُ وَلِيَتْ الْقَافَ الْكُسْرَةَ قَدَّرُوا أَنَّ الْقَافَ هِيَ الْمَكْسُورَةُ .
 وَوَجْهُ هَمْزِ (السُّوقِ) هِيَ أَنَّ أَبَا حِيَّةَ النَّمِيرِيَّ كَانَ يَهْمِزُ كُلَّ وَاوٍ سَاكِنَةٍ
 قَبْلَهَا ضِمَّةً ، وَكَانَ يُنْشِدُ :

أَحَبُّ الْمُؤَقِدَانِ إِلَيْكَ مُوسَى (٣)

(١) هكذا في الأصول ، ويظهر أن النسخ أخطئوا ، لأن الواو هي التي تلي الضمة هنا ،
 ويؤكد هذا قوله بعد ذلك : « إنَّ أَبَا حِيَّةَ النَّمِيرِيَّ كَانَ يَهْمِزُ كُلَّ وَاوٍ سَاكِنَةٍ قَبْلَهَا ضِمَّةً » .
 (٢) المقلات : التي لا يعيش لها ولد ، وقيل : هي التي تلد واحداً ثم لا تلد ، وقد
 رَوَوْا فِي ذَلِكَ قَوْلَ كَثِيرٍ أَوْ غَيْرِهِ ، (كَمَا قَالَ فِي اللِّسَانِ) :

بُعَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحاً وَأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلَاتٌ نَزُورُ
 وَأَنْشَدَ اللَّيْثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

لَنَا أُمٌّ بِهَا قَلَّتْ وَنَزَرَتْ كَأُمِّ الْأَسَدِ كَاتِمَةٌ الشُّكَاةُ
 وَأَنْشَدَ كَذَلِكَ :

وَجَدِي بِهَا وَجَدُ مِقْلَاتٍ بِوَأَحِيدِهَا وَكَيْسٌ يَقْوَى مُحِبٌّ فَوْقَ مَا أُجِدُّ

(٣) هذا صدر بيت قاله جرير ، وهو يمدح ولديه (موسى وجعدة) ، وهو في الديوان :
 (لَحَبَّ الْوَأَقِدَانِ) ، وفي مخطوطة أنساب الأشراف : (أَحَبَّ الْمُوقِدِينَ) ، وذكره ابن جني
 في كتابيه : (الخصائص وسر الصناعة) ، وقال الشيخ الشنقيطي في تعليق بخط يده على مخطوط
 للديوان : « وأنشده الزمخشري في كشافه » ، وأنشده أبو علي الفارسي في كتابه (الحجّة)
 شاهداً على همز الواو في موسى ، وقال : « قال الأَخْفَشُ : كَانَ أَبُو حِيَّةَ النَّمِيرِيَّ يَهْمِزُ كُلَّ
 وَاوٍ سَاكِنَةٍ قَبْلَهَا ضِمَّةً ، وَيَنْشُدُ :

لَحَبُّ الْمُؤَقِدَانِ إِلَيَّ مُوسَى

وفي تصريف ذلك قالوا : « إن الساكن إذا جاور المتحرك فكثيراً ما تقدّرُ العَرَبُ أن تلك الحركة
 كأنها في الساكن ، فكأن ضمة (موسى) مثلاً في الواو ، وهي إذا ضمت ضمماً لازماً فهمزها =

وقرأ ابن محيـصن : [بالسُّوق] بهمزة بعدها واو . وقوله : (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) على كل تأويل فإن [عَنْ] هنا للمجاوزة من شيء إلى شيء ، فتدبره فإنه مطرد .

ثم أخبر تعالى عن فتنته لسليمان ، وامتحانه إياه بزوال ملكه ، ورؤي في ذلك أن سليمان عليه السلام قالت له حَظِيَّةٌ من حظاياها (١) : إن أخي له خصومة ، فأرغبُ أن تقضي له بكذا وكذا ، لشيء غير الحق ، فقال سليمان عليه السلام : أفعل ، فعاقبه الله تعالى بأن سلط على خاتمه جنياً ، وذلك أن سليمان عليه السلام كان لا يدخل الخلاء بخاتم ملكه توقيراً لاسم الله تعالى ، فكان يضعه عند امرأة من نسائه ، ففعل ذلك يوماً ، فألقى الله تعالى شبهه على جني اسمه صخر - فيما

= جائر . والبيت بتمامه كما هو في الديوان :

لَحَبَّ الْوَأَقِيدَانَ إِلَيَّ مُوسَى وَجَعَدَةٌ لَوْ أَضَاءَهُمَا الْوُقُودُ

و (حَبَّ) فعل ماض ، أصله : حَبَّبَ - على وزن كَرُمَ - ومعناه : صار محبوباً ، فأدغمت الباء الأولى في الثانية ، إما للقلب ، وإما بنقل الحركة إلى الحاء قبلها ، فلهذا روي بفتح الحاء وبضمها . واللام في (لَحَبَّ) جواب قسم محذوف ، وأراد بالموقدان موقدي نار القيرى ، على عادة العرب ، وبخاصة لأنه في مقام المدح بالكرم وبالوضاءة ، فكفى عن الكرم بإيقاد النار ، وعن الوضاءة بإضائة الوقود لهما . والوقود : مصدر بمعنى الإيقاد - إذا كان بضم الواو - وإذا كانت مفتوحة فهو ما يوقد به من الحطب ونحوه ، وقد صحَّ عن الزمخشري أن الوقود هنا بالضم على أنه مصدر ، والمعنى : لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صاراً محبوبين . هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ﴾ من سورة القصص .

(١) الحَظِيَّةُ والمَحَظِيَّةُ : الأثيرة من النساء عند الرجل ، يُفضّلها على غيرها في المحبة .

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما - وقيل غير هذا مما اختصرناه لعدم الصحة ، فجاء إلى المرأة فدفعَتْ إليه الخاتم ، فاستولى على ملك سليمان وبقي فيه أربعين يوماً ، وطرح خاتم سليمان في البحر ، وجعل يعبث في بني إسرائيل وشبهه سليمان عليه السلام عليه ، حتى أنكروا أفعاله ، ومكَّنه الله تعالى من جميع الملك ، قال مجاهد : إلا من نساء سليمان فإنه لم يكشفهن ، وكان سليمان عليه السلام خلال ذلك قد خرج فاراً على وجهه مُنكراً ، لا ينتسب لقوم إلا ضربوه ، وأدركه جوعٌ وفاقة ، فمرَّ يوماً بامرأةٍ تغسل حوتاً ميتاً ، فسألها منه لجوعه ، وقيل : بل اشتراه فأعطته حوتين ، وجعل يفتح أجوافهما ، وإذا خاتمه في جوف أحدهما ، فعاد إليه مُلكه ، وسُخرت له الجنُّ والريح من ذلك اليوم ، وفرَّ صخر الجنيُّ ، فأمر به سليمان فسيقَ إليه ، فأطبق عليه في حجارة ، وسجنه في البحر إلى يوم القيامة ، فهذه هي الفتنة التي فتن سليمان عليه السلام وامْتَحِنَ بها .

واختلف الناس في الجسد الذي أُلقي على كرسیه - فقال الجمهور : هو الجني المذكور ، سَمَّاهُ «جَسَداً» لأنه كان قد تمثَّل في جسد سليمان عليه السلام ولُبِّسَ به (١) ، وهذا أصحُّ الأقوال وأبينُّها معنىً . وقالت فرقة : بل أُلقي على كرسیه جسد ابن له ميت ، وقالت فرقة : بل شقُّ الولد الذي وُلد له حين أقسم ليطوفنَّ على نسائه ولم يستثن في قسَمه ، وقال

(١) المراد أن شكله اختلط بشكل سليمان وأشكل على الناس .

قوم : مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه جسداً كان بلا روح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله غير متصل بمعنى هذه الآية .

وقوله تعالى : [أَنَابَ] معناه : ارعوى وانثنى وأجاب إلى طاعة

ربه ، ومعنى هذا : من تلك الحوبة (١) التي وقعت الفتنة بسببها .

ثم إن سليمان عليه السلام استغفر ربه ، واستوهبه ملكاً ، واختلف

المتأولون في معنى قوله : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ - فقال الجمهور :

أراد أن يفرد به بين البشر لتكون خاصة له وكرامة ، وهذا هو الظاهر

من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر العفريت الذي ظهر له في صلواته ،

فأخذه وأراد أن يوثقه بسارية من سواري المسجد ، قال : (ثم ذكرت

قول أخي سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾

فأرسلته (٢) ، وقال قتادة ، وعطاء بن أبي رباح : إنما أراد سليمان

(١) من معاني الحوبة : الحالة .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ، والبخاري في العمل والأنبياء وتفسير سورة (ص) ،

وأحمد في مسنده (٢-٢٩٨-٥-١٠٤ ، ١٠٥) ، ولفظه كما في البخاري ، عن أبي هريرة ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إن عفريتاً من الجن تكلمت عليّ البارحة - أو كلمة

نحوها - ليقطع عليّ الصلاة ، فأمكنني الله منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد

حتى تصبحوا وتظنوا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي

مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ ، قال روح : فردّه خاسئاً . (وروحٌ هذا واحدٌ

في سلسلة رواة الحديث) .

عليه السلام : لا ينبغي لأحد من بعدي مدة حياتي ، أي : لا أسلبه
ويصير إلى أحدٍ كما صار الآن إلى الجني .
وروي في مثالب الحجاج بن يوسف أنه لما قرأ هذه الآية قال :
« لقد كان حسوداً » ، وهذا من فسق الحجاج ، وسليمان عليه السلام
مقطوع أنه إنما قصد بذلك قصداً براً جائزاً ؛ لأن للإنسان أن يرغب
من فضل الله فيما لا يناله أحد ، لاسيما بحسب المكانة والنبوة ،
وانظر أيضاً إلى قوله عليه السلام : [لا ينبغي] ، فإنما هي لفظة محتملة
وليست بقطع في أنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد ، ومحمد
صلى الله عليه وسلم لو ربط الجني لم يكن ذلك نقصاً لما أوتيته سليمان
عليه السلام ، لكن لما كان فيه بعض الشبه تركه جرياً منه عليه الصلاة
والسلام على اختياره أبداً أيسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع .

قوله عز وجل :

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ
أَوْ امْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِن لَّهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

قرأ الحسن ، وأبو رجاء : [الرِّيحَ] ، والجمهور على الأفراد ،
وسخر الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام ، وكان له كرسيٌّ عظيم ،

يقال : إنه يحمل أربعة آلاف فارس ، ويقال : أكثر ، وفيه الشياطين ، وتُظَلُّهُ الطير ، وتأتي عليه الريح الإعصار فتُقَلِّهُ من الأرض حتى يحصل في الهواء ، ثم تتولاه الرخاء - وهي اللينة القوية (١) المتشابهة لا تأتي فيها دُفْعٌ مفرطة - فتحمله ، غُدُوها شهر ، ورواحها شهر (حيثُ أَصَابَ) أي : أراد ، قاله وهبٌ وغيره ، وأنشد الثعلبي :
 أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَا الْجَوَابَ لَدَى الْمَفْصَلِ (٢)
 ويشبه أن [أصابَ] مُعَدَّى : صابَ يَصُوبُ ، أي : حيث وجه جنوده وجعلهم يصوبون صوبَ السحاب والمطر . وقال الزجاج : معناه : قَصَدَ ، كذلك قولك للمتكلم : «أَصَبْتَ» معناه : قصدتَ الحق .
 وقوله تعالى : (كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَّاصٍ) بدلٌ من [الشياطين] ، والمعنى : كلٌّ من بنى مصانعه للحروب . و [مُقَرَّنِينَ] معناه : مُوثَقِينَ ، قد قَرَنَ بعضهم ببعض ، و [الْأَصْفَادِ] : القيودُ والأغلالُ .
 واختلف الناس في المشار إليه بقوله : (هَذَا عَطَاؤُنَا) - فقال قتادة : إشارةٌ إلى ما فعله بالجن ، فأمَّنْ عَلَى مَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ، وأطلقه من

(١) في بعض النسخ : القريبة .

(٢) يستشهدون بهذا البيت على أن (أصابَ) بمعنى : أرادَ ، والعرب تقول : «أصابَ الصوابَ وأخطأَ الجوابَ» ، أي : أراد الصوابَ وأخطأَ الجوابَ . وروى عن ربيعة أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما ، فسألهما : أين تُصَيِّبان فقالا : هذه طابِئَتُنَا . والمفصل - بفتح الميم أو بكسرها - من معانيه : اللسان . قال الزمخشري في أساس البلاغة : «وتقول : رَبَّ كَلَامٍ بِالْمِفْصَلِ أَشَدُّ مِنْ كَلَامٍ بِالْمِقْصَلِ» .

وثاقه وسرّحه من خدمته ، أو أَسْكُ أَمْرُهُ كما تريد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أشار إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليهن من جماعهن ، وقال الحسن : أشار إلى ما أعطاه من الملك ، وأمره بأن يَمُنَّ على من يشاء ويُمسك عمن يشاء ، فكأنه وقفه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيه بمشيئته ، وهو تعالى قد علم بأن مشيئته إنما تتصرف بحكم طاعة الله . وهذا أصح الأقوال وأجمعها لتفسير الآية . وباقى الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
 أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ
 مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِرَأْسِ الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذْنَا بِيَدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ
 وَلَا تَحْنُتْ ﴿٤٤﴾ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

أيوب هو نبي من بني إسرائيل ، من ذرية يعقوب عليهما السلام ، وهو المبتلى في جسده وماله وأهله ، وسلم معتقده ودينه .
 ورؤي في ذلك أن الله تعالى سلط الشيطان عليه ليفتنه عن دينه ، فأصابه في ماله ، وقال له : إن أطعتني رجع مالك ، فلم يطعه ،

فَأَصَابَهُ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فَهَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ أَطَعْتَنِي رَجَعُوا ، فَلَمْ يَطْعَهُ ، فَأَصَابَهُ فِي جَسَدِهِ ، فَثَبَتَ أَيُّوبُ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى سَبْعَ سِنِينَ وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ . قَالَه قَتَادَةُ ، وَرَوَى أَنَسٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَقِيَ فِي مَحْنَتِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً يَتَسَاوَقُ لَحْمُهُ حَتَّى مَلَّهَ الْعَالَمُ ، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِ إِلَّا امْرَأَتُهُ (١) . وَرُوِيَ أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي امْتَحَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَجَلِهِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ فَرَأَى مِنْكَرًا فَلَمْ يَغْيِّرْهُ ، وَرُوِيَ أَنَّ السَّبَبَ أَنَّهُ ذَبَحَ شَاةً وَطَبَخَهَا وَأَكَلَتْ عِنْدَهُ وَجَارَهُ جَائِعٌ لَمْ يَعْطِهِ مِنْهَا شَيْئًا ، وَرُوِيَ أَنَّ أَيُّوبَ لَمَّا تَنَاهَى بِلَاؤُهُ وَصَبِرَهُ مَرَّةً بِرَجُلَانِ مِمَّنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا مَعْرِفَةٌ فَقَرَعَاهُ وَقَالَ لَهُ : لَقَدْ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَ أَحَدٌ مِثْلَهُ ، وَفَهُمَ مِنْهُمَا شِمَاتًا بِهِ (٢) ، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا وَنَادَى رَبَّهُ .

وقوله عليه السلام : (مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ) يحتمل أن يشير إلى مسه حين سلطه الله عليه حسبما ذكرنا ، ويحتمل أن يريد مسه إياه

(١) الحديث طويل ، وقد أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفي أوله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلاً من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه به ، كان يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ...) الخ الحديث .

(٢) يقال : شمت به شماتاً وشماتةً : فرح بما أصابه .

حين حملة أول الأمر على أن يواقع الأمر الذي من أجله كانت المحنة ،
 إما ترك التغيير عند الملك ، وإما ترك مواساة الجار ، وقيل : أشار
 إلى مسه إياه في تعرضه لأهله ، وطلبه منه أن يشرك بالله ، وكان أيوب
 قد تشكى هذا الفعل ، وكان أشد عليه من مرضه .

وقرأ الجمهور : [أني] بفتح الهمزة ، وكسرهما عيسى بن عمر ،
 وهي في موضع نصب بإسقاط حرف الجر ، وقرأ جمهور الناس :
 [ينصب] بضم النون وسكون الصاد ، وقرأ هبيرة (١) عن حفص
 عن عاصم بفتحهما ، وهي قراءة الجحدري ، ويعقوب ، ورويت
 عن الحسن ، وأبي جعفر ، وقرأ أبو عمارة عن حفص عن عاصم :
 [ينصب] بضم النون والصاد ، وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع ،
 والحسن - بخلاف عنه - وروى أيضاً هبيرة عن حفص عن عاصم
 بفتح النون وسكون الصاد . وذلك كله بمعنى واحد ، معناه : المشقة ،
 وكثيراً ما يستعمل « النَّصْبُ » في مشقة الإعياء . وفرق بعض الناس
 بين هذه الألفاظ ، والصواب أنها لغات من قولهم : « أنصبت الأمر
 ونصبتني » إذا شق علي ، فمن ذلك قول الشاعر :

(١) هبيرة بن يريم - على وزن عظيم - الشيباني ، الخارفي ، أبو الحارث الكوفي ،
 لا بأس به ، وقد عيب بالتشيع . (تقريب التهذيب) . وفي طبقات ابن سعد أنه من أصحاب
 المختار ، وأنه في الطبقة الأولى من التابعين ، وقيل : إن الشيباني تحريف (الشبامي) ، توفي
 سنة ست وستين . (الأعلام) .

تَعَنَّكَ نَصَبٌ مِنْ أُمِيمَةَ مُنْصَبٌ (١)
ومنه قول النابغة :

كَلَيْبِنِي لَهُمْ يَا أُمِيمَةَ نَاصِبٍ (٢)
قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد قيل في هذا البيت : إن « ناصباً » بمعنى « مُنْصَبٌ » ، وإنه على النسب ، أي : ذا نصب .

وهنا في الآية محذوف كثير ، تقديره : فاستجاب له وقال له :
(أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ) ، والرَّكُضُ : الضرب بالرجل ، والمعنى : اركض

(١) هذا صدر بيت قاله بشر بن أبي خازم ، وهو من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) ، والبيت بتمامه :

تَعَنَّكَ نَصَبٌ مِنْ أُمِيمَةَ مُنْصَبٌ كَذِي الشَّجْوِ لَمَّا يَسْلُهُ وَسَيْدُهُ هَبْ
وقال في اللسان (نَصَبٌ) : « وَهَمٌّ نَاصِبٌ مُنْصَبٌ : ذُو نَصَبٍ ، مثل تامرٍ ولايينٍ » .
وقد علّق أبو عبيدة على هذا البيت الذي بعده بقوله : « تقول العرب : أنْصَبَيْ ، أي عذَّبْنِي
وبرح بي ، وبعضهم يقول : نصبني » . وتَعَنَّاهُ : كلّفه ما يشقُّ عليه ، والشَّجْوُ : الهَمُّ
والحزن والحاجة ، لَمَّا يَسْلُهُ : لم يبرأ منه .

(٢) هذا صدره ، وهو بتمامه مطلع قصيدة قالها النابغة يمدح عمرو بن الحارث ، وفيه يقول :
كَلَيْبِنِي لَهُمْ يَا أُمِيمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
وكَلَيْبِنِي : اتركبني أو دعيني ، واللام في (لَهُمْ) بمعنى : إلى ، واتفق الرواة على أن
أُمِيمَةَ روي مفتوحاً ، واعتذر أبو عبيدة والأصمعي بأن عادة العرب أن ينادوا اسم المرأة
بالترخيم ، وإذا كان الحرف الذي قبل هاء التأنيث مفتوحاً أبداً واحتاج الشاعر إلى إبقاء هاء
التأنيث لأجل صحة الوزن تكلم بها على عادة الترخيم ففتحها كما يفتح آخر المنادى المؤنث
المرخم ، وناصر : ذي نَصَبٍ ، أي : تعب . وبطِيءِ الكواكب : كناية عن الطول ، وذلك
لأن الشاعر كان قلقاً مهموماً . وموضع الشاهد في البيت أن (ناصب) تفيد معنى التعذيب ، وهي
مثل (مُنْصَبٌ) أي : ذا نَصَبٍ .

الأرض ، ورؤي عن قتادة أن هذا الأمر كان في الجابية من أرض الشام ، ورؤي أن أيوب عليه السلام أمر بركض الأرض فركض فيها فنبعت له عين ماء صافية باردة ، فشرب منها فذهب كل مرض في داخل جسده ، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه ، ورؤي أنه ركض مرتين ، ونبع له عينان شرب من إحداهما واغتسل في الأخرى . وقرأ نافع ، وشيبة ، وعاصم ، والأعمش : { وَعَذَابٌ أَرَكُضٌ } بضم نون التنوين ، وقرأ عامة قراء البصرة بكسرها . و [مُغْتَسَلٌ] معناه : موضع غسل ، وماء غُسْلٌ ، كما تقول : هذا الأمر مُعْتَبَرٌ ، وهذا الماء مُغْتَسَلٌ مثله .

ورؤي أن الله تعالى وهب له أهله وماله في الدنيا ، ورد من مات منهم وما هلك من ماشيته ، ثم بارك في جميع ذلك ، ووُلِدَ له الأولاد حتى تضاعفت الحال ، ورؤي أن هذا كله وعد في الآخرة ، أي : يفعل الله له ذلك في الآخرة . والأول أكثر في قول المفسرين . و [رَحْمَةٌ] نصب على المصدر ، وقوله تعالى : [وَذِكْرِي] معناه : موعظة وتذكرة يعتبر بها أولو العقول ، ويتأسون بصبره في الشدائد ، ولا ييأسون من رحمة الله تعالى على كل حال . ورؤي أن أيوب كانت زوجته مُدَّة مرضه تخلف إليه فيلقاها الشيطان في صورة طبيب ، ومرة في هيئة ناصح ، وعلى غير ذلك ، فيقول لها : لو سجد هذا المريض للصنم

الفلاني لبرئ^١ ، ولو ذبح عناقاً^(١) للصنم الفلاني لبرئ^٢ ، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر ، فكانت ربما عرضت ذلك على أيوب ، فيقول لها : أَلْقَيْتِ عَدُوَّ اللَّهِ فِي طَرِيقِكَ ؟ فلما أَغْضَبْتَهُ بهذا ونحوه حلف لئن برئ من مرضه ليضربنَّها مائة سوط ، فلما برئ أمره الله تعالى أن يأخذ ضغثاً فيه مائة قضيب . و «الضُّغْثُ» : القبضة الكبيرة من القضبان ونحوها من الشجر الرطب ، قاله الضحاك وأهل اللغة ، فيضرب به ضربة واحدة فتبرَّ يمينه ، ومنه قولهم : «ضِغْثٌ عَلَى إِبَالَةٍ»^(٢) ، والإِبَالَةُ : الحُزْمَةُ من الحطب ، قال الشاعر :

وَأَسْفَلَ مِنِّي نَهْدَةٌ قَدْ رَبَطْتُهَا وَأَلْقَيْتُ ضِغْثًا مِنْ خَلَا مُتَطِيبٍ^(٣)

(١) العناقُ : الأثني من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول .

(٢) معنى المثل : بليَّةٌ على أخرى ، والضغث : الحزمة من الحشيش ، أو القبضة منه مختلطة الرطب واليابس ، والإِبَالَةُ : الحُزْمَةُ من الحطب ، ويروى : إيبالة ، وبعضهم يقول : إِبَالَةٌ مخففاً ، قال ذلك كله الميداني في كتابه (مجمع الأمثال) ، وزاد في اللسان (أبَلَّ) أنه يُنْشَدُ لأسماء بن خارجة :

لِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ دُوَّالِهِ ضِغْثٌ يَزِيدُ عَلَيَّ إِبَالَتَهُ

وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب) : «يُضْرَبُ لِمَنْ حَمَلَكَ مَكْرُوهًا ثم زادك عليه» .

(٣) البيت في التاج ، وفي معجم الشعراء ، وهو للشاعر الجاهلي عَوْفُ بن عطية بن الخَرَج ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، قال : «الضُّغْثُ : ملء الكف من الشجر أو =

وهذا حكم قد ورد في شرعنا عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله في حد رجل زمن بالزنى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذق فيه مائة شمراخ أو نحوها ، فضرب به ضربة ، ذكر الحديث أبو داود (١) ، وقال به بعض فقهاء الأئمة ، وليس يرى ذلك مالك وأصحابه ، وكذا جمهور العلماء على ترك القول به ، وأن الحدود والبر في الأيمان لا يقع إلا بتمام عدد الضربات .

=الحشيش والشماريخ وما أشبه ذلك . قال عوف بن الحرّ : وأسفل مني البيت . وفي اللسان (ضَعَتْ) أن الضعْث قبضة من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد ، مثل الأسل ، والكرات ، والشمام . والنهدة : الفرس ، قال في اللسان (نَهَدَ) : «وفرسٌ نَهْدٌ» : جسيم مشرف ، نقول منه : نَهْدَ الفرس - بالضم - نهودةٌ ... والأثني : نهدة . والخلا : الرطب من الحشيش ، أو من البرسيم .

(١) احتج الشافعي بهذا الحديث ، وقال : إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة ، ولم يقل : ضرباً شديداً ، ولم ينبو ذلك في قلبه ، يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ، والحديث أخرجه أبو داود في سننه ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار ، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أضنى ، فعاد جلدة على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوق عظامها ، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال : استفتوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنني قد وقعت على جارية دخلت علي ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به ، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه ، ما هو إلا جلد على عظم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة ، اه . ولكن الإمام مالك لم يأخذ بهذا الحديث حيث تكلم في إسناده ، ورأى التمسك بالآية الكريمة : ﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . وهذا مذهب أصحاب الرأي . ونلاحظ أن الإمام الشافعي لم ينقل عنه أنه أخذ به في حد الزنى .

قوله عز وجل :

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا
 أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ
 ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ﴿٤٨﴾ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٩﴾ هَذَا ذِكْرٌ
 وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَقَابٍ ﴿٥٠﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَعَةٍ لَّهُمْ الْأَبْوَابُ ﴿٥١﴾
 مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَلَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٢﴾ * وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ
 الطَّرْفِ أَمْتَابٌ ﴿٥٣﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ
 مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٥﴾ *

قرأ ابن كثير : ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ على الإفراد ، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل مكة ، وقرأ الباقر : ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ على الجمع ، فأما على هذه القراءة فدخل الثلاثة في الذكر وفي العبودية ، وأما على قراءة من قرأ : [عَبْدَنَا] فقال مكِّي وغيره : دخلوا في الذكر ، ولم يدخلوا في العبودية إلا من غير هذه الآية ، وفي هذا نظر ، وتناول قوم من المتأولين من هذه الآية أن الذبيح إسحاق ، من حيث ذكر الله تعالى بعقب ذكر أيوب أنبياء امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب ، ولم يذكر إسماعيل لأنه ممن لم يُمتحن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا ضعيف كله .

وقرأ الجمهور : ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ ، وقرأ الحسن ، والثقفى ،
والأعمش ، وابن مسعود : ﴿أُولِي الْأَيْدِ﴾ بحذف الياء ، وأما (أولو)
فهو جمع (ذو) ، وأما القراءة الأولى فـ [أَلْيَدِي] فيها عبارة عن القوة
في طاعة الله ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . وقالت فرقة : بل معناه :
أولي الأيدي والنعم التي أسداها الله تعالى إليهم : من النبوة والمكانة .
وقال قوم : المعنى : أيدي الجوارح ، والمراد الأيدي المتصرفة في الخير ،
والأبصار الثاقبة فيه ، لا كالتى هي مهملة في جلّ الناس . وأما من قرأ :
[أَلْيَدِ] بغير ياء فيحتمل أن تكون كالتى بالياء وحذفت تخفيفاً ،
ومن حيث كانت الألف واللام تعاقب التنوين وجب أن تحذف معها
كما تحذف مع التنوين . وقالت فرقة : [أَلْيَدِ] معناها : القوة ،
والمراد : في طاعة الله تعالى . وقوله تعالى : [وَأَلْبَصَارٍ] عبارة عن البصائر ،
أي : يُبْصِرُونَ الحقائق ، وينظرون بنور الله تعالى ، وبنحو هذا
فسر الجميع .

وقرأ نافع وحده (١) : ﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرِي﴾ على الإضافة ، وهي
قراءة أبي جعفر ، والأعرج ، وشيبة . وقرأ الباقر : ﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرِي﴾

(١) يريد وحده من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها أيضاً أبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ،
كما ذكر .

منوناً ، وقرأ الأعمش : (بِخَالِصَتِهِمْ ذِكْرَى) ، وهي قراءة طلحة ، ويحتمل أن تكون [خَالِصَة] اسم فاعل ، كأنه عبر بها عن مَزِيَّة أو رُتْبَة ، فأما من أضافها ف [ذِكْرَى] مخفوض بالإضافة ، وأما من نَوَّنَ ف [ذِكْرَى] بدلٌ من [خَالِصَة] ، ويحتمل أن تكون [خَالِصَة] مصدرًا كالعافية ، وكخائنة الأعين ، وغيرها ، ف [ذِكْرَى] - على هذا - إما أن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير : إِنَّا أَخْلَصْنَاكُمْ بِأَنْ أَخْلَصْنَا لَهُمْ ذِكْرَى الدار ، وتكون [خَالِصَة] مصدرًا ، من : أَخْلَصَ ، على حذف الزوائد ، وإما أن يكون [ذِكْرَى] في موضع رفع بالمصدر ، على تقدير : إِنَّا أَخْلَصْنَاكُمْ بِأَنْ خَلَصْتُ لَهُمْ ذِكْرَى الدار ، وتكون [خَالِصَة] من : خَلَصَ . و [الدار] في كل وجه في موضع نصب ب [ذِكْرَى] ، و [ذِكْرَى] مصدر . وتحتل الآية أن يريد بالدار الدار الآخرة ، على معنى : أَخْلَصْنَاكُمْ بِأَنْ خَلَصَ لَهُمْ التذكير بالدار الآخرة ، ودعا الناس إليها وحضهم عليها ، وهذا قول قتادة ، أو على معنى : خَلَصَ لَهُمْ ذِكْرُهُم للدار الآخرة ، وخوفهم لها ، والعمل بحسب ذلك ، وهذا قول مجاهد ، وقال ابن زيد : المعنى : إِنَّا وهبناهم أفضل ما في الدار الآخرة ، وأخلصناهم به ، وأعطيناهم إياها . ويحتمل أن يريد بالدار دار الدنيا ، على معنى ذكر الثناء والتعظيم من الناس ، والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازي

به ، فتجيء الآية في معنى قوله تعالى : ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ (١) ، وفي معنى قوله : ﴿وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٢) .

و [الْمُضْطَفَيْنَ] أصله : المصطفيين ، تحركت الياء ، وما قبلها مفتوح فانقلبت ألفاً ، ثم اجتمع سكون الألف وسكون الياء التي هي علامة الجمع فحذفت الألف . و [الْأَخْيَارِ] جمع خَيْرٍ ، وخَيْرٌ مخفف من خَيْرٍ ، كَمَيْتٍ وَمَيْتٍ .

وقرأ حمزة والكسائي [وَأَلْيَسَعَ] ، كأنه (٣) أدخل لام التعريف على (لَيْسَعَ) فأجراه مجرى ضَيْغَمٍ ونحوه ، وهي قراءة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والكوفيين . وقرأ الباقون : [وَأَلْيَسَعَ] ، قال أبو علي : الألف واللام فيه زائدتان غير معروفتين ، كما هي في قول الشاعر :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُوًّا وَعَسَاقِلًا وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأُوْبِرِ (٤)

(١) من الآية (٥٠) من سورة (مريم) .

(٢) تكررت في الآيات : (٧٨ ، ١٠٨ ، ١٢٩) من سورة (الصافات) .

(٣) هكذا في جميع الأصول ، ولعله يريد : كأن القارئ .

(٤) البيت من الكامل ، وهو مجهول القائل ، واستشهد به ابن عقيل ، والأشموني ، والواو في أوله للقسم ، واللام للتأكيد ، وقد للتحقيق ، وجَنَيْتُكَ : جَنَيْتُ لَكَ ، من قولهم : جَنَيْتُ الثمرة ، فحذف الجار توسعاً ، وأَكْمُوًّا - بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الميم : جمع كَمٍّ على وزن فُلْسٍ ، والعساقيل : جمع عُسُقُولٍ ، وأصله : عساقيل فحذفت الياء للضرورة ، وهو نوعٌ من الكمأة ، وبنات الأوبر : كمأة صغيرة مزغبة على لون التراب ، وهي أردأ أنواع الكمآت ، والشاهد فيها حيث زاد الشاعر الألف واللام للضرورة .

و «بناتُ أَوْبَرٍ» : ضربٌ من الكمأة . واختلف في نبوة (ذِي الْكِفْلِ) ، وقد تقدم تفسير أمره .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يُشير إلى مدح من ذكر وإبقاء الشرف له ميتاً فيتأكد بهذا التأويل قول من قال آنفاً : إن (الدار) يرادُ بها الدار الدنيا ، والثاني أن يشير بـ [هَذَا] إلى القرآن ، أي : هو ذكر للعالم . و «المآب» : المرجع حيث يؤوبون ، و [جَنَاتٍ] بدل من [حُسْنٍ] ، و [مُفْتَحَةً] نعت للجَنَاتِ ، و [الْأَبْوَابُ] مفعول لم يُسمِّ فاعله ، والتقدير عند الكوفيين : مُفْتَحَةً لهم أبوابها ، ولا يجوز ذلك عند أهل البصرة ، والتقدير عندهم : الأبواب منها ، وإنما دعا إلى هذا الضمير أن الصفة لا بد أن يكون فيها عائد على الموصوف .

و (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) ، قال قتادة : معناه : على أزواجهن ، و [أَتْرَابٌ] معناه : أمثالٌ ، وأصله في بني آدم أن تكون الأسنان واحدة ، أي : مَسَّتْ أجسادهم التراب في وقت واحد . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [يُوعَدُونَ] بالياء من تحت ، واختلفا في سورة [ق] ، فقرأ أبو عمرو بالتاء من فوق (١) ، وقرأ الباقون في السورتين بالتاء ، و «النَّفَادُ» : الفناء والانقضاء .

(١) في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (ق) : ﴿ هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِفِينَ لَشَرَّ مَعَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا فَيَنسُ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرَّحَبَاءَ بِهِمْ ﴿٥٩﴾ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَّحَبَاءَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَنسُ الْقَرَارُ ﴿٦١﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٢﴾ ﴾

التقدير : الأمر هذا ، ويحتمل أن يكون التقدير : هذا واقع ، أو نحوه ، و « الطَّالِفِي » : المُفْرِطُ فِي الشَّرِّ ، مأخوذ من : طغى يطغى ، والطغيان هنا في الكفر ، و « المآبُ » : المرجع ، و [جَهَنَّمَ] بدل من قوله : ﴿ لَشَرِّ مآبٍ ﴾ ، و [يَصَلُونَهَا] معناه : يباشرون حرَّها وحرقتها ، و [الْمِهَادُ] : ما يفرشه الإنسان ويتصرف به .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ يحتمل أن يكون [هَذَا] ابتداءً ، والخبر [حَمِيمٌ] ، ويحتمل أن يكون التقدير : الأمر هذا فليذوقوه ، ويحتمل أن يكون [هَذَا] في موضع نصب بفعل يدلُّ عليه [فَلْيَذُوقُوهُ] ، و [حَمِيمٌ] - على هذا خبر ابتداءٍ مضمرة . قال ابن زيد : الحميم : دموعهم تجتمع في حياض فيسقونها . وقرأ الجمهور : [وَعَسَاقٌ]

بتخفيف السين ، وهو اسم بمعنى السائل ، وروى عن قتادة أنه ما يسيل من صديد أهل النار ، ويروى عن السدي أنه ما يسيل من عيونهم ، ويروى عن كعب الأحبار أنه ما يسيل من حمة عقارب النار ، وهي - يُقَالُ - مجتمعة في عين هنالك ، وقال الضحاك : هو أشدُّ الأشياء برداً ، وقال عبد الله بن بُريدة : هو أنتن الأشياء ، وروى ذلك أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [وَعَسَّاقٌ] بتشديد السين ، بمعنى : سيال ، وهي قراءة قتادة ، وابن أبي إسحق ، وابن وثاب ، وطلحة . والمعنى فيه على نحو ما قدمناه من الاختلاف ، غير أنها قراءة ضعف ؛ لأن «عَسَّاقاً» إما أن يكون صفة فيجيء في الآية حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، وذلك غير مستحسن هنا ، وإما أن يكون اسماً فالأسماء على هذا الوزن قليلة في كلام العرب كالقياد ونحوه .

وقرأ جمهور الناس : [وَأَخْرُ] بالإفراد ، وهو رفع بالابتداء ، واختلف في تقدير خبره - فقالت طائفة : تقديره : ولهم عذاب آخر ، وقالت طائفة : خبره [أَزْوَاجٌ] ، و (مِنْ شَكْلِهِ) في موضع الصفة ، ومعنى (مِنْ شَكْلِهِ) : من مثله وضربه ، وجاز - على هذا القول - أن يُخْبِرَ بالجميع الذي هو [أَزْوَاجٌ] عن الواحد من حيث ذلك الواحد درجاتٌ ورُتَبٌ من العذاب ، وقويُّ وأقل منه ، وأيضاً فمن جهة أخرى على أن يُسَمَّى كل جزءٍ من ذلك باسم الكل ، كما

قالوا : « شابت مفارقه » ، فجعلوا كل جزءٍ من المَفْرِقِ مَفْرِقًا ، وكما قالوا : « جمل ذو عَثَانين » (١) ، ونحو هذا ، ألا ترى أن جماعةً من المفسرين قالوا : إن هذا الآخر هو الزمهير ، فكأنهم جعلوا كل جزءٍ منه زمهيراً . وقرأ أبو عمرو وحده : [وَأَخْرُ] على الجمع ، وهي قراءة الحسن ، ومجاهد ، والجحدري ، وابن جبير ، وعيسى ، وهو رفع على الابتداء ، وخبره [أَزْوَاجٌ] ، و [مِنْ شَكْلِهِ] في موضع الصفة . ورجح أبو عبيد هذه القراءة ، وكذلك أبو حاتم لكون الصفة جمعاً ، ولم ينصرف (أخر) لأنه معدول عن الألف واللام صفة ، وذلك أن حق (أفعل) وجمعه ألا يستعمل إلا بالألف واللام ، فلما استعملت (أخر) دون الألف واللام كان ذلك عدلاً لها ، وجاز في (أخر) أن يوصف بها النكرة كقوله تعالى : (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) (٢) ، بخلاف جميع ما عدل عن الألف واللام كشجر ونحوه في أنه لا يجوز أن توصف به النكرة لأن هذا العدل في (أخر) اعتد به في منع الصرف . ولم يعتد به في الامتناع من صفة النكرة ، كما يعتدون بالشيء في حُكْمٍ دون حُكْمٍ ، نحو اللام في قولهم : « لا أبا لك » ، واللام المتصلة بالكاف اعتد بها

(١) العُثْنُونُ : شعيرات طوالٌ عند مذبح البعير والتيس ، فكأنهم جعلوا كل جزءٍ من العُثْنُونِ عُثْنُونًا فجمعوا فقالوا : عَثَانين .
(٢) من الآية (١٨٤) من سورة (البقرة) .

فاصلة للإضافة ، ولذلك جاز دخول (لا) ، ولم يُعْتَدَّ بها في أن أعرب (أبا) بالحرف ، وشأنه - إذا انفصل ولم يكن مضافاً - أن يعرب بالحركات ، فجاءت (اللام) ملغاة الحكم من حيث أعرب بالحركات كأنه مضاف ، وهي مُتَعَدُّ بها فاصلة في أن جوزت دخول (لا) .
 وقرأ مجاهد : ﴿ مِنْ شِكْلِهِ ﴾ بكسر الشين . و [أزواج] معناه : أنواع ، والمعنى : لهم حميمٌ وغَسَاقٌ وأغذية أخرى من ضَرْبٍ ما ذكر ونحوه وأنواعٌ كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا فَوْجٌ ﴾ هو مما يقال لأهل النار إذا سيق عامة الكفار وأتباعهم ؛ لأن رؤسائهم يدخلون النار أولاً ، والأظهر أن قائل ذلك لهم ملائكة العذاب ، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره ، ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض ، فيقول البعض الآخر : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ ، أي : لا سعة مكان ولا خير يلقونه . و « الفَوْجُ » : الفريق من الناس ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ حكاية لقول الأتباع حين سمعوا قول الرؤساء . و ﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ معناه : بإغوائكم أسلفتم لنا ما أوجب هذا ، فكأنكم فعلتم بنا هذا .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا ﴾ حكاية لقول الأتباع أيضاً ، دعوا على رؤسائهم بأن يكون عذابهم مضاعفاً .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ بَخْرِيًّا
 أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا
 أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ ﴾

الضمير في [قَالُوا] لأشراف الكفار ورؤسائهم ، أخبر الله تعالى عنهم أنهم يتذكرون - إذا دخلوا النار - لقوم من مستضعفي المؤمنين ، فيقولون هذه المقالة ، وهذا مطرد في كل أمة جاءها رسول ، وروي أن القائلين من كفار عصر النبي صلى الله عليه وسلم هم : أبو جهل ابن هشام ، وأمّية بن خلف ، وأهل القليب ، ومن جرى مجراهم ، وأن الرجال الذين يُشِرون إلى ذكرهم هم عمار بن ياسر ، وسلمان ، وصهيب ومثلهم ، قاله مجاهد وغيره . والمعنى : كنا في الدنيا نعدُّهم أشراراً لا خلاق لهم . وأمال الرءاء من [الأشرار] أبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وفتحها ابن كثير ، وعاصم ، وأشم نافع ، وحمزة . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [أَتَّخَذْنَاهُمْ] بألف وصل ، على أن يكون ذلك في موضع الصفة لـ (رِجَالٍ) ، وقرأ الباقر بألف قطع للاستفهام ، ومعناها تقرير أنفسهم على هذا ، على جهة التوبيخ لها والأسف ، أي : اتَّخَذْنَاهُمْ ولم يكونوا كذلك ، واستبعد معنى هذه القراءة أبو علي .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [سُخْرِيًّا] بضم السين ، وهي قراءة الأعرج ، وشيبة ، وابن مسعود وأصحابه ، وأبي جعفر ، ومجاهد ، والضحاك ، ومعناها من السُّخْرَةِ والاستخدام ، وقرأ الباقر بكسر السين ، وهي قراءة الحسن ، وأبي رجاء ، وعيسى ، وابن محيصة ، ومعناها المشهور من السُّخْر الذي هو بمعنى الهُزء ، ومنه قول الشاعر :

إِنِّي أَتَّيْتُ لِسَانَ لَا أُسْرُ بِهَِا مِنْ عَلَوَّ لَا كَذِبُ فِيهَا وَلَا سَخْرُ (١)

وقالت فرقة : يكون بكسر السين من التَّسْخِير . و [أَمْ] في قولهم : (إِمْ زَاغَتْ) معادلة لـ [مَا] في قولهم : (مَالَنَا لَا نَرَى) ، وذلك أنها قد تعادل ما يعادل (من) ، وأنكر بعض النحويين هذا وقال : إنها لا تعادل إلا الألف فقط ، والتقدير في هذه الآية : أَمْفَقُودُونَ هم

(١) هذا البيت لأعشى باهله ، عامر بن الحرث بن رباح ، أحد بني وائل ، الشاعر الجاهلي المجيد ، وهو من قصيدة قالها يرثي بها أخاه لأمه المنتشر بن وهب ، وهي من المرثي المعدادات ، وهي في الأصمعيات تحت رقم ٢٤ ، وفي جمهرة أشعار العرب ، وفي الخزانة ، والبيت في اللسان (لَسَنَ) ، وهو مطلع القصيدة ، وقد اختلفت هذه المصادر في روايته ، ففي الأصمعيات :

قَدْ جَاءَ مِنْ عِلِّ أَنْبَاءَ أَنْبَاهَا إِلَيَّ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخْرُ

وفي الجمهرة ، واللسان :

إِنِّي أَتَّيْتُ لِسَانَ مَا أُسْرُ بِهَِا مِنْ عَلَوَّ لَا عَجَبٌ فِيهَا وَلَا سَخْرُ

قال في اللسان : « اللِّسَانُ : جارحة الكلام ، وقد يُكْنَى بها عن الكلمة فيؤنث حينئذ ، قال أعشى باهله : إِنِّي أَتَّيْتُ لِسَانَ... البيت » ، وقال ابن بري : اللسان هنا : الرسالة ، و (من عَلَوَّ) ، أو (مِنْ عِلِّ) بالحركات الثلاث على اللام : أي : جاءتني من أعلى ، يريد أعلى نجد ، ، والسَّخْرُ : السخرية ، - وقد تفتح السين والخاء ، وقد تضم كل منهما - ، والسَّخْرُ بمعنى السُّخْرِيَّة والهُزُو هو موضع الاستشهاد هنا .

أم زاغت ؟ ومعنى هذا الكلام : أَلَيْسُوا معنا أم هُم معنا ولكن أبصارنا تميل عنهم فلا نراهم ؟ و « الزَّيْغُ » : الميل .

ثم أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ، و [تَخَاصُمُ] بدلٌ من قوله : [لَحَقٌّ] .
وقرأ ابن أبي عبة : [تَخَاصُمَ] بفتح الميم ، وقرأ ابن محيصن : [تَخَاصُمُ] بالتنوين (أَهْلُ النَّارِ) برفع اللام .

ثم أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يتجرد للكفار من جميع الأغراض إلا أنه منذرٌ لهم ، وهذا توعُّدٌ بليغٌ محرِّكٌ للنفوس ، وباقي الآية بينٌ .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ
الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٨٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٨١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي
فَقَعُوهُ لَهٗ سَاجِدِينَ ﴿٨٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٨٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ
اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى التوحيد والمعاد ،
فهي إلى القرآن وجميع ما تضمنه وعده أن التصديق به نجاة

والتكذيب به هلكة . وحكى الطبري أن شريحاً اختصم إليه أعرابي ، فشهد عليه ، فأراد شريح أن ينفذ الحكم ، فقال الأعرابي : أتحكم عليّ بالنبأ؟ فقال شريح : نعم ، إن الله تعالى يقول في القرآن : ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ، وقرأ الآية ، وحكم عليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الجواب من شريح إنما هو بحسب لفظ الأعرابي ، ولم يُحرز معه الكلام ، وإنما قصد إلى ما يقطعه به ؛ لأن الأعرابي لم يُفرّق بين الشهادة والنبأ ، و «النبأ» في كلام العرب بمعنى الخبر . ووبّخهم تبارك وتعالى بقوله : ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ .

ثم قال : ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ، وهذا احتجاج لصحة أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : هذا أمر خطير ، وأنتم عنه معرضون مع صحته ، ودليل صحته أنني أخبركم فيه بغيوب لم تأت إلا من عند الله ، فإني لم يكن لي علم بالملأ الأعلى وقت خصومتهم لولا أن الله تعالى أخبرني بذلك . وأراد بهم الملائكة ، والضمير في [يَخْتَصِمُونَ] عند جمهور المفسرين هو للملائكة .

واختلف الناس في الشيء الذي هو اختصاصهم فيه - فقالت فرقة : اختصاصهم في أمر آدم عليه السلام وذريته في جعلهم في الأرض ،

ويدلُّ على ذلك ما يلي من الآيات ، فقول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (١) هو الاختصاص ، وقالت فرقة : بل اختصاصهم في الكفارات وغفر الذنوب ونحوه ؛ فإن العبد إذا فعل حسنةً اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما شاء ، وورد في هذا حديث فسره ابن فورك ؛ لأنه يتضمن أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له ربه عزَّ وجلَّ في نومه : فيم يختصمون ؟ فقلت : لا أدري ، فقال : في الكفَّارات ، وهي : إسباغُ الوضوءِ في السَّبرات (٢) ، ونقل الخطيُّ إلى الجماعات ، الحديث بطوله ، قال : (فوضع الله سبحانه وتعالى يده بين كتفيَّ حتى وجدتُ بردَها فيما بين ثديي) (٣) .

(١) من الآية (٣٠) من سورة (البقرة) .

(٢) السَّبرات : جمع سَبْرَة ، وهي الغداةُ الباردة .

(٣) لهذا الحديث طرق متعددة ، وقد ذكرها كلها الإمام السيوطي في (الدر المشثور) ، وقد أخرجه أحمد في مسنده ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نترأى قرْن الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، فنوّب بالصلاة وصلى وتجوَّز في صلاته ، فلما سلّم قال : كما أنتم على مصافِّكم ، ثم أقبل إلينا فقال : إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قمتُ من الليل فصلَّيتُ ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت ، فإذا أنا بربي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، أتدري فيم يختصم الملائ الأعلی ؟ قلت : لا أدري يا رب . قال : يا محمد ، فيم يختصم الملائ الأعلی ، قلت : لا أدري رب ، فرأيتُه وضع كفه بين كتفيَّ ، حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلَّي لي كل شيء ، وعرفت ، فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملائ الأعلی ؟ قلت : في الكفَّارات ، فقال : وما الكفَّارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، وجولس في المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات ، قال : وما الدرَّجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سلَّ ، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فتفسير هذا الحديث أن اليد هي نعمة العلم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : بَرَدَهَا ، أي : السُّرورُ بها والثَّلجُ ، كما تقول العرب في الأمر السَّارُّ : يا بَرَدَهُ على الكبد ، ونحو هذا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ هِيَ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ) (١) ، أي : السهلة التي يُسَرُّ بها الإنسان .

وقالت فرقة : المراد بـ ﴿الْمَلَأَ الْأَعْلَى﴾ الملائكة ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مقطوعٌ منه ، ومعناه : إذ يختصم العرب الكافرة

قلت : اللهم أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمي ، وإذا أردت فتنة في قومٍ فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك وحباً من يُحبُّك وحباً عمل يُقرَّبني إلى حبك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنها حقٌ فادرسوها وتعلّموها) . وابن كثير يؤكد أن هذا حديث المنام المشهور ، قال : ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو في السنن من طرق ، وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث جهّم بن عبد الله اليمامي ، وقال : حسنٌ صحيح . وقال الترمذي : سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا فقال : هذا حديث حسنٌ صحيح .

(١) لم أجد الحديث بلفظ الصلاة ، والذي رأيتُه في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) أن الحديث عن الصيام في الشتاء ، وقال : أخرجه الترمذي في الصوم ، والإمام أحمد في مسنده (٣٣٥-٥) ، وكذلك ذكره ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) ، وشرح معنى باردة . ونص ما ذكره أحمد في مسنده هو : (عن عامر ابن مسعود الجُمَحِي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصوم في الشتاء الغنيمَةُ الْبَارِدَةُ) ، قال ابن الأثير : «أي : لا تَعَبَ فيه ولا مشقَّة ، وكل محبوب عندهم بارد ، وقيل : معناه الغنيمَةُ الثابتة المستقرة ، من قولهم : بَرَدَ لي على فلان حقٌ ، أي : ثبت . وسواءً أكان الحديث عن الصيام أو عن الصلاة فالشاهد فيه أن كلمة (باردة) تؤدي معنى السهولة التي تريح الإنسان وتسره .

في الملائكة الأعلى ، فيقول بعضها : هي بناتُ الله ، ويقول بعضها : هي آلهة تُعبد ، وغير ذلك من أقوالهم .

وقالت فرقة : أراد بـ (الملائكة الأعلى) قريشاً ، وهذا ضعيف لا يتقوى

من جهة .

وقرأ جمهور الناس : (إِلَّا أَنَّمَا) بفتح الألف كأنه يقول :

إِلَّا الْإِنذَار ، وقرأ أبو جعفر : (إِلَّا إِنَّمَا) على الحكاية ، كأنه قيل

له : «أنت نذيرٌ مُبينٌ» ، فحكى هو المعنى ، وهذا كما يقول الإنسان :

أنا عالمٌ ؟ فيقال له : أنت عالم ، فيحكي المعنى .

و [إِذْ] في قوله تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ) بدلٌ من [إِذْ] الأولى ،

على تأويل من رأي الخصومة في شأن من سيخلف في الأرض ، وعلى

الأقوال الأخرى يكون العامل في [إِذْ] الثانية فعل مضمَر تقديره :

اذكُرْ إِذْ قَالَ ، و «الْبَشَرُ الْمَخْلُوقُ» هو آدم عليه السلام . . و [سَوِيئُهُ] [

يريد به شخصه . و (نَفَخْتُ فِيهِ) عبارة عن إجراء الروح فيه ،

وهي عبارة على نحو ما يفهم البشر من إجراء الأشياء بالنفخ ، وقوله

تعالى : (مِنْ رُوحِي) هي إضافة ملكٍ إلى مالك ؛ لأن الأرواح كلها

هي ملكٌ لله تبارك وتعالى ، وأضاف إلى نفسه تشريفاً . وقوله تعالى :

[سَاجِدِينَ] اختلف الناس فيه - فقالت فرقة : هو السجود المتعارف ،

وقالت فرقة : معناه : خاضعين ، على أصل السجود في اللغة . ثم أخبر

تعالى أن الملائكة بأجمعهم سجدوا إلا إبليس فإنه استكبر عن السجود .

وقوله : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ يحتمل أن يريد به : وكان من أول أمره من الكافرين في علم الله تعالى ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يريد : ووُجِدَ عند هذه الغفلة من الكافرين ، وعلى القولين فقد حكم الله تعالى على إبليس بالكفر ، وأخبر أنه كان قد عقد قلبه في وقت الامتناع .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أُسْكِبَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاعْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾

القائل لإبليس هو الله عز وجل ، وقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ تقرير وتوبيخ ، وقرأ عاصم الجحدري : ﴿ لَمَّا خَلَقْتُ ﴾ بفتح اللام من [لَمَّا] وشد الميم ، وقرأ جمهور الناس : [بِإِيْدِي] بالثنية ، وقرأت فرقة : [بِإِيْدِي] بتخفيف الياء (١) ، وقد جاء في كتاب الله تعالى :

(١) في بعض النسخ : « بفتح الياء » .

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ (١) بالجمع ، وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة ، وعبر عن هذا المعنى بذكر اليد تقريباً على السامعين ؛ إذ المعتاد عن البشر أن القوة والبطش والافتقار إنما هو باليد ، وقد كانت جهالة العرب بالله تعالى تقتضي أن تنكر نفوسها أن يكون خلقٌ بغير مماسّة ونحو هذا من المعاني المعقولة . وذهب القاضي ابن الطيّب إلى أن اليد والوجه والعين صفات ذات زائدة على القدرة والعلم وغير ذلك من متقرر صفاته تعالى ، وذلك قولٌ مرغوب عنه ، ويُسمّيها الصفات الخبرية . ورؤي في بعض الآثار أن الله تعالى خلق أربعة أشياء بيده ، وهي : العرش ، والقلم ، وجنة عدن ، وآدم ، وسائر (٢) المخلوقات بقوله : كُنْ ، وهذا - إن صحَّ - فإنما ذكر على جهة التشريف للأربعة والتنبيه منها ، وإلا فإذا حققنا النظر فكل مخلوق هو بالقدرة التي بها يقع الإيجاد بعد العدم .

وقرأت فرقة : [أَسْتَكْبَرْتَ] بصِلَة الألف ، على الخبر عن إبليس (٣) ،

(١) من قوله تعالى في الآية (٧١) من سورة (يسن) : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ .
(٢) أي : وخلق سائر المخلوقات ، فهي معطوفة على (أربعة) من قول المؤلف : «خلق أربعة أشياء» .

(٣) هي قراءة ابن كثير ، وأهل مكة ، ويحتمل أن تكون إخباراً كما ذكر ابن عطية ، والغرض منه التقرّيع ، و [أم] منقطعة ، والمعنى : بل أنت من العالين عند نفسك . ويحتمل أن تكون همزة الاستفهام وحذفت لأن [أم] دلّت عليها ، كقول عمر بن أبي ربيعة :
لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًّا بِسَبْعِ رَمِيمِنَ الْجَمْرِ أَمْ بِثِمَانَ
وهو شاهد على أن ألف الاستفهام تحذف لضرورة الشعر وذلك للدلالة (أم) عليها .

وتكون [أم] بنية الانقطاع لا مُعَادِلَةً لها ، وقرأت فرقة : [أَسْتَكْبَرْتُ] بقطع الألف ، على الاستفهام ، ف [أم] - على هذا - مُعَادِلَةٌ للألف ، وذهب كثير من النحويين إلى أن [أم] لا تكون مُعَادِلَةً للألف مع اختلاف الفعلين ، وإنما تكون مُعَادِلَةً إذا دخلتا على فعلى واحد ، كقولك : أزيدُ قام أم عمرو ؟ وقالوا : وإذا اختلفت الفعلان كهذه الآية فليست معادلة (١) . ومعنى الآية : أَحَدَتْ لك الاستكبارُ الآن أم كنت قديماً ممن لا يليق أن يكلف مثل هذا لعلو مكانك ؟ وهذا على جهة التوبيخ .

وقول إبليس : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قياسٌ أخطأ فيه ، وذلك أنه لما توهم أن النار أفضل من الطين قاسَ أن ما خلق من الأفضل فهو أفضل من الذي خلق من المفضول ، ولم يدر أن الفضائل تخصيصاتٌ من الله تعالى يسمُّ بها من يشاء ، وفي قوله ردُّ على حكمة الله تعالى وتجويز ، وذلك بين في قوله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ (٢) ، ثم قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ، وعند هذه المقالة اقترن كفر إبليس به ، إماماً عناداً - على قول من يجيزه - ، وإماماً بأن سلب المعرفة ، وظاهر أمره أنه كفرٌ عنادٍ ؛ لأن الله تعالى قد حكم عليه بأنه كافر ، ونحن نجده

(١) نقل أبو حيان في (البحر المحيط) هذا الكلام عن ابن عطية ، ثم قال تعقياً عليه : « وهذا الذي ذكره عن كثير من النحويين مذهبٌ غير صحيح ، قال سيبويه : وتقول : أضربت زيداً أم قتلتَه ، فالبدءُ هنا بالفعل أحسن ؛ لأنك إنما تسأل عن أحدهما ، لا تدري أيهما كان ، ولا تسأل عن موضع أحدهما ، كأنك قلت : أيُّ ذلك كان . اه فعدالَ ب (أم) الألف مع اختلاف الفعلين . »

(٢) من الآية (٦٢) من سورة (الإسراء) .

خلال القصة يقول : (يَارَبُّ ، وَبِعِزَّتِكَ ، وَإِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ) ، فهذا كله يقتضي المعرفة ، وإن كان للتأويل فيه مزاحم ، فتأمله .

ثم أمر الله تعالى إبليس بالخروج على جهة الدُّخُور له (١) ، وقالت فرقة : أمره بالخروج من الجنة ، وقالت فرقة : من السماء . وحكى الثعلبي عن أبي الحسن ، وأبي العالية أن قوله تعالى : [مِنْهَا] يريد تعالى : من الخلقة التي أنت فيها ، ومن صفات الكرامة التي كانت له ، قال الحسن بن الفضل : ورجعت له أضدادها ، وعلى القول الأول فإنما أمر أمراً يقتضي بعده عن السماء ، ولا خلاف أنه أهبط إلى الأرض . و « الرَّجِيمُ » : المرجوم بالقول السيئ ، و « اللَّعْنَةُ » : الإبعاد ، و « يَوْمُ الدِّينِ » : يوم القيامة . و « الدِّينُ » : الجزاء .

وإنما حدَّ الله تعالى له اللعنة بيوم الدين ، ولعنته إياه إنما هي مُخَلَّدَةٌ ، ليحصر له أمر التوبة ؛ لأنَّ امتناع توبته بعد يوم القيامة بينٌ ؛ إذ ليست الآخرة دار عمل .

ثم إن إبليس طلب النَّظْرَةَ وتأخيرَ الأجل إلى يوم بعث الأجساد من القبور ، فأعطاه الله تعالى الإبقاء إلى يوم الوقت المعلوم ، واختلف الناس في تأويل ذلك - فقال الجمهور : أسعفه الله تعالى في طلبته وأخَّره إلى يوم القيامة ، وهو الآن حيٌّ مُغْوٍ مُضِلٌّ - وهذا هو الأصح

(١) الدُّخُورُ : الدَّلَّةُ والصَّغَارُ والهوانُ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ .

من القولين - ، وقالت فرقة : لم يُسَعَف بِطَلْبَتِهِ ، وإنما أُسَعِفَ إِلَى
الوقت الذي سبق من الله تبارك وتعالى أن يموت إبليس فيه . وقال
بعض هذه الفرقة : مات إبليس يوم بدر .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ
فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٩﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٠﴾ قُلْ
مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّهُ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾
وَلتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٩٣﴾ ﴾

القائل هو إبليس ، أقسم بعزة الله تعالى ، قال قتادة : علم عدو الله
أنه ليست له عزة فاقسم بعزة الله سبحانه أنه يُغوي ذرية آدم أجمع ،
إلا من أخلصه الله للإيمان به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا استثناء الأقل عن الأكثر ، على باب الاستثناء ؛ لأن المؤمنين
أقل من الكفرة بكثير ، بدليل بعث النار (١) وغيره ، وجوز قوم

(١) حديث بعث النار أخرجه البخاري في الأنبياء ، وتفسير سورة الحج ، والرقاق ،
والتوحيد ، ومسلم في الإيمان والفتن ، والترمذي في تفسير سورة الحج ، وأحمد في مسنده =

أَنْ يُسْتَثْنَى الْكَثِيرُ مِنَ الْجُمْلَةِ وَيَتْرَكَ الْأَقْلُ عَلَى الْحَكْمِ الْأَوَّلِ ، وَاحْتَجُّوا
 بقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١)
 وقال من ناقضهم : العبادُ هنا يُعْمُ البشرَ والملائكةُ ، فبقي الاستثناءُ
 على بابِه في أَنْ الْأَقْلُ هو المستثنى . وفتح اللَّامِ وكسرهما في
 [الْمُخْلِصِينَ] تقدم .

والقائل : ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾ هو الله تعالى ، قال مجاهد :
 المعنى : فَالْحَقُّ أَنَا . وقرأ الجمهور بالنصب في الاثنيين ، فأما الثاني
 فمنصوب بـ [أَقُولُ] ، وأما الأول فيحتمل الإغراء ، أو القسم على
 إسقاط حرف القسم ، فكأنه قال : « فوالحق » ، ثم حذف الحرف ،
 كما تقول : « الله لأفعلن » ، تريد : والله ، ويُقَوِّي ذلك قوله : [لَأَمْلَأَنَّ] ،

(١-٣٨٨ ، ٢-١٦٦ ، ٣-٣٣ ، ٤-٤٣٢ ، ٤٣٥) . ولفظه كما رواه البخاري في تفسير
 سورة الحج ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله عز وجل
 يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن
 تُخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يارب وما بعثُ النار ؟ قال : من كل ألف أراهُ قال :
 تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الولد ، وترى الناس سُكَّارِي
 وما هم بسُكَّارِي ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ،
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ،
 ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور
 الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا رُبُع أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : ثلثُ أهل الجنة ،
 فكبرنا ، ثم قال : شَطْرُ أهل الجنة ، فكبرنا) .
 (١) الآية (٤٢) من سورة الحجر .

قال سيبويه : قلتُ للخليل : ما معنى «لأفعلن» إذا جاءت مبتدأ ؟ فقال : هو بتقدير قَسَمَ منوي . وقالت فرقة : الأول منصوب بفعل مضمر . وقرأ ابن عباس ، ومجاهد برفع الاثنيين ، فأما الأول فبالابتداء ، وخبره في قوله : [لَأَمْلَأَنَّ] ؛ لأن المعنى : أَنْ أَمْلَأَنَّ (١) ، وأما الثاني فعلى الابتداء أيضاً . وقرأ عاصم ، وحمزة بالرفع في الأول ، وهي قراءة مجاهد ، والأعمش ، وأبان بن تغلب ، وإعرابُ هذه بينٌ . وقرأ الحسنُ : ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ ﴾ بخفض القاف على القسم ، ذكرها أبو عمرو الداني (٢) .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أَنْ يخبرهم بأنه ليس بسائلٍ أجرٍ ولا مالٍ ، وأنه ليس ممن يتكلف ما لم يُجعل إليه ،

(١) قال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) تعقياً على هذا الإعراب بعد أن نقله عن ابن عطية : « وهذا ليس بشيء ؛ لأن [لَأَمْلَأَنَّ] جواب قسم ويجب أن يكون جملة ، فلا يتقدر بمفرد ، وأيضاً ليس مصدرأً مُتَدَرِّجاً بحرف مصدرِيّ والفعل حتى ينحلَّ إليهما ، ولكنه لما صحَّ له إسناد ما قدر إلى المبتدأ حكم أنه خبرٌ عنه » ، وقدَّر أبو حيان الخبر محذوفاً ، فقيل : تقديره : فالحقُّ أنا ، وقيل : فالحقُّ مني ، وقيل : تقديره : فالحقُّ قسمي . وحذف الخبر كما حذف في قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِداً وَكَو قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

إذ التقدير : يمين الله قَسَمِي .

(٢) وهي أيضاً قراءة عيسى ، وعبد الرحمن بن أبي حماد ، عن أبي بكر ، وتُخْرَجُ على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة ، والتقدير . فَوَ الْحَقُّ ، والثاني معطوف عليه ، كما تقول : واللهِ واللهِ لأفعلنَّ كذا .

ولا يتحلَّى بغير ما هو فيه . قال الحسين بن الفضل : هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (١) ، وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه : نادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم : (اللَّهُم اغفر للذين لا يدعون ولا يتكلمون ، أَلَا إِنِّي بريءٌ من التكلف ، وصالحو أمي) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد : القرآن ، و ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي : تذكيرة . ثم توعدهم تعالى بقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ، وهذا على حذف تقديره : وَلَتَعْلَمُنَّ صَدَقَ نَبِيُّهُ بَعْدَ حِينٍ مِنْ تَوْعَدِكُمْ .

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الشورى) .

(٢) أخرج الديلمي ، وابن عساكر ، عن الزبير رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إِنِّي لَا أَلِي مِنَ التَّكْلِيفِ وَصَالِحُو أُمَّتِي) . (الدر المنثور) . هذا وفي التكلِّف آثار كثيرة ، منها ما أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن مسروق رضي الله عنه ، قال : بينما رجلٌ يُحدِّثُ في المسجد فقال فيما يقول : يوم تأتي السماءُ بدخانٍ يكون يوم القيامة ، يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، قال : فقمنا حتى دخلنا على عبد الله رضي الله عنه وهو في بيته ، فأخبرناه ، وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال : أيُّها الناس ، من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُسْتَكَفِينَ ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم : (للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى مالا ينال ، ويقول مالا يعلم) .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ إلى أي وقت أشار ؟ لأن (الحين) في اللغة يقع على القليل والكثير من الوقت ، فقال ابن زيد : أشار إلى يوم القيامة ، وقال قتادة والحسن : أشار إلى الآجال التي لهم ؛ لأن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته ، وقال السدي : أشار إلى يوم بدر ؛ لأنه يوم عرف الكفار فيه صدق وعيد القرآن لهم .

كامل تفسير سورة (ص) والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة الزمر (١)

هذه السورة مكية بإجماع ، غير ثلاث آياتٍ نزلت في شأن وحنبي
قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وهي : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ
الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الآيات ، وقالت
فرقة : بل إلى آخر السورة هو مدني ، وقيل : فيها مدني سبع آيات (٢).

(١) وتسمى سورة الغرف ، قال وهب بن منبه : من أراد أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ سورة الغرف .

(٢) تبدأ بقوله تعالى في الآية (٥٣) : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... ﴾ إلى آخر السبع . وأخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول : ما يريد أن يُفْطِرَ ، ويُفْطِرُ حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزممر » ، وأخرجه الترمذي عنها بلفظ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل » .

قوله عز وجل :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾

[تَنْزِيلُ] رفع بالابتداء ، والخبر قوله : (مِنَ اللَّهِ) ، وقالت فرقة :
[تَنْزِيلُ] خبر ابتداءٍ تقديره : هذا تنزيل ، والإشارة إلى القرآن
الكريم ، وقرأ ابن أبي عملة : [تَنْزِيلَ] بنصب اللام . و [الْكِتَابِ]
في قوله : (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) هو القرآن الكريم ، ويظهر لي أنه اسم
عام لجميع ما ينزل من عند الله من الكتب ، وكأنه تعالى أخبر
إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزلها من الله عز وجل ،
وجعل هذا الإخبار مقدمةً وتوطئة لقوله : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ) ،
و «العزیز» في قدرته ، و «الحكيم» في إبداعه . و «الْكِتَابَ» الثاني
هو القرآن لا يحتمل غير ذلك . وقوله سبحانه : [بِالْحَقِّ] يحتمل
معنيين : أحدهما أن يكون معناه : متضمناً الحق ، أي : الحق فيه
وفي أحكامه وفي أخباره ، والثاني أن يعنى الاستحقاق والوجوب
وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله .

وقوله تعالى : (فَاعْبُدِ اللَّهَ) يحتمل أن تكون الفاء عاطفةً جُملةً
من القول على جُملة وواصلة ، ويحتمل أن تكون كالجواب ؛ لأن

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ جملة ، كأنه ابتداء وخبره ، كما لو قال : الكتاب منزل ، وفي الجمل التي هي ابتداء وخبر إبهامٌ ما يُشبه الجزاء ، فجاءت الفاء كالجواب ، كما تقول : زيد قائمٌ فأكرمه ، ونحو هذا قول الشاعر :

وَقَائِلَةٌ خَوْلَانٌ فَانْكِحْ فَتَاتَهُمْ (١)

التقدير : هذه خولان . و [مُخْلِصًا] حالٌ ، و [الدين] نصب به ، ومعنى الآية الأمر بتحقيق النية لله في كل عمل ، و «الدين» هنا يعم المعتقدات وأعمال الجوارح . وقوله سبحانه : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ بمعنى : من حقه ومن واجباته ، لا يقبل غيره ، وهذا كقولك : «لله الحمد» ، أي : واجباً ومستحقاً . قال قتادة : ﴿ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ﴾ رفع بالابتداء ، وخبره في المحذوف المقدر ، وتقديره : «يقولون : ما نعبدهم» ، وفي مصحف ابن مسعود : «قالوا : ما نعبدهم» ، وهي قراءة ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير . و [أُولِيَاءَ] يريد : معبودين ، وهذه مقالة شائعة في العرب ، يقول

(١) هذا البيت من أبيات سيويه الخمسين التي لم يعرف لها ناظم ، وهو في الكتاب ، والخزانة ، وابن يعيش ، والهمع ، وشرح شواهد المغني ، وهو شاهد عند سيويه على أن (خولان) خبر مبتدئ محذوف ، والتقدير : هذه خولان ، وعند الفراء : خولان مبتدأ ، وخبره :

انْكِحْ ، والفاء زائدة ، والمذكور هنا هو صدر البيت ، وهو بتمامه :

وَقَائِلَةٌ خَوْلَانٌ فَانْكِحْ فَتَاتَهُمْ وَأَكْرَوْمَةٌ الْحَيِّينَ خَلَوْكَمَا هِيَا

والأَكْرَوْمَةُ : فعل الكرم ، مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي : ومُكْرَمَةٌ الْحَيِّينَ ، والمراد بالحَيِّينَ حيُّ أبيها وحيُّ أمها . وخالية لا زوج لهما ، والجملة في محل نصب على الحال ، والمعنى : ربّ قائلة لي : هذه خولان فانكح فتاتهن ، فقلت : كيف أنكحها وأكرومة الحيين خالية عن الزوج ، وقوله : كما هي ، معناه : كما كانت خلوأ فيما مضى .

كثير منهم في الجاهلية : « الملائكة بنات الله ، ونحن نعبدهم ليقربونا » ،
 وطائفة منهم قالت ذلك في أصنامهم وأوثانهم . وقال مجاهد : قد
 قال ذلك قوم من اليهود في عزير ، وقوم من النصارى في عيسى ،
 وفي مصحف أبي بن كعب : « نَعْبُدُكُمْ » بالكاف ، « لِتُقَرَّبُونَا » بالتاء .
 و [زُلْفَى] بمعنى : قُرْبَى وتَوْصِلَةٌ ، كأنه قال : لِتُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ تَقْرِيْبًا ،
 وَكَأَنَّ هَذِهِ الطَّوَائِفَ كُلَّهَا كَانَتْ تَرَى نَفُوسَهَا أَقْلَ مِنْ أَنْ تَتَّصَلَ هِيَ
 بِاللَّهِ ، فَكَانَتْ تَرَى أَنْ تَتَّصَلَ بِمَخْلُوقَاتِهِ ، وَ [زُلْفَى] - عِنْدَ سَيَّبِيهِ -
 مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، كَأَنَّهُ يَنْزِلُ مِنْزَلَةً : مُتَزَلِّفِينَ ، وَالْعَامِلُ فِيهِ
 [تُقَرَّبُونَا] ، هَذَا مَذْهَبُهُ وَفِيهِ خِلَافٌ . وَبَاقِي الْآيَةِ وَعَيْدٌ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ ﴿٤﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْتَدَّ وَلَدًا لَأَصْطَفَى
 مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٦﴾ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾

هذه الآية إما أن يكون معناها : إن الله لا يهدي الكاذب الكفار
 في حال كذبه وكفره ، وإما أن يكون لفظها العموم ومعناها الخصوص

فيمن حتم الله عليه بالكفر ، وقضى في الأزل أنه لا يؤمن أبداً ، وإلا فقد وجد الكاذب الكفار وقد هُدي كثيراً . وقرأ أنس بن مالك ، والجحدري : « كَذَابُ كَفَّارٌ » بالمبالغة فيهما ، ورُويت عن الحسن ، والأعرج ، ويحيى بن يعمر ، وهذه المبالغة إشارة إلى المتوغل في الكفر ، القاسي فيه ، الذي يُظنُّ بأنه محتوم عليه .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ معناه : اتخاذ الشريف والتبني ، وعلى هذا يستقيم قوله سبحانه : ﴿ لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ ، وأما اتخاذ المعهود بالتوالد فمستحيل أن يتوهم في جهة الله سبحانه وتعالى ، ولا يستقيم عليه معنى قوله : ﴿ لَأَصْطَفَى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ (١) لفظ يُعمُّ اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء ، فأما الأول فمعقول ، وأما الثاني فمعروف بخبر الشرع ، ومما يدل على أن المعنى هنا الاصطفاء والتبني قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ ، أي : من موجوداته ومُحدثاته . ثم نزهة تعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع مالا يكون مدحةً . واتصافه تعالى بالقهار على الإطلاق ؛ لأن أحداً من البشر إن اتصف بالقهر فمقيدٌ في أشياء كثيرة قليلة ، وهو في حين قهره لغيره مقهور لله تعالى على أشياء كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ معناه : بالواجب الواقع موقعه الجامع للمصالح . وقوله تعالى : ﴿ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ ﴾ معناه : يُعيد من هذا على هذا ، ومنه : كَوَّرَ العمامة التي يلتوي بعضها على بعض ، فكأن الذي يطولُ

(١) الآية (٩٢) من سورة (مريم) .

من النهار أو من الليل يصير منه على الآخر جزءً فيستره ، وكان الآخر الذي يقصر يَلِجُ في الذي يطول فيُستَر فيه ، فيجيء [يُكْوَر] - على هذا - معادلاً لقوله تعالى : [يُولِجُ] (١) ، ضدًا له . قال أبو عبيدة : هما بمعنى واحد ، وهذا من قوله تقريب لا تحرير .

وتسخير الشمس دَوَامُهَا على الجري واتساق أمرها على ما شاء الله تبارك وتعالى ، و «الأَجَلُ المُسَمَّى» يحتمل أن يكون يوم القيامة حين تنفسد البنية ويزول جري هذه الكواكب ، ويحتمل أن يريد أوقات مغيبها كل يوم وليلة ، ويحتمل أن يريد أوقات رجوعها إلى قوانينها كُلَّ شهر في القمر ، و (كُلُّ) (٢) سنة في الشمس .

قوله عز وجل :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً
 أَزْوَاجًا بِحُلُوقِكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظَلَمْتِ ثَلَاثَ ذَكَرُ
 اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

النفس الواحدة المرادة في هذه الآية هي نفس آدم عليه السلام ، قاله قتادة وغيره ، ويحتمل أن يكون اسم الجنس . وقوله تعالى :

(١) تكررت هذه الكلمة في آيات كثيرة ، هي الآية (٦١) من سورة (الحج) ، والآية (٢٩) من سورة (لقمان) ، والآية (١٣) من سورة (فاطر) ، والآية (٦) من سورة (الحديد) .
 (٢) زيادة لتوضيح المعنى .

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) ظاهر اللفظ يقتضي أن جعل الزوجة من النفس هو بعد أن خلق الخلق منها ، وليس الأمر كذلك ، واختلف الناس في تأويل هذا الظاهر - فقالت فرقة : قوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هو أخذ الذرية من ظهر آدم ، وذلك شيء كان قبل خلق حواء منه ، وقالت فرقة : [ثُمَّ] إنما هي لترتيب الإخبار لا لترتيب المعاني ، فكأنه تعالى قال : « ثم كان من أمره قبل ذلك أن جعل منها زوجها » ، وفي نحو هذا يُنشَد هذا البيت :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ (١)

وقالت فرقة : قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ عبارة عن سبق ذلك في علم الله تعالى ، فلما كان ذلك أمراً حتماً واقعاً ولابد ، حَسُنَ أن يُخبر عن تلك الحال التي كانت وثيقة ، ثم عطف عليها حالة جعل الزوجة منها ، فجاءت معانٍ مترتبة وإن كان خروج خلق العالم من آدم إلى الوجود إنما يجيء بعد ذلك . و « زَوْجُ آدَمَ » هي حواءُ عليهما السلام ، وَخُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ الْقَصِيرِ فيما رُوِيَ ، ويؤيد هذا الحديثُ الذي فيه : (إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ أَعْوَجَ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ

(١) يمدحه بالسيادة أباً عن جدِّ ، والسَّيِّدُ : الرئيس الذي فاق غيره بالعقل والمال والدَّفْع والنَّمْع ، والشاهد في البيت هنا أن (ثُمَّ) لا تفيد ترتيب المعاني ، وإنما تفيد ترتيب الخبر بعد الخبر .

تقييمه كسرته) (١) ، وقالت فرقة : خلقت حواء من نفس طين آدم عليه السلام . والأول أصح ، وقد تقدم شرح ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ ﴾ ، قيل : معناه : إن المخلوق الأول من هذه الأنعام خلق في السماء وأهبط إلى الأرض ، وقالت فرقة : بل لما نزل الأمر بخلقه وإيجاده من عند الله - وكانت العادة في نعم الله تعالى ورحمته وأمطاره وغير ذلك أن يُقال : إنها من السماء - عبر عن هذه بـ [أنزل] ، وقالت فرقة : لما كانت الأمطار تنزل ، وكانت الأعشاب والنبات عنها كانت هذه الأنعام عن النبات في سمتها ومعانيها قال فيها : [أنزل] ، فهو على التدرج ، كما قال الراجز :

* أَسْنِمَةُ الْآبَالِ فِي رَبَابَةٍ * (٢)

(١) أخرجه البخاري والدارمي في النكاح ، ومسلم في الرضاة ، وأحمد في مسنده (٢/٤٢٨ ، ٤٤٩ ، ٤٩٧) ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضياع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهب تقييمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً) .

(٢) أَسْنِمَةُ : جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير والناقة ، والآبال : جمع الإبل ، قال الجوهري : والإبل معروفة وهي مؤنثة لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم . والرَبَابُ بالفتح : سحاب أبيض ، واحدته ربابة ، وقيل : هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب ، وبهذا سميت المرأة الرباب ، لما كانت الأمطار تنزل ، والأعشاب تنبت عنها ، والإبل تأكل الأعشاب فتسمن وتكبر أسنمتها ، كانت الأسنمة كأنها نشأت من الرباب ، أو بدأ تكوين الأسنمة في الرباب على التدرج كما قال المؤلف .

وكما قال الشاعر :

تَعَالَى النَّدَى فِي مَتْنِهِ وَتَحَدَّرًا (١)

وجعلها ثمانية أزواج لأن كل واحد فيه زوج للذكر من نوعه ،
وهي : الضأن والمعز والبقر والإبل .

قوله تعالى : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ،
قال ابن زيد : معناه : يخلقكم في البطن خلقاً من بعد خلق آخر
في ظهر آدم وظهور الآباء ، وقال مجاهد ، وعكرمة ، والسدي :
يخلقكم في البطن رتباً خلقاً بعد خلق على المضغة والعلقة وغير ذلك .
وقرأ عيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف : [يَخْلُقُكُمْ] بإدغام القاف
في الكاف في جميع القرآن ، وقرأ الجمهور : [أُمَّهَاتِكُمْ] بضم الهمزة ،
وكسرها يحيى بن وثاب ، وهما لغتان . وقوله : ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾
قالت فرقة : الأولى : ظهر الأب ، ثم رحم الأم ، ثم المشيمة في
البطن . وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : هي المشيمة ،
والرحم ، والبطن (٢) . وهذه الآية كلها معتبر وتنبيه لهم على الخالق

(١) المتن من كل شيء : ما صلب ظهره ، والجمع متون وميتان ، وتحدر الشيء :
إقباله ، وقد تحدر تحدرًا : نزل في تدفق من علو إلى سفلى ، وفي حديث الاستسقاء :
رأيت المطر يتحادر على لحيته ، أي ينزل ويقطر .

(٢) في مؤتمر «الإعجاز الطبي في القرآن الكريم» الذي عقد بالقاهرة - أغسطس ١٩٨٥ -
أعلن بعض الأطباء من غير المسلمين إسلامهم لأنهم اكتشفوا أن الغشاء الذي يحمي الطفل في
بطن أمه مكون من ثلاث طبقات رقيقة ، وأنهم لم يكتشفوا هذه الحقيقة إلا أخيراً ، ثم علموا
أن القرآن الكريم قد تحدث عنها منذ ألف وأربعمائة عام في هذه الآية الكريمة ، فكان إسلامهم
عن قناعة علمية كاملة .

الصانع الذي لا يستحق العبادة غيره ، وهذا كله في ردِّ أمر الأصنام والإفساد لها . ثم قال تعالى لهم : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ، وقد قامت على ذلك البراهين واتسقت الأدلة ، ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ ، أي : من أي جهة تضلُّون ؟ وبأي سبب ؟

قوله عز وجل :

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم ، و «عِبَادَةٌ» هم المؤمنون ، ويحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس ؛ لأن الله غنيٌّ عن جميع الناس وهم فقراءٌ إليه ، وبين بُعد البشر عن رضى الله إن كفروا بقوله : ﴿ إِن تَكْفُرُوا ﴾ .

واختلف المتأولون من أهل السنة في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ - فقالت فرقة : الرضى بمعنى الإرادة ، والكلام ظاهره

العموم ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وحتمه له ، فعباده - على هذا - ملائكته ومؤمنو البشر والجن ، وهذا يتركب على قول ابن عباس رضي الله عنهما . وقالت فرقة : الكلام عموم صحيح ، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى ؛ إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم ، وهذا يتركب على الاحتمال الذي تقدم آنفاً ، ومعنى ﴿لَا يَرْضَى﴾ : لا يشكره لهم ولا يثيبهم به خيراً ، فالرضى - على هذا - هو صفة فعل بمعنى القبول ونحوه ، وتأمل الإرادة فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد ، والرضى فإنما حقيقته فيما قد وقع ، واعتبر هذا في آيات القرآن تجده ، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدلاً هذا .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ عموم ، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمان . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : [يَرْضَهُ] بضمة مُشَبَّعة على الهاء ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم بضمة مُخْتَلِسة (١) ، واختلف عن نافع وأبي عمرو (٢) ، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - : [يَرْضَهُ] بسكون الهاء . قال أبو حاتم : وهو غلط لا يجوز (٣) .

(١) في بعض النسخ : بضمة غير مُشَبَّعة .

(٢) نلاحظ أنه ذكر أبا عمرو ضمن من يضمون الهاء بضمة مُشَبَّعة ، في حين ذكر القرطبي أن أبا عمرو ممن قرأ بإسكان الهاء . ولعلّه قد قرأ بالقراءتين .

(٣) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : «ليس بغلط ، بل ذلك لغة لبني كلاب

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ، أي : لا يحمل أحدٌ ذنب أحد ، وأنث «الوازرَة» و «الأخرى» لأنه أراد الأنفس ، و «الوزرُ» : الثقل ، وهذا خبر مُضمَّنُه الحضرُّ على أن ينظر كلُّ أحدٍ في خاصة أمره ، وما ينوبه في ذاته ، ثم أخبرهم بأن مرجعهم في الآخرة إلى ربِّهم ، أي : إلى ثوابه أو عقابه ، فيوقف كل أحد على أعماله ؛ لأنه المطلع على نيات الصدور وسرائر الأفتدة ، و «ذاتُ الصدر» : ما فيه من خبيثة ، ومنه قولهم : «الذئب مغبوط بذئ بطنه» (١).

قوله عز وجل :

﴿ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ ﴿٨﴾ *

«الإنسان» في هذه الآية يرادُّ به الكافر بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأنداد لله تبارك وتعالى ، ولقوله تعالى ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾ .

(١) هذا مثل بضرب لمن يُظن به الشَّع وهو جائع ، أو لمن يُظن به الخير وهو على غيره ، ويروى : الذئب يُعبط بغير بطنته ، قال أبو عبيد : وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً ، إنما يُظنُّ به البطننة لأنه يدعو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طِحَالُهُ وَيُعْبَطُ مَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعٌ
وقال غيره : إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً ، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، قال الشاعر :

لَكَالذَّئْبِ مَغْبُوطُ الْحِشَا وَهُوَ جَائِعٌ

وهذه آيةٌ بينَ اللهُ تعالى بها على الكفار أنهم على كل حال يَلْجِئُونَ في حال الضرورات إليه ، وإن كان ذلك عن غير يقين منهم ولا إيمان ، فلذلك ليس بِمُعْتَدٍّ به ، و [مُبيناً] معناه : مقارباً مراجعاً بصيرته .

وقوله : (ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً) يحتمل أن يريد : في كشف الضر المذكور ، أو يريد أيَّ نعمة كانت ، واللفظ يعمهما ، و [خَوَّلَهُ] معناه : مَلَكَهُ وحرَّكته فيها ابتداءً منه لا مجازاةً ، ولا يقال في الجزاء : خَوَّلَ ، ومنه الخَوَّلَ (١) ، ومنه قول زهير :
هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخَوَّلُوا الْمَالَ يُخَوَّلُوا (٢)
وهذه رواية ، ويروى : يُسْتَخَبَلُوا .

(١) خَوَّلَ الرجلُ : حَشَمَهُ ، والواحد : خائل ، قال أبو النجم :

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يَبْخَلْ كَوْمَ الدُّرَى مِِنْ خَوَّلِ الْمُخَوَّلِ

(٢) هذا صدر بيت من قصيدة قالها زهير يمدح سنانَ بنَ أبي حارثة المُرِّي ، ومطلعها :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَقَدْ كَادَ لَا يَسْلُو وَأَقْفَرَ مِنْ سَلَمَى التَّعَانِيقُ فَالْتَقَلُّ

والبيت بتمامه - على الرواية التي اختارها ابن عطية وفيها الشاهد - هو :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخَوَّلُوا الْمَالَ يُخَوَّلُوا وَإِنْ يُسَأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

أما رواية الديوان فهي : (يُسْتَخَبَلُوا الْمَالَ يُخَبَلُوا) ، والإخبال : الإعارة ، يقال :

أَخْبَلْتُهُ الْمَالَ إِذَا أَعْرَته نَاقَةً لِيَتَفَعَّ بِأَلْبَانِهَا وَأُوبَارِهَا ، أو فرساً ليغزو عليه . قال في اللسان

(خَوَّلَ) : « والاسْتِخْوَالُ مثلُ الاسْتِخْبَالِ ، ومنه قول زهير : هنالك ... البيت » ،

والمرادُ هنا أنهم قومٌ كرماء ، إن طُلب منهم إعارةٌ إليهم أعاروها وتكرّموا على الناس بها ،

ومعنى يَيْسِرُوا : يُقَامِرُوا بالمَيْسِرِ ، وَيُغْلُوا : يأخذوا أغلى ما عندهم من الإبل والنعم

فيقَامِرُوا عليها . فهم عند الميسر لا يقامرون إلا بالغالي .

قوله تعالى : ﴿ نَسِيَّ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ ﴾ . قالت فرقة : [مَا] مصدرية ، والمعنى : نسي دعائه إليه في حال الضرر ورجع إلى كفره ، وقالت فرقة : [مَا] بمعنى الذي ، والمراد بها الله سبحانه وتعالى ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (١) ، وقد تقع (ما) مكان (مَنْ) فيما لا يُحصى كثرةً من كلامهم . ويحتمل أن تكون [مَا] نافية ، ويكون قوله : [نَسِيَّ] كلاماً تاماً ، ثم نفى أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً ومقصوداً به من قَبْلِ النعمة ، أي في حال الضرر . ويحتمل أن تكون [مَا] نافية ، ويكون قوله : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يريد : من قَبْلِ الضرر ، فكأنه يقول : ولم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر ، بل أَلجأه ضرره إلى الدعاء .

و « الأنداد » : الأمثال التي تضاد وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً ، قال قتادة : المراد : من الرجال يطيعونهم في معصية الله تعالى ، وقال غيره : المراد : الأوثان . وقرأ الجمهور : [لِيُضِلَّ] بضم الياء ، وقرأها بفتح الياء أبو عمرو ، وعيسى ، وابن كثير ، وشبل . ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم - على جهة التهديد - قولاً يخاطب به واحداً واحداً منهم : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾ ، أي : تَلذَّذْ به ، واصنع ما شئت « قليلاً » ، وهو عُمُرُ ذلك المخاطب . ثم أخبره أنه من أصحاب النار ، أي : من سكانها والمخلدين فيها .

(١) تكررت في الآيتين (٣ ، ٥) من سورة (الكافرون) .

قوله عز وجل :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ أَمَّا اللَّيْلُ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
 قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾
 قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
 وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة : [أَمَّنْ] بتخفيف الميم ، وهي قراءة أهل مكة ، والأعمش ، وعيسى ، وشيبة بن نصاح ، وزويت عن الحسن ، وضعفها الأخفش وأبو حاتم . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، والحسن ، والأعرج ، وقتادة ، وأبو جعفر : [أَمَّنْ] بتشديد الميم .

فَأَمَّا الْأُولَى فَلَهَا وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا - وَهُوَ الْأَظْهَرُ - أَنَّ الْأَلِفَ أَلِفُ تَقْرِيرٍ وَاسْتِفْهَامٍ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : أَهَذَا الْقَائِمُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الْمَذْكُورُ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِكُفْرِهِ قَلِيلًا وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ؟ وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَاتِ مَعَ قَوْلِهِ آخِرًا : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

فَأُقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ سَوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا (١)

(١) البيت لامرئ القيس ، وهو من قصيدة مطلعها : « جَزَعْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ مَجْزَعًا » ، وهو في الديوان : « وَجَدْتُكَ لَوْ شِئْتُ أَنَا » ، وهو من شواهد النحويين على =

وَيُوقَفُ - عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ - عَلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ .
والوجه الثاني أَنْ تكون الألف نداءً (١) ، والخطاب لأهل هذه الصفات ،
كَأَنَّهُ يَقُولُ لِصَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ؟ فَهَذَا السُّؤَالُ
بِ [هَلْ] هُوَ لِلْقَائِنِ ، وَلَا يُوقَفُ - عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ - عَلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :
﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ .

= أن الجواب فيه محذوف ، أي جواب القسم لا جواب (لو) ، عملاً بمقتضى الضابط في اجتماع
قسمٍ وشرط ، وتقدير الجواب كما قال الفراء وغيره : لو أننا رسولٌ سواك لدفعناه ،
بدليل قوله : مدفعاً ، وتبع الطبري وابن عطية وغيرهما من المفسرين الفراء في قوله هذا .
ومن كلام الفراء قوله : « فإن قال قائل : فأين جواب ﴿ أَمَّنْ هُوَ ﴾ ؟ فقد تبين في الكلام
أنه مضمّر ، قد جرى معناه في أول الكلمة ، إذ ذكر الضالّ ثم ذكر المهتدي بالاستفهام ،
فهو دليل على أنه يريد : أهذا مثلُ هذا ؟ ومن لم يعرف مذاهب العرب وتبين له المعنى في هذا
وشبهه لم يكتف ولم يشتف . ألا ترى إلى قول الشاعر : فأقسِمُ لو شئنا أنانا ... البيت ،
وجرى قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ على مثل هذا . هذا ما ذكره
الفراء والمفسرون ، ولكن الصواب أن الجواب مذكور في البيت الذي بعده ، وهو قول
امريّ القيس :

إِذَنْ لَرَدَدَتْهُ وَكَوْ طَالَ مُكْثُهُ لَدَيْنَا وَلَكِنَّا بِحُبِّكَ وُلَعَا

قال البغدادي في الخزانة : « وعلى هذا يكون قوله : « ولكن لم نجد لك مدفعاً » جملة اعتراضية ،
وعذرهم في تقدير الجواب أن البيت الثاني ساقط في كثير من الروايات ، وقد ذكره الزجاج
في أماليه الصغرى والكبرى . »

(١) قال الفراء في معاني القرآن : « والعرب تدعو بألف كما يدعون بياء ، فيقولون :
يا زيد أقبل ، وأزيدُ أقبل ، قال الشاعر :

أَبِي لُبَيْتِي لَسْتُمْ بِيَسْدٍ إِلَّا يَدٌ لَيْسَتْ لَهَا عَضُدٌ

فيكون المعنى مردوداً بالدعاء كالمسوق . ومراده بالدعاء : النداء ، والبيت في الكتاب لسيبويه ،
والرواية فيه : « إلا يداً » بالنصب ، وبعضهم جرّها على البدلية من (يد) الأولى ، أو على
الصفة لها . وموضوع استشهادنا هنا هو الهمزة التي جاءت للنداء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المعنى صحيح إلا أنه أجنبي من معنى الآية قبله وبعده .
وضَعَّفَهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ ، وَقَالَ مَكِّيٌّ : إِنَّهُ لَا يَجُوزُ عِنْدَ سَيَّبُوِيهِ «
لَأَنَّ حَرْفَ النَّدَاءِ لَا يَسْقُطُ مَعَ الْمُبْهَمِ ، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ مَكِّيٌّ ، أَمَّا
مَذْهَبُ سَيَّبُوِيهِ فِي أَنَّ حَرْفَ النَّدَاءِ لَا يَسْقُطُ مَعَ الْمُبْهَمِ فَنَعَمْ ؛ لِأَنَّهُ
يَقَعُ الْإِلْبَاسُ الْكَثِيرُ بِذَلِكَ ، وَأَمَّا أَنَّ هَذَا الْمَوْضِعَ سَقَطَ فِيهِ حَرْفُ
النَّدَاءِ فَلَا وَأَلْفٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ ظَاهِرَةٌ .

وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ فَإِنَّهَا (أَمْ) دَخَلَتْ عَلَى (مَنْ) ، وَالْكَلَامُ -
عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ - لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا الْمَعَادِلَةَ بَيْنَ صَنْفَيْنِ ، فَيَحْتَمِلُ أَنَّ
يَكُونُ مَا يُعَادِلُ (أَمْ) مُتَقَدِّمًا فِي التَّقْدِيرِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : «أَهَذَا الْكَافِرُ
خَيْرٌ أَمْ مَنْ» ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ تَكُونَ (أَمْ) قَدْ ابْتَدَأَ بِهَا بَعْدَ إِضْرَابِ
مَقْدَرٍ ، وَيَكُونُ الْمَعَادِلُ فِي آخِرِ الْكَلَامِ . وَالْأَوَّلُ أَبْيَنُ .

و «الْقَانِتُ» : الْمَطِيْعُ ، كَذَا فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ،
وَالْقُنُوتُ فِي الْكَلَامِ يَقَعُ عَلَى الْقِرَاءَةِ ، وَعَلَى طَوْلِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ ،
وَبِهَذَا فَسَّرَهَا ابْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ
قَالَ : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَهْوَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْوُقُوفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيُنِزَّهُ اللَّهُ
فِي سَوَادِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا» ، وَيَقَعُ الْقُنُوتُ عَلَى الدُّعَاءِ وَعَلَى الصَّمْتِ
عِبَادَةً ، وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْقُنُوتَ

الطاعة (١) ، وقال جابر بن عبد الله : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الصلاة أفضل ؟ قال : (طول القنوت) (٢) .
و «الآناء» : الساعات ، واحداها إنني كمعنى ، ومنه قولهم : « لن يعدو شيء إناءه » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءَهُ ﴾ (٣) على بعض التأويلات في ذلك ، ويُقال في واحدها أيضاً : «أنا» على وزن «قفا» ، ويقال فيه : «إنني» بكسر الهمزة وسكون النون ، قال الهذلي :
حَلُوٌّ وَمُرٌّ كَعَطْفِ الْقِدْحِ مِرَّتُهُ فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ (٤)
وقرأ الضحاك : «ساجدٌ وقائمٌ» بالرفع فيهما .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣-٧٥) ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كلُّ حرفٍ من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة) .
(٢) أخرجه مسلم في المسافرين ، والترمذي في الصلاة ، والنسائي في الزكاة ، وابن ماجه في الإقامة ، وأحمد في مسنده (٣-٣٠٢ ، ٣٩١ ، ٤١٢) ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن جابر رضي الله عنه : قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ الجهاد أفضل ؟ قال : من عقى جواده ، وأهريق دمه ، قال : وسئل : أيُّ الصلاة أفضل ؟ قال : طول القنوت .
(٣) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب) .

(٤) البيت للمتنخل الهذلي ، والمتنخل - بكسر الخاء -- لقب له ، واسمه مالك ابن عويمر ، شاعر جاهلي محسن ، من شعراء هذيل ، والبيت من قصيدة له يرثي بها ابنه أئيلة الذي مات في شبابه ، وفيه يقول : « لكن أئيلة صافي الوجه مقتبل » ، أي في بداية حياته ، والبيت في اللسان (أنتى) ، وفي (الشعر والشعراء) ، قال في اللسان : « قال أهل اللغة ومنهم الزجاج : آناء الليل ساعاته ، واحداها إنني وإنني ، فمن قال إنني فهو مثل نحيي وأنحاء ، ومن قال إنني فهو مثل معي وأمعا ، قال المتنخل الهذلي :

السَّالِكُ الشَّغْرَ مَخْشِيَةً مَوَارِدُهُ بِكُلِّ إِنِّي قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

قال الأزهري : كذا رواه ابن الأنباري ، وأنشده الجوهري :

حَلُوٌّ وَمُرٌّ كَعَطْفِ الْقِدْحِ مِرَّتُهُ فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ =

وقوله تعالى : ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ معناه : يحذر حالها وهولها .
 وقرأ سعيد بن جبير : «يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ» . و [أولو] معناه :
 أصحاب ، واحدهم : ذو .

وقرأ الجمهور : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ بفتح الياء ، وأسكنها أبو عمرو ،
 وعاصم ، والأعمش ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم أيضاً ، والأعمش ،
 وابن كثير : [يَا عِبَادِ] بغير ياءٍ في الوصل . ويروى أن هذه الآية
 نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى
 أرض الحبشة . ووعد تعالى بقوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ﴾ ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلقاً بـ [أَحْسَنُوا] ،
 وكأنه يريد : إن الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة ، وهي
 الجنة والنعيم ، قاله مقاتل ، ويحتمل أن يريد : إن الذين يحسنون
 لهم حسنة في الدنيا ، وهي العافية والظهور وولاية الله تعالى ، قاله
 السدي ، وكان قياس قوله أن يكون ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متأخراً ، ويجوز
 تقديمه . والقول الأول أرجح ، وهو أن الحسنة في الآخرة . و ﴿أَرْضُ

= ونسبه أيضاً للمتخّل ، فإمّا أن يكون هو البيت بعينه أو آخر من قصيدة أخرى . اه .
 ونقول : الرواية الصحيحة هي رواية الجوهري ، أما رواية ابن الأنباري فقد جمعت بين بيتين
 جاءت بالصدر من بيت والعجز من بيت ، والصدر الذي جاءت به موجود في القصيدة كما رواها
 في (الشعر والشعراء) مع شيء من التحريف ، والرواية في (الشعر والشعراء) : «حَدَاهُ
 الليل» بدلا من «قَضَاهُ اللَّيْلُ» ، قال الأزهري : «حَدَاهُ نَعْلًا» إذا حمّله على نعل ،
 وَيَسْتَعِيلُ : يركب الأرض الصلبة بما فيها من حرّات . وهو في البيت يذكر بعض صفات ابنه .

الله) يريد بها البلاد المجاورة التي تقتضيها القصة التي الكلام فيها ، وهذا حضُّ على الهجرة ، ولذلك وصف الله الأرض بالسعة . وقال قوم : أراد بالأرض هنا الجنة ، وفي هذا القول تحكُّم لا دليل عليه .

ثم وَعَدَ تبارك وتعالى على الصبر على المكاره ، والخروج عن الوطن ، ونصرة الدين ، وجميع الطاعات ، بأن الأجر يُوفَى بغير حساب ، وهذا يحتمل معنيين : أحدهما أن الصَّابِر يُوفَى أجره ثم لا يُحاسب عن النعيم ولا يُتَابَع بذنوب ، فيقع [الصَّابِرُونَ] في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام أنها تدخل الجنة بغير حساب ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ، الذين لا يتطيرون ولا يكتنون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر ...) الحديث على اختلاف ترتيباته (١) . والمعنى الثاني أن أجور الصابرين تُوفَى

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والطب ، ومسلم في الإيمان ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، وهناك اختلاف في ترتيب الصفات تبعاً لاختلاف الرواة . ولفظه كما في البخاري أن سعيد بن جبير قال ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، ثم غدونا إليه ، فقال : عُرِضَتْ عَلَيَّ الأنبياء ليلة بأئمتها ، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة ، والنبي ومعه العصابة ، والنبي ومعه النفر ، والنبي =

بغير حصر ولا عدُّ بلُ جزافاً ، وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى ،
ومنه قول الشاعر :

ما تَمْنَعِي يَقْضَى فَقَسْدُ تَعْطِينَهُ فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مُحْسُوبٍ (١)

وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسرين ، حتى قال قتادة : ما ثمَّ
والله مكيال ولا ميزان ، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ
لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) ، قال عليه الصلاة والسلام : (اللَّهُمَّ زِدْ أُمَّتِي) ، فنزلت :
﴿ فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً ﴾ (٣) ، فقال : (اللَّهُمَّ زِدْ أُمَّتِي) فنزلت
هذه الآية ، فقال : (رَضِيتُ يَا رَبُّ) (٤) .

= ليس معه أحد ، حتى مرَّ عليَّ موسى معه كبكبة من بني إسرائيل ، فأعجبوني ، فقلت : من
هؤلاء؟ فقيل لي : هذا أخوك موسى معه بنو إسرائيل ، قال : قلت : فأين أمتي؟ فقيل لي :
أنظر عن يمينك فنظرت فإذا الظراب قد سُدَّ بوجوه الرجال ، ثم قيل لي : أنظر عن يسارك
فنظرت فإذا الأفق قد سُدَّ بوجوه الرجال ، فقيل لي : أرضيت؟ فقلت : رضيت يا ربَّ ،
رضيت يا ربَّ ، قال : فقيل لي : إن مع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ...
وفي آخر الحديث يقول ابن مسعود : ثم تحدثنا فقلنا : من ترون هؤلاء السبعون الألف قوم
ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال :
(هم الذين لا يكتنؤون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون) . رواه أحمد في
مسنده (٤٠١/١) .

(١) التَّصْرِيدُ فِي الْعَطَاءِ : تَقْلِيلُهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا تَصْرِيداً) أَي قَلِيلاً ،
وَصَرَّدَ الْعَطَاءَ قَلَّلَهُ ، وَالشَّاهِدُ فِي الْبَيْتِ أَنَّ الْعَطَاءَ فِيهِ كَثِيرٌ غَيْرٌ مُحْسُوبٌ وَلَا مَعْدُودٌ .

(٢) مِنَ الْآيَةِ (٢٦١) مِنْ سُورَةِ (الْبَقَرَةِ) .

(٣) مِنَ الْآيَةِ (٢٤٥) مِنْ سُورَةِ (الْبَقَرَةِ) .

(٤) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ مَرْدُودِيهِ ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ ، وَهُوَ عَنْ ابْنِ عَمْرِو

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ
أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴿

أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية بأن يصدع للكفار فيما أمر به من عبادة ربه تعالى . وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ ﴾ ، أي : وأمرت بهذا الذي ذكرت لأن أكون أول من أسلم من أشمل عصري وزمني ، فهذه نعمة من الله تعالى عليه ، وتنبيه منه له . وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ ﴾ فعل معلق بشرط وهو العصيان ، وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام معصوم منه ، ولكنه خطاب لأُمَّته ، يعمهم حكمه ويخيفهم وعيده .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ ﴾ تأكيد للمعنى الأول ، وإعلامٌ بامتثاله للأمر ، وهذا كله نزل قبل القتال ؛ لأنها موادعات ، وقوله : ﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ صيغة أمر على جهة التهديد ، كقوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾ (٢) ، وهذا

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلَتْ) .

(٢) من الآية (٨) من هذه السورة (الزمر) .

كثير . و [الَّذِينَ] في قوله تعالى : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) في موضع رفع خبر ل [إِنَّ] ، وقوله « وَأَهْلِيهِمْ » قيل : معناه أنهم خسروا الأهل الذي كان يكون لهم لو كانوا من أهل الجنة ، فهذا كما لو قال : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَعِيمَهُمْ ، أي الذي كان يكون لهم . وقيل : أراد الأَنْفُسَ وَالْأَهْلِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنََّّهُمْ صَارُوا فِي عَذَابِ النَّارِ ، لَيْسَ لَهُمْ نَفُوسٌ مُسْتَقَرَّةٌ ، وَلَا بَدَلَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ فِي الْجَنَّةِ قَدْ صَارَ لَهُ إِمَّا أَهْلُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا غَيْرُهُمْ ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِيمَا يُؤْثِرُ فِي ذَلِكَ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا خُسْرَانَ مَعَهُ الْبَتَّةَ .

قوله عز وجل :

﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ
يَعْبَادِ فَأَتَقُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ
الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴿

هذه صفة حال أهل جهنم ، و « الظُّلَّةُ » : ما غَشِيَ وَعَمَّ كَالسَّحَابَةِ وَسَقَفِ الْبَيْتِ وَنَحْوِهِ ، فَأَمَّا مَا فَوْقَهُمْ فَكَوْنُهُ ظُلَّةٌ بَيْنَ ، وَأَمَّا مَا تَحْتَهُمْ ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : سُمِّيَ ظُلَّةً لِأَنَّهُ يَتَلَهَّبُ ، وَيَصْعَدُ مِمَّا تَحْتَهُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَلَهَبٌ حَتَّى يَكُونَ ظُلَّةً ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُمْ شَيْءٌ لَكَفَى فِرْعَ الَّذِي

تحتهم أن يكون ظلّة ، وقالت فرقة : جعل ما تحتهم ظلّة لأنهم فوق آخرين ، وهكذا هي حالهم إلى الطبقة الأخيرة التي في القعر .
وقوله : [عِبَادُهُ] يريد جميع العالم ، خوّفهم الله تعالى النار وحذّرهم منها ، فمن هدي وآمن نجا ، ومن كفر حصل فيما خوّف منه .
واختلفت القراءة في قوله : (يَا عِبَادِ) ، وقد تقدم نظيره .
قوله عزّ وجلّ : (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ) الآية . قال ابن زيد : إن سبب نزولها زيد بن عمرو بن نفيل ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذرّ الغفاري ، والإشارة إليهم . وقال ابن إسحق : الإشارة بها إلى عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، والزبير رضي الله تعالى عنهم ، وذلك أنه لما أسلم أبو بكر رضي الله عنه سمعوا ذلك فجاءوه فقالوا : أسلمت ؟ قال : نعم ، وذكّرهم بالله تعالى فآمنوا بأجمعهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، وهي على كل حال عامة في الناس إلى يوم القيامة ، يتناولهم حكمها . و « الطَّاغُوتُ » كلُّ ما يُعبد من دون الله تعالى ، و « الطَّاغُوتُ » أيضاً الشيطان ، وبه فسّرّها مجاهد ، والسدي ، وابن زيد ، وأوّقه هنا على جماعة الشياطين ، ولذلك أنّث الضمير في [يَعْبُدُونَهَا] .

وقوله تعالى : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) كلام عام في جميع الأقوال ، وإنما القصد الثناء على هؤلاء ببصائرهم وقوام في نظرهم ، حتّى أنهم إذا سمعوا قولاً ميّزوه واتبعوا أحسنه ،

واختلف المفسرون في العبارة عن هذا - فقالت فرقة : أحسن القول كتاب الله تعالى ، أي إذا سمعوا الأقاويل وسمعوا القرآن اتبعوا القرآن ، وقالت فرقة : «القول» هو القرآن ، وأحسُّه ما فيه من عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك ، وقال قتادة : أحسن القول طاعة الله تعالى ، وهذه أمثلة وما قلناه أولاً يعمها .

قوله عز وجل :

﴿ أَمِنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ ﴿٢١﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ
 لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي
 الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢٣﴾ ﴿٢١﴾

أسقط العلامة التي في الفعل المسند إلى الكلمة لوجهين : أحدهما الحائل الذي بين الفعل والفاعل ، ولو كان متصلاً به لم يحسن ذلك ، والثاني أن «الكلمة» غير مؤنث حقيقي ، وهذا أخف وأجود من قولهم : «حضر القاضي اليوم امرأة» ؛ لأن التأنيث هنا حقيقي ، وقالت فرقة : في هذا الكلام محذوف اختصره للدلالة الظاهر عليه ،

تقديره : أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب تتأسَّف أنت عليه ؟ أو نحو هذا من التقدير (١) ، ثم استأنف قوله للنبي صلى الله عليه وسلم على أنه يريد أن ينقذ من في النار ، أي : ليس هذا إليك . وقالت فرقة : الألف في قوله : [أَفَأَنْتَ] إنما هي مؤكدة زادها طول الكلام ، وإنما معنى الآية : أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ؟ ولكنه زاد الألف الثانية توكيداً للأمر (٢) ، وأظهر الضمير العائد تشهيراً لهؤلاء القوم ، وإظهاراً لِحِصَّة منازلهم كقول الشاعر :

* لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئًا * (٣)

وإنما أظهر الضمير تنبيهاً على عِظَم قدر الموت ، وهذا كثير .

(١) والمحذوف المُقَدَّر هو خبر (من) ، والفاء في [أَفَمَنْ] للعطف ، وموضعها التقديم على الهمزة ، لكن الهمزة قدمت عليها لأن لها الصدارة ، فالأصل عندهم : (فَأَمَّنْ) .

(٢) هذا رأي آخر يرى أن جواب (من) في [أَفَمَنْ] هو قوله تعالى : [أَفَأَنْتَ] ، وهو رأي الحوفي والزمخشري ، قال الحوفي : « ولولا طول الكلام لم يجز الإتيان بالألف ، لأنه لا يصلح في العربية أن يُؤتَى بالألف الاستفهام في الاسم وبألف أخرى في الجزاء » . وعلى هذا الرأي يكون قد اجتمع في الكلام استفهام وشرط .

وقال الفراء : كيف اجتمع استفهامان في معنى واحد ؟ فيقال : هذا مما يراد به استفهام واحد ، وإنما المعنى : أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ؟ فيسبق الاستفهام إلى غير موضعه يَرُدُّ الاستفهام إلى موضعه الذي هو له ، ومثله من غير الاستفهام قوله تعالى : ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ فردَّ [أَنْتُمْ] مرتين ، وإنما المعنى والله أعلم : أيعدكم أنكم مخرجون إذا مِتُّم وكنتم تراباً ؟ (معاني القرآن) .

(٣) والأصل أن يُقال : لا أرى الموت يسبقه شيء ، ولكنه أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لفظاعة الموت ورهبته .

ثم استفتح تعالى إخباراً آخر بـ [لَكِنَّ] ، وهذه مُعَادَلَةٌ وتحضيض على التقوى لمن فكَّرَ وازدجر . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أي : من تحت العُرف ، وعادلت : ﴿ غُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ ﴾ ما تقدم من قوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ ، و « العُرفُ » : ما كان من المساكن مرتفعاً عن الأرض ، وفي الحديث : (إن أهل الجنة ليرتأون العُرف من فوقهم كما ترتأون الكوكب الدرِّي في الأفق) (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ نصب على المصدر، ونصبه إمَّا بفعل مضمر من لفظه ، وإمَّا بما تضمَّن الكلام قبلُ من معنى الوعد على الاختلاف الذي للنحاة في ذلك .

ثم وقف تعالى نبيِّه صلى الله عليه وسلم على معتبر من مخلوقاته ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وكلُّ بشر داخلٌ معه في معناه ، وقال الطبري وغيره : أشار إلى ماء المطر ، وقالوا : العيونُ منه ، وذلك أنها تنماع عند وجوده وتيبس (٢) عند فقده ، وقال الحسن بن مسلم ابنُ يَنَاقٍ (٣) : الإشارة إلى العيون ، وليست العيون من المطر ، ولكن ماؤها نازل من السماء ، وقال الشعبي : كل ماء عذب في الأرض فمن السماء نزل ، والقولان متقاربان ، و « سَلَكُهُ » معناه : أجرأه ، ومنه

(١) أخرجه الترمذي في الجنة .

(٢) يَتَمَاع : يَسِيل ، وَيَتَيْبَس : يَسْجِفُ بعد رطوبة .

(٣) الحسن بن مسلم بن يَنَاقٍ — بالياء المفتوحة ثم النون المشددة ، المكِّي ، ثقة ، من

الخامسة ، ومات بعد المائة بقليل . (تقريب التهذيب) .

قول الشاعر :

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ فِي مَسَكٍ مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْآفَاقِ مِهْدَاجٌ (١)

ومنه قول امرئ القيس :

نَطَعْنُهُمْ سُلُكِي وَمَخْلُوجَةً كَرَّكَ لِأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ (٢)

وواحد الينابيع : ينبوع ، وهو العين يُبني لها بناءً ، مبالغة من النبع .

و «الزَّرْعُ» هنا واقع على كل ما يُزرع ، وقالت فرقة : [أَلْوَانُهُ] :

(١) البيت لأبي وجزة السعدي ، واسمه يزيد بن عبّيد ، وهو أصلاً من بني سليم ، لكنه نشأ في بني سعد آطّار النبي صلى الله عليه وسلم فغلب عليه نسبهم . والبيت في اللسان (مَسَكٌ) ، قال : «والمَسَكُ : الأسورةُ والخلاخيل من الذَّبَلِ والقُرُونِ والعَاجِ ، واحدته مَسَكَةٌ» ، واستعاره أبو وجزة فجعل ما تُدخِل فيه الأُتُن أرجلها من الماء مَسَكًا ، فقال : حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى ... البيت . وأبو وجزة يصف الأُتُن في البيت ، وسَلَكَنَ : أَدخَلنَ ، والشَّوَى : قوائم الأُتُن وأطراف أرجلها . وجَوَابَةُ الْآفَاقِ هي السحابة التي تتنقل في آفاق السماء من مكان إلى مكان ، أو الريح التي تدور في الآفاق ، والمهداج : الريح الشديدة الصوت ، يقول : إن حمر الوحش هذه أدخلن قوائمهن في ماء كأنه الأسورة حولها ، وهذا الماء من نسل رياح شديدة الصوت تجوب الآفاق ، والشاهد أن سَلَكَنَ بمعنى : أدخل أو أجرى ، وفي التنزيل العزيز : ﴿كَذَلِكَ سَلَكَنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

(٢) البيت من قصيدة لامرئ القيس ، قالها بعد ظفروه ببني أسد ، وهو في الديوان ، وفي اللسان : (سَلَكَنَ) ، والضمير في نطعنهم يعود على أعدائه الذين ذكروهم في الأبيات السابقة ، وهم بنو غنم ، وبني عمرو ، وكاهل ، ومالك ، و (سُلُكِي) معناه : طعنًا مستويًا أو أمام الوجه ، و (مَخْلُوجَةٌ) معناه : طعنًا معوجًا عن يمين وشمال . فهم يطعنون أعداءهم طعنًا يأتي أمام الوجه ، ويأتي من يمين ومن شمال ، والكَرُّ : الرَّدُّ ، وكَرَّكَ : أي مِثْلُ رَدِّكَ ، واللَّامُ : السهم ، والنَّابِلُ : مَنْ يَرْمِي النَّبْلَ ، يقول : نطعنهم هذا الطعن المتنوع ، ونَرْدُهُ ونُعِيدُهُ كما تَرُدُّ سهمين على صاحب نبل يرمي بها فتعيدهما إليه . قال في اللسان : «وصفه بسرعة الطعن ، وشبهه بمن يدفع الريشة إلى النَّبَالِ في السرعة ، وإنَّما يُحتاجُ إليه في السرعة والخفة لأن الغرَاءَ إذا بَرَدَ لم يلزق ، فيستعمل حارًّا» اهـ .

أعراضه من الحمرة والصفرة وغير ذلك ، و [يهيجُ] : يببس ، وهاج
الزرع والنبات إذا يبس ، ومنه قول علي رضي الله عنه في الحديث
الذي في غريب ابن قتيبة : « ذممتي رهينة ، وأنا به زعيم ألا يهيج
على التقوى زرع قوم ولا يببس على التقوى (١) أصل الحديث » (٢) .
و « الحطامُ » : اليابس المتفتت ، ومعنى قوله تعالى : [لَذِكْرِي] أي :
للبعث من القبور وإحياء الموتى على ما يوحيه هذا المثال المذكور .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ
مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
مُتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(١) مكان النقط كلمة غير واضحة في الأصول .

(٢) معنى الحديث كما قال في اللسان : « مَنْ عَمِلَ اللَّهُ عَمَلًا لَمْ يَفْسُدْ عَمَلُهُ وَلَا يَبْطُلْ ،
كما يهيج الزرع فيهلك » ، والعبارة نفسها ذكرها ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث) ،
وفي اللسان والنهاية أيضاً حديث آخر جاء فيه : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بغصن
فقطع ، أو كان مقطوعاً قد هاج ورقه) ، والمعنى أيبس وسقط .

(*) قيل : إن [مِن] بمعنى (عَنْ) ، والمعنى : قست عَنْ قبول ذكر الله تعالى ، وقيل :
إن معنى ﴿مِن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره سبحانه .

رُوي أن هذه الآية : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ الآية ، نزلت في عليٍّ وحمزة رضي الله عنهما وأبي لهب وابنه ، وهما اللذان كانا من القاسية قلوبهم (١) . وفي الكلام محذوف يدلُّ عليه الظاهر ، تقديره : كالقاسي القلب والمُعْرَضُ عن أمر الله ، و «شرح الله صدره» استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله ، و «النور» هداية الله ، وهي أشبه شيء بالضوء ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : قُلْنَا : يا رسول الله ، كيف انشراح الصدر ؟ قال : (إذا دخل النور القلب انشراح وانفسح) ، قلنا : وما علامة ذلك ؟ قال : (الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت) (٢) ، و «القَسْوَة» : شدة القلب ، وهي مأخوذة من قسوة الحجر ، شبه قلب الكافر به في صلابته ، وقلة انفعاله للوعظ . وقال مالك بن دينار :

(١) ذكر ذلك أبو الحسن الواحدي في (أسباب النزول) بدون سند .

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرج الحكيم الترمذي في (نوادير الأصول) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً قال : (يا نبيَّ الله ، أيُّ المؤمنين أكْبَسُ ؟ قال : أكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ ، وأحْسَنُهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا ، وإذا دخل النور القلب انفسح واستوسع ، فقالوا : ما آية ذلك يا نبيَّ الله ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت) ، ثم أخرج عن أبي جعفر عبد الله بن المسور ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه ، وزاد فيه : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَيَّ نُورٌ مِنْ رَبِّي ﴾ . (الدر المنثور) .

« ما ضرب عبداً بعقوبة أعظم من قسوة القلب » ، ويدلُّ قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) على المحذوف المُقَدَّر .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ يريد به القرآن ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن قوماً من الصحابة قالوا : يا رسول الله ، حدثنا بأحاديث حسانٍ ، وأخبرنا بأخبار الدهر ، فنزلت الآية في ذلك (٢) ، وقوله : [مُتَشَابِهًا] معناه : مستويًا لا تناقض فيه ولا تدافع ، بل يشبه بعضه بعضاً في رصانة اللفظ ، ووثاقة البراهين ، وشرف المعاني ؛ إذ هي اليقين في العقائد في الله تعالى وصفاته وأفعاله وشرعه . وقوله : [مَثَانِي] معناه : موضع ثنينةٍ للقصص والأقضية والمواعظ ، تُثَنَّى فيه ولا يُمَلُّ مع ذلك ، ولا يعرض لها ما يعرض للحديث المعاد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يُثَنَّى فيه الأمر مراراً ، ولا ينصرف [مَثَانِي] لأنه جمع ولا نظير له في الواحد .

(١) أخرج الترمذي ، وابن مردويه ، وابن شاهين في (الترغيب في الذكر) ، والبيهقي في (شعب الإيمان) ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القاسي (القاسي) .

(٢) قال الواحدي في (أسباب النزول) : « أخبرنا عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، قال : أخبرنا أبو عمرو بن مطر ، قال : أخبرنا جعفر بن محمد الفريابي ، قال : أخبرنا إسحاق بن راهويه ، قال : أخبرنا عمرو بن محمد القرشي ، قال : أخبرنا خلاد الصفار ، عن عمرو بن قيس الملائي ، عن عمرو بن مرة ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد ، قالوا : يا رسول الله لو حدثنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ عبارة عن قف شعر الإنسان عندما يداخله خوف ، ولين قلب عند سماع موعظة أو زجر قرآن ونحوه ، وهذه علامة وقوع المعنى المتخشع في قلب السامع ، وفي الحديث أن أبي بن كعب قرأ عند النبي صلى الله عليه وسلم فرقت القلوب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اغتتموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة) (١) ، وقال العباس : قال عليه الصلاة والسلام : (من اقشعر جلده من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن اليابسة ورقها) ، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : كان الصحابة تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن ، قيل لها : إن أقواماً اليوم إذا سمع أحدهم القرآن خرو مغشياً عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان (١) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد رأيت ساقطاً عند سماع القرآن : إنا لنخشى الله وما نسقط ، هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم ، وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء القوم الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط

(١) في القرطبي : أخرجه زيد بن أسلم ، قال : قرأ أبي بن كعب ... الحديث .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر ، عن عبد الله ابن عروة بن الزبير ، قال : قلت لجدتي أسماء رضي الله عنها : كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرئوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله تعالى ، تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قلت : فإن ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . (الدر المنثور) .

باسطاً رجليه ، ثم يُقرأ عليه القرآن كله ، فإن رمى بنفسه فهو صادق .
 وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ هُدَى اللَّهِ ﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن ،
 أي : ذلك الذي هذه صفته هُدَى الله ، ويحتمل أن يشير إلى الخشية
 واقشعرار الجلد ، أي : ذلك أَمارة هُدَى الله ، ومن جعل [تَقَشَّرُ]
 في موضع الصفة لم يقف على [مَثَانِي] ، ومن جعله مُسْتَأْنَفًا وإخباراً
 منقطعاً وقف على [مَثَانِي] . وباقي الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
 تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاْتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ
 ﴿٢٥﴾ فَاذَاقَهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذا تقرير بمعنى التعجب ، والمعنى : أفمن يتقّي بوجهه سوء العذاب
 يوم القيامة كالمنعمين في الجنة ؟ واختلف المتأولون في قوله تعالى :
 ﴿ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ ﴾ - فقال مجاهد : يجشو على وجهه في النار ، وقالت
 فرقة : لِمَا رُوي أن الكافر يُلقى في النار مكتوفاً مربوطاً يده إلى رجليه

مع عنقه ، وَيُكَبُّ عَلَى وَجْهِهِ ، فليس له شيءٌ يَتَّقِي به إِلَّا وَجْهَهُ ، وقالت فرقة : المعنى صفة ما ينالهم من كثرة العذاب ، وذلك أَنْ يَتَّقِيَهُ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهِ وَفِيهِ حَوَاسُهُ ، فإذا بلغ به العذابُ إلى هذه الغاية ظهر أَنَّهُ لَا مَتَجَاوِزَ بَعْدَهَا . وهذا المعنى عِنْدِي أَقْبَسُ بِلَاغَةٍ ، وفي هذا المضمَرُ يَجْرِي قَوْلُ الشَّاعِرِ :

يَلْقَى السُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وَبِنَحْرِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمَغْفَرِ (١)
لأنه إنما أراد عظيم جرأته عليها ، فهو يلقاها بكلِّ مِجَنٍّ ، وبكلِّ شيءٍ منه حتَّى بوجهه وبنحره (٢) . وقوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ معناه : باشروا ، وهنا محذوف تقديره : جزاء ما كنتم تكسبون .

ثم مثل لقريش بالأئمة السالفة ، ثم أخبر تعالى بما نال تلك الأئمة من كونها في الدنيا أحاديث مُلَعَّنَةٌ ، وأخرى أعظم من هذا ، مع ما نال نفوسهم من الألم والذل والكرب ، ثم أخبر أن ما أُعِدَّ لهم من عذاب الآخرة أكبر من هذا كله الذي كان في الدنيا .

(١) الهامة : الرأس ، والمغفر : زردٌ يُنْسَجُ من الدروع على قدر الرأس ، ويلبس تحت القلنسوة في الحرب ، والجمع : مغافر . يصفه بالشجاعة الزائدة والجرأة الفائقة ، فهو لا يخشى السيف بل يلقاها بوجهه وبنحره ، وهو أيضاً لا يحمي رأسه بالمغفر ، بل يقدم نفس الرأس ليتلقى بها الضربات .

(٢) وقيل : إن معنى ﴿ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ ﴾ : يستقبل ، كما قال الشاعر :
سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَسَدِ
أي : استقبلتنا بيدها لتتقي بها وجهها حتى لا نراه .

قوله : [قُرْآنًا] ، قالت فرقة : نصب على المصدر ، وقالت فرقة : نصب على الحال و [عَرَبِيًّا] حالٌ ، وقالت فرقة : نصب على التوطئة للحال ، والحال قوله : [عَرَبِيًّا] ، ونفى عنه العوج لأنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا مغمز بوجه . واختلفت عبارة المفسرين - فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : المعنى : غير متضاد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غير مختلف ، وقال مجاهد : غير ذي لبس ، وقال السدي : غير مخلوق ، وقال بكر بن عبد الله المزني (١) : غير ذي لحن . و «العوج» بكسر العين في الأمر ، وبفتحها في الأشخاص .

قوله عز وجل :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

لما ذكر الله تعالى أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل مُجْمَلًا ، جاء بعد ذلك بِمَثَلٍ في أهمِّ الأُمُورِ وأَعْظَمِهَا خَطَرًا وهو

(١) بكر بن عبد الله المزني ، أبو عبد الله ، البصري ، ثقة جليل ، من الثالثة ، مات سنة ست ومائة . (تقريب التهذيب) .

التوحيد ، فمثل تعالى الكافر العابد للأوثان والشياطين بعبد لرجال
 عدة ، في أخلاقهم شكاسة ونقص وعدم مسامحة ، فهم لذلك يعذبون
 هذا العبد بأنهم يتضايقون في أوقاتهم ، ويضايقون هذا العبد في
 كثرة العمل ، فهو أبداً دائم ناصب ، فكذلك عابد الأوثان ، والذي
 يعتقد أن ضره ونفعه عندها هو معذب الفكر بها ، وبحراسة حاله
 منها ، ومتى أرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكر فيما يصنع
 مع الآخر ، فهو أبداً في نصب وضلال ، وكذلك هو المصانع للناس ،
 الممتحن بخدمة الملوك .

ومثل تعالى المؤمن بالله تبارك وتعالى وحده بعبد لرجل واحد يكلفه
 شغله ، فهو يعمل على تودة ، وقد ساس مولاة ، فالمولى يغفر زلته ،
 ويشكره على إجابة عمله .

وقوله تعالى : [ضرب] مأخوذ من الضرب الذي هو الشبيه ،
 ومنه قولهم : «هذا ضرب هذا» ، أي : شبهه ، و [مثلاً] مفعول
 ب [ضرب] ، و [رجلاً] بدل ، قال الكسائي : وإن شئت على إسقاط
 الخافض ، أي : «مثلاً لرجل» ، أو «في رجل» ، وفي هذا نظر .

و [متشاكسون] معناه : لا سمح^(١) في أخلاقهم ، بل فيها لجاج
 ومتابعة ومحادقة^(٢) ، ومنه قول الشاعر :

(١) سمح : مصدر سمح ، يقال : سمح سمحاً وسماحاً وسماحةً .

(٢) هكذا في جميع الأصول ، ومادة (حدق) تعطي معنى الإحاطة والاستدارة ،
 فلعله يريد أنهم يحيطون به من كل جانب ويضيقون عليه الخناق .

خَلِقْتُ شَكْسًا لِلْأَعَادِي مُشَكْسًا (١)

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [سَالِمًا] على معنى اسم الفاعل ، بمعنى : سلم من الشركة فيه ، قال أبو عمرو : معناه : خالصاً ، وهذه بالألف قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والجحدري ، والزهري ، والحسن - بخلاف عنه - . وقرأ الباقون : [سَلَمًا] بفتح السين واللام (٢) ، وهي قراءة الأعرج ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وأبي رجاء ، وطلحة ، والحسن - بخلاف - . وقرأ سعيد بن جبير : [سَلَمًا] بكسر السين وسكون اللام ، وهما مصدران وصف بهما الرجل ، بمعنى : خالصاً وأمرأً قد سلم له . ثم وقف الكفار بقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ، ونصب [مَثَلًا] على التمييز (٣) ، وهذا توقيف لا يُجيب عنه أحدٌ إلاَّ بأنهما لا يستويان ،

(١) هذا الشاهد في اللسان : (شكس) ، قال : الشكسُ والشكيسُ والشرسُ جميعاً : السبيُّ الخلق ، والمشكسُ كالمشكس ، عن ابن الأعرابي ، وأنشد :

خَلِقْتُ شَكْسًا لِلْأَعَادِي مُشَكْسًا

وتشاكس الرجلان : تضاداً ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ . وقال الفراء : رجل شكسٌ عكصٌ ، قال الراجز :

شكسٌ عبوسٌ عنبسٌ عدورٌ

(٢) قال الفراء في «معاني القرآن» : «وسلم وسالمٌ متقاربان في المعنى ، وكان سلماً مصدر ، لقولك : سلم له سلماً ، والعربُ تقول : ربيحاً وربحاً ، وسلم سلماً وسلماً وسلاماً وسلاماً ، فسالمٌ من صفة الرجل ، وسلمٌ مصدر لذلك والله أعلم .» (٣) وهو تمييز منقول عن الفاعل ؛ إذ التقدير : هل يستوي مثلهما ، واقتصر في التمييز على الواحد لأنه المقتصر عليه أولاً في قوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ ، وليبيان الجنس . وقرئ : «ممثلين» فطابق حال الرجلين .

فلذلك عاملتهم العبارة الوجيزة على أنهم قد جاوبوا ، فقال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ)
على ظهور الحُجَّةِ عليكم من أقوالكم ، ثم قال : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)
فأضرب عن مُقَدَّرٍ محذوف يقتضيه المعنى ، تقديره : الحمد لله
على ظهور الحُجَّةِ ، وأن الأمر ليس كما يقولون ، بل أكثرهم لا يعلمون .
و [أَكْثَرُ] في هذه الآية على بابها ، لأننا وجدنا الأقل منهم عَلِمَ أمر
التوحيد وتكلم به ، ورفض أمر الأصنام ، كورقة وزيد ، وقس (١) .
ثم ابتداءً تعالى القول معهم في غرض آخر من الوعيد بيوم القيامة
والخصومة فيه ، ومن التحذير من حال الكذبة على الله ، المكذبين
بالصدق ، فقدم تعالى لذلك توطئة مُضْمَنَهَا وَعَظُّ النُّفُوسِ وَتَهْيِئَتَهَا
لقبول الكلام وخوف الوعيد ، وهذا كما تريد أن تنهى إنساناً عن
معاصيه ، أو تأمره بخير ، فتفتتح كلامك بأن تقول : كلنا يفنى ،
أو : لا بُدَّ للجميع من الموت ، أو : كلُّ من عليها فان ، ونحو هذا مما
تُرَقِّقُ به نفس الذي تحدثه ، ثم بعد ذلك تورد قولك . فأخبر تعالى
أن الجميع ميّتٌ ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأها : [مَائِتٌ] و [مَائِتُونَ]
بألف ابن الزبير ، وابن محيصن ، وابن أبي إسحق ، واليماني ،
وعيسى بن عمر ، وابن أبي عقرب ، وابن أبي عبله ، والضمير
في [إِنَّهُمْ] لجميع العالم . ودخل رجل على صِلَةَ بن أشيم فنعى إليه

(١) هم ورقة بن نوفل بن أسد ، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وقسُّ بن ساعدة
الإيادي . وكانوا في الجاهلية من أنكر أمر الأصنام وعرف الله تعالى ، وتكلم بالتوحيد .

أخاه ، وبين يدي صِلَّةَ طعام ، فقال صِلَّةُ للرجل : اذُنُ فُكُلٍ ،
فَإِنَّ أَخِي قَدْ نَعَى إِلَيَّ مِنْذُ زَمَانٍ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ
مَيِّتُونَ ﴾ .

والضمير في ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ قيل : هو عامٌ أيضاً ، فيختصم يوم
القيامة المؤمنون والكافرون فيما كان من ظلم الكافرين لهم في كل موطن
ظلموهم فيه ، ومن هذا قول علي رضي الله عنه : أنا أول من يجنثو
يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ ، فيختصم عليُّ ،
وحمزة ، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم مع عُتْبَةَ ، وشَيْبَةَ ، والوليد (١) ،
ويختصم أيضاً المؤمنون بعضهم مع بعض في ظُلَامَاتِهِمْ ، قاله أبو
العالية وغيره ، وقال الزبير بن العوام للنبي صلى الله عليه وسلم :
أَيُّكْتَبَ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مَعَ خَوَاصِّ الذُّنُوبِ ؟ قال : (نعم ،

(١) في أول المعركة في غزوة بدر الكبرى خرج عُتْبَةُ بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عُتْبَةَ
وأخوه شَيْبَةَ بن ربيعة ، ودعوا للمبارزة ، فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار وهم عَوْفٌ ومُعَوِّذُ
ابن الحارث ، ورجل آخر يقال إنه عبد الله بن رواحة ، فقال عتبة : من أنتم ؟ فقالوا : رهط
من الأنصار ، قال : مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى : يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي ،
فلما عرفوا أسماءهم قالوا : نعم أكفأ كراماً ، فبارز عبيدة - وكان أسنَّ القوم - عتبة بن
ربيعة ، وبارز حمزة شيبَةَ بن ربيعة ، وبارز علي الوليد ، أما حمزة فلم يمهل شيبَةَ أن قتله ،
وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما جرح صاحبه
جرحاً لم يستطع القيام بعده ، وكرَّ حمزة وعلي بأسياهما على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما
فحازاه إلى أصحابه رضي الله عنهم .

حتى يُؤدِّي إلى كل ذي حقٍّ حقَّه (١) ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لما نزلت هذه الآية قلنا : كيف نختصم ونحن إخوان ؟ فلما قُتِلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وضرب بعضنا وجه بعض بالسيوف قلنا : هذا الخصام الذي وعدنا ربنا تعالى (٢) ، ويختصم أيضاً - على ما روي - الروح مع الجسد في أن يُذنب كل واحد منهما صاحبه ، ويجعل المعصية في حيزه ، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى الآية عندي أن الله تعالى توعدهم بأنهم سيتخاصمون يوم القيامة في معنى ردِّهم في وجه الشريعة ، وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وأحمد ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصحَّحه ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصحَّحه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم (في الحلية) ، والبيهقي (في البعث والنشور) ، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، واللفظ في سؤال الزبير : (أينكر) بدلا من (أبكتب) ، وفي إجابة النبي صلى الله عليه وسلم قال : (نعم لينكرون ذلك عليكم) ، وفي نهاية الحديث قال الزبير رضي الله عنه : فوالله إنَّ الأمر لشديد . (عن الدرِّ المنثور) .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه كما في الدرِّ المنثور ، قال : نزل عليه الآية : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ، وما ندرى ما تفسيرها ، ولفظ عبْد بن حميد : وما ندرى فيم نزلت ، قلنا : أيس بيننا خصومة ، فما التخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة فقلنا : هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه . وأخرج مثله نعيم بن حماد في الفتن ، والحاكم وصحَّحه ، وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ثم وقفهم الله تعالى توقيفاً معناه نفي الموقف عليه بقوله تعالى :
 ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ، أي : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، والإشارة بهذا
 الكذب إلى قولهم : إنَّ لله صاحبة وولدا ، وقولهم : هذا حلالٌ وهذا
 حرامٌ افتراءً على الله تعالى ، وكذبوا أيضاً بالصدق ، وهو تكذيبهم
 أقوال محمد صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، ما كان من ذلك معجزاً
 أو غير معجز ، ثم توعدهم تبارك وتعالى توعداً فيه احتقارهم بقوله
 تعالى على وجه التوقيف : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ،
 والمثوى : موضع الإقامة .

قوله عز وجل :

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ هُمْ مَائِسَاءٌ وَنَ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا
 وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ
 وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ
 اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ معادل لقوله سبحانه : ﴿فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ ، ف [مَنْ] هناك للجميع
 والعموم ، و [الَّذِي] هنا للجنس أيضاً ، كأنه قال : والفريق الذي

جاء بعضه بالصدق ، وصدق به بعضه ، ويستقيم اللفظ والمعنى على هذا الترتيب . وفي قراءة ابن مسعود : «والَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ» ، وهو هنا القرآنُ وأنباؤه ، والشَّرْعُ بجملته .

وقالت فرقة : [الَّذِي] يراد به : الَّذِينَ ، وحذفت النون لطول الكلام ، وهذا غير جيد ، وتركيب [جَاءَ] عليه يردُّ ذلك ، وليس كقول الفرزدق :

..... إِنَّ عَمِّيَ اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ (١)

ونظير الآية قول الشاعر :

وإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلَجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ (٢)

(١) هذا البيت من شواهد النحويين على حذف النون من (الذنان) تخفيفاً ، والمشهور بين كثيرين أنه للفرزدق ، قال ذلك في شرح الشواهد للعيني ، ونقل عن التوضيح وشرحه أن بني الحارث وبعض ربيعة يحدفون نون (الذنان والذنان) في حالة الرفع تقصيراً للموصول لطوله بالصلة ، لكونهما كالشيء الواحد ، والبيت في الحقيقة للأخطل ، وهو في الديوان ، وفي الخزانة ، وفي ابن الشجري ، وفي الكتاب لسبويه ، وهو بتمامه :

أَبْنِي كَلْبِيبٍ إِنَّ عَمِّيَ اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَكَّا الْأَغْلَالَ

وقد قاله يهجو جريراً ، وهو من كليب بن يربوع . والهمزة في (أبي) للدعاء ، وعماهُ هما : عمرو ومرةُ ابنا كَلْبِيبٍ ، والرواية في الأصل (سَلَبَا الْمُلُوكَ) ، وفي بقية المراجع (قتلا الملوك) ، أما عمرو بن كلثوم فقد قتل عمرو بن هند ، وأما مرةُ أخوه فقد قتل المنذر ابن النعمان بن المنذر ، ويروى (وَحَطَّمَا) بدلا من (وَفَكَكَّا) ، والأغلال : جمع غُلٍّ ، وهو طوقٌ من حديد يجعل في عنق الأسير ، يمدحهم بفك الأسرى .

(٢) هذا بيت قاله أشهبُ بن رُمَيْلَةَ ، - وقيل : هو لِحُرَيْثِ بن مَحْفُضٍ - وهو في مجاز القرآن ، واللسان ، والتاج ، والصحاح ، وسبويه ، والخزانة ، وشواهد المغني ، وابن الشجري ، ومعني اللبيب . وفلج : وادي بين البصرة وحمى ضرية ، وحانت دماؤهم : لم =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الذي جاء بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي صدَّق به ، وقالت فرقة من المفسرين : الذي جاء بالصدق هو جبريل ، والذي صدَّق به هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأبو العالية ، والكلي ، وجماعة : الذي جاء بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي صدَّق به هو أبو بكر رضي الله عنه ، وقال قتادة ، وابن زيد : الذي جاء بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي صدَّق به هم المؤمنون ، وقال مجاهد : هم أهل القرآن ، وقال أبو الأسود ومجاهد وجماعة : الذي صدَّق هو علي رضي الله عنه ، وقالت فرقة بالعموم الذي ذكرناه أولاً ، وهو أصوب الأقوال .

وقرأ أبو صالح (١) ، ومحمد بن جُحادة (٢) ، وعكرمة بن سليمان : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ بالتخفيف في الدال ، بمعنى : استحق به اسم الصدق ،

= يؤخذ لهم بديّة ولا قصاص ، وهم القوم كلُّ القوم : هم القوم الكاملون في قوميتهم ، وهو شاهد على حذف النون من (الذين) تخفيفاً بسبب طول الصلة ، وقيل : إن (الذي) هنا مفرد عبر به عن الجمع ، وعاد الضمير إليه محمولا على المعنى ، وهذا هو ما قصده ابن عطية حين قال : ونظير الآية قول الشاعر : وإنّ الذي ... البيت ، وقد روي البيت : (وإن الأولى) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه لا لمن يقول بأن أصله (الذين) والنون محذوفة ، ولا لمن يقول : إنه مفرد عبر به عن الجمع .

(١) المراد : أبو صالح الكندي الكوفي ، واسمه ميسرة ، حدّده القرطبي في تفسيره ، وقال عنه العسقلاني في تقريب التهذيب : ثقة من الثالثة .

(٢) هو محمد بن جحادة ، بضم الجيم وتخفيف الدال المهملة ، قال عنه العسقلاني في التقريب : ثقة ، من الخامسة ، مات سنة إحدى وثلاثين .

فَعَلَىٰ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ يَكُونُ إِسْنَادُ الْأَفْعَالِ كُلِّهَا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَكَانَ أُمَّتَهُ فِي ضَمَنِ الْقَوْلِ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَسِّنُ : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ .
قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتَّقُوا الشُّرْكَ .

واللام في قوله تعالى : ﴿لِيُكْفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بقوله
تعالى : [الْمُحْسِنِينَ] ، أي : الذين أَحْسَنُوا لكي يكفّر ، قاله ابن زيد ،
ويحتمل أن تتعلق بفعل مضمر مقطوع مما قبله ، كأنك قلت : «بشّرهم
الله تعالى بذلك ليكفّر» لأن التكفير لا يكون إلا بعد التيسير للخير ،
و ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هو كُفْرُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَعَاصِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

وقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ تقوية لنفس النبي عليه
الصلاة والسلام ، لأن كفار قريش كانوا خوِّفوه من الأصنام ، وقالوا :

أَنْتِ تَسُبُّهَا وَنَخَافُ أَنْ تُصِيبَكَ بَجَنُونَ أَوْ عِلَّةٌ ، فنزلت الآية في ذلك .

وقرأ حمزة ، والكسائي : [عِبَادَهُ] يريد الأنبياء المختصين به وأنت
أحدهم ، فيدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين والمتوكلون على الله تعالى ،

وهذه قراءة أبي جعفر ، ومجاهد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش .

وقرأ الباقر : [عَبْدَهُ] ، وهو اسم جنس ، وهي قراءة الحسن ، وشيبة ،

وأهل المدينة ، ويُقَوَّى أَنْ الْإِشَارَةَ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ

تَعَالَى : [وَيُخَوِّفُونَكَ] ، وقوله : ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يريد : بالذين يعبدون من

دونه ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد

إلى كسر العُزَى ، فقال سادِنُهَا (١) : يا خالد ، إني أخاف عليك منها ،
 فلها قوة لا يقوم لها شيء ، فأخذ خالد الفأس فهشم به وجهها وانصرف (٢).
 ثم قرّر تعالى أن الهداية والإضلال من عنده بالخلق والاختراع ،
 وأن ما أراد من ذلك لا رادَّ له ، ثم توعدهم بعزته وانتقامه ، فكان
 ذلك وانتقم منهم يوم بدر وما بعده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ
 هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
 يَتَّقُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ
 يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا ابتداء احتجاج عليهم بحُجَّةٍ أُخرى ، وجملتها أن وقفوا
 على الخالق المخترع ، فإن قالوا إنه الله لم يبق لهم في الأصنام غرض

(١) السَّادِنُ : هو الخادم والقائم على حمايتها .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن قتادة . (الدر المنثور) .

إلا أن يقولوا : إنها تضر وتنفع ، فلما تقعد (١) من قولهم إن الله هو الخالق قيل لهم : أفرايتم هؤلاء إذا أراد الله أمراً ، أبهم قدرة على نقضه ؟ وحذف الجواب عن هذا لأنه من البين أنه لا يجيب أحد إلا أنه لا قدرة للأصنام على شيء من ذلك . وقرأ : ﴿ إِن أَرَادَنِي ﴾ بياء مفتوحة جمهور القراء والناس ، وقرأ الأعمش : ﴿ إِن أَرَادَنِي اللهُ ﴾ بحذف الياء في الوصل ، وروى خارجة بغير ياء أصلاً . وقرأ جمهور القراء ، والأعرج ، وأبو جعفر ، والأعمش ، وعيسى ، وابن وثاب : ﴿ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ بالإضافة ، وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ بالتنوين ونصب [ضُرُّهُ] ، وهي قراءة شيبة ، والحسن ، وعيسى - بخلاف عنه - وعمرو بن عبيد ، وهذا هو الوجه فيما لم يقع بعد ، وكذلك الخلاف في ﴿ مُمَسِّكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ (٢) . ثم أمره تعالى أن يصدع بالاتكال على الله تعالى ، وأنه حسبه من كل شيء ومن كل ناصر . ثم أمره بتوعددهم في قوله : ﴿ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ، أي : على ما رأيتموه متمكناً لكم ، وعلى حالاتكم التي

(١) لعله يريد : تمكن من أن يجبرهم على ذلك ، وأقرب معاني (تقعدته) في اللسان إلى هذا أنها تأتي بمعنى : رببته عن حاجته وعقته ، أو حبسته عنها .

(٢) التنوين هو الأصل ، وهو اختيار أبي عبيد ، وأبي حاتم ، قالوا لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال ، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود ، قال الشاعر :

الضَّارِبُونَ عُمَيْرًا عَنْ بِيُوتِهِمْ بِاللَّيْلِ يَوْمَ عُمَيْرٍ ظَالِمٍ عَادِي

ولو كان ماضياً لم يجز فيه التنوين ، على أن حذف التنوين كثير في كلام العرب ، قال تعالى : هَدِيًّا بَالِغِ الْكَعْبَةِ ، وقال : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ ﴾ .

استقر رأيكم عليها . وقرأ الجمهور : [مَكَانَتِكُمْ] بالإفراد ، وقرأها بالجمع الحسن وعاصم (١) . وقوله : [أَعْمَلُوا] لفظ أمر بمعنى الوعيد ، و «العذابُ المُخْزِي» هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره ، «والعذاب المقيم» هو عذاب الآخرة .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ۗ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ۗ ﴾

هذا إعلامٌ بعلوِّ مكانة محمد صلى الله عليه وسلم واصطفاء ربه عز وجل له . و «الْكِتَابَ» : القرآن . وقوله تعالى : [بِالْحَقِّ] يحتمل معنيين : أحدهما أن يريد : متضمناً الحق في أخباره وأحكامه ، والآخر أن يريد أنه أنزله بالواجب من إنزاله ، وبالإستحقاق لذلك ، لما فيه من مصالحة العالم وهداية الناس ، وكان هذا الذي فعل الله تعالى من إنزال كتاب إلى عبده هو إقامة حجة عليهم ، وبقي تكسبهم بعد إليهم ،

(١) أي في رواية أبي بكر ، أما قراءته في رواية حفص فهي بالإفراد .

فمن اهتدى فلنفسه عملٍ وسعى ، ومن ضلَّ فعليها جنى ، والهُدى والضلال إنما لله تعالى فيهما خلقٌ واختراعٌ ، وللعبد تكسبٌ عليه يقع الثواب أو العقاب . وأخبر تعالى نبيه أنه ليس عليهم بوكيل ولا مسيطر ، و « الوكيل » : القائم على الأمر حتى يكمله .

ثم نبه تعالى عن آية من آياته الكبرى تدلُّ الناظر على الوجدانية ، وأن ذلك لا شريك^(١) فيه لصنم ، وهي حالة التوفّي ، وذلك أن الله تعالى ما توفاه على الكمال فهو الذي يموت ، وما توفاه توفياً غير مكمل فهو الذي يكون في النوم ، قال ابن زيد : النوم وفاةٌ ، والموت وفاةٌ ، وكثرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى ، ففرقت بين النفس والروح ، وفرق قوم أيضاً بين نفس التمييز ونفس التخيّل ، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة ظن ، وحقيقة الأمر في هذا هي مما استأثر الله تبارك وتعالى به وغيبه عن عباده في قوله سبحانه : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾^(٢) ، ويكفيك أن في هذه الآية ﴿ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ﴾ ، وفي الحديث الصحيح أن الله قبضَ أرواحنا حين شاء ، وردّها علينا حين شاء ، في

(١) شريكٌ هنا مصدر : شريكٌ ، يقال : شريكٌ زيدٌ فلاناً في الأمر شريكاً ، وشركةٌ ، وشريكَةٌ : كان لكل منهما نصيب منه ، فهو شريك .

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء) .

حديث بلال في الوادي (١) ، فقد نطقت الشريعة بقبض الروح والنفس في النوم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلِ الْرُوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (٢) ، فظاهر أن التفصيل والخوض في هذا كله عناء ، وإن كان قد تعرض للقول في هذا ونحوه الأئمة ، ذكر الثعلبي وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : في ابن آدم نفسٌ بها العقل والتمييز ، وفيه روح بها التنفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه . و «الأجل المسمى» في هذه الآية هو عمر كل إنسان .

وقرأ جمهور القراء : ﴿ قَضَىٰ عَلَيْهَا ﴾ بفتح القاف والضاد ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ قُضِيَ عَلَيْهَا ﴾ بضم القاف وكسر الضاد ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى .

ثم أحال تعالى أهل الفكرة على النظر في هذا ونحوه ، فإنه من البين أن هذه القدرة لا يملكها إلا الواحد الصمد .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، عن أبي قتادة رضي الله عنه . ولفظه كما في (الدر المنثور) : (إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ليلة الوادي : إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردّها عليكم حين شاء) ، ويفسر السبب في ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فقال : من يكلؤنا الليلة ؟ فقلت : أنا ، فنام ونام الناس ونمت ، فلم نستيقظ إلا بجر الشمس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيها الناس : إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد : فيقبضها إذا شاء ويرسلها إذا شاء) .

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء) .

قوله عز وجل :

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبَهُمْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلِ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[أَمْ] هنا مقطوعة مما قبلها ، وهي مقدره بالألف وبَلْ ، وهذا تقرير وتوبيخ ، فأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يوقفهم على الأمر ، وعلى أنهم يرضون بهذا مع كون الأصنام بصورة كذا وكذا من عدم الملك والعقل .

والواو في قوله تعالى : [أَوْ لَوْ] واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام ، ومَتَى دخلت ألف الاستفهام على واو العطف أو فائه أحدثت معنى التقرير . ثم أمره بأن يخبر بأن جميع الشفاعة إنما هي لله تعالى ، و [جَمِيعًا] نصب على الحال ، والمعنى أن الله تعالى يشفع ثم لا يشفع أحد قبل شفاعته هو إلا بإذنه ، فمن حيث شفاعة غيره موقوفة على إذنه فالشفاعة كلها له ومن عنده .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ الآية ، قال مجاهد وغيره :

نزلت في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم عند الكعبة بمحضر

من الكفار ، وعند ذلك ألقى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ ، فقال : « إِنَّهُنَّ
الْغَرَائِيقُ الْعُلَى ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ لُتْرَتَجَى » ، فاستبشر الكفار بذلك وسُرُوا ،
فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان أَنْفُوا واستكبروا واشمأزت نفوسهم (١) ،
ومعناه : تَقَبَّضَتْ كِبْرًا وَأَنْفَةً وكراهية ونفوراً ، ومنه قول عمرو
ابن كلثوم :

إِذَا عَضَّ الثَّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَتْ وَوَلَّتَهُمْ عَشَوَزَنَةٌ زُبُونَا (٢)
و (الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) يريد تعالى الذين يُعْبَدُونَ من دونه ، وجاءت
العبارة في هذه الآيات عن الأصنام كما تَأْنِي عَمَّنْ يفعل ، من حيث

(١) حديث الغرائيق هذا فيه كلام كثير يؤكد أنه غير صحيح ، قال عنه ابن عطية في
سورة الحج : « لم يُدْخِلْهُ الْبَخَارِيُّ وَلَا مُسْلِمٌ ، وَلَا ذَكَرَهُ فِي عِلْمِي مُصَنَّفٌ مَشْهُورٌ » ،
وقال فيه القاضي عياض : « لم يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحَّةِ » ، ولا رواه بسند صحيح سليم
متصل ثقة ، وقال أبو بكر البزار : « وهذا الحديث لا نعلمه يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِإِسْنَادٍ مُتَّصِلٍ بِجَوْزِ ذِكْرِهِ » . ونكتفي بهذا ، ويمكنك الرجوع إلى تفسير الآية (٥٢)
من سورة (الحج) .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وقبله يقول مخاطباً الملك عمرو بن هند :

فَإِنْ قَتَانَتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتَ عَلَيَّ الْأَعْدَاءُ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا

وفيه استعار لِعِزَّتِهِمْ اسم القناة ، فقال : إِنْ عِزَّنَا يَا عَمْرُو مَنِيعٌ لَا يُرَامُ ، وقد عجز أعداؤنا
قبلك عن خفض شوكتنا ، والضمير في (بها) في البيت يعود على (القناة) في البيت السابق ،
والثقف : الحديدية التي يُقَوِّمُ بِهَا الرُّمَحَ ، والعشوزنة : الصَّلْبَةُ الْقَوِيَّةُ ، والزَّبُونُ : الدفوع .
جعل القناة التي لا يمكن تقويمها ولا إصلاح ما فيها مثلاً لِعِزَّتِهِمْ التي لا تَتَضَعُّعُ ، فإذا حاول
أحد إصلاحها أو تقويمها نفرت ، وظلَّت كما هي شديدة صلبة دفوعاً . والشاهد أن الاشتزاز
معناه : النفور والإبَاء والكبر .

صارت في حيز من يعقل ، ونُسب إليها الضرُّ والنفع والالوهية ، ونفي ذلك عنها ، فعولت معاملة من يعقل . و [وَحَدَّهُ] منصوب عند سبويه على المصدر ، وعند الفراء على الحال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالدعاء إليه ، وردَّ الحكم إلى عدله ، ومعنى هذا الأمر تضمن الإجابة ، و [اللَّهُمَّ] عند سبويه منادى ، وكذلك عند الكوفيين ، إلا أنه خالفهم في هذه الميم المشددة ، فقال سبويه : هي عَوْضٌ من حرف النداء المحذوف إيجازاً ، وهي دلالة على أن ثَمَّ ما حذف ، وقال الكوفيون : بل هو فعل اتصل بالمكتوبة ، وهو (أَمَّ) ثم حذفت الهمزة تخفيفاً ، فكان معنى اللهم : يا الله أُمَّ برحمتك وفضلك . و [فَاطِرَ] منادى مضاف ، أي : يا فاطر السموات ، و [الْغَيْبِ] : ما غاب عن البشر ، [وَالشَّهَادَةِ] : ما شاهدوه .

ثم أخبر تعالى عن سوء حال الكفرة يوم القيامة ، وأن ما ينزل بهم لو قدروا على الافتداء منه بضعف الدنيا بأسرها لفعلوا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ آلِهَةٍ أَيْ : كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة متنوعة حسب ضلالهم وتخيلاتهم فيما يعتقدونه ، فإذا عاينوا العذاب يوم القيامة وقصرت بهم حالاتهم ظهر لكل واحد خلاف ما كان يظن . وقال سفيان الثوري : ويل لأهل الربا من هذه الآية ، وقال عكرمة بن عمار : فزع محمد بن المنكدر عند الموت ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : أخاف هذه الآية . وقوله : [وَحَاقَ] معناه : نزل وثبت ولزم ، وقوله : ﴿ مَا كَانُوا ﴾ هو على حذف مضاف ، تقديره : وحاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون .

قوله عز وجل :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۗ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ قَدْ قَالَمَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٩﴾ أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هذه حجة تلزم عبَاد الأوثان للتناقض في أعمالهم ، وذلك أنهم يعبدون الأوثان ويعتقدون تعظيمها ، فإذا أذفت آذفة أو نالت

شِدَّةٌ نَبَذُوهَا وَنَسَوْهَا وَدَعَا الخالق المخترع ربَّ السموات والأرض ، و [الْإِنْسَانُ] في الآية للجنس ، و [خَوْلَانَاهُ] معناه : مَلَكْنَاهُ ، قال الزجاج وغيره : التَّخْوِيلُ : العطاء عن غير مجازاة ، و «النَّعْمَةُ» هنا عامٌ في جميع ما يسديه الله إلى العبد ، فمن ذلك إزالة الضرِّ المذكور ، ومنه الصِّحَّةُ والأَمْنُ والمالُ ، وتقوى الإشارة إليه في الآية بقوله : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ ، وبقوله تعالى أخيراً : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ، وبيدِ كَرِ الكسب .

وذكرَ تعالى الضمير في قوله : [أُوتِيتُهُ] ، وذلك يحتمل وجوهاً :
 منها أن يريد بالنعمة المال كما قدمنا ، ومنها أن يُعيد الضمير على المذكور إذ اسم النِّعْمَةِ يَعْمُ ما هو مُذَكَّرٌ وَيَعْمُ ما هو مُؤنَّثٌ ، ومنها أن تكون [مَا] في قوله : [إِنَّمَا] بمعنى (الذي) ، وعلى الوجهين الأولين [مَا] كَافَّةٌ ، وقوله : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ في موضع نصب على الحال ، مع أن تكون [مَا] كَافَّةٌ ، وأما إذا كانت بمعنى (الذي) فإن ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ في موضع خبر [إِنَّ] ، ودالُّ على الخبر المحذوف ، كأنه قال : «هو على علمٍ» ، وقوله : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ يحتمل أن يريد : على علمٍ مِنِّي يُوجِبُ المكاسب والتجارات وغير ذلك ، قاله قتادة ، ففي هذا التأويل إعجاب بالنفس وتعاطٍ (١) مُفْرَطٍ ، ونحو هذا ، ويحتمل أن يريد :

(١) من معاني التعاطي : تتناول ما لا يحقُّ ولا يجوز تناوله ، يقال : فلانٌ تعاطى ظلمتك ، وتعاطى أمراً قبيحاً ، أي : ركبته .

عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيَّ ، وَشَيْءٌ سَبَقَ لِي ، وَاسْتَحْقَاقَ حُزْنِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا يَضُرُّنِي مَعَهُ شَيْءٌ ، وَفِي هَذَا التَّأْوِيلِ اعْتِزَازٌ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَجْزٌ وَتَمَنُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ ، أَي : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ ، بَلْ هَذِهِ الْغَفْلَةُ بِهِ فِتْنَةٌ لَهُ وَابْتِلَاءٌ .

ثم أخبر تعالى عَمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْكُفْرَةِ أَنَّهُمْ قَدْ قَالُوا نَحْوَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ، كَقَارُونَ وَغَيْرِهِ ، وَأَنَّهُمْ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ كَسْبُهُمْ وَاحْتِجَابُهُمْ لِلْأَمْوَالِ ، وَكَذَلِكَ لَا يُغْنِي هَؤُلَاءِ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى - عَلَى جِهَةِ التَّوَعُّدِ لَهُؤُلَاءِ فِي نَفْسِ الْمَثَلِ - أَنَّ أَوْلَئِكَ أَصَابَهُمْ جَزَاءُ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا ، وَأَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْكَفْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَعَاصِرِينَ لَكَ سَيَصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَبْرَزَهُ الْوُجُودَ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ ، وَ « مُعْجِزِينَ » مَعْنَاهُ : مُفْلِتِينَ وَنَاجِينَ بِأَنْفُسِهِمْ .

ثم قرّر تعالى عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي أَمْرِ الْكُسْبِ وَسَعَةِ النِّعَمِ فَقَالَ : أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِقَوْمٍ وَيُضَيِّقُهُ عَلَى قَوْمٍ بِمَشِيئَتِهِ وَسَابِقِ عِلْمِهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِكَيْسٍ أَحَدٌ وَلَا لِعَجْزِهِ ، وَقَوْلُهُ : [وَيَقْدِرُ] مَعْنَاهُ : يُضَيِّقُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاقْدَرْ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ (١) .

(١) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٦) مِنْ سُورَةِ (الْفَجْرِ) : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٧﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَبُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

هذه الآيات عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة ، في كل كافر ومؤمن ، أي أن توبة الكافر تمحو كفره ، وتوبة العاصي تمحو ذنبه ، واختلف - هل يكون في المشيئة أو هو مغفور له ولا بُدَّ ؟ - فقالت فرقة من أهل السنة : هو مغفور له ولا بُدَّ ، وهذا مقتضى ظواهر القرآن ، وقالت فرقة : التائب في المشيئة ، لكن يغلب الرجاء في ناحيته ، والعاصي في المشيئة ، لكن يغلب الخوف في ناحيته .

واختلف المفسرون في سبب نزول الآيات - فقال عطاء بن يسار : نزلن في وحشي قاتل حمزة ، وقال السدي ، وقتادة ، وابن أبي إسحاق : نزلن في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، وفنتهم قريش فافتتنوا ، ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم ، فنزلت ، منهم الوليد (١) ، وهشام

(١) اسمه الوليد بن الوليد ، وقد أخرج ابن جرير ، عن ابن عمر ، قال : نزلت هذه الآيات في عيَّاش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فُتِنُوا وعُدُّبُوا فافتتنوا ... الحديث .

ابن العاصي ، وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأنه كتبها بيده إلى هشام بن العاصي - الحديث (١) . وقالت فرقة : نزلن في قوم كفار من أهل الجاهلية ، قالوا : وما ينفعنا الإسلام ونحن قد زينا وقتلنا النفس وأتينا كل كبيرة ، فنزلت ، وقال عليُّ ، وابن مسعود ، وابن عمر رضي الله عنهم : هذه أرجى آية في القرآن ، وروى ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما أحبُّ أن لي الدنيا بما فيها بهذه الآية : يا عبادي) (٢) .

و [أَسْرَفُوا] معناه : أفرطوا وتعدوا الطور ، و «القنوط» : أعظم اليأس ، وقرأ نافع وجمهور الناس : [تَقْنَطُوا] بفتح النون ، قال

(١) روى محمد بن إسحق ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر رضي الله عنه ، قال : لما اجتمعنا على الهجرة ، واتعدتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي ، وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضاعةُ بني غفار - غدِيرُ بني غفار - وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِسَ فليَمَضْ صاحبه ، فأصبحتُ أنا وعياش بن عتبة ، وحُبِسَ عنّا هشام ، وإذا به قد فَنَنَ فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عزَّ وجلَّ ، وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحِقَتَهُمْ ، لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في كتابه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ، قال عمر رضي الله عنه : فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام ، قال هشام : فلما قدمت عليَّ خرجتُ بها إلى ذي طُوًى فقلت : اللَّهُمَّ فَهَمُّنِيهَا ، فعرفتُ أنها نزلت فينا ، فرجعتُ فجلستُ على بعيري فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في (شعب الإيمان) ، عن ثوبان رضي الله عنه ، وفي آخره : فقال رجل : يا رسول الله ، فمن أشرك؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (إلا من أشرك) ثلاث مرات . (الدر المنثور) .

أبو حاتم : « يلزمهم أن يقرئوا : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ (١) بالكسر ، ولم يقرأ به أحد » ، وقرأ الأشهب العقيلي بضم النون ، وقرأ أبو عمرو ، وابن وثاب ، والأعمش بكسرها ، وهي لغات .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ عموم بمعنى الخصوص ؛ لأن الشرك ليس بداخل في الآية إجماعاً ، وهي أيضاً في المعاصي مقيدة بالمشيئة ، و [جَمِيعاً] نصب على الحال . ورُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً وَلَا يُبَالِي ﴾ (٢) ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

قوله تعالى : [وَأَنْبِئُوا] معناه : ارجعوا وميلوا بنفوسكم ، و « الإنباءة » : الرجوع بالنفس إلى الشيء ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ توعده بعذاب الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ معناه أن القرآن العزيز تضمن عقائد نيرة ، وأوامر ونواهي منجية ، وعدات على الطاعات والبر ، وحدوداً على المعاصي ووعيداً على بعضها ، فالأحسن

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الشورى) .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ (ولا يبالي) إنه هو الغفور الرحيم .

أَنْ يَسْلُكَ الْمَرْءُ طَرِيقَ التَّفْهَمِ وَالتَّحْصِيلِ وَالتَّطَاعَةِ وَالتَّانِثَاءِ وَالعَفْوِ فِي الْأُمُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ الْغَفْلَةِ وَالمَعْصِيَةِ فَيَجْزَى أَوْ يَقَعُ تَحْتَ الوَعِيدِ ، فَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ بِ [أَحْسَنَ] ، وَليْسَ أَنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ أَحْسَنُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ حَيْثُ هُوَ قُرْآنٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَحْسَنُ كُلَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى أَفْعَالِ الْإِنْسَانِ وَمَا يَلْقَى مِنْ عَوَاقِبِهَا ، قَالَ السُّدِّيُّ : الْأَحْسَنُ هُوَ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ . وَ [بَعْتَةً] مَعْنَاهُ : فَجَاءَةً وَعَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ ، وَ [تَشْعُرُونَ] مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّعَارِ .

قوله عز وجل :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَكَ نَصِيحَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجوهَهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

[أَنْ] فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَفْعُولٌ مِنْ أَجَلَهُ ، أَي : أَنْيَبُوا وَأَسْلِمُوا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ، وَقُرْأَ الْجُمْهُورُ : (يَا حَسْرَتَا) ، وَالْأَصْلُ : يَا حَسْرَتِي ، وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَرُدُّ يَاءَ الإِضَافَةِ أَلْفَاءً ، فَيَقُولُ : يَا غَلَامَا ،

ويا جارا (١) ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : ﴿ يَا حَسْرَتَايَ ﴾ بفتح الياء ، ورؤي عنه بسكونها ، قال أبو الفتح : جمع بين العوض والمُعْوَض منه (٢) ، وروي ابن جماز عن أبي جعفر : ﴿ يَا حَسْرَتِي ﴾ بكسر التاء وبعدها ياء ساكنة ، قال سيبويه : « ومعنى نداء الحسرة والويل : أي هذا وقتك وزمانك فاحضري » . و [فَرَطْتُ] معناه : قصرت في اللازم ، وقوله : ﴿ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ معناه : في مقاصدي إلى الله ، وفي جهة طاعته ، أي : في تضييع شريعته والإيمان به ، و « الْجَنبُ » يُعْبَرُ بِهِ عَنْ هَذَا وَنَحْوِهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

(١) قالوا : لأن الألف أخف من الياء ، ولأنها تمكن من مد الصوت المناسب للاستغانة .
(٢) واستشهد أبو الفتح لذلك بكثير من الشواهد : منها قوله : « وهذا كما ذهب أبي إسحق ، وأبي بكر في قول الفرزدق :

هُمَا نَفْسًا فِي فَيٍّ مِينَ فَمَوَيْهِمَا عَلَى السَّابِحِ الْعَاوِي أَشَدَّ رِجَامٍ

وذلك أنه جمع بين الميم والواو ، وإنما الميم بدل من الواو ، قلت : والفرزدق يصف شاعرين من قومه ، ويريد بالنابح العاوي من يهجو الفرزدق في البيت ، والرَّجَامُ : الرجم بالحجارة ، وهي بمعنى : المراجعة بها .

وأما قراءة إسكان الياء بعد الألف فقد قال عنها أبو الفتح أيضاً : « هو على ما مضى من قراءة نافع — في الآية (١٦٢) في سورة (الأنعام) : ﴿ مَحْسِيَّيْ وَمَمَاتِييْ ﴾ ، على أن الياء هنا ضعيفة حيث عوض عنها بالألف ، والسكون أنسب لها من الفتحة » .

لكن أبا الفضل الرازي يرى رأياً آخر ، ذكره في (اللوامح) ، يقول : « ولو ذهبت إلى أنه أراد تثنية الحسرة ، مثل لبيك وسعديك ، فكأنه يقول : يا حسرة بعد حسرة ، لكثرة حسراتهم يومئذ — لكان مذهباً » .

أَفِي جَنْبِ بَكْرٍ قَطَعْتَنِي مَلَامَةً لَعَمْرِي لَقَدْ طَالَتْ مَلَامَتُهَا بِيَا (١)
ومنه قول الآخر :

النَّاسُ جَنْبُ الْأَمِيرِ جَنْبُ (٢)

وقال مجاهد : ﴿ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ أَي : فِي أَمْرِ اللَّهِ . وَقَوْلُ الْكَافِرِ : « وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاحِرِينَ » نِدَامَةٌ عَلَى اسْتِهْزَائِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالسُّخْرُ : الْاسْتِهْزَاءُ .
وقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ فِي الْمَوْضِعِينَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَنْ تَقُولَ ﴾ الْأَوَّلُ ، وَ [كَرَّةٌ] مَصْدَرٌ ، مِنْ : كَرَّ يَكُرُّ ، وَقَوْلُهُ : [فَأَكُونُ] نَصَبٌ بِ (أَنْ) مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ ، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ : [كَرَّةٌ] ،

(١) يستشهد ابن عطية بالبيت على أن (الجَنْبُ) يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ : الْجَانِبِ وَالضَّرْبِ وَالطَّرِيقِ وَالْجَوَارِ ، تَقُولُ : فِي جَنْبِ بَكْرٍ ، أَي فِي جَانِبِهَا وَقُرْبِهَا وَجَوَارِهَا وَطَّرِيقِ حَيَاتِهَا وَالْوَلَاءِ لَهَا . وَاللَّوْمُ : الْعَدْلُ ، وَالْمَلَامَةُ : مَصْدَرٌ (لَامَ) ، وَالْقَطِيعَةُ : الْهَجْرَانُ ، ضِدُّ الْوَصْلِ ، يُقَالُ : قَطَعَ رَحِمَتَهُ قَطِيعَةً وَقَطَعَهَا : عَقَّهَا وَلَمْ يَصَابِهَا . وَيُرْوَى الْبَيْتُ : « سَلَيْمِي » بَدَلًا مِنْ « لَعَمْرِي » ، وَفِي الْبَحْرِ : (سَلَيْمِي) ، لَقَدْ كَانَتْ مَلَامَتُهَا ثَنَاءً .
(٢) هَذَا بَيْتٌ مِنْ مَشْطُورِ الرَّجَزِ ، وَهُوَ فِي الْلسَانِ (جَنْبُ) ، قَالَ : « وَالْجَنْبُ : النَّاحِيَةُ ، وَأُنْشِدَ الْأَخْفَشُ : (النَّاسُ جَنْبُ وَالْأَمِيرُ جَنْبُ) ، كَأَنَّهُ عَدْلُهُ بِجَمِيعِ النَّاسِ » ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَفِي الْقُرْطُبِيِّ ذَكَرَ بَيْتًا قَبْلَهُ ، قَالَ :

قُسِمَ مَجْهُودًا لِذَلِكَ الْقَلْبُ النَّاسُ جَنْبُ وَالْأَمِيرُ جَنْبُ
ولم ينسبه أحدٌ ممن استشهد به . والمعنى الذي يستشهدون عليه معروف ومتكرر في اللغة ، قالوا :
وهو من باب الكناية ، تقول : فعلت كذا لمكانك ، أي : لأجلك ، ومثله : فعلت كذا من جهتك ؛ لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الإنسان وحيزه فقد أثبتته فيه ، وقال كثير :

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ عَاشِيَتِي
لَهُ كَبِيدٌ حَرَّى عَالِيكَ تَقَطَّعُ ؟
ومن باب البيت المشهور :

إِنَّ السَّمَّاحَةَ وَالْمُرُوعَةَ وَالنَّدَى
فِي قُبَّةِ ضُرِبَتْ عَلَيَّ ابْنِ الْحَشْرَجِ

والمراد : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَكُونًا ، فلذلك احتيج إلى (أَنَّ) لتكون هي مع الفعل بتأويل المصدر ونحوه قول الشاعر - أنشده الفراء - :
 فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرَ ذِكْرِي وَخَشْيَةٍ وَتَسْأَلُ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمْمُوا؟ (١)
 وقد قدر بعض الناس الكلام بأنه : « لو أَنَّ لِي أَنْ أَكُرَّ » ، ذكره الطبري ، وهذا « الكونُ » في الآية داخلٌ في التمني (٢) .

(١) هذا البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن) ، قال : إن النصب في قوله تعالى : [فَمَا كُونْ] جواب لَلِوْ ، وإن شِئْتَ جعلته مردوداً على تأويل (أَنَّ) تضمراها في « الكَرَّة » ، كما تقول : لو أَنَّ لِي أَنْ أَكُرَّ فَاكُونْ ، ... ثم قال : وأنشدني : فما لك ... البيت . والشاهد فيه قوله : و (تَسْأَلُ) ؛ إذ يجوز فيه النصب بتقدير (أَنَّ) ، ليعطف على (ذِكْرِي) لأنها اسمٌ ، و (تَسْأَلُ) فعل ، فإذا ما قدرنا (أَنَّ) صارت هي والفعل بعدها اسماً فجاز عطفه على الاسم قبله ، فيصبح تقدير الكلام : فما لك منها غير الذكري والسؤال ، وهو في هذا كالبیت المشهور الذي قالته ميسون بنت بحدل زوج معاوية بن أبي سفيان :

لَأُبْسُ عَبَسَاءَةً وَتَقَرَّرَ عَيْتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشَّقُوفِ

هذا ، وقد روي بيتنا هنا : و (حِسْبَةٌ) بدلاً من (خَشْيَةٌ) ، وروي أيضاً : (وَحَسْرَةٌ) ، على أنه يجوز هنا في البيت و (تَسْأَلُ) بالرفع - لأنه لم تسبقه (أَنَّ) الناصبة .

(٢) ما ذكره الطبري هنا هو نفس كلام الفراء في (معاني القرآن) ، قال : « وفي نصب قوله : [فَمَا كُونْ] وجهان : أحدهما أن يكون نصبه على أنه جواب (لو) ، والثاني على الردِّ على موضع الكَرَّة . وتوجيه الكَرَّة في المعنى إلى : لو أَنَّ لِي أَنْ أَكُرَّ » . هذا وفي الأصول سقط من النسخ بعض الكلام الذي نقله عن الطبري ، وقد صححناه عن الطبري والفراء .

وقد قال في البحر تعقيماً على الرأيين في نصب [فَمَا كُونْ] : « والفرق بينهما أن الفاء إذا كانت في جواب التمني كانت (أَنَّ) واجبة الإضمار ، وكان الكون مترتباً على حصول المُتَمَنَّى لا مُتَمَنَّى ، وإذا كانت للعطف على [كَرَّةً] جاز إظهارُ (أَنَّ) وإضمارها ، وكان متمنى » . تأمل هذا وتأمل كلام ابن عطية تعقيماً على رأي الطبري ، فإنه جعل (الكُونُ) في الآية داخلاً في التمني .

وقوله : [بَلَى] جوابٌ لِنَفْسِي مقدرٌ في قول هذه النفس ، كأنها قالت : «فَعُمِّرِي في الدنيا لم يتسع للنظر» ، أو قالت : «فإِنِّي لم يَتَبَيَّن لي الأمر في الدنيا» ، ونحو هذا ، وحقُّ (بَلَى) أَنَّ يَجِيء بعد نَفْيٍ عَلَيْهِ تقريرٌ (١) .

وقرأ الجمهور : ﴿قَدْ جَاءَتْكَ﴾ بفتح الكاف وبفتح التاء من قوله : ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ﴾ ، على مخاطبة الكافر ذي النفس ، وقرأ ابن يعمر ، والجحدري بكسر الكاف والتاء في الثلاثة (٢) على خطاب النفس المذكورة ، قال أبو حاتم : روتها أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ الأعمش : ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ﴾ بالهاء . ثم خاطب تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بخبر يراه يوم القيامة من حالة الكفار ، وفي ضمن هذا الخبر وعيد لمعاصري محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله : [تَرَى] هو من رؤية العين ، وكذبهم على الله تعالى هو في أن جعلوا له البنات والصاحب ، وشرعوا ما لم يأذن به الله ، إلى غير ذلك . وقوله : ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع

(١) عقَّب أبو حيان في البحر على كلام ابن عطية هذا بقوله : «وليس حق (بَلَى) ما ذكر ابن عطية ، بل حقها أن تكون جواب نفي ثم حُمِلَ التقرير على النفي ، ولذلك لم يحمله عليه بعض العرب وأجاب النفي بـ (نَعَمْ) ، ووقع ذلك أيضاً في كلام سيويه نفسه : إذ أجاب التقرير بـ (نَعَمْ) اتباعاً لبعض العرب» . وفي هذا نقض للفكرة السائدة بأن جواب النفي الذي حُمِلَ عليه التقرير لا يكون في صحيح اللغة إلا بقولنا : (بَلَى) .

(٢) أي : الأفعال الثلاثة في قوله : ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ﴾ .

الحال (١) ، وظاهر الآية أن لون وجوههم يتغير وتسود حقيقة ، ويحتمل أن يكون في العبارة تجوز ، وعبر بالسواد عن اربداد وجوههم وغالب همهم وظاهر كتابتهم ، و «مَثْوَى» : موضع الثواء والإقامة ، و «المتكبر» : رافع نفسه إلى فوق حقه ، قال صلى الله عليه وسلم : (الكبر سفه الحق وغمط الناس) أي احتقارهم (٢) .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَجِبِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١١ ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ١٢ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ١٣ ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ١٤ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ١٥ ﴿

(١) هذا على أن [تَرَى] من رؤية البصر كما قال ابن عظيمة ، أما لو قلنا إنها رؤية القلب كما قدرها بعضهم فالجملة مفعول ثان .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١-٣٩٩) ، ولفظه كاملاً ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر) ، فقال رجل : يا رسول الله ، إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ، ورأسي دهيناً ، وشراكي نعلي جديداً ، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه ، أفمن الكبير ذلك يا رسول الله ؟ قال : (لا ، ذاك الجمال ، إن الله جميل يحب الجمال ، ولكن الكبير من سفه الحق وازدراى الناس) .

ذكر الله تعالى حالة المتقين ونجاتهم ليعادل بذلك ما تقدم من ذكر الكفرة ، وفي ذلك ترغيب في حالة المتقين ؛ لأن الأشياء تبين بأضدادها . وقرأ الجمهور : [بِمَفَازَاتِهِمْ] على اسم الجنس ، وهو مصدرٌ من الفوز ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : [بِمَفَازَاتِهِمْ] على الجمع ، من حيث النجاة لأنواع ولأسباب مختلفة ، وهي قراءة الحسن ، والأعرج ، وأبي عبد الرحمن ، والأعمش . وفي الكلام حذف مضاف تقديره : وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِأَسْبَابٍ أَوْ بَدَوَاعِي مَفَازَتِهِمْ . وقال السُّدي : [بِمَفَازَاتِهِمْ] : بفضائلهم ، وقال ابن زيد : بأعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كلام مستأنفٌ دالٌّ على الوحدانية ، وهو عموم معناه الخصوص ، و «الوكيل» : القائم على الأمر الزعيم بإكماله وتتميمه .

و «المقاليد» : المفاتيح ، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما ، واحدها : مِقْلَادٌ ، مثل مِفْتَاحٍ ، وفي كتاب الزهراوي : واحد المقاليد : إقليد ، وهذه استعارة ، كما تقول : بيدك يا فلان مفتاح هذا الأمر ؛ إذا كان قادراً على السعي فيه ، وقال السدي : المقاليدُ : الخزائن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة غير جيدة ، ويُشبهه أن يقول قائل : المقاليدُ إشارةٌ للخزائن أو دالَّةٌ عليها فيسوغ هذا القول ، كما أن الخزائن أيضاً

في جهة الله تعالى إنما تجيء استعارة ، بمعنى : اتساع قدرته ، وأنه يبتدع ويخترع ، ويُشبهه أن يقال فيما أوجد من المخلوقات كالماء والنار وغير ذلك : إنها في خزائنه سبحانه ، وهذا كله تجوز على جهة التقريب والتفهم للسامعين ، وقد ورد القرآن بذكر الخزائن (١) ، ووقعت في الحديث الصحيح في قوله صلى الله عليه وسلم : (ما فتح الليلة من الخزائن) (٢) ، والحقيقة في هذا غير بعيدة ، لكنه ليس اختزان حاجة ولا قلة قدرة كما هو اختزان البشر . وقال عثمان رضي الله عنه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقاليد السموات والأرض فقال : (لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) (٣) .

- (١) جاء ذلك في آيات كثيرة : منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .
- (٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في أبواب العلم ، والنهجد ، والمناقب ، واللباس ، والأدب ، والفتن ، وأخرجه الترمذي ، وأحمد في مسنده (٦-٢٩٧) ، ولفظه كما جاء في مسنده ، عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول : (لا إله إلا الله ، ما فتح الليلة من الخزائن ، لا إله إلا الله ما أنزل الليلة من الفتنة ، من يوقظ صواحب الحجر ، يا رب كاسيات في الدنيا عاريات في الآخرة) .
- (٣) أخرجه أبو يعلى ، ويوسف القاضي في سننه ، وأبو الحسن القطان في المطولات ، وابن السني في عمل يوم وليلة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : =

وقوله : [أَفَغَيْرَ] منصوب بـ [أَعْبُدُ] ، كأنه قال : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَعْبُدُ ،
 فيما تأمروني ؟ ، ويجوز أن يكون نصبه بـ [تَأْمُرُونِي] على إسقاط [أَنْ] ،
 تقديره : أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ . وقرأت فرقة [تَأْمُرُونِي] بنونين ،
 وهذا هو الأصل ، وقرأ ابن كثير بنون مشددة مكسورة بعدها ياء
 مفتوحة . وقرأ ابن عامر بنون خفيفة مكسورة وياء ساكنة ، وهذا
 على حذف النون الواحدة ، وهي الموطئة لياء المتكلم ، ولا يجوز حذف
 النون الأولى ، وهو لحن لأنها علامة رفع الفعل ، وفتح نافع الياء
 على هذا الحذف فقرأ : [تَأْمُرُونِي] ، وقرأ الباقيون بشد النون وسكون
 الياء .

= لَهُ مُقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٠﴾ ، قال : لا إله إلا الله والله أكبر ، سبحان الله و الحمد
 لله ، أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخرة والظاهر والباطن ، يحيي ويميت وهو
 حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، يا عثمان ، من قالها كل يوم مائة مرة
 أعطي بها عشر خصال ، أما أولها فيغفر له ما تقدم من ذنبه ، وأما الثانية فيكتب له براءة من
 النار ، وأما الثالثة فيوكل به ملكان يحفظانه في ليله ونهاره من الآفات والعاهات ، وأما الرابعة
 فيعطى قنطاراً من الأجر ، وأما الخامسة فيكون له أجر من أعتق مائة رقبة محررة من ولد إسماعيل ،
 وأما السادسة فيزوج من الحور العين ، وأما السابعة فيحرس من إبليس وجنوده ، وأما الثامنة
 فيعقد على رأسه تاج الوقار ، وأما التاسعة فيكون مع إبراهيم ، وأما العاشرة فيشفع في سبعين
 رجلاً من أهل بيته ، يا عثمان إن استطعت فلا تفوتك يوماً من الدهر ، تَقْرُ بها مع الفائزين ،
 وتسبق بها الأولين والآخرين . (الدر المنثور) .

هذا والحديث مروى من طرق كثيرة ، فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وأخرجه
 الحارث بن أبي أسامة ، وابن مردويه عن أبي هريرة ، وأخرجه العقيلي ، والبيهقي في الأسماء
 والصفات عن ابن عمر ، مع اختلاف في بعض الألفاظ ، وفي زيادة بعض الحمل أو نقصها ،
 وكل هذه الروايات ذكرها السيوطي في الدر المنثور .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ الآية ، قالت فرقة : في الآية تقديم وتأخير ، كأنه قال : « ولقد أوحِيَ إِلَيْكَ لَعْنُ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » ، وقالت فرقة : الآية على وجهها ، والمعنى : ولقد أوحِيَ إلى كل نبيٍّ لئن أشركت ليحبطن عملك ، و « حبط » معناه : بطل وسقط . وبهذه الآية بطلت أعمال المرتدِّ من صلواته وحجَّه وغير ذلك .

قوله عز وجل :

﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ؕ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ؕ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المكتوبة (١) منصوبة بقوله تعالى : [فَاعْبُدْ] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ معناه : وما عظّموا الله حق عظّمته ، ولا وصفوه بصفاته ، ولا نفوا عنه ما لا يليق به .

واختلف الناس في المعنى بالضمير في قوله سبحانه : [قَدَرُوا] -

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزل ذلك في كفار قريش الذين

(١) المكتوبة هي لفظ الجلالة (الله) .

كانت هذه الآيات كلها محاورة لهم ورداً عليهم . وقالت فرقة :
الآية نزلت في قوم من اليهود ، تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله
فألحدوا وجسّموا وأتوا بكل تخليط ، فنزلت الآية فيهم ، وفي الحديث
أنه جاء حَبْرٌ بالمدينة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس إليه ،
فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : حدثنا ، قال : إن الله عز وجل
إذا كان يوم القيامة جعل السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ،
والجبال على إصبع ، والماء والشجر على إصبع ، وجميع الخلائق على
إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله
عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً له ، ثم قرأ هذه الآية (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فرسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل بالآية وقد كانت نزلت ،
وقوله في الحديث : (تصديقاً له) ، أي في أنه لم يقل إلا ما رأى
في كتب اليهود ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر المعنى لأن
التجسيم فيه ظاهر ، [واليهود معروفون باعتقاده ، لا يُحسنون حمّله

(١) ذكره الواحدي بسنده ، عن عبد الله بن مسعود في (أسباب النزول) ، وهو في
الصحيحين دون سبب النزول ، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) ، وزاد في رواته : سعيد
ابن منصور ، والإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن
المنذر ، والدارقطني في (الأسماء والصفات) . وأخرج نحوه أحمد ، والترمذي وصحّحه ،
وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

على تأويله من أن الإصبع عبارة عن القدرة ، أو أنها إصبع خلق يخلقه لذلك ، ويعضد هذا تنكير الإصبع [(١)] .

وروي سعيد بن المسيب أن سبب نزول الآية أن طائفة من اليهود جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الأشياء ، فمن خلق الله ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وساورهم (٢) فنزلت الآية (٣) ، وقرأ جمهور الناس : [قَدْرِهِ] بسكون الدال ، وقرأ الأعمش بفتحها ، وقرأ أبو حيوه ، وعيسى بن عمر ، والحسن ، وأبو نوفل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا ﴾ بتشديد الدال ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ بفتحها . وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾ معناه : في قبضته ، وقال ابن عمر ما معناه : إن الأرض في قبضة اليد الواحدة ، والسماوات

(١) ما بين العلامتين [.....] لا يوجد إلا في النسخة التونسية المكتوبة بالخط المغربي ، وهي زيادة توضح رأي ابن عطية وفهمه للحديث الشريف .
(٢) قال ابن الأثير في (النهاية) : « أساوره : أوائبه وأقاتله » ، وفي المعجم الوسيط : ساوره : وآثبه .

(٣) الحديث في تفسير الطبري ، ولفظه : قال : أتى رهط من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خالقه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتفخ لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه ، فجاءه جبريل فسكته ، وقال : اخفض عليك جناحك يا محمد ، وجاءه من الله جواب ما سأله عنه ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، فلما تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : صف لنا ربك ، كيف خلقه ؟ وكيف عضده ؟ وكيف ذراعُه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول ، ثم ساورهم ، فأناه جبريل فقال مثل مقالته ، وأناه بجواب ما سأله عنه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

مطويات باليمين الأخرى ؛ لأن كفتي يديه يمين ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الأرض جميعاً قبضته والسموات وكل ذلك بيمينه . وقرأ عيسى بن عمر : [مَطْوِيَّاتٍ] بكسر التاء المنونة ، والناسُ على رفعها .

وعلى كل وجه فاليمينُ هنا والقبضةُ وكل ما ورد عبارة عن القدرة والقوة ، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل ، وما ذهب إليه القاضي من أنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف . وبحسب ما يختلج في النفوس التي لم يصنها العلم قال سبحانه وتعالى : ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ، أي : هو منزّه عن جميع الشبه التي لا تليق به .

ثم ذكر سبحانه وتعالى النَّفْخَ في الصُّورِ لِيُصْعِقَ الْأَحْيَاءَ من أهل الدنيا والسماء ، وفي بعض الأحاديث من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ قَبْلَ هَذِهِ الصَّعْقَةِ صَعْقَةُ الْفَرْعِ ، وَلَمْ تَتَّصِفَنَّهَا هَذِهِ الْآيَةُ . و [صَعِقَ] في هذه الآية معناه : خَرَّ مَيْتًا ، و «الصُّورُ» : الْقَرْنَ ، وَلَا يَتَصَوَّرُ هُنَا غَيْرَ هَذَا ، وَمَنْ يَقُولُ : الصُّورُ جَمْعُ صَوْرَةٍ فَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ قَوْلُهُ فِي نَفْخَةِ الْبَعْثِ . وقرأ قتادة : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ بفتح الواو ، وهي جمع صورة .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ، قال السدي : استثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملئك الموت ، ثم أماتهم بعد هذه الحال ، وروي ذلك عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) ، وقيل :

(١) حديث أنس هذا أخرجه الفريابي ، وعبد بن حميد ، وأبو نصر السجزي في الإبانة ، وابن مردويه ، وهو حديث طويل تجده في الدر المنثور .

استثنى الأنبياء ، وقال ابن جبير : استثنى الله الشهداء . وقوله تعالى :
 ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ هي نفخة البعث ، ورُوي أن بين النفختين
 أربعين ، لا يدري أبو هريرة : سنةً أو يوماً أو شهراً أو ساعة (١) .
 وباقى الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ
 وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ
 بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ
 أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ
 وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى
 الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
 الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(١) قال البخاري : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا الأعمش ، قال : سمعتُ
 أبا صالح ، قال : سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
 (ما بين النفختين أربعون) ، قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال رضي الله عنه : أبيتُ ،
 قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيتُ ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيتُ ، ويَبْلَى كلُّ
 شيءٍ من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق .

[أَشْرَقَتْ] معناه : أَضَاءَتْ وَعَظُمَ نُورُهَا ، يقال : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرفت إذا أَضَاءَتْ . وقرأ ابن عباس ، وعبيد بن عمير : [وَأَشْرَقَتْ] بضم الألف وكسر الراء ، وهذا إنما يترتب من فعل يتعدى ، فهذا على أن يقال : أَشْرَقَ الْبَيْتُ وَأَشْرَقَهُ السَّرَاجُ ، فيكون الفعل متجاوزاً وغير متجاوز بلفظ واحد ، كَرَجَعَ وَرَجَعْتُهُ ، وَوَقَفَ وَوَقَفْتُهُ ، ومن المتعدي من ذلك يقال : أُشْرِقَتِ الْأَرْضُ ، «وَالْأَرْضُ» في هذه الآية الْأَرْضُ الْمُبْدَلَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَعْرُوفَةِ .

وقوله تعالى : ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إضافة خَلَقَ إِلَى خَالِقٍ ، أَي : بنور الله تبارك وتعالى . و [الْكِتَابُ] : كتابُ حسابِ الخلائق ، ووحدته على اسم الجنس ؛ لأن كل واحد له كتابٌ على حِدَةٍ . وقالت فرقة : وَضِعَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ . وهذا شاذٌ ، وليس فيه معنى التوعد وهو مقصد الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ أَي : اسْتُشْهِدُوا عَلَى أُمَّمِهِمْ ، وقوله تعالى : [وَالشُّهَدَاءُ] ، قيل : هو جمع شاهد ، والمرادُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وقال السُّدِّيُّ : الشُّهَدَاءُ : جمع شهيد في سبيل الله ، وهذا أيضاً يزول عنه معنى التوعد ، ويحتمل أن يريد بالشهداء الأنبياء أنفسهم ، فيكون من عطف الصفة على الصفة بالواو ، كما تقول : جاءني زيد الكريمُ والعاقل . وقال زيد بن أسلم : الشُّهَدَاءُ : الْحَفَظَةُ .

والضمير في قوله تعالى : [بَيْنَهُمْ] عائد على العالم بأجمعه إذ الآية تدلُّ عليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ معناه : لا يوضع شيءٌ من أمورهم غير موضعه .

وقوله : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ معناه : جوزيته مكملاً ، وفي هذا وعيدٌ صريحٌ عنه قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقرأ الجمهور : [وَسِيقَ] ، [وَجِيءَ] بكسر أوله ، وقرأها ونظائرها بإشمام الضمِّ الحسنُ ، وابن وثاب ، وعاصم ، والأعمش . و [زُمرأ] معناه : جماعات متفرقة ، واحدها زُمرَة . وقوله تعالى : [فُتِحَتْ] جوابُ [إِذَا] ، والكلام هنا يقتضي أن فَتَحَهَا إنما يكون بعد مجيئهم ، وفي وقوفهم قبل فتحها مذلةٌ لهم ، وهكذا هي حال السجون ومواضع الثُّقاف^(١) والعذاب ، بخلاف قوله تعالى في أهل الجنة : [وَفُتِحَتْ] ، فالواو مؤذنةٌ بأنهم يجدونها مفتوحة كمنازل الأفراح^(٢) . وقرأ الجمهور :

(١) الثُّقَافُ : الأخذُ والظَّفَرُ ، يقال : ثَقِفْتُهُ إِذَا ظَفَرْتَهُ بِهِ ، قال الله تعالى : ﴿ فِيمَا تَشَقَّقْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ ، اللسان .

(٢) قال الثعلبي وبعض اللغويين : إن الواو في قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ هي واو الثمانية ، لأن العرب تعطف على العدد بالواو على ما فوق السبعة ، وسموها واو الثمانية ، وأبواب الجنة ثمانية فجاءت الواو لذلك ، وأبواب النار سبعة فلم تذكر الواو لذلك ، وهذا القول تنقضه الآيات القرآنية التي لم تذكر فيها الواو مع العدد الثامن ، وقد قيل أيضاً =

[فُتِّحَتْ] بشد التاء في الموضعين ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بتخفيفها ، وهي قراءة طلحة ، والأعمش . ثم ذكر سبحانه وتعالى توقيف الخزنة لهم على مجيء الرُّسل . وقرأ الجمهور : [يَأْتِكُمْ] بالياء من تحت ، وقرأ الأعرج : [تَأْتِكُمْ] بالتاء من فوق ، وقوله تعالى : [مِنْكُمْ] أعظم في الحُجَّة ، أي : رسلٌ من جنسكم لا يصعب عليكم مرامهم ولا فهم أقوالهم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ جوابٌ على التقرير على نفي أمر ، ولا يجوز هنا الجواب بـ (نَعَمْ) لأنهم كانوا يقولون : نعم لم يأتنا ، وهكذا كان يترتب المعنى : ثم لم يجدوا حُجَّةً ، إِلَّا أَنْ كَلِمَةَ الْعَذَابِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ، أي الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدهم في النار ، وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك ، وهي التي في قوله تعالى لإبليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) ، و «الْمَثْوَى» : موضع الإقامة .

إن الواو زائدة ، وقيل وهو الرأي السائد واختاره ابن عطية : إن الواو هنا واو الحال ، وذكرت للدلالة على أن الأبواب كانت مفتحة لهم قبل مجيئهم ، وفي هذا دلالة على الترحيب بهم ، وليستعجلوا السرور قبل الدخول إذا رأوها مفتوحة ، وهو أيضاً صيانة لهم عن الذلة التي يلقاها من يجد الباب مغلقاً في وجهه . (راجع تفسير الآية ١١٢ من سورة التوبة) .

(١) الآية (٨٥) من سورة (ص) .

قوله عز وجل :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
 أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ
 فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
 بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ لفظ يعم كل من يدخل الجنة من المؤمنين الذين اتقوا الشرك ؛ لأن الذين لم يتقوا المعاصي قد يساق منهم ، وهم الذين سبق لهم أن يغفر الله تعالى لهم من أهل المشيئة ، وأيضاً فالذين يدخلون النار ثم يخرجون منها قد يساقون زُمراً إلى الجنة بعد ذلك فيصيرون من أهل هذه الآية ، والواو في قوله تعالى : [وَفُتِحَتْ] مُؤذنة بأنها قد فُتحت قبل وصولهم إليها ، وقالت فرقة : هي زائدة ، وجواب [إِذَا] هو [فُتِحَتْ] ، وقال الزجاج عن المبرد : جواب [إِذَا] محذوف ، تقديره بعد قوله تعالى : [خَالِدِينَ] .. سعدوا (١) ، وقال الخليل : الجواب محذوف تقديره : حتى إذا جاءوها جاءوها وفتحت

(١) في الأصول : « بعد قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ... سعدوا » ، والآية الكريمة خالية من كلمة (فيها) ، ولعلّه خطأ من النساخ .

أبوابها ، وهذا كما قَدَّر الخليل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ
 لِلْجَبِينِ ﴾ (١) ، وكما قَدَّر أيضاً قول امرئ القيس :
 فَلَمَّا أَجْزَنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى (٢)
 أي : أَجْزَنَا وَانْتَحَى . وقد قال قوم - أشار إليهم ابن الأنباري وضعف
 قولهم - : هذه واو الثمانية ، وقد تقدم القول في واو الثمانية مستوعباً
 في سورة الكهف ، وسقطت هذه الواو في مصحف ابن مسعود ،
 فهي كالأولى .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ تحية ، ويحتمل أن يريد أنهم قالوا
 لهم : سلامٌ عليكم وأمنة لكم ، و [طِبْتُمْ] معناه : أعمالاً ومُعْتَقِداً
 ومُسْتَقْرأً وجزاءً .

(١) الآية (١٠٣) من سورة (الصفافات) .

(٢) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس في معلقته ، والبيت بتمامه :

فَلَمَّا أَجْزَنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنَ حَبْتِ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ
 ويروى : بطن حِقْف ، وأجزنا : قَطَعْنَا ، والساحة : فناء الدار ، وانتحى : اعترض ،
 والحبت : بطن من الأرض غامض . والقفاف : جمع قُف ، وهو ما غلظ من الأرض
 وارتفع ، والعقنقل : المنعقد الداخل بعضه فوق بعض . وهذا البيت موضع خلاف بين
 النحويين في بيان جواب (لَمَّا) ، وذلك أن بعضهم يقول : الجواب هو قوله في بيت بعده :
 (هَصْرَتْ بِفَوْدِي رَأْسَهَا فَتَمَّامِلَتْ) ، وقال بعضهم : الجواب هو (انتحى) ،
 والواو زائدة لمعنى التعجب ، وقال أبو عبيدة : الواو في هذا البيت واو نَسَقَ ، والجواب
 محذوف لعلم المخاطبين به ، وكل هذه الأقوال قيلت في جواب [لَمَّا] في الآية الكريمة :
 ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ، وفي الآية الكريمة : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
 أَبْوَابُهَا ﴾ ، وزيادة على هذه الآراء قيل : إن الواو في هذه الآية هي واو الثمانية ، وقد تحدثنا
 عن ذلك من قبل .

وقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ ﴾ يريد أرض الجنة ،
 قاله قتادة ، وابن زيد ، والسدي ، والوراثه هنا مستعارة ؛ لأن حقيقة
 الميراث أن يكون يصير شيء إلى إنسان بعد موت إنسان ، وهؤلاء
 إنما ورثوا مواضع أهل النار لو كانوا مؤمنين ، و [نَتَبَّأُ] معناه : نَتَّخِذُ
 أمكنة ومساكن .

ثم وصف تعالى حالة الملائكة من العرش وحفوفهم به ، وقال قوم :
 واحد [حَافِيْن] : حافٌ ، وقالت فرقة : لا واحد لِحَافِيْن لأن الواحد
 لا يكون حافاً ؛ إذ الحفوف الإحداقُ بالشيء ، وهذه اللفظة مأخوذة
 من الحفاف الذي هو الجانب ، ومنه قول الشاعر :
 لَهُ لِحَفَاتٌ عَنْ حِفَافِي سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلٌ (١)
 أي : عن جانبه . وقالت فرقة : [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَوْلِ
 الْعَرْشِ ﴾ زائدة .

(١) اللَّحَفَاتُ : جَمْعُ لِحْفَةٍ ، وَاللِّحْفَةُ هِيَ النَّظْرَةُ مِنْ جَانِبِ الْأُذُنِ ، وَفِي اللِّسَانِ
 عَنِ الْأَزْهَرِيِّ : اللَّحْفَاطُ هُوَ أَنْ يَنْظُرَ الرَّجُلُ بِلِحْفَاطٍ عَيْنَهُ إِلَى الشَّيْءِ شَرُّرًا ، وَاللِّحْفَاطُ
 هُوَ شِقُّ الْعَيْنِ الَّذِي يَلِي الصَّدْعَ ، وَعَنْ حِفَافِي السَّرِيرِ : عَنْ جَانِبِهِ ، وَكَرَّهَا : رَدَّهَا وَأَعَادَهَا
 وَالنَّائِلُ : الْعَطَاءُ وَالْجُودُ ، يَقُولُ : إِنْ لَهُ نَظْرَاتٌ شَدِيدَةٌ الْوَقْعَ إِذَا رَدَّدَهَا فِي النَّاسِ وَهُوَ عَلَى
 جَانِبِي سَرِيرِهِ كَانَ فِيهَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ ، أَوْ كَانَ فِيهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَالشَّاهِدُ أَنَّ الْحِفَافَ
 هُوَ الْجَانِبُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب أنها لا ابتداءً الغاية .

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (١) ، قالت فرقة : معناه

أن تسبيحهم يتأتى بحمد الله تعالى وفضله ، وقالت فرقة : تسبيحهم

هو ترديد حمد الله تبارك وتعالى وتكراره . وقال الثعلبي : مُتَلَدِّذِينَ

لَا مُتَعَبِّدِينَ وَلَا مُكَلَّفِينَ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتم للأمر ، وقولُ

جزمٌ عند فصل القضاء ، أي : إنَّ هذا الحاكم العدل ينبغي أن يُحمد

عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه ، ومن هذه الآية جعلت ﴿ الْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ خاتمة المجالس والمجمعات في العلم ، وقال قتادة :

فتح الله أول الخلق بالحمد فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) ، وختم القيامة بالحمد في هذه الآية (٣) .

(١) قال الثعلبي : العرب تُدخل الباء في التسييح أحياناً وتحذفها أحياناً ، فيقولون : سَبَّحَ بحمد ربك ، وسَبَّحَ حمداً لله . قال الله تعالى : ﴿ سَبَّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، وقال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

(٢) من الآية (١) من سورة (الأنعام) .

(٣) أضاف بعض المفسرين زيادة في كلام قتادة هي قوله : « فلزم الاقتداء به » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجعل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فاتحة كتابه ، فيه يبدأ كلُّ أمر ، وبه يُخْتَم ، وَحَمْدُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقْدِيسُهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَآخِرُ شَيْءٍ أَنْتَ فِي كُلِّ ضِجَّةٍ وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتَ عِنْدَ هُبُوبِي (١)

كامل تفسير سورة الزمر والحمد لله رب العالمين

(١) الضَّجَّةُ : هيئة الاضطجاع ، وفي اللسان : « الضَّجَّةُ بالكسر : من الاضطجاع ، وهو النوم ، كالجلسة من الجلوس ، والضَّجَّةُ بفتح الضاد : المرة الواحدة ، وهبَّ النائم إذا استيقظ ، وهبَّ فلانٌ يفعل كذا ، والشاعر يخاطب الله عزَّ وجلَّ مقدساً ذاته ، فهو آخر شيءٍ يذكره عند كل ضجعة نوم ، وهو أول شيءٍ يسبحه عند قيامه من النوم .

هذا وقد أخرج عبد بن حميد عن وهب رضي الله عنه أنه قال : « من أراد أن يعرف قضاء الله في خلقه فليقرأ آخر سورة الزمر » .

انتهى الجزء الثاني عشر بعون الله وتوفيقه
والحمد لله رب العالمين ، ويليه الجزء الثالث عشر
بمشيئة الله تعالى ، ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : (حَم ، تَنْزِيلُ
الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُوعِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) .

مقرره الطبع لهذا التفسير محفوظاً للمحققين

فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
والأستاذ السيد عبد العال السيد إبراهيم

فهرس - الآيات

رقم الصفحة	الآية
١	تفسير سورة الأحزاب
٢	قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْعَمْ الْكُفَّارِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٣
٤	قوله عز وجل : (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٤
١٠	قوله عز وجل : (أَدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٦
١٦	قوله عز وجل : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٩
٢٢	قوله عز وجل : (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٢
٢٥	قوله عز وجل : (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٥
٢٩	قوله عز وجل : (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٨
٣٢	قوله عز وجل : (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٩
٣٥	قوله عز وجل : (يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢١
٣٧	قوله عز وجل : (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٤
٤٥	قوله عز وجل : (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٧
٤٩	قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُحَدِّثْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعْنِ وَأَسْرَحْنَ سَرَاحًا جَمِيلًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٩

- قوله عزَّ وجلَّ : (يانسأء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) إلى آخر الآية ٣٢ ٥٣
- قوله عزَّ وجلَّ : (وقرنَ في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) إلى آخر الآية ٣٣ ٥٨
- قوله عزَّ وجلَّ : (وأذكُرن ما يُتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) إلى آخر الآية ٣٥ ٦٣
- قوله عزَّ وجلَّ : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) إلى آخر الآية ٣٧ ٦٦
- قوله عزَّ وجلَّ : (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) إلى آخر الآية ٤٤ ٧٤
- قوله عزَّ وجلَّ : (يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) إلى آخر الآية ٤٩ ٨٠
- قوله عزَّ وجلَّ : (يأيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) إلى آخر الآية ٥٠ ٨٥
- قوله عزَّ وجلَّ : (تُرجي من تشاء منهمن وتؤوي من تشاء) إلى آخر الآية ٥٢ ٩١
- قوله عزَّ وجلَّ : (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) إلى آخر الآية ٥٣ ١٠٠
- قوله عزَّ وجلَّ : (إن تُبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليم) إلى آخر الآية ٥٥ ١٠٨
- قوله عزَّ وجلَّ : (إن الله وملائكته يُصلُّون على النبي) إلى آخر الآية ٥٨ ١١٠
- قوله عزَّ وجلَّ : (يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنن عليهن من جلابيبهن) إلى آخر الآية ٥٩ ١١٦
- قوله عزَّ وجلَّ : (لئن لم ينسأء المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً) إلى آخر الآية ٦٢ ١١٧

رقم الصفحة	الآية
١٢١	قوله عزَّ وجلَّ : (يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله) إلى آخر الآية ٦٨
١٢٣	قوله عزَّ وجلَّ : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) إلى آخر الآية ٧١
١٢٦	قوله عزَّ وجلَّ : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) إلى آخر الآية ٧٣
١٣٠	تفسير سورة سبأ
١٣١	قوله عزَّ وجلَّ : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة) إلى آخر الآية ٢
١٣٣	قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) إلى آخر الآية ٥
١٣٦	قوله عزَّ وجلَّ : (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق) إلى آخر الآية ٨
١٣٩	قوله عزَّ وجلَّ : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) إلى آخر الآية ١١
١٤٨	قوله عزَّ وجلَّ : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) إلى آخر الآية ١٢
١٥٠	قوله عزَّ وجلَّ : (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) إلى آخر الآية ١٣
١٥٥	قوله عزَّ وجلَّ : (فلما قضينا عليه الموت ما دلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) إلى آخر الآية ١٤
١٦٢	قوله عزَّ وجلَّ : (لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال) إلى آخر الآية ١٧

رقم الصفحة	الآية
١٧١	قوله عزَّ وجلَّ : (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير) إلى آخر الآية ١٩
١٧٧	قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتَّبَعوه إلا فريقاً من المؤمنين) إلى آخر الآية ٢٢
١٧٩	قوله عزَّ وجلَّ : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) إلى آخر الآية ٢٣
١٨٥	قوله عزَّ وجلَّ : (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله) إلى آخر الآية ٢٧
١٨٧	قوله عزَّ وجلَّ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) إلى آخر الآية ٣٠
١٨٩	قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) إلى آخر الآية ٣٢
١٩٠	قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكرُّ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) إلى آخر الآية ٣٣
١٩٢	قوله عزَّ وجلَّ : (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مُتْرَفُوها إنا بما أرسلتم به كافرون) إلى آخر الآية ٣٧
١٩٥	قوله عزَّ وجلَّ : (والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون) إلى آخر الآية ٣٩
١٩٧	قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) إلى آخر الآية ٤٣
١٩٩	قوله عزَّ وجلَّ : (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) إلى آخر الآية ٤٦
٢٠٣	قوله عزَّ وجلَّ : (قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم إن أجرِيَ إلا على الله) إلى آخر الآية ٥١
٢٠٦	قوله عزَّ وجلَّ : (وقالوا آمناً به وأنى لهم التناؤُس من مكان بعيد) إلى آخر الآية ٥٤

رقم الصفحة	الآية
٢١١	تفسير سورة فاطر
	قوله عز وجل : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رُسُلًا أولي
٢١٢	أجنحة مثنى وثلاث ورباع) إلى آخر الآية ٥
٢١٨	قوله عز وجل : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) إلى آخر الآية ٨
٢٢٠	قوله عز وجل : (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً) إلى آخر الآية ١٠
	قوله عز وجل : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) إلى آخر
٢٢٥	الآية ١١
	قوله عز وجل : (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج)
٢٢٧	إلى آخر الآية ١٢
٢٣٠	قوله عز وجل : (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) إلى آخر الآية ١٤
	قوله عز وجل : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) إلى آخر
٢٣٢	الآية ١٨
٢٣٥	قوله عز وجل : (وما يستوي الأعمى والبصير) إلى آخر الآية ٢٦
	قوله عز وجل : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً
٢٤١	ألوانها) إلى آخر الآية ٢٨
	قوله عز وجل : (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم
٢٤٤	سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور) إلى آخر الآية ٣١
٢٤٦	قوله عز وجل : (ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا) إلى آخر الآية ٣٤
	قوله عز وجل : (الذي أحسننا دار المقامة من فضله لا يحسنها فيها نصب ولا يحسنها
٢٥٣	فيها لُغُوب) إلى آخر الآية ٣٧
	قوله عز وجل : (إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور)
٢٥٨	إلى آخر الآية ٤١

رقم الصفحة	الآية
٢٦٢	قوله عز وجل : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) إلى آخر الآية ٤٣
٢٦٦	قوله عز وجل : (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) إلى آخر الآية ٤٥
٢٦٨	تفسير سورة ياسين
٢٧٠	قوله عز وجل : (يس - ، والقرآن الحكيم) إلى آخر الآية ٧
٢٧٤	قوله عز وجل : (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون) إلى آخر الآية ٩
٢٧٨	قوله عز وجل : (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون) إلى آخر الآية ١٢
٢٨١	قوله عز وجل : (وأضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) إلى آخر الآية ١٧
٢٨٣	قوله عز وجل : (قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ولنمسنكم منا عذاب أليم) إلى آخر الآية ٢١
٢٨٧	قوله عز وجل : (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون) إلى آخر الآية ٢٧
٢٩٠	قوله عز وجل : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) إلى آخر الآية ٣٢
٢٩٥	قوله عز وجل : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حيا فمنه ياكلون) إلى آخر الآية ٣٦
٢٩٧	قوله عز وجل : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) إلى آخر الآية ٤٠
٣٠٠	قوله عز وجل : (وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) إلى آخر الآية ٤٦

رقم الصفحة	الآية
٣٠٣	قوله عزَّ وجلَّ : (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) إلى آخر الآية ٥٠
٣٠٨	قوله عزَّ وجلَّ : (ونُفِخَ فِي الصُّورِ فإذا هم مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) إلى آخر الآية ٥٤
٣١١	قوله عزَّ وجلَّ : (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) إلى آخر الآية ٦١ ...
٣١٦	قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد أضل منكم جيلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) إلى آخر الآية ٦٥
٣١٨	قوله عزَّ وجلَّ : (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنتى يبصرون) إلى آخر الآية ٧٠
٣٢٤	قوله عزَّ وجلَّ : (أو لم يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون) إلى آخر الآية ٧٦
٣٢٧	قوله عزَّ وجلَّ : (أو لم ير الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فإذا هو خصيم مبين) إلى آخر الآية ٨٠
٣٢٩	قوله عزَّ وجلَّ : (أو ليس الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) إلى آخر الآية ٨٣
٣٣٢	تفسير سورة الصافات
٣٣٢	قوله عزَّ وجلَّ : (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا) إلى آخر الآية ٧
٣٣٥	قوله عزَّ وجلَّ : (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ) إلى آخر الآية ١٠
٣٣٨	قوله عزَّ وجلَّ : (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا) إلى آخر الآية ١٨
٣٤٢	قوله عزَّ وجلَّ : (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) إلى آخر الآية ٢٦

رقم الصفحة	الآية
٣٤٥	قوله عز وجل : (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) إلى آخر الآية ٣٤
٣٤٩	قوله عز وجل : (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) إلى آخر الآية ٤٠
٣٥١	قوله عز وجل : (أولئك هم رزق معلوم ، فواكاه وهم مكرمون) إلى آخر الآية ٤٩
٣٥٨	قوله عز وجل : (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) إلى آخر الآية ٥٣
٣٦٠	قوله عز وجل : (قال هل أنتم مطعون) إلى آخر الآية ٦١
٣٦٤	قوله عز وجل : (أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم) إلى آخر الآية ٧٠
٣٦٩	قوله عز وجل : (ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين) إلى آخر الآية ٧٩
٣٧٢	قوله عز وجل : (إننا كذلك نجزي المحسنين) إلى آخر الآية ٩٠
٣٧٦	قوله عز وجل : (فسرّاع إلى آفتهم فقال ألا تأكلون) إلى آخر الآية ٩٨
٣٨٠	قوله عز وجل : (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) إلى آخر الآية ١٠٢
٣٨٤	قوله عز وجل : (فلما أسلما وتسلّاه للجبين) إلى آخر الآية ١١١
٣٩٠	قوله عز وجل : (وبشرناه بإسحق نبيّساً من الصّالحين) إلى آخر الآية ١١٧
٣٩١	قوله عز وجل : (وهديناهما الصراط المستقيم) إلى آخر الآية ١٢٥
٣٩٥	قوله عز وجل : (إنه ربكم وربّ آبائكم الأولين) إلى آخر الآية ١٣٨
٣٩٦	قوله عز وجل : (وإن يونس لمن المرسلين) إلى آخر الآية ١٤٦
٤٠٣	قوله عز وجل : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) إلى آخر الآية ١٥٧
٤٠٦	قوله عز وجل : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) إلى آخر الآية ١٦٩
٤٠٩	قوله عز وجل : (فكفروا به فسوف يعلمون) إلى آخر الآية ١٨٢

رقم الصفحة	الآية
٤١٣	تفسير سورة ص~
	قوله عز وجل : (ص~ والقرآن ذي الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق)
٤١٣	إلى آخر الآية ٥
	قوله عز وجل : (وأنطلق الملاء منهم أن أمشوا وأصبروا على أهلكم إن هذا لشيء
٤٢١	يراد) إلى آخر الآية ٩
	قوله عز وجل : (أم لهم مثلك السموات والأرض وما بينهما فليرققوا في الأسباب)
٤٢٦	إلى آخر الآية ١٤
	قوله عز وجل : (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) إلى آخر
٤٢٨	الآية ٢٠
	قوله عز وجل : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) إلى آخر الآية ٢٤
٤٣٥	...
	قوله عز وجل : (فغضرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مثاب) إلى آخر
٤٥٠	الآية ٢٩
	قوله عز وجل : (ووهبنا لداود سليمان نعيم العبد إنه أواب) إلى آخر الآية ٣٥
٤٥٣	...
	قوله عز وجل : (فسحّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) إلى آخر
٤٦٢	الآية ٤٠
	قوله عز وجل : (وأذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مستي الشيطان بنصب
٤٦٤	وعذاب) إلى آخر الآية ٤٤
	قوله عز وجل : (وأذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيادي والأبصار)
٤٧١	إلى آخر الآية ٥٤
	قوله عز وجل : (هذا وإن للطاغين لشر مآب) إلى آخر الآية ٦١
٤٧٦	...
	قوله عز وجل : (وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) إلى آخر
٤٨٠	الآية ٦٦

رقم الصفحة	الآية
٤٨٢ ٧٤	قوله عزَّ وجلَّ : (قل هو نَبأٌ عظيم ، أنتم عنه معرضون) إلى آخر الآية
٤٨٧ ٨١	قوله عزَّ وجلَّ : (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) إلى آخر الآية
٤٩١ ٨٨	قوله عزَّ وجلَّ : (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين) إلى آخر الآية
٤٩٦	تفسير سورة الزمر
٤٩٧ ٣	قوله عزَّ وجلَّ : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) إلى قوله تبارك وتعالى : (إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون) من الآية
٤٩٩ ٥	قوله عزَّ وجلَّ : (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفَّار) إلى آخر الآية
٥٠١ ٦	قوله عزَّ وجلَّ : (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) إلى آخر الآية
٥٠٥ ٧	قوله عزَّ وجلَّ : (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر) إلى آخر الآية
٥٠٧ ٨	قوله عزَّ وجلَّ : (وإذا مسَّ الإنسان ضرر دعا ربه مُنيئاً إليه) إلى آخر الآية
٥١٠ ١٠	قوله عزَّ وجلَّ : (آمن هو قانت آتاء الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجوا رحمة ربه) إلى آخر الآية
٥١٧ ١٥	قوله عزَّ وجلَّ : (قل إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) إلى آخر الآية
٥١٨ ١٨	قوله عزَّ وجلَّ : (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) إلى آخر الآية

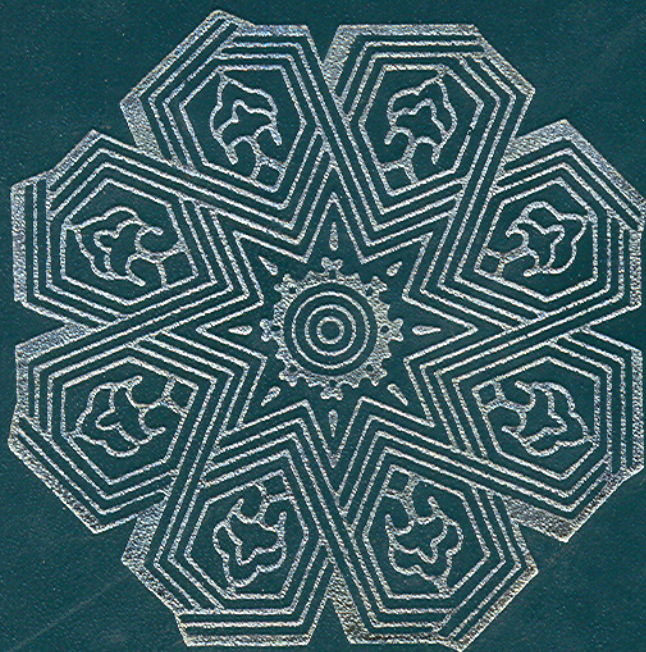
رقم الصفحة	الآية
٥٢٠	قوله عزَّ وجلَّ : (أَمِنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تَنْقُذُ مَنْ فِي النَّارِ) إِلَى آخِرِ الآية ٢١
٥٢٤	قوله عزَّ وجلَّ : (أَمِنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) إِلَى آخِرِ الآية ٢٣
٥٢٨	قوله عزَّ وجلَّ : (أَمِنَ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٨ ...
٥٣٠	قوله عزَّ وجلَّ : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رِجَالًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرِجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٣٢
٥٣٦	قوله عزَّ وجلَّ : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) إِلَى آخِرِ الآية ٣٧
٥٤٠	قوله عزَّ وجلَّ : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) إِلَى آخِرِ الآية ٤٠
٥٤٢	قوله عزَّ وجلَّ : (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٤٢
٥٤٥	قوله عزَّ وجلَّ : (أَمْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٤٥
٥٤٧	قوله عزَّ وجلَّ : (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٤٨
٥٤٨	قوله عزَّ وجلَّ : (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٥٢
٥٥١	قوله عزَّ وجلَّ : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٥٥

- قوله عزَّ وجلَّ : (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) إلى آخر الآية ٦٠ ... ٥٥٤
- قوله عزَّ وجلَّ : (وينجي الله الذين اتقوا بمغازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) إلى آخر الآية ٦٥ ... ٥٥٩
- قوله عزَّ وجلَّ : (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) إلى آخر الآية ٦٨ ... ٥٦٣
- قوله عزَّ وجلَّ : (وأشرق للأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون) إلى آخر الآية ٧٢ ... ٥٦٧
- قوله عزَّ وجلَّ : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً) إلى آخر الآية ٧٥ ... ٥٧١

مؤسسة دار العلم للنوازل
للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة - قطر

رقم الايداع بدار الكتب القطرية

١٩٨٦ / ٤٤٦



مكتبة دار الكتب
توزيعه بالسعودية
ص. ب. ١٦٧١ - جدة - قطر